المقالات الأسبوعية
المنشورة بجريدة أخبار اليوم

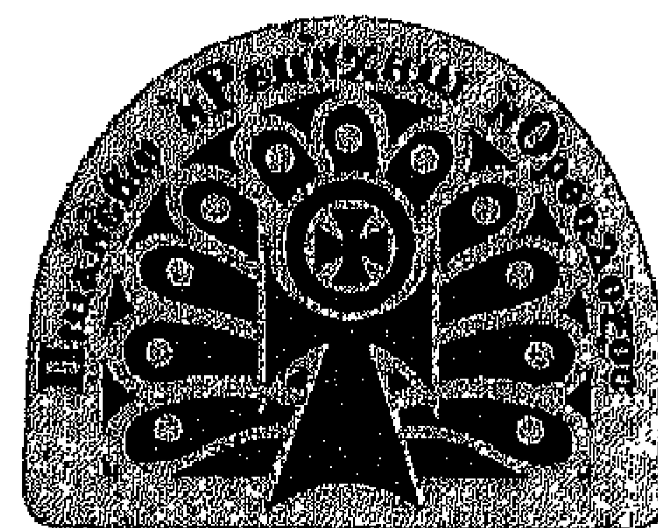


بقلم
قداسة البابا شنوده الثالث



المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي





The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى

المقالات الأسبوعية
المنشورة بجريدة أخبار اليوم

بقلم

قداسة البابا المُعظَّم

الأنبا شنوده الثالث

اســم الكتــاب : المقالات الأسبوعية المنشورة بجريدة أخبار اليوم
بقلم قداسة البابا المُعظَّم الأنبا شنوده الثالث

الطبعـــــــة : الأولى - فبراير ٢٠١٢م

الناشـــــــر : المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

فصل ألوان وطباعة:

مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢٠٥٥٥٠٤٤١ & ٠١٢٠٥٥٥٠٤٤٢

تليفاكس: ٠٣٤٥٩٦٤٥٢

رقـــم الإيـــداع: ٢٠١٢/٨٥٩٢



صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



نيافة الحَبر الجليل الأنبا إرميا

الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

الفهـرس

مقدمـة

+++++++++++

جريدة "أخبار اليوم" فازت بـ ٩١ مقالة لقداسة البابا شنوده الثالث مُعلِّم الأجيال، كانت تُنشَر في كل سبتٍ، وبدأها في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥م بمقالة "العمل الإيجابي البنَّاء" وكان آخِرها في ١ سبتمبر ٢٠٠٧م بمقالة "الشهوة (أنواعها وخطورتها)". وقد حرص قداسته على تقديم مقالات إلى الأخبار تُناسب نوعية قارئها الجريء، فكتب عن الحرية وأهميتها وأنواعها وضوابطها. وعن الحكمة، وعن المحبة الضارة، والحقّ والباطل، وقساوة القلب، وقالوا عن: المرأة، والغِشّ والخِداع وغيرها.

وكانت "أخبار اليوم" تتفاخر بوجود مقالة قداسة البابا بين صفحاتها بكل ما تحمله من معانٍ وحِكَمٍ ودروس استفاد منها قُرّاء "أخبار اليوم" في حينها، وقد كان قداسته يُملي المقال لضعفي.

ونحن نُعيد نشرها ليستفيد منها الجميع جيلاً بعد جيلٍ، فقداسته بحقٍّ "**ذهبي الفم**" للقرنيْن العشرين والحادي والعشرين.

١٤ أمشير ١٧٢٨ش
الموافق ٢٢ فبراير ٢٠١٢م
تذكار نياحة القديس ساويرس
بطريرك أنطاكية

الأنبا إرميا
الأسقف العام
وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث
ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي بالأنبا رويس

٢٠/٨/٢٠٠٥

العمل الإيجابي البنّاء



ما أجمل وأعمق ذلك المثل الصيني الذي يقول: "بدلاً من أن تلعنوا الظلام، أضيئوا شمعة"، حقا أن مجرد لعن الظلام لا يُنقِذ أحداً من ظلمته. ولكن الظلام ينقشع من تلقاء ذاته، بعمل ايجابي هو نشر النور، ولو على الأقل بإضاءة شمعة.. وهكذا في أي مجتمع قد توجد أخطاء أو نقائص أو مشاكل. وإذا بمحبي الإصلاح يتجهون إلى اتجاهين: أحدهما يضجّ ويصيح لكي يفضح هذه الأخطاء، أو أنه يبكي بسببها وينوح وينعي الخير الذي ضاع. أمّا الاتجاه الآخَر، فهو العمل الايجابي الذي يكتب صفحة جديدة ناصعة في تاريخ المجتمع، في هدوء وفي قوة.. وهذا هو الأكثر ثباتاً وتفهُّماً.

اثنان ينظران ناراً تشتعل في مبنى.. فيُقيم أحدهما ضجّة بسبب هذا الحريق... أمّا الآخر ففي إيجابية يبذل كل الجهد في إطفاء النار ..

اثنان يمران بشاطئ البحر.. وإذا بشخص في خطر يكاد يشرف على الغرق... فيظل أحدهما يوبّخه: كيف ينزل إلى البحر وهو لا يجيد السباحة؟! أمّا الآخَر فينزل بسرعة لكي ينقذ ذلك الإنسان من الغرق... وفي كل ذلك يبدو الفرق بين المنشغل بالسلبيات وبين العمل الايجابي البنّاء..

*****

غالبية الناس يركزون جهدهم الإصلاحي في أن يلعنوا الفساد.. وهذا أمر سهل يقدر عليه كل أحد. ولكن من بين كل هؤلاء من يهتم بشرح الأسلوب العملي الايجابي للقضاء على الفساد..

سهل جداً أن توبّخ فكرة خاطئة. ولكن الأصلح إيجابياً أن تقدم الفكرة الصائبة، وتشرح أسلوب تنفيذها..

أتذكر وأنا شاب صغير أنه كان لي زميل في الدراسة يُسرِف في التدخين، أخذت أنصحه كثيراً، وأُحدّثه عن مضار التدخين الذي فيه يفقد صحته وإرادته وماله .. إذا بهذا الزميل يقول لي: "لا تتعب نفسك كثيراً في الشرح.. فأنا بالخبرة أعرف أضرار التدخين أكثر منك... ولكن المشكلة هي كيف يمكنني أن أتخلّص عملياً من هذه العادة؟! نعم، إن الحديث عن الأخطاء سهل. أمّا العمل على علاج تلك الأخطاء، فهو العمل الايجابي البنّاء... والكلام الموجِع ليس هو الذي يصلح الأخطاء... إنما تُصلحها الخطة الايجابية العملية الممكنة التنفيذ.

*****

كذلك هناك فرق بين شرح الخطأ للوقاية منه، وبين الحديث عن الأخطاء للتشهير بالمُخطئين بأسلوب لا يُصلحهم بل يُثيرهم.

هناك فرق جوهري بين الفأس التي تُقلِّب الأرض لزراعتها، والفأس التي تضرب في البناء لتهدمه!

ما أسهل الإدانة والشجب، بإمكان كل شخص أن يدين وأن يشجب. أمّا المُساهمة الايجابية في الإصلاح، فهي العمل النافع... النقد سهل.. وقد يكون النقض أيضاً سهلاً. إن كاتباً بسيطاً يمكنه أن ينقد قصيدة لشاعر مشهور. ولكن هذا الناقد ربما لا يستطيع أن يكتب بيتاً واحداً من الشعر!

وكثيرون من الذين يستهزئون بعمل غيرهم، هم أنفسهم لا يعملون! قد يدّعي القدرة على العوم أولئك الذين يقفون على الشاطئ.. فإن نزلوا إلى البحر وسط أمواجه حينئذ يُختَبر ادعاؤهم.

إن السلبيات قد تهدم.. أمّا الايجابيات فهي التي تبني.. والهدم عمل سهل، أمّا البناء فيحتاج إلى مهارة ووقت.. يستطيع شخص بقنبلة أن يهدم في لحظات عمارة شاهقة.. ولكن بناء أية عمارة يحتاج إلى هندسة وفن ومدى زمني... وهذا البناء عمل أنفع وأبقى.

*****

وكما أن نقد الأخطاء لا يُصحّحها، ولا التشهير بها يُصلِحها.. كذلك الحزن على المشاكل لا يحلّها.. بل يحلّها العمل الايجابي.

- إن الحزن على المريض لا يشفيه من مرضه.. إنما يكون الشفاء عن طريق وصف العلاج وتقديم الدواء. والحزن بسبب انتشار الجهل أو الأمية لا يفيد شيئاً، بل النافع هو نشر التعليم ومحو الأمية.
- ويوسف الصدّيق لم يحزن من فرعون على سنوات الجوع القادمة. إنما قدم الحلّ الايجابي وهو تخزين القمح ليكون تموينأ لسد احتياجات تلك السنوات. وكان هذا هو النافع عملياً.
- والمعروف أن كثيرين قد بكوا وحزنوا بسبب تجريف بعض الأراضي الزراعية واستخدامها في إقامة المباني. ولكن الحزن لم يحل تلك المشكلة.. إنما كان حلها بالعمل الايجابي الفعّال، الذي تمثّل في مشروع تعمير الصحاري واستصلاح الأراضي وحفر الآبار، وما نتج عنه من إضافة مئات الآلاف من الأفدنة إلى الرقعة الزراعية في بلادنا، مع ما صاحب ذلك من أعمال التنمية.
- كذلك إن كنا ذاهبين إلى مكان ما، ووجدنا قناة أو مجرى من الماء يعوقنا عن الوصول: هل الحزن في هذه الحالة ينفعنا؟! أم أن الذي ينفعنا هو إقامة جسر نصل به إلى المكان الذي نريده؟

هذا هو العمل الايجابي الذي يلزمنا في كل أمور حياتنا، أكثر من الضجيج والنقد والشجب والسُّخرية.

*****

والذين سُجِّلَت أسماؤهم في التاريخ، هُم الذين انشغلوا بالعمل الايجابي البنّاء، قد نجحوا فيه.

ولعلّ أولهم في تاريخ مصر هو الملك "مينا" الذي وحّد القطرين وأنشأ أول مملكة مصرية في عهد الفراعنة.

ونحن نذكر بالخير كل الذين ساهموا في العمل البنّاء في تاريخ مصر الحديث. ومن بينهم "طلعت حرب" الذي ساهم في بناء اقتصاد مصر، وأسس البنوك والشركات. "وسعد زغلول" الذي جاهد حتى صدر دستور سنة ١٩٢٣م. "وقاسم أمين" الذي جاهد لتحرير المرأة.. "وأحمد لطفي السيد" الذي عمل لإنشاء الجامعة، وغيرهم من البنائين المهرة. إن العمل الايجابي هو دائماً العمل المفيد، وهو المقبول من الجميع، ولا يعترض عليه أحد.

هناك مؤرخون كتبوا التاريخ... ولكن أعظم منهم من صنع التاريخ... صُنّاع التاريخ لا يمكن نسيانهم، سواء في مجال السياسة أو العلم... قد يكتب المؤرخون عن استقلال الهند بعد خضوعها فترة للاحتلال البريطاني... أما صانع هذا التاريخ فهو "المهاتما غاندي" الزعيم الروحي للهند، الذي لم يقم إطلاقاً بإيذاء أحد. إنما بالعمل الايجابي البناء، أوصل الهند إلى الاستقلال، وصارت لها حكومة وطنية وبرلمان.

- كذلك لا يستطيع التاريخ أن ينسى برايل، الذي استطاع أن يخترع طريقة الكتابة على البارز، للمكفوفين يستطيعون بها القراءة والكتابة.. وأيضاً كل الذين قاموا بعمل ايجابي بنّاء في مجال الطب والدواء لا يمكن أن ينساهم التاريخ.

*****

ونحن نرى في مجتمعنا بعض مشاكل لا يمكن أن يحلها الصياح ولا الضجيج ولا التشهير.. إنما تحتاج إلى عمل ايجابي بنّاء..

هناك مشاكل اقتصادية. مشاكل تختص بالبطالة وبارتفاع الأسعار. كذلك مشكلة التضخم السُكاني، ومشكلة الدروس الخصوصية ومشكلة الإثارة ومشكلة الجمع بين الانضباط والحريات. ومشاكل أخرى اجتماعية وسياسية وفكرية.

كيف يمكن حلها جميعاً بطريقة عملية وحضارية في نفس الوقت؟ بحيث نتعاون جميعاً في الحل، بغير صراع واصطدام.. إن مشكلة البطالة مثلاً: لا يمكن أن تحلها مهاجمة المسئولين في الحكومات المتتابعة. فكيف تُحلّ؟

لو كنت أنت أيها القارئ رئيساً للدولة أو رئيساً للحكومة، فماذا كنت ستفعل عملياً؟ ماذا تقترح للحلِّ؟ على أن يكون الحل يُمكِن تنفيذه، ومضمونة نتائجه عملياً وعلمياً.. هل نطرح السؤال، ونتلقى الإجابات ونُصنّفها ونُحلِّلها؟

هل نُقيم ندوات لبحث موضوع البطالة، وندوات أخرى لبحث باقي المشكلات؟

نعم، ما الحل الايجابي العملي البنّاء؟

٢٧ / ٨ / ٢٠٠٥

الحرية
(أهميتها، أنواعها، ضوابطها)

لقد خلق اللّه الإنسان حراً. وبالحرية ميّزه عن مخلوقات أخرى كثيرة. وقد تغنّى الناس بالحرية. فقال أحد أُدباء الغرب: لو أنك فقدت كل شيء، ما عدا الحرية، فأنت لا تزال غنياً. وتجاه الحرية، يقف ذلك السؤال الشهير:

هل الإنسان مُسيَّر أم مُخيّر؟

وواضح أن الإنسان مخيّر في كل ما يفعله. ولكي لا ينحرف بحريته فيخطئ، زوّده اللّه بالعقل الذي ينير أمامه الطريق، وأيضاً بالضمير لكي يميّز بين الخير والشر. كما زوّده كذلك بالوصية الإلهية لكي يلتزم بها في كل تصرفات حياته.

والدليل على حرية الإنسان، إن الحرية ترتبط دائماً بالمسؤولية، فإن لم يكن الشخص حُر الإرادة، فلا مسؤولية عليه، وإن لم يكن حراً، فكيف يلتزم بوصايا اللّه؟! وما لزوم أمور عديدة ينهاه اللّه عنها، إن لم تكن له حرية إرادة؟ وإلاّ انطبق عليه قول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له.. إياك إياك أن تبتل بالماء.

كذلك فإن ارتكاب الخطيئة دليل على أن الإنسان مُخيّر.. لأن اللّه لا يُسيّر أحداً في طريق خاطئ.. إنما المخطئ يرتكب الخطأ عن طريق اختياره له. وأيضاً إن لم تكن هناك حرية، فلا حساب إذن ولا دينونة في الآخِرة ولا ثواب ولا عقاب.

الإنسان إذن مُخيّر لا مُسيّر.. فهل هو مخيّر في كل شيء؟

طبعاً لم يكن أي شخص مخيراً من جهة البلد الذي وُلِدَ فيه، ولا من جهة الجنس الذي ينتمي إليه. ولم يكن مخيراً في نوع شكله وملامحه، وفي فصيلة دمه، وفي كثير من المواهب التي أعطيت له، أو التي حرم منها... لم يكن مخيراً في نشأته، ولا في اختيار أسرته، ولا فيما ورثه عن تلك الأسرة من دم ومن عقل، وأمور اجتماعية.. ولكنه على

الرغم من كل هذا هو مخير في تصرفاته، ومخير في أن يصلح بقدر الإمكان من مستوى نشأته، كما في تغيير مستواه في أمور عديدة.

هنا ونسأل: هل الإنسان حُرّ في أحلامه؟

وللإجابة على هذا السؤال، نقول إن هناك أنواعاً من الأحلام، فقد توجد أحلام عبارة عن إعلان من اللّه، مثل الأحلام التي فسّرها يوسف الصدّيق لفرعون. وهناك أحلام أخرى عبارة عن حروب من الشياطين. وهذان النوعان لا إرادة للإنسان فيهما ولا حرية، وبالتالي لا مسؤولية.

غير أن هناك أحلاماً ناتجة عما يخزنه كل شخص في عقله الباطن من شهوات أو رغبات أو أفكار أو مخاوف.. وما تجمعه الحواس من نظر وسمع.. وهذه قد تظهر له بصورة أحلام، ويبدو أنه لا حرية للإنسان فيها، ولكنها ناتجة عن حرية سابقة، فيما خزنه لنفسه.. وهى لا تدخل في نطاق الأمور الإرادية، إنما في شبه الإرادية أو نصف الإرادية. وعليه مسؤولية تجاهها، على الأقل من جهة الأسباب التي أوصلتها إليه.

ولهذا، فإن كان الإنسان أميناً على نفسه وروحياته أثناء الصحو، ستكون أحلامه أمينة له أثناء نومه.

***

ضوابط الحرية وحدودها:

إن الإنسان فيما هو مُخيّر فيما يفعل، لكنه ليس مخيراً بطريقة مُطلَقة، إنما تحد من حريته أمور مهمة تنطبق على الكل.

- فله أن يستخدم حريته، بحيث لا يعتدي على حريات الآخرين وحقوقهم، فلا تستخدم الحرية في إهانة الغير، ولا في السّب والقذف، ولا أن تُبنى راحته على تعب الآخرين. وليس هو حراً في استخدام العنف ضد غيره.
- وهو أيضاً حر في حدود الالتزام بالنظام العام، والالتزام بالآداب العامة، وبقوانين البلد الذي يعيش. مثال ذلك فإنه في أكثر البلاد تمسكاً بالحرية، لا يستطيع أحد أن يكسر قواعد المرور وإشاراته، ويقول: أنا حر أفعل ما أشاء!

- هو أيضاً حر في حدود وصايا اللَّه، فلا يعصاها ويسلك حسب هواه. وهكذا فإن المؤمنين بالحرية، ينادون بالحرية المنضبطة، وليس بالحرية المطلقة.

ولهذا، فإن الذي يتجاوز حدود حريته، ولا يلتزم بالوضع السليم، فإن القانون يلزمه بذلك، والعقوبة تردعه.. بل إن حرية الإنسان ينبغي ضبطها منذ الصغر. وهنا يبرز لزوم التربية والتعليم. ويقوم واجب الأسرة في ضبط حرية الطفل بحكمة، حتى لا ينحرف. ثم واجب المدرسة أيضاً في تعليم الطلبة قواعد الحرية وحدودها وضوابطها.

***

كذلك ليس الإنسان حراً في إيذاء نفسه:

فلا يقع الإنسان في إدمان الخمر أو المخدرات أو التدخين، ويتلف صحته وإرادته، ويضيع ماله فيما يضرّه. ويقول أنا حُرّ!.. كلا، ليس هو حراً فيما يجلب له الأذى. فصحته وديعة في يديه، لا يملكها وحده، بل يملكها أيضاً المجتمع الذي ربّاه ورعاه، والذي هو مكلف بخدمته وأداء واجبه نحوه.. كذلك ليس الإنسان حراً في أن يقتل نفسه، أي ينتحر بطريقة ما. فحياته ليست ملكاً له وحده. كما أنه ليس حراً في كسر وصية اللَّه القائلة: "لا تقتل". والتي تنطبق أيضاً عليه من جهة نفسه كما من جهة غيره.

***

أنواع الحرية

في نطاق الحرية المُنضبِطة، توجد أنواع من الحرية، منها: الحرية الشخصية، حرية الإرادة، وحرية الفكر، وحرية إبداء الرأي، وحرية الاجتماع، وحرية العقيدة، والحرية السياسية.

- فالإنسان من حقه أن يفكر بحرية كما يشاء. ولكن بضوابط: فليس من حريته أن يسرح في أفكار ظالمة، أو في أفكار نجسة، وإن كانت قوانين الدولة لا تردعه من جهة هذا الفكر، فإن الضمير يوبّخه، ويأمره أن يضبط فكره حتى لا يدنّس نفسه.. ثم هل في حريته أن يعتنق فكراً هداماً؟! وإن اختار بحريته هذا الفكر، فليس من حقه أن ينشره. وإلاّ فإنه يؤذي المجتمع الذي يعيش فيه. وهنا من حق الدولة أن تضبط الأفكار الهدامة التي تُبلبِل أذهان الناس وتقود تصرفاتهم في اتجاه ضار.

***

- الإنسان له حرية العقيدة، من جهة الدين والتدين، وما يتبع ذلك من حرية العبادة. وقد تمادى البعض في هذه الحرية، حتى وصلوا في بعض البلاد إلى الإلحاد. كما وصلوا إلى كثير من الانحرافات العقيدية وإلى تشويش أذهان الآخرين، ونشر الشكوك في الثوابت من الأمور الإيمانية. وتجرأ بعضهم في بلاد الغرب إلى مطالبتهم بعدم تدريس الدين، لأنه لا يوافق معتقداتهم. كذلك وصل بهم الأمر إلى الشذوذ الجنسي والمطالبة باعتماد قانون من الدولة. وبعض الدول سمحت لهم بهذا كما في كندا. كما ضغطوا على بعض الهيئات الدينية لاعتماد الشذوذ. وطالبوا لأنفسهم بحقوق كشواذ.

***

- أمَّا عن الحرية السياسية فللإنسان الحق في اختيار النهج السياسي الذي يوافقه، والحزب السياسي الذي يستريح لمبادئه.

كما أن له حق الانتخاب وحق الترشيح في حدود القانون. ولكن الحرية السياسية ينبغي أن تكون منضبطة أيضاً. فلا ينضم أحد إلى نهج سياسي مُدمّر، ولا ينضم إلى حزب مُتمرّد على النظام، يثير الشقاق ويدعو إلى التخريب وإلى محاولة قلب نظام الحكم.

- وفي نطاق الحرية السياسية، تدخل حرية الصحافة وحرية النشر والمفروض في هذه الحرية أن تكون منضبطة أيضاً، بحيث لا تكون أداة تشهير بالناس، وسبّ البعض وقذفهم بحجة حرية الرأي. ولا يجوز للصحافة أن تخرج من الناحية الموضوعية إلى النواحي الشخصية، التي تمسّ أعراض الناس وسمعتهم وأمورهم الشخصية.

إن الحرية سلاح ذو حدين، فهى نافعة ولازمة إن سارت في طريق سليم. وإلاّ إذا انحرفت فإنها تضر الإنسان ومن حوله.

***

الحرية الحقيقية

ختاماً، ما هى الحرية الحقيقية؟ ذلك لأن هناك بعض الناس يسمون أنفسهم أي متحررين، وهم يسيرون حسب هواهم في طريق خاطئ، يتحررون فيه من القيم والثوابت..!

أمّا الحرية الحقيقية، فهى أن يتحرر الإنسان من كل فكر خاطئ، ومــن كــل طبــع رديء، ومن كل شهوة منحرفة، ومن كل خطيئة.

مثل هذا الإنسان إذا مُنِحَ الحرية فإنه سيسلك فيها بأسلوب سليم نافع لــه ولغيــره.. لذلك على طالب الحرية، أن يتحرر أولاً من الداخل.. وبهذا يمكنه أن يســتخدم الحريــة للخير.



٣ / ٩ / ٢٠٠٥

كل حقّ يقابله واجب

كثيرون يتحدثون عن حقوقهم ويطالبون بها، أو يطالبون بما يظنونه حقوقاً، وقد لا يكون كذلك. فما أسهل أن يدّعي شخص حقاً له، بغير حقّ! وقليلون هم الذين ينشغلون بالواجبات التي ترتبط بتلك الحقوق. لأن كل حق يقابله واجب أو تقابله عدة واجبات.. فكل حق لنا عند الناس تقابله واجبات علينا من نحوهم.

الحق والنعمة:

في علاقتنا مع البشر قد نطالب بحقوق. أما مع اللّه فلا نطلب حقوقاً. كل ما نطلبه هو عطايا أو نِعَم. وكل ما نحصل عليه هو نعمة من عنده.. فنحن نتمتّع بالوجود. ولكنه لم يكن لنا حق الوجود. إنما نلنا هذا الوجود كنعمة من عند اللّه، ونحن نخاطب اللّه في الصلاة، وليس لنا من حق التحدث إليه، إنما وهبنا اللّه الصلاة كنعمة. كذلك من جهة الحياة: أين الحق وأين النعمة؟ من جهة اللّه، قد وهبنا نعمة الحياة. ومن جهة الناس، لنا عليهم كما لنا على أنفسنا حق المحافظة على هذه الحياة.

أما عن الرعاية، فهي من جهة اللّه نعمة نطلبها، أن يرعانا.. وأما من جهة الناس، فهي حقوق نتبادلها: نحن نرعى غيرنا ممن هم في حدود واجباتنا. ويرعانا غيرنا ممن هم مكلفون بذلك..

***

الحياة:

ما دام اللّه قد وهبنا نعمة الحياة، فقد أصبح من حقنا على المجتمع أن نحيا.. ولكن هذا الحق تقابله واجبات عدة:

فواجبنا أن نستخدم حياتنا في الخير. وأن نحافظ على هذه الحياة، لتكون نافعة لنا ولغيرنا. كما من واجبنا المحافظة على حياة غيرنا. وإن أفقدنا أحداً حياته، لا نكون مستحقين لنعمة الحياة. فتؤخذ حياتنا منّا، نفسٌ تكون عوضاً عن نفسٍ. وبهذا يحكم المجتمع ويُنفِّذ..

حياتنا وديعة أودعنا اللّه إياها. ومن واجبنا أن نستثمرها، ولا تكون عبئاً على المجتمع، بل مصدر نفع له. وحياتنا جزء من حياة المجتمع، له فيها نصيب، ومن واجبنا أن نمنحه هذا النصيب، فلا نعيش لأنفسنا فقط، إنما نعيش للغير على قدر ما نستطيع.. وأحياناً نرى من واجبنا أن نبذل حياتنا، لأجل الغير في حب.. وهنا يكون الاستشهاد، وتكون التضحية..

والذين سجل التاريخ أسماءهم، هم الذين عاشوا حياتهم لأجل غيرهم، فأدّوا واجبهم نحو أوطانهم ونحو شعوبهم.

***

الوجود:

لقد وهبنا اللّه نعمة الوجود. وهذه النعمة تقابلها واجبات.. ومن العجب أن إنساناً قد يظن أنه موجود، بينما لا يشعر العالم بوجوده، لأنه لم يقم بواجب أو بعمل يشعر العالم به..! فهل من حق الإنسان في الوجود، أن يكون فراغا لا يمتلئ المجتمع بشيء منه؟! أم واجبه في الوجود، أن يكون له وجود فعّال، وفعّال في الخير..

هناك أشخاص امتدت فاعليتهم حتى بعد وفاتهم.. ظلوا موجودين فيما تركوه من أثر باقٍ..

يظن البعض أنه يظل موجوداً في أولاده، في أسمائهم وفي عملهم.. ولكن ماذا عن شخصه؟ هذا ما لم يُفكِّر فيه! إن الوجود ليس مجرد أنفاس تتردد، بل هو حياة تبقى وتستمر فاعليتها.

ما أعجب مذهب "الوجوديين"، الذين يرون أن وجودهم هو شعورهم بالوجود في اللذّة، حتى لو كانت حياتهم فارغة! بل أنهم أكثر من هذا، يهاجمون اللّه تبارك اسمه بحجة أنه يحرمهم من ملاذهم الخاطئة، بوصاياه الإلهية السامية! لذلك يقول الواحد منهم: "من الخير أن اللّه لا يوجد، لكي أوجَد أنا!!".

***

حقّ العمل:

كل إنسان يطالب بحقه في أن يعمل، ويذكر في ذلك أن للبطالة خطرها على المجتمع وعلى الفرد. وهذه حقيقة. غير أننا نسأل:

هل العمل هو منحة يقدمها لك المجتمع، أي فرصة للعمل؟ أم العمل هو طاقة كامنة فيك قادرة على العمل؟ وهل طاقاتك هذه يلزمها دافع خارجي؟ أم هي طاقات خلاّقة creative حيثما توجد أنت، ينبثق منك عمل؟

هل بذاتك تعمل، أم أنت أداة يأخذها غيرك ويعمل بها، ويوظّفها حسبما يريد، فتصبح أنت موظفاً، ويكون من حقك أجر على عملك، مرتب لك؟

لقد أعطانا اللّه أمثلة، في الكواكب التي تعمل من ذاتها، وفي أجهزة جسم الإنسان، وفي عوامل كثيرة من طبيعة الكون... حقاً، ما أجمل أن يكون العمل غريزة، وأن يكون طبعاً..

ومعروف أن الذي يحب العمل، ويؤدي عمله بلذّة، لا بد أن ينجح فيه، ولا يشعر بتعب مهما عمل، بعكس الذي يعمل وهو مُتبرِّم ومتضايق...على أن هناك أشخاصاً يمكنهم أن يبتكروا أعمالاً لهم ولغيرهم أيضاً. أولئك لهم عقول مُفكِّرة، تستطيع أن توجِد الأيدي العاملة. وهناك من لهم مواهب ومقدرات، يطلبهم الآخرون للعمل، دون أن يطلبوا هم عملاً.

أخيراً، إن كان من حقك أن تعمل، فواجبك الأمانة في العمل، والإنتاج والإتقان، وحُسن التعامل، وتأدية واجبك بدون تراخٍ، وتنمية مقدراتك..

***

حقوق اجتماعية:

- من حق الإنسان الناضج أن يتزوّج، وأن تكون له أُسرة.

ومن واجبه حُسن المعاشرة، حتى لا يؤول الزواج إلى طلاق.. ومن حق الأبناء في الأسرة أن ينالوا الرعاية الكاملة من الآباء والأمهات. ومن واجبهم إكرام الوالدين، وطاعتهما في داخل محبة اللّه.

من حق الوالدين أن يكون لهما أبناء. ومن واجبهما مراعاة تنظيم الأسرة، فلا ينجبان بأسلوب يؤدي إلى التضخم السكاني، وما يتبعه من مشاكل اقتصادية.

- من حق الإنسان أن يتمتع بالحب: يَحِب، ويُحَب ومن واجبه أن يكون نزيهاً طاهراً في محبته لغيره، وبخاصة مع الجنس الآخر. فلا يتحوّل حبه إلى مجرد شهوة جسدية تؤول إلى نجاسة! ومن واجب الإنسان أن يبعد عن الأنانية في محبته. بل يحب الآخَرين ويبذل من أجلهم، ويحتمل. ويجعل محبته مشاعاً للكل بلا تحيُّز.

- من حق الإنسان أن يكون له سكن يأوي إليه ومن واجبه أن يحرص على حُسن الجوار، فلا يؤذي جاره ولا يضايقه. كما يجب عليه الحرص على جمال ونظافة البيئة التي يعيش فيها.
- من حق الإنسان أن يمتلك، وأن يقتني، وأن يربح ومن واجبه أن يكون ذلك في حدود المعقول، وفي نطاق الربح الحلال، بعيداً عن الجشع والاحتكار. فله أن يملك المال، ولكن لا يسمح للمال أن يملكه، ويصبح هدفه في الحياة! كما من واجبه أيضاً أن يستخدم ماله في الخير، وأن يعطي منه للمحتاجين والمعوزين. ويحتفظ في حياته بموازنة سليمة بين الأخذ والعطاء، بل يعطي أكثر مما يأخذ.
- من حق الإنسان أن يتمتع بالراحة ومن واجبه أنه لا يبني راحته على تعب الآخرين، وألاّ تتحوّل راحته إلى لون من الكسل أو التراخي. كما لا يطلب الراحة على حساب عمله والإخلاص لواجباته. وتكون الراحة في الوقت المناسب وبالقدر المناسب.

***

حقوق سياسية

- أول حق سياسي للإنسان هو حق المواطَنة. وواجبه هو الولاء لهذا الوطن، واحترام الدولة ومؤسساتها وقوانينها.
- ومن حقوقه السياسية: حق الانتخاب في حدود النظام العام. ومن واجبه: الذهاب إلى مكان الانتخاب، والإدلاء بصوته حسب ضميره.
- ومن حقوقه: المساواة، في نطاق المؤهلات والكفاءة والمقدرة.
- من حقه أيضاً الدفاع عن النفس، ومن واجبه أن يكون صادقاً وعادلاً في دفاعه عن نفسه. ولا يظلم غيره ويلقي عليه التبعة دون وجه حق.
- ومن حق الإنسان: الحرية في حدود القانون. ومن واجبه أن يستخدم حريته، بحيث لا يعتدي على حريات الآخرين وحقوقهم.
- ومن حقه: إبداء رأيه ونشره، واستخدام حرية الصحافة. ولكن هذا كله يقابله واجب الحفاظ على سمعة الآخَرين وعدم التشهير بهم. وأن يحتفظ بأدب الحوار. له أن يتكلم، وواجبه أن يتكلم حسناً.

أخيراً، ما أطول موضوع الحقوق والواجبات، وكل ما ذكرناه هو مُجرَّد مثال.

١٧/ ٩/ ٢٠٠٥

التوازن في الفضائل

قال بعض الحكماء في تعريف الفضيلة:

إن الفضيلة هي "وضع متوسط بين الإفراط والتفريط" أي التوسط بين الإفراط في الزيادة، والتفريط الذي هو النقص، أي أن يسلك فيها الإنسان بميزان الاعتدال. لا يُبالِغ حتى يصل إلى التطرّف، ولا يتهاون فيصل إلى الإهمال..

فالمبالغة مرفوضة سواء كانت سلباً أو إيجاباً..

*****

فما هو ميزان الفضيلة في التديُّن مثلاً؟

التديُّن هو الوضع المتوسط بين المُغالاة إيجاباً إلى حد التطرف، والمبالغة سلباً إلى مستوى الاستهتار.

كذلك هي الوضع المتوسط بين التشدُّد في التطبيق إلى درجة التزمُّت، والمغالاة في التساهل إلى درجة الاستباحة.

*****

كذلك في التعامل مع الناس، ما أجمل المثل المصري القديم:

"لا تكن ليناً فتُعصَر، ولا يابساً فتُكسَر"، إنها نفس سياسة الاعتدال فلا يصح أن يكون الإنسان مُتساهِلاً في حقوق نفسه حتى يدوس الغير عليه في امتهان ولا مبالاة. ولا يكون عنيفاً في تعامله مع الآخرين، بحيث يصبح موضع بطشهم وانتقاماً منه بسبب شدة تعامله.

وأتذكر إنني في شبابي، رثيت أحد أساتذتنا الأفاضل، فقلت في بعض أبيات من الشعر:

يا قوياً ليس في طبعه عنف ... ووديعاً ليس في ذاته ضعف.

يا حكيماً أدب الناس وفي ... زجره حب وفي صوته عطف.

لك أسلوب "نزيه" طاهر ... ولسان أبيض الألفاظ عف.

وهكذا توجد حدود للطيبة فلا يبالغ فيها حتى تبدو وكأنها لون من ضعف الشخصية، كما لا يبالغ في الحزم حتى يتحول إلى عنف.

وبهذا توضع قاعدة للتربية، يسلك بها الآباء نحو أبنائهم، يشعر فيها الابن بحب أبيه وعطفه، وفي نفس الوقت بكرامة أبيه وهيبته. والأب في معاملة الابن، يحنو بغير تدليل، ويؤدِّب بغير قسوة. لا يهمل التأديب بسبب الحب، ولا ينسى الحب حينما يؤدب.

*****

نفس الوضع بين الاحترام والدالة:

ففي علاقة كل شخص برؤسائه وأُولي الأمر منه: عليه أن يحترم رئيسه في غير خوف، وإن عامله رئيسه بدالة، لا يستغل الدالة بحيث يُفرِّط فيما يليق بالرئيس من هيبة وتوقير.

وتطبق نفس القاعدة بالنسبة إلى الطاعة: فعلى الصغار أن يطيعوا الكبار، ولكن ليس بلون من العبودية أو صِغر النفس. وعليهم أن يطيعوا الأوامر، لا بأسلوب يفقدون فيه شخصياتهم، أو يصبحون كقطع من الشطرنج يحركها الكبار!.. إنما يكون هناك توازن في الطاعة. بحيث يطيع كل شخص رئيسه، وفي نفس الوقت يطيع ضميره، ويطيع القيم السليمة. ولا مانع في سبيل ذلك من السؤال والحوار، وإبداء الرأي. إن عبارة: "الطاعة العمياء" تحتاج إلى تفسير ولا تُنفَّذ إلاّ في حدود معينة لا تتنافى مع القِيَم.

*****

مبدأ التوازن يُطبَّق أيضاً في موضوع الحرية:

بحيث تأخذ الحرية وضعاً متوسطاً بين الكبت والتسيُّب فلا تمنع الحرية في كبت وإجبار، حيث يفقد الشخص الشعور بإنسانيته، كما يفقد إرادته، وكأنه مُسيَّر رغم أنفه!

ومن الناحية الأخرى لا تطلق الحرية بلا ضابط، حتى تصل إلى التسيُّب، ويتصرّف فيها الشخص بلا رادع يردعه عن أخطائه!

والحل الأمثل هو الوضع المتوسط بين الضبط والضغط.

وحبذا لو حدث ذلك عن طريق التوعية والتربية والإرشاد. بحيث يسلك الإنسان في طريق مستقيم، منضبطاً بدافع من اقتناعه ونقاء قلبه، دون ضغط عليه من الخارج.

التوازن ينطبق أيضاً على الوضع المتوسط بين الصمت والكلام:

فلا يبالغ الإنسان في الكلام حتى يصل إلى الثرثرة، أو التحدث في ما لا يليق، وما لا يخصه، وما ليس في معرفته. ولا يُكثِر من الكلام حتى يملّ سامعوه. كما يحرص أن يتكلم دون أن يخطئ، ودون أن ينطبق عليه قول الحكيم: "ليتكم تصمتون صمتاً، فيصير صمتكم لكم حكمة".

ومن الناحية الأخرى لا يُبالِغ في الصمت، حتى يُحسَب عيباً.. بل يتكلم حين يحسن الكلام، ويصمت حين يجب الصمت. ويحفظ التوازن بين صمته وكلامه.

*****

هناك توازن أيضاً في معنى الشجاعة وفي استخدامها:

الشجاعة لازمة في الدفاع عن الحق، وفي نُصرة المظلوم، وفي رفض الظلم والاستبداد ولكن لها حدوداً. فلا يجوز أن تصل إلى التهوّر واللامُبالاة. كما لا تكون بأسلوب من الطيش والاندفاع وعدم التروّي ولا يكون الدافع إليها بأسباب خاطئة، إنها شيء محبوب إذا مورِسَت في حكمة، وبطريقة سليمة.

*****

نتكلّم أيضاً عن توازن في مفهوم القوة واستخدامها، القوة لا يجوز أن تتطور إلى العنف أو البطش أو الاعتداء على الغير. إنما تكون أولاً في قوة الشخصية وقوة الإقناع، وفي الحكمة وحُسن التصرُّف، والبُعد عن التجبُّر وتهديد الآخرين.

التوازن يكون أيضاً في المديح وفي النقد:

فالمديح المُتزِن يكون تعبيراً عن تقدير الغير في صفاتهم السامية، أو تصرفاتهم الحسنة. ولكن لا يجوز أن يبالغ أحد في المديح، حتى يصل إلى التملُّق أو النفاق، ولا يكون برياءٍ أو عدم صدق!

كذلك لا يبالغ أحد من الناحية المُضادة، بحيث لا يمدح على الإطلاق! وإنما يجب أن يعطي لكل ذي حق حقه من التكريم بالنسبة إلى الكبار، ومن التشجيع بالنسبة إلى المبتدئين والصغار.

كذلك في النقد، لا يصح أن يصل إلى مستوى الذّم والسب والإهانة والتشهير. فلك أن تنقد - في مجال النقد - ولكن ليس لك أن تجرح الناس أو تحطّ من كرامتهم فللنقد حدود.

وفي هذا المجال، هناك فرق بين الصراحة والإهانة:

بدافع من الإخلاص، يمكن للصديق أن يتكلّم في صراحة، لكن في مودّة ولا تخرج الصراحة عن حدودها إلى جرح المشاعر. فهنا تعتبر إهانة، ولا تكون مقبولة..

وأيضاً في غير مجال الصداقة، يمكن أن يكون الإنسان صريحاً. إنما لا يكون هدّاماً في صراحته. له أن يوضّح الأمور، وقد يذكر الأخطاء، في أدب وبغير تحقير. وأيضاً يكون عادلاً، لا يتجنّى في صراحته. كما تكون صراحته ممتزجة بالصدق، مع ذكر نقاط المديح إن وجِدَت مختلطة بالأخطاء. كأن يمدح الهدف مثلاً، وينقد الوسيلة.

*****

وفي الحياة الخاصة يكون هناك توازن في المتعة واللهو والمرح:

من حق الإنسان أن يتمتع بأمور جائزة ومُحلّلة. ولكن لا يبالغ في المتعة بحيث تصل إلى الفجور. ولا يخرج المرح عن حدوده، حتى يصل إلى التهريج! أو أن يمتزج اللهو بأخطاء لا يرضى عنها الضمير. كذلك من حق الإنسان أن يفرح، بحيث لا يتبذل في أفراحه.

أيضاً من حق المرأة أن تتزين، دون أن تبالغ في زينتها حتى تصل إلى التبرُّج وإلى الفتنة وإعثار الآخرين!

*****

الفن أيضاً يجب ألاّ يخرج عن معناه، وأن يحتفظ بتوازنه فلا يتطور إلى أساليب ومعانٍ لا تليق..!

إننا لا ننكر جمال الفن ولزومه. ولكن تبقى أمامنا أسئلة: ما هو الفن؟ وهل كل ما يسمونه فناً، هو فن بالحقيقة؟ ثم ما هى أهداف الفن؟ وهل هو يحقق أهدافه؟

الرسم فن، والموسيقي فن، والغناء فن، والتمثيل فن، والتصوير فن، والنحت فن.. وما أجمل أن تكون للفنون أهداف سامية ورسالة نبيلة وحسن هو لقب "الفنون الجميلة"..

وحبذا لو وجد التوازن بين الهدف من الفن، والوسيلة في الأداء والتعبير.. وهذا الموضوع طويل.

أخيراً نقول إن كل ما ذكرناه في موضوع التوازن، هو مجرد أمثلة بسيطة للتوضيح ويبقى المجال مفتوحاً.

٢٤ / ٩ / ٢٠٠٥

الجسد والروح

تذكرت مرةً أننا مخلوقون من تراب الأرض، وأننا سنعود مرة أخرى إلى التراب بعد الموت، فقلت في أبيات من الشعر:

يا تراب الأرض يا جدّي وجدّ الناس طُرّا
أنت أصلي، أنت يا أقدم من آدم عمرا
ومصيري أنت في القبرِ إذا وُسّدتُ قبرا

على أنني راجعت نفسي، وتذكرت أن التراب هو أصل الجسد فقط، الذي خُلق من تراب أو من طين، قبل أن ينفخ اللّه فيه نسمة حياة هى الروح. فعدت أُصحح فكري، وأقول في أبيات أخرى:

وسأمضى راجعاً للّه — أنا في الطين سكنتُ
لستُ طيناً، أنا روح — من فم اللّه خرجتُ
ما أنا طين ولكن — أحيا حيث كنتُ

وفي الحقيقة ما أنا مجرّد جسد، ولا مجرّد روح. بل أنا كلاهما معاً، جسد وروح. وهكذا كل إنسان أيضاً...

الجسد والروح متحدان معاً، يكوّنان إنساناً واحداً. غير أن طبيعة كل منهما تختلف عن طبيعة الآخر. ولذلك كثيراً ما نرى أن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح تشتهي ضد الجسد. حتى أن كلاً منهما يُقاوِم الآخر... مشكلة الجسد أنه مادي. لذلك فشهواته تتركز في المادة وفي كل ما هو مادي. أمّا الروح فاتجاهاتها سامية، فوق مستوى المادة... الجسد ينشغل بالمرئيات والمحسوسات. أمّا الروح فيمكنها أن تنشغل بالأمور غير المرئية، بل وبالإلهيات، أيضاً الجسد يدركه الموت، حينما تنفصل الروح عنه. وبموت الجسد تحل عناصره، ويفقد الشعور والحيوية. أمّا الروح فلا تموت...

وما أكثر الحديث عن شهوات الجسد الخاطئة، وعن سقطاته: الجسد يقع في شهوة الطعام، وفي المُسكِرات والمخدرات والإدمان. كما يقع أيضاً في شهوة الزنا وسائر

سقطات الجنس Sex ، كما يقع في كثير من خطايا اللسان، والاعتداء على الآخرين بأنواع وطرق شتّى... وقد تمتد يده إلى السرقة وإلى الرشوة... وما إلى ذلك من أجل هذا، كان كثير من الأبرار ومن النساك، ينظرون إلى الجسد كمصدر للخطية، ويبذلون كل الجهد للانتصار على شهوات الجسد. ويصبح قمع الجسد من الفضائل الأساسية. ولا ننسى أن الصوم فضيلة في جميع الأديان، وهو فترة لانضباط الجسد ليعطي فرصة للروح...

فهل معنى كل ذلك أن الجسد شرٌ في ذاته كما يتخيّله البعض؟ كلا، بلا شك. فلو كان الجسد شراً، ما كان اللّه يخلق الجسد. بل الجسد خير إذا لم ينحرف، وإذا لم يقاوم الروح، وإذا لم يخضع لعوامل نفسية خاطئة... أيضاً لو كان الجسد شراً، ما كان اللّه ينعم عليه بالقيامة والحياة الأخرى. بل كان يكفيه ما عاشه على الأرض، دون امتداد لحياته. ولو كان الجسد شراً، ما كان الأنبياء والرسل يعيشون حياة بارة على الأرض، ولهم أجساد..! وكانت أجسادهم طاهرة ومقدسة... الجسد إذن ليس شراً في ذاته. ولكنه قد ينحرف فيُخطئ...

الروح أيضاً يمكن أن تخطئ، سواء كانت وحدها، أو مُتحدة بالجسد. وأول خطايا عرفها العالم كانت خطايا أرواح !... وأقصد بذلك خطايا الشياطين، وهم أرواح ليس لهم أجساد. وقد وُصِفوا بأنهم أرواح شريرة أو أرواح نجسة... الشيطان – وهو روح – وقع في خطية الكبرياء. وما زال في كبريائه يتحدّى ملكوت اللّه على الأرض. وفي كبرياء يعصي اللّه ويكسر وصاياه. كذلك - وهو روح - وقع في خطيئة الحسد، فحسد الإنسان على ما وهبه اللّه من نعمة. ولا يزال يحسد القديسين والأبرار ويحاول إسقاطهم. وفي إغرائه للبشر يقع في خطايا الخداع والكذب بتصوير الشر أنه خير! والشيطان – وهو روح – يقع في التجديف على اللّه تبارك اسمه، وينشر الإلحاد والبدع والأفكار المنحرفة.

وكما يخطئ الشيطان وهو روح. كذلك يمكن أن تخطئ أرواح البشر.

روح الإنسان قد تخطئ، وتجر الجسد معها في الخطأ.

+ الروح مثلاً قد تسقط في الكبرياء، ثم تجر الجسد معها في كبريائها. فيجلس في كبرياء، ويمشي في خيلاء، ويتكلم في عظمة، وينظر في غطرسة... وتكون الكبرياء قد بدأت في الروح أولاً ثم تحولّت إلى الجسد.

+ الروح قد تفتُر في محبتها للّه، ثم تقود الجسد معها في الفتور، فيكسل في صلواته، ويهمل واجبات العبادة...

+ إن ضعفت الروح، يخور الجسد. وإن بعدت الروح عن اللّه، ينهمك الجسد في ملاذ الحياة الدنيا.

+ إن تشبّعت روح الإنسان بالكراهية، يمارس الجسد هذه الكراهية. فقد يعتدي على غيره، بيده أو بلسانه أو بقلمه. وهنا نسأل: هل حوادث القتل ترجع إلى الجسد أم إلى الروح؟ أم يشترك فيها الجسد مع الروح؟ وتكون الروح هى البادئة والمشجعة والمخططة!!

+ **ومن الناحية الأخرى: إذا قويت الروح، فإنها ترفع الجسد إلى فوق.** فالروح المعنوية عند المريض: إذا ما قويت، تجعله يحتمل المرض ويجتاز مراحله الصعبة. وإن ضعفت روحه المعنوية، فإنه يستسلم للمرض وينهار..

+ كذلك في الصوم: إذا تغذّت الروح بالصلوات والتأملات والتسابيح والقراءات المقدسة، فإن الجسد يستطيع أن يحتمل الصوم بدون تعب...

+ وأيضاً الجندي في ساحة القتال: إذا كانت روحه قوية لا تعرف للخوف معنى، بل تُحفِّزها محبة الوطن، فإنها تدفع الجسد إلى الاستبسال والشهامة..

وعموماً فإننا نجد تجاوباً وتضامناً ما بين الروح والجسد:

+ ففي الصلاة مثلاً، إن كانت الروح خاشعة، فإن الجسد يخشع معنوياً. تنحني ركبتاه بالركوع أو بالسجود، وترتفع عيناه في الصلاة، وترتفع يداه. وإذا لم تكن الروح خاشعة، يكسل الجسد أيضاً...

+ الروح إذ حزنت، ممكن أن ملامح الوجه تعبس، ودموع العين تتساقط. وإذا فرحت الروح، تظهر البشاشة على الوجه، وتلمع العينان في فرح..

+ إذا سلّم إنسان على رئيس له، أو على شخص كبير السن أو عالي المقام، فإن الاحترام الذي يكنه في روحه، يظهر في انحناء جسده.

+ وتقريباً كل المشاعر التي للروح، تظهر في حركات الجسد، أو في نظرات العينين، أو في لهجة الصوت. أي يكشفها الجسد...

لذلك لا نستطيع كثيراً، أن نمنع هذه الصلة بين الروح والجسد. ولهذا فإن محاسبة الإنسان في القيامة، تكون للروح والجسد معاً... لا يُدان الجسد بدون الروح، ولا تُدان الروح بدون الجسد... لقد اشترك الاثنان معاً في عمل الخير أو الشر. إمّا أن الروح خضعت للجسد في شهواته. أو أن الجسد أسلم قيادته إلى الروح، وارتفع معها، وعبّر عن سموها بأفعاله...

ونصيحتنا لكل إنسان أن يقوّي روحياته، ويسلك في السلوك الروحي. وحينئذ سيجد أن جسده يتجاوب مع الروح في عمل البرّ.

فالجسد يمكنه أن يتعب في خدمة الآخرين بفرح، وأن يبذل ذاته ليُسعِد غيره. كما يمكنه أن يتبرّع بدمه، إذا كان أحد المرضى في حاجة إليه. بل أن يُضحّي بعضو من أعضاء الجسد لأجل حياة إنسان آخر... وكل الخدمات الاجتماعية التي نراها في العالم، وكذلك كل أعمال الإنقاذ التي يقوم بها رجال الإسعاف، ويقوم بها مَن يعملون في إطفاء الحرائق، وإنقاذ المشرفين على الغرق... كلها أعمال يشترك فيها الجسد مع الروح. الروح تدفع، والجسد يُنفِّذ...

إن اللّه الذي وهبنا الجسد، كما وهبنا الروح، هو قادر أن يعمل فينا لمجد اسمه، ولنشر الخير على الأرض، في غير تناقض، بل في تعاون تام بين الروح والجسد.

١ / ١٠ / ٢٠٠٥

العنف المُنفّر والمُدمّر

لا يستريح أحد إلى العنف، حتى من الطبيعة إن كانت عنيفة:

إنها مخيفة تلك الأعاصير العنيفة التي تغرق مدناً وتشرد سكانها، وكذلك السيول العنيفة التي تجرف أمامها كل معالم الحياة. وأيضا الزلازل التي تهز الأرض وتهدم بيوتاً. والبراكين التي تحرق وتدمّر... بل ما أشدها رعباً تلك الأمواج الصاخبة من بحر هائج تهدد السفن وركابها بالغرق. ومثلها الحرائق العنيفة التي تتلف وتميت.

أيضاً عنيفة جداً تلك الأمراض التي يقف أمامها الطب عاجزاً كل ما يستطيعه أن يسكن بعض الآلام القاسية التي تنتج عنها، دون أن يجد لها علاجاً!..

كل هذه أنواع عنف من الطبيعة. وكلها غير مقبولة. وماذا تراه يصنع الإنسان تجاهها؟! ولكن هناك نوعاً آخر من العنف قد يصدر من جانب البشر أنفسهم. فما هو؟

*****

لعل أبرزه العنف في الاعتداء. وهو على أنواع ودرجات:

عنف قد يبدأ بالإهانة والضرب، وقد يصل إلى القتل، أو ما يُعرف باسم التصفية الجسدية. وربما يشمل ألواناً من التعذيب، تخرج عن نطاق المشاعر الإنسانية، ولا تتفق مع أبسط أنواع الرحمة. وقد يتعرّض له الأبرياء بلا سبب... وهذا ما يسمى "الإرهاب". ومن ضحاياه الأفراد أو الجماعات.

*****

والعنف عموماً هو سلوك منفّر، ولا يتفق مع الوداعة واللطف. ولا مع حسن التعامل بين الناس، ولا مع فضيلة السلام التي يدعو إليها الدين، والتي هي لازمة لسلامة المجتمع... والعنف لا يتفق أيضاً مع المحبة التي تربط بين الناس. وفي ظلها يعيش كل شخص آمناً لا يخشى شراً من أحد.

وقد ينتج العنف عن أسباب عديدة، ربما في مقدمتها قساوة الطبع، أو التهور أو اللامبالاة بمشاعر الآخرين ومصائرهم...

فالشخص القاسي يكون عنيفاً: ليس فقط في تصرفاته وتعامله مع غيره. بل حتى ملامح وجهه يظهر فيها العنف، في نظرات عينيه، وفي لهجة صوته، وفي أسلوب تخاطبه.

والشخص العنيف قد يظهر عنفه في كلامه الجارح العنيف الذي لا يحترم فيه أحداً. بل يكون مستعداً للاحتكاك بغيره لأتفه الأسباب أو لغير ما سبب! ولقد صدق الشاعر حينما قال عن مثل هذا:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوت إنسان فكدت أطير

*****

أما عن العنف الناتج عن تهور ولا مبالاة:

فمن أمثلته كثير من حوادث المرور، التي في بعضها يهجم سائق عربة نقل طائش على سيارة خاصة أو على أتوبيس، وتكون نتيجة طيشه ولامبالاته قتل بعض الركاب أو إصابة بعضهم بإصابات خطرة.. وهذا السائق نفسه قد يلقى حتفه.. وكل ذلك بسبب عنفه في قيادة عربته، وعدم مبالاته بأرواح الناس.

وقد يقول البعض أنه عنف غير مقصود. ولكن نتائجه عنيفة حتى لو كانت غير مقصودة... وهذا الأمر قد يتكرر أيضاً في بعض حوادث القطارات عن إهمال.

*****

هناك عنف آخَر يحدث نتيجة للخصومة والعداوة:

ليست كل عداوة فيها عنف. فربما تقتصر على مشاعر من الكراهية وتقف عند هذا الحد. ولكن عنف العداوة يظهر في الرغبة في الانتقام، أو في تدمير العدو بأية الطرق.. إما بتشويه سمعته، أو بتدبير بعض المؤامرات ضده. أو الشماتة به والفرح بسقوطه. وهنا تكون مشاعر الخصومة عنيفة جداً.

وقد يظهر عنف الخصومة، حينما يرفض الطرف العنيف كل محاولات الصلح التي تبذل لإرجاع العلاقة بينه وبين الطرف الآخَر.

وأحياناً يكون العنف في العتاب، إذا قبل أحد الخصمين عتاباً:

المفروض في العتاب أنه تقريب لذات البين بين الطرفين، والوصول إلى التفاهم ثم إلى الصلح.. ولكن بعض أنواع العتاب تكون عنيفة جداً، لدرجة أنها تعقد الأمور بالأكثر، وتجعل الهوة بين الطرفين أكثر اتساعاً. وقد صدق الشاعر حينما قال: "ودع العتاب فرب شر كان أوله العتابا".

لذلك إن أردت أن تعاتب، فكن لطيفاً في عتابك.. وليكون قصدك هو الصلح، وليس تبرئة نفسك وإظهار خطأ الطرف الآخر. ولا تستخدم في عتابك عبارات قاسية أو اتهامات.

*****

هناك عنف آخَر في طريقة التربية في محيط الأسرة...

إذ أنه بفهم خاطئ، قد يظن الأب أنه يكون حازماً في تربية أولاده، وذلك بالتضييق عليهم في كل شيء في دخولهم وخروجهم ومعاملاتهم... وتتعب ابنته مثلاً من هذه القسوة، وتهرب من البيت، لتلقي بنفسها في أي صدر حنون يعوضها بشفقته عن قسوة أبيها. وهكذا يحصد الأب نتيجة عنفه!

أو قد يحاول أحد والديها أن يرغمها على الزواج من قريب لها لا تحبه. فتهرب من إتمام هذا الزواج الذي يراد إتمامه عنفاً، أو قد تقبل مرغمة وتحيا تعيسة تندب حظها..

وقد يحدث عنف آخَر في محيط التربية بين أستاذ قاس وتلاميذه، فيكرهونه ويكرهون علمه بسبب معاملته القاسية.

*****

وقد يكون عنف الزوج في معاملة زوجته، سبباً في أن تطلب الطلاق أو الخلع، هاربة من هذا الزواج الذي لم تعد تطيقه. أو قد ينتهي الأمر بجريمة للتخلص من الزوج، مثلما طلعت علينا الأخبار في بعض الجرائد. حقاً، إن العنف كثيراً ما يولّد عنفاً مضاداً في الجانب الآخَر.

*****

على أن العنف قد يوجد كذلك في محيط الإدارة والوظائف. مثال ذلك مدير يعاقب أحد الموظفين بطرده أو فصله فصلاً تعسفياً، غير مبال بمصير هذا الموظف بعد فصله، وبخاصة إن لم يكن له مورد رزق آخَر!

إن الفصل من الوظيفة هو أعنف عقوبة بالنسبة إلى موظف.. وهناك عقوبات كثيرة أخرى يمكن أن يلجأ إليها رئيس العمل، دون أن يلجأ إلى قطع رزق إنسان تحت إدارته.. والطرد من العمل يولّد إحساساً عنيفاً بالظلم. وربما لا يقدر هذا المطرود أو المفصول أن يقف ضد رئيسه في المحاكم!

ونفس الإحساس بالظلم يشعر به من يرفض المسؤولون تعيينه أو ترقيته، على الرغم من أن كفاءته تؤهله لذلك. ولكنه العنف!

وقد يتطور الأمر بهذا المظلوم إلى اليأس، ويجره اليأس إلى أخطاء أخرى.. واليأس شعور طاغ عنيف ونتائجه عنيفة..

*****

والعنف يظهر كذلك في بعض الثورات الدموية العنيفة...

وقد حكى لنا التاريخ أمثلة منها، وما تبعتها من محاكمات ومن مقاصل وإعدام. ولعلّ ما فعله "روبسبير" بعد الثورة الفرنسية مثل لذلك.. وكذلك ما فعلته الثورة الشيوعية حينما قامت في روسيا..

وأحياناً لا يكون عنف الثورات فيما تسفكه من دماء، إنما قد يكون أيضاً في قوانين عنيفة، يقصد بها حماية الثورة وتثبيتها...

*****

والعنف كما يوجد عند الأفراد، يوجد أيضاً عند شعوب عنيفة، لا تعالج مصالحها إلاّ بالعنف. ويوجد أيضاً عند أصحاب ما يسمونه بالطبع الناري. كما يوجد كذلك في أفلام العنف وتأثيرها...

ولا يفوتني في هذا المجال أن أذكر عنف العادات وسيطرتها، وعنف الإدمان وما يرغم عليه المدمنين من أخطاء...

كذلك عنف الفكر إذا سيطر. وأعنف الأفكار سيطرة هو فكر الإلحاد، لأن الشيطان بكل عنفه يُدفع إليه.

٨ / ١٠ / ٢٠٠٥

روحانية الصوم

أهنئ إخوتي المسلمين في مصر، وفي العالم العربي والإسلامي كله، بحلول شهر رمضان، شهر الصوم، الذي هو فترة روحية يرتفع فيها الإنسان فوق مستوى الجسد، ويرتفع أيضاً فوق مستوى المادة... وتتفرغ فيها الروح للعبادة... وهذه هي حكمة الصوم.

والصوم الحقيقي، هو الذي يتدرّب فيه الصائم على ضبط النفس فإذا ما اتفق ذلك خلال الصوم، يصير ضبط النفس - بالنسبة إليه - هو منهج حياة، يستمر معه.

وشهر رمضان هو فترة نلتقي فيها معاً - مسلمين ومسيحيين - في حفلات إفطار رمضانية، نتناول فيها الطعام معاً، ونتبادل عبارات المودة والحب... ويكون لهذا تأثيره العميق في نفوس الجميع.

***

والصوم ليس مجرد فضيلة للجسد، بعيداً عن الروح!!

فكل عمل لا تشترك فيه الروح، لا يعتبر فضيلة على الإطلاق، إن عمل الجسد في الصوم، هو تمهيد لعمل الروح، أو هو تعبير عن مشاعر الروح... الروح تسمو فوق مستوى المادة والطعام، وفوق مستوى الجسد... فتقود الجسد معها في موكب نصرتها، وتشركه في رغباتها الروحية. ويعبّر الجسد عن ذلك بممارسة الصوم.

إننا إن قصرنا تعريفنا للصوم على أنه إذلال للجسد بالجوع والامتناع عما يشتهيه، نكون قد أخذنا من الصوم سلبياته، وتركنا عمله الايجابي الروحي، وهو الأساس.

***

الصوم ليس مجرد جوع للجسد، بل بالأكثر هو غذاء للروح...

ليس الصوم هو تعذيب للجسد كما يظن البعض... إنما الصوم هو تسامي الجسد، لكي يصل إلى المستوى الذي يتعاون فيه مع الروح.

والصائم الحقيقي ليس هدفه أن يعذّب جسده، بل هو يقصد عدم السلوك حسب شهوات الجسد، فيكون إنسانا روحياً وليس جسدانياً... الصوم هو روح زاهدة، تشرك الجسد معها

في الزهد والصوم ليس هو الجسد الجائع، بل هو الجسد الزاهد، أو على الأقل الجسد الذي يتدرّب على الزهد في فترة معينة.

ليس هو حالة الجسد الذي يجوع ويشتهي أن يأكل... بل الجسد الذي يتدرّب على التخلّص من شهوة الأكل... وبالتالي يفقد الأكل قيمته في نظره، من فرط اهتمامه بطعام آخر هو طعام الروح.

***

الصوم فترة ترتفع فيها الروح، وتجذب الجسد معها...

تُخلّصه من أحمال وأثقال، وتجذبه معها إلى فوق، لكي يعمل معها من أجل اللَّه بلا عائق، والجسد الروحي يكون سعيداً بذلك..

الصوم هو فترة روحية، يقضيها الجسد والروح معاً في عمل روحي يشترك فيه الاثنان معاً في الصلاة والتسبيح والعِشرة الإلهية.

فيصلي الإنسان ليس فقط بجسد صائم، إنما أيضاً بنفس صائمة. بفكر صائم وقلب صائم عن الشهوات والرغبات، وبروح صائمة عن محبة المادة والماديات، في حياة مع اللَّه تتغذى بمحبته ووصاياه..

الصوم بهذا الشكل هو الوسيلة الصالحة للعمل الروحي.. وهو- الجو الروحي الذي يحيا فيه الإنسان جميعه - بقلبه ونفسه، وجسده وروحه، وبحواسه وفكره وعواطفه... كل ذلك في مشاعر مقدسة...

***

الصوم ليس مجرد علاقة بين الإنسان والطعام، بل هو فترة مقدسة يشعر فيها الإنسان بعلاقته مع اللَّه...

والصوم الذي ليس هدفه القُرب من اللَّه، هو صوم باطل...

اللَّه هو الهدف. فنحن من أجل اللَّه نأكل، ومن أجله نصوم... من أجل اللَّه نأكل، لكي ينال هذا الجسد قوة يستطيع بها أن يخدم اللَّه، وأن يكون أميناً في واجباته التي كلّفه بها اللَّه من نحو الناس... ونحن من أجل اللَّه نجوع، لكي نخضع الجسد فلا نخطئ إلى اللَّه. ولكي يكون الجسد تحت سيطرتنا، ولا نكون نحن تحت سيطرة الجسد، ولكي لا تكون رغبات الجسد وشهواته هي قائدنا في تصرفاتنا... أنما نسلك حسب الروح.

لهذا كله، هناك فضائل لابد أن يرتبط بها الصوم، ليكون مقبولاً عند اللّه... وأولى هذه الفضائل هى التوبة...

فالصوم البعيد عن التوبة هو صوم غير مقبول... واللّه - تبارك اسمه - يريد القلب النقي أكثر مما يريد الجسد الجائع.

والإنسان الذي يصوّم فمه عن الطعام، ولا يصوّم قلبه عن الخطايا، ولا يصوّم لسانه عن الأباطيل، فصوم هذا الإنسان باطل بل أن الخطية التي يرتكبها الإنسان - وهو صائم - تكون عقوبتها أشد. لأنها تحمل كذلك الاستهانة بقدسية أيام الصوم.

لذلك على كل صائم أن يتأكد من أن الصوم قد حوّل حياته إلى مستوى أفضل.. ليس فقط بالامتناع عن خطايا كان يقع فيها قبلاً. بل أيضاً باكتساب فضائل جديدة قد تدرب عليها.

***

هذا ويكون من لوازم الصوم: التدريبات الروحية التي يكتسب بها الصائم صفات من حياة البر كانت تنقصه...

وليسأل الإنسان نفسه: كم من أصوام مرت عليه خلال ما مضى من سنوات، دون أن يكتسب فضائل جديدة تضاف إلى روحياته؟!.. وإنما هو هو، لم يتغير فيه شيء! ولم يدفعه صومه إلى درجات في حياة الروح، ينمو فيها سنة بعد سنة.

لماذا لا نراقب أنفسنا أثناء صومنا؟ ولماذا لا نحاسب أنفسنا: في أية درجة روحية نحن الآن؟ وماذا بذلناه من جهد لكي تكون علاقتنا باللّه أكثر عمقاً وأكثر قرباً؟!.

***

وكما يرتبط الصوم بالتوبة، يرتبط أيضاً بالغذاء الروحي...

إن أخطر ما يتعب البعض في الصوم، أن يكون الجسد بلا غذاء، والروح أيضاً لا تجد ما تتغذى به، ويصبح الصوم مجرد فترة من الحرمان!! وهذا الحرمان يعطي صورة قاتمة عن الصوم... فيشتهي البعض متى ينتهي الصوم ليأكلوا؟!

وغذاء الروح معروف، وهو الصلاة والألحان والتسابيح، والتأمل في كلام اللّه وعمق وصاياه والتأمّل في صفات اللّه وفي سير الأبرار، والتأمل في الفضائل. وغذاء الروح أيضاً: المشاعر الروحية، والتفكير في السماء وفي الأبدية.

والروح إذا تغذّت، تستطيع أن تحمل الجسد، فيحتمل الجسد جوعه...

وترتبط بالصوم أيضاً: أعمال الرحمة وإطعام الجياع.

فالإنسان الذي جرّب في الصوم قسوة الجوع، بالضرورة يشفق على الجياع، ويعطيهم شيئاً من طعامه... ليس هذا فترة الصيام فقط وإنما تصبح فضيلة له أن يهتم بكل جوعان ويعطيه ليأكل.

وهكذا تدخل الرحمة في مشاعر الإنسان الصائم... ولا تقتصر رحمته على إطعام الجياع فحسب، بل تشتمل الفقير واليتيم والمسكين، بكل أنواع الإحسان التي يقدر عليها.

***

وأخيراً أقول يا إخوتي، أن أيام الصوم هي فترة تخزين روحي للعام كله، تفيض بروحياتها على باقي أيام السنة.

فالصوم ليس مجرد فترة تمر وتنتهي، وتنتهي معها فضائلها ومشاعرها!! كلا.. بل من عمق روحيات الصوم، يأخذ الصائم طاقة روحية تستمر معه بعد انقضاء الصوم أيضاً، وما تعوّده خلال الصوم، وما درّب نفسه عليه، يتحوّل بالوقت إلى جزء من طبعه لا يود أن يفقده.

والتوبة التي كانت له في صومه، ليس من السهل أن يزول تأثيرها، وكذلك ما أصلحه في نفسه من طباع وعادات.

فإن تخلّصت من خطية في فترة الصوم، اثبت في ذلك، ولا تعد إلى ممارسة الخطيئة فيما بعد.

وليكن هذا الصوم مباركاً في حياتك، وفي حياة كل من يتصل بك، ويراك أمثولة يقتدي بها.

١٥ / ١٠ / ٢٠٠٥

الضميــر
صلاحيتــه - عنـاصره - أنـواعـه - تـأثراتـه

الضمير هو طاقة أوجدها اللّه في الإنسان للتمييز بين الخير والشر، والحلال والحرام، واللائق وغير اللائق وما يجوز وما لا يجوز. لذلك دعي بالشريعة الطبيعية أو بالشريعة الأدبية غير المكتوبة.

وقد كان هو الحكم الداخلي في الإنسان قبل زمن الأنبياء، قبل الوحي والشريعة المكتوبة. وبه كمثال تسامي يوسف الصديق عن الخطأ مع امرأة سيده حين طلبت ذلك منه. بينما عاش يوسف قبل موسى النبي بمئات السنين، وقبل أن يأمر اللّه في الوصايا العشر قائلاً: "لاتزن" ولكن كان هناك الضمير..

ولكن لمّا ضل الضمير، حينئذ أرسل الرب وصاياه الإلهية لترشد الإنسان وتكون ميزاناً يزن به أفعاله ونواياه. وسنضرب أمثلة للدلالة على أن الضمير قد يضل:

* ذلك الشخص الذي يقتل ابنته أو أخته إذا سقطت وفقدت عفتها ألا يرى بضميره أنه يمحو عار الأسرة ويرد شرفها؟! بل إن البعض في الريف قد يتعبه ضميره إن لم يقتل هذه الفتاة!
* كذلك الشخص الذي يفجّر نفسه أو يفجر سيارة، ويقتل بذلك مجموعة من الأبرياء، ويدمّر بعض الأماكن، ألا يعتبر نفسه شهيداً، وأنه قام بعمل وطني يسجل له بالفخر؟! وقد شجّعه ضميره على ذلك!!

يمكننا إذن أن نقسّم الضمائر إلى أنواع:

- منها الضمير الصالح الذي يحكم حكماً خيراً ونيراً، ودقيقاً. وهو مثل ميزان الصيدلي لا يزيد في تركيب الدواء ولا ينقص...
- وهناك ضمير واسع يبلع الجمل، وهو يقبل أموراً خاطئة عديدة، لا يوبّخ عليها إطلاقاً، بل قد يجد لها تبريراً يريحه!

- بينما هناك أيضاً ضمير ضيق أو موسوس أو متشدد. يظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ، أو يضخّم كثيراً من قيمة الأخطاء. وهو بهذا يضيق على الناس بأحكامه ويغلق أمامهم أبواب السماء!

****

على أن هناك أنواعاً أخرى من الضمائر كالضمير الغائب، أو الضمير النائم أو الضمير الميت الذي يوصف صاحبه بأنه بلا ضمير!!

- مثال ذلك القاتل الذي تعوّد القتل، أو السارق الذي تعوّد السرقة، أو الظالم الذي يصبح الظلم جزءاً من طبعه!
- وكذلك القاسي القلب وكل من هؤلاء يرتكب الخطايا ولا يشعر أنه قد اخطأ ومثلهم أيضاً الكاذب الذي تعوّد الكذب، والفاجر الذي تعود الفجور..

هؤلاء تصير خطاياهم شيئاً طبيعياً في نظرهم، لا يبكتهم عليها ضمير، ولا يندمون كلما أخطأوا..!

أما الضمير السليم أو الضمير الصالح، فله وظائف مهمة.

منها التشريع، والمحاكمة، وإصدار الحكم.. ففي التشريع يعلن ما كان ينبغي أن يُقال أو أن يفعل طبقاً لوصايا اللّه وتمشياً مع المبادئ السليمة والمُثل. ومن جهة المحاكمة يقول للشخص ماذا فعلت؟ ولماذا فعلت؟ وكيف فعلت؟ وكيف جرؤت أن تفعل؟ وأين خشية اللّه في قلبك؟ ومن جهة إصدار الحكم يحكم الضمير باللوم أو بالتوبيخ.

وقد يصل الأمر إلى تعذيب الضمير، وقد يحكم بوجوب تصحيح ما قد فعله وعلاج نتائجه...

والضمير لا يحكم فقط على الفعل، إنما حتى على النية والغرض. ويحكم على المشاعر الباطنية، وعلى الفكر.

ومن هنا كان الضمير أوسع دائرة وأعمق أثراً من القوانين الموضوعة وما أكثر الأمور التي لا يحكم عليها القانون. ولكن يحكم عليها الضمير، ويكون حكمه غير قابل للنقض.

ونطاق الضمير يشمل ما قبل الفعل وما بعده.

فهو من جهة النواحي الطيبة، يستحث ويدفع ويشجّع. أما من جهة الأمور الرديئة، فهو يمنع أو ينذر ويبصر بالعواقب.

كما أنه لا يتناول الفعل فقط، إنما يحكم أيضاً على تأثيره ونتائجه ومقدار ردود هذا الفعل.

*****

على أن الضمير قد يصطدم بالإرادة التي ربما تقف ضده!

فضمير الشخص قد يقول له إن هذا الأمر واضح الخطأ ومع ذلك فإنه يفعله!! كالتدخين مثلاً: يقول له الضمير إنه يضر صحتك وصحة الذين حولك... وفيه تفقد مالك وتفقد أرادتك. ومع ذلك لا يمتنع الإنسان عن التدخين، لان إرادته لا تستطيع!

ومن هنا قال البعض عن الضمير: إنه قاض عادل غير إنه ضعيف والضعيف يقف ضد تنفيذ أحكامه...

أما لماذا هو ضعيف؟ فذلك لان هناك مؤثرات أخرى كثيرة تضغط عليه... وقد لا يستطيع مقاومتها.

*****

الضمير يتأثر بالشهوة... وكلما كانت الشهوة قوية، يضعف أمامها الضمير والشهوة على أنواع. منها شهوة الجسد، وشهوة المناصب والارتفاع، وشهوة العظمة، وشهوة السيطرة، وشهوة الانتقام، وغير ذلك... وحينما تشتد الشهوة فإنها تطرح الضمير جانباً فيفقد سلطانه.

وتتولى الشهوة قيادة الموقف، بلا ضمير، وتدبّر الأمر حسب هواها... ومن هنا أيضاً كانت المصالح الشخصية هى من الأمور الضاغطة على الضمير أو السيطرة عليه، أو التي تحل محله، سواء بالنسبة إلى ضمير الفرد أو ضمير الدول. حتى لو كانت النظرة إلى المصالح الشخصية نظرة غير سليمة.

إذن الدوافع - أياً كانت - لها سيطرة على الضمير...

*****

مما يؤثر على الضمير أيضاً مقدار المعرفة ودرجة الذكاء:

- فقد يخطئ الضمير في حكمه نتيجة للجهل أو لنقص المعرفة أو لخطأ في الأمور المعروضة عليه وعلاج ذلك هو التوعية والإرشاد السليم.

وقد يخطئ الضمير، أو تختلف أحكام الضمائر، باختلاف العقول وتنوع درجات الذكاء فيها. فضمير الإنسان الحكيم العاقل غير ضمير الإنسان العادي أو الأقل ذكاءً أو البسيط في تفكيره.

وعلاج نقص العقل أو المعرفة هو الاسترشاد. وكما قال الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه واطلبوا الحكمة عند الحكماء.

ومن الناحية المضادة قد يخطئ الضمير نتيجة للإرشاد الخاطئ إن كان خاضعاً لإرشاد يضلله. وكما يقول المثل: "أعمي يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة".

*****

مما يؤثر على الضمير أيضاً: العرف والبيئة وحماس الجماعة: فهناك عادات متوارثة وعرف سائد وتأثيرات للبيئة قد يتبعها الإنسان دون أن يفكّر أو يحلل... وبهذا تحل محل ضميره!

كما تؤثر على الضمير مشاعر الجماعة واقتناعها أو حماسها. مثال ذلك في بعض مظاهرات الطلبة قد ينقاد بعضهم وراء هتافات الجماعة وحماسها، دون أن يفكر ما هو الخير. ولكنه إذا خلا إلى نفسه، أو إذا قبض عليه وجلس في الحبس منفرداً، ربما يناقش الأمر بضمير آخَر قد تخلص من تأثير المظاهرة وهتاف الزملاء...

ونفس الوضع لمن يكون تحت تأثير ما تنشره بعض الصحف، أو ما توحي به بعض دور الإعلام. في كل ذلك وما يشبهه يكون الضمير تحت تأثير خارجي، يستمر إلى أن يوجد ما يتوازن معه.

*****

الضمير أيضاً قد يتأثر أيضاً بالمبدأ الميكيافلي "الغاية تُبرِّر الواسطة".

فقد يقبل وسيلة خاطئة، إن كانت في نظره توصل إلى هدف يراه سليماً، وكثيراً ما تستخدم هذه الفكرة عن الوصوليين الذي هدفهم هو مجرد الوصول إلى ما يريدون أياً كانت الوسائل!! والعجيب أن هؤلاء يبررون وسائلهم الخاطئة اعتماداً على أهداف وحجج وأسباب تكون حكيمة في أعينهم! وقد قال أحد الآباء الروحيين:

"كثيراً ما يكون طريق جهنم مفروشاً بالأعذار والتبريرات".

والمقصود هو التبريرات التي تغطّي على حكم الضمير.

٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٥

المعرفة

معرفة الله - معرفة الناس - معرفة النفس

كل ما يعرفه الناس أنهم يعرفون بعض الأشياء عن بعض الأشياء، أمّا المتخصص منهم فيركّز في معرفته على أمر معين، يعرف عنه بطريقة أعمق... وما أكثر الأشياء التي لا يعرف عنها البشر شيئاً... وبعضها مجال لبحوثهم والبعض فوق مستوى البحث! أمّا اللّه تبارك اسمه، فإنه يعرف كل شيء عن كل شيء... ويعرف كل شيء عن كل أحد، في السماء وعلى الأرض، سواء من الأرواح البشرية، أو الملائكة أو أسرار الكون، ما يُرى منه وما لا يُرى... وهى معرفة كاملة شاملة. ولذلك فإن اللّه هو الوحيد الذي يمكن أن يوصف بأنه "كلي المعرفة".

****

اللّه أيضاً يعرف كل الخفيات والظاهرات:

فهو الوحيد الذي يعرف الغيب. وإن ذكر بعض البشر معرفة شيء من المستقبل، فإن ذلك يكون عن طريق الاستنتاج أو المعرفة العامة، مثل ما يقوله خبراء الأرصاد عن حالة الجو فيما سيحدث من حرارة أو رياح أو مطر، حسبما يتوقعون وقد لا تكون معلوماتهم دقيقة... أو قد يقول أحد الأساتذة حسب خبرته إن طالباً من تلاميذه سوف يرسب وإن طالباً آخَر سوف ينجح بتفوق. ويحدث هذا فعلاً بناءً على درايته السابقة بمستوى تلاميذه من حيث العقلية والدراسة والذاكرة.

وقد يقول طبيب عن أحد مرضاه أنه لابد سيموت بعد أيام، وذلك بناءً على وضوح تطور المرض وعدم الاستجابة لأي علاج. ويحدث هذا فعلاً ولا نسميه لوناً من معرفة المستقبل إنما هو استنتاج. أما معرفة المستقبل عند اللّه، فهى فوق مستوى الاستنتاج أو ما توحي به طبيعة الأشياء، إنما هو النبوءة التي فوق الإدراك البشري.

ومن أمثلة معرفة اللّه بالخفيات معرفته بما في الأفكار والقلوب... فاللّه هو الوحيد فاحص القلوب وقارئ الأفكار والعارف بما في داخل الإنسان من نيّات ومشاعر... ولذلك

فهو يحاسب كل شخص على نواياه، الأمر الذي هو فوق معرفة البشر... كما أنه أحياناً ينقذ البعض من مؤامرة سرية تدبر ضدهم ولا يعرف بها أحد...

إن كلمة أسرار تقال عن معرفة بعض البشر. أما عند اللّه فلا يوجد سر بالنسبة إليه... إنما كل شيء واضح أمامه ومعروف.

****

واللّه يعرف كل أمر بدون وسائط أو وسائل أو أجهزة:

ما أكثر الأجهزة والوسائل التي يستخدمها البشر للوصول إلى معرفة معلومة معينة... كما نرى في الطب أجهزة الأشعة والتحاليل والمناظير، وأجهزة لمعرفة الحرارة والضغط أو التأكد من وجود مرض معين. أما اللّه فيعرف كل شيء معرفة مباشرة بدون وسائل.. البشر - في قمة ما وصلوا إليه من علم - اخترعوا سفن الفضاء، واستخدموها لمعرفة بعض أخبار الكواكب أو الحصول على بعض صور أو حجارة يستنتجون منها شيئاً..! أما اللّه فيعرف كل تلك الأجرام السمائية، لأنه هو خالقها، ويعرف كل المعلومات عن باقي الكواكب التي لم يستطع البشر الوصول إليها... وكذلك ما في فلك السماء من شمس وكواكب ونجوم تحيط بها ولا يحيط بها علم البشر أبداً..!

***

البشر ينقّبون في الجبال بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة. وقد ينجحون أحياناً أو يفشلون... كما إنهم يحفرون أميالاً عديدة تحت الأرض لعلهم يجدون شيئاً من البترول مثلاً.

أما اللّه فيعرف كل ذلك دون تنقيب أو حفر، لأنه هو الذي وضع الذهب في تلك الجبال، ووضع البترول تحت الأرض...

وبالمثل قد يبذل العلماء جهودهم ووقتهم إلى أن يكتشفوا خواص طبية في بعض الحشائش أو النباتات أو في مواد معينة. بينما اللّه - جلّت قدرته - يعرف كل هذا دون بحث علمي لأنه هو الذي وضع في تلك النباتات أو المواد ما تتصف به من خواص طبية.

تتميز معرفة اللّه أيضاً بأنها معرفة يقينية وفوق التطور:

الإنسان ينمو في معرفته وأحياناً يتطور أو يتغير حتى يصل إلى معرفة يعتبرها ثابتة وقد كانت له قصة متناقضة في موضوع الذرّة وانقسامها إلى أن استقر على معرفته الحالية وكذلك مرّ بمأساة بشرية حتى وصل إلى كروية الأرض وقد كان من قبل يحكم بالموت على من يقول بذلك!

ومازال البشر من جهة أصل الإنسان ونظرية التطور في اختلاف بين ما يقوله الدين وما يقوله بعض العلماء وبخاصة عن الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد!

وأمور كثيرة نرى فيها معرفة الإنسان - وبخاصة العلماء - لم تصل إلى مستوى اليقين بعد، إنما هي مجرد محاولات للوصول... أما معرفة اللّه فهي معرفة يقينية في كل شيء لا تقبل الشك.

معرفة الإنسان تأتي أحياناً عن طريق التدرُّج:

فخطوة منها تقود إلى خطوة أخرى. وبحث لعالِم مُعين يكمل مجهوداً لعالِم آخَر حتى يصل الجميع إلى نتيجة ثابتة.

عنصر التدرُّج أيضاً يكون في علاج كل مريض مع متابعة كل خطوات علاجه واستجابته له. ونفس التدرُّج نجده في حلّ أي تمرين هندسي وفي شرح أي عِلم حتى يستوعبه الذهن البشري نقطة أثر نقطة... كذلك كل إنسان في تلقيه للعلم يتدرّج من مستوى إلى مستوى أعلى. وفي معرفته ينمو فيها شيئاً فشيئاً.

أمّا اللّه - سما وتعالى - فلا تدرُّج مطلقاً في معرفته، بل إنه يعرف كل شيء دفعة واحدة وليس خطوة فخطوة. نهاية كل شيء واضحة أمامه مع بداية هذا الشيء.

***

واللّه - كما يعرف - يمنح أيضاً المعرفة للإنسان في الأمور التي لا يستطيع أن يصل إليها بذاته.

ولذلك كما أنه كلي المعرفة هو أيضاً مانح المعرفة. وإن كنا نحن نعرف أموراً عديدة بعقولنا فهو الذي منحنا هذه العقول بكل مداركها وقدراتها، وكثيراً ما يكشف لنا أموراً

فوق قدراتنا الطبيعية أن نعرفها... ولعله من أمثله ذلك ما منحه ليوسف الصديق من جهة موهبة تفسير الأحلام وما تشير إليه أحياناً عن مستقبل الأمور.

وأيضاً ما منحه للأنبياء من وحي إلهي... وما منحه للبعض من جهة كشف المستور ومعرفة بعض الأمور.

على إنه يعطينا من المعرفة ما يلزمنا وما ينفعنا. ونحن نشكر اللّه في كل حين، لأنه أعطانا عِلم معرفته وأوصلنا إلى الإيمان به.

***

وهناك أمور يعرفها اللّه، ولم يكشفها لنا بعد:

فأمور خاصة بسرّ الحياة والموت وما يتعلّق بروح الإنسان: ما كنهها؟ وكيف تفارق الإنسان؟ وكيف تعود إليه؟ وكيف تكون قيامة الأجساد من الموت؟ ومتى يكون ذلك؟ وكيف تتغذى الروح في العالم الآخر؟ وما كنه ذلك العالم وأين يكون؟

***

في كل ذلك نطلب المعرفة من اللّه نفسه وليس إلى غيره:

فهو وحده الذي يعرف الحق كله بل هو الحق جل جلاله... نقول ذلك ونحذّر الذين يطلبون المعرفة من غير اللّه عن طريق المنجمين أو الدجّالين أو الذين يدّعون معرفة البخت والحظ وقراءة الكف وقراءة الفنجان أو ضرب الرمل وأمثال كل ذلك من ادعاء معرفة الغيبيات التي هى من شأن اللّه وحده.

كذلك نحذّر من اللجوء إلى السحرة، أو مَن يدّعون السحر!! أو اللجوء إلى الشيطان كمصدر من مصادر المعرفة عند المخدوعين! فالشيطان معرفته دنسة ومضللة يريد بها خداع الناس ممن يقبلون خداعه.. "وللبحث بقية".

٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٥

المعرفة (٢)
أمور فوق معرفتنا - معرفة ضارة
مستويات المعرفة - معرفة النفس

تكلّمنا في العدد الماضي عن معرفة اللّه - تبارك اسمه - مع مقارنة بسيطة بمعرفة الناس. ونود اليوم أن نكمل حديثنا عن معرفة الناس.

في الواقع ما أقل ما نعرفه، على الرغم من انتشار العلم! فنسبة ما نعرفه ضئيلة إذا قورنت بما لا نعرفه..!

ولا شك أن هناك عجائب فوقنا لا ندركها. وقد سمح اللّه بوجود أمور كثيرة تخفي علينا معرفتها حتى لا يصاب العقل البشري بالغرور في عصر التكنولوچيا الحديثة.

*****

ولعل في مقدمة ما نجهله، موضوع المعجزة والمعجزة سميت هكذا، لأن العقل البشري يعجز عن تفسيرها... إنها ليست ضد العقل، ولكنها مستوى فوق العقل، وعلى الرغم من أن العقل لا يدرك كيف تتم، إلاّ أنه يقبلها بالإيمان ولا يهمه أن يعرف كيف تتم والمعجزات أمر يؤمن به كل متدين. ولعل من أبرز المعجزات التي يؤمن بها الكل: الخلق، والقيامة العامة.

- كلنا نؤمن أن اللّه خلق الكون، أيْ أوجده من العدم حيث لم يكن الكون موجوداً، خلق البشر والملائكة والطبيعة. ولكن كيف خلقها؟ بأية قدرة؟ هنا العقل لا يعرف. ولكنه يقبل بالإيمان.
- ونفس الوضع بالنسبة إلى القيامة العامة "أو البعث"، كلنا نؤمن بذلك. والعقل يقبله، دون أن يعرف إطلاقاً كيفما يعود الإنسان إلى الحياة بعد الموت! معرفة هذا الأمر هي فوق مستوانا.

كلها أمور تتعلق بقدرة اللّه غير المحدودة:

وعبارة "غير المحدود" يقف أمامها العقل عاجزاً في معرفته... واستخدام هذه العبارة من جهة الزمن، أمر آخَر فوق نطاق معرفة العقل... فكلمة أزلي، وكلمة أبدي، وكلمة سرمدي.. أي ما لا بداية له ولا نهاية، أمور قد يستخدمها العقل ولكنها فوق معرفته! حقاً ما معنى عبارة "لا بداية له"؟! ما معنى الأزلية؟ ومتى قطع نطاق الأزلية في وقت ما ليوجد الكون؟.. إنها أمور لا يفحصها العقل وإنما يقدمها الإيمان ويقبلها الإنسان بالتسليم، كثوابت إيمانية.

*****

أمور أخرى فوق معرفتنا، تتعلّق بالعالم الآخَر..

متى ستكون بداية العالم الآخَر؟ وكيف تكون؟ وأين؟..

إنها أمور ترتبط بالروح والموت وما بعد الموت.. وهى أيضاً فوق نطاق معرفتنا وتتعلّق أيضاً بالنفس وكنهها وخواصها، وبالعقل.. ثم أليس عجيباً أن العقل لا يعرف تماماً كيف يعمل العقل!! وما مدى علاقة العقل بالمخ وما فيه من مراكز تعمل؟ وكيف يتوقف بعضها عن العمل، ويعجز العلم البشري والعقل البشري عن إعادة مراكز المخ المتوقفة إلى عملها الطبيعي!

*****

بل في عالمنا الحاضر، العالم المادي، أمور كثيرة لا نعرفها..

- مثال ذلك ما أقل معرفتنا عن الفلك وما فيه من شموس ونجوم وكواكب، وما فيه من شهب ومجرات.. كل ما نعرفه هو معرفة سطحية لا تدخل في نطاق التفاصيل.. لقد فرحنا ببعض أحجار من القمر، أتى بها رواد الفضاء، ومع ذلك لا يزال القمر لغزاً لا نحيط بكامل المعرفة عنه!
- ونفس الوضع نقوله عما نعرفه من جهة أعماق الأرض وأعماق البحار.. هناك معلومات بسيطة يقدمها لنا العلم نتيجة لاكتشاف وحفريات.. وتبقى الحقيقة الكاملة بعيدة عن معرفتها ونفس الكلام نقوله عن محتويات الجبال، وعن بعض الكوارث الطبيعية كالزلازل والأعاصير والسيول والبراكين: ما تبدأ؟ ونطاق عملها وكيف تنتهي.

- هناك أيضاً أمراض خطيرة، مازال العلم حائراً أمامها، لا يعرف أسبابها، ولا يعرف طريقة القضاء عليها قبل أن تقضي على المرضى!

وما دامت معرفتنا محدودة نواجه سؤالاً وهو: كيف ننمو في المعرفة؟

من جهة المعرفة الممكنة، هناك وسائل عديدة لنموها: منها العلم، والقراءة، والمشورة، والخبرة، والتوعية. وكما قال الشاعر:

فاطلب العلم على أربابه واطلب الحكمة عند الحكماء.

وحتى كل هؤلاء يقدمون من العلم على قدر معرفتهم ولا شك معرفتهم محدودة. وقد تختلف مصادر المعرفة على حسب قامتها ونوعيتها.. حتى معرفة تفاصيل عن الخير والشر وما يجب وما يجوز وما يليق، قد تختلف فيه الآراء. وقد تختلط المعرفة بالطباع والنزعات والأهواء وأحياناً يتأثر التوجيه والإرشاد بما ينتشر من الشائعات.

ومما لاشك فيه إن هناك نمواً في المعرفة في العالم الآخَر:

فعندما تخرج الروح من الجسد بالموت، تصبح معرفتها أكثر بعد أن تخلّصت من ضباب هذا الجسد المادي ومن غرائزه ونزعاته وتأثراته. أما في الأبدية فسوف يتمتّع البشر بلون من المعرفة أكثر عمقاً عن طريق الكشف الإلهي revelation وعن طريق ما سوف يراه الإنسان من كائنات أخرى كالملائكة مثلاً، وما يختلط به من الأبرار بكل معارفهم... ومن أمور أخرى جديدة عليه.

وعموماً فإن المعرفة تنمو أيضاً بالموهبة أي بما يهبه اللّه للإنسان من مواهب منها المعرفة والحكمة واتساع العقل ومقدراته.

وهناك معرفة في العالم الآخَر، أعمق من كل هذا واسمى بما لا يقاس. وهى معرفتنا للّه جل جلاله.

إننا لا نعرف عن اللّه حالياً إلاّ ما يكشفه لنا الوحي الإلهي، لكي نؤمن باللّه ونطيع وصاياه. ولكن اللّه غير محدود والعقل البشري - مهما سما - هو محدود. ولا يستطيع أن يحيط المحدود بغير المحدود..

لذلك في العالم الآخَر سوف يكشف لنا اللّه عما يوسع معرفتنا به - تبارك اسمه - وعلى قدر ما يمكن لطبيعتنا البشرية أن تعرفه، شيئاً فشيئاً، وكلما تزداد معرفتنا باللّه تزداد سعادتنا في الأبدية وتكون هذه المعرفة هى أشهى ما نتمتع به.

إن المعرفة أفضل من الجهل بقدر ما النور أفضل من الظلام.

ولكن ليست كل معرفة نافعة، فهناك معارف تافهة وأيضاً هناك معرفة ضارة..!

- أما المعرفة التافهة فتختص بأمور لا تنفع شيئاً وللأسف كثيراً ما يسعى إليها الناس أو ينشغلون بها وهي مضيعة للوقت وتشغل الذهن عن التفكير في ما ينفعه، وصدق ذلك الأب الروحي الذي قال: "كثيراً ما نجهد أنفسنا في معرفة أمور لا ندان في اليوم الأخير على جهلنا إياها!".

- **أما المعرفة الضارة فلها أمثلة عديدة منها:**

معرفة ما يقوله عنك منافسوك وأعداؤك مما يثير قلبك عليهم. ومعرفة الشكوك الخطيرة التي تهز الإيمان في ثوابت تخصّ العقيدة ... ومعرفة صور من الخطيئة وتفاصيل تشوه نقاوة القلب، وتجلب له شهوات تتعبه... ومعرفة أسرار بعض الناس وأخطائهم مما يغيّر الإنسان إليهم وتقديره لهم... ومعرفة أمور أخرى مماثلة يقول عنها القلب في صدق: "ليتني ما عرفت!".

- كذلك من الأمور الضارة المعرفة التي تنفخ والتي تصيب النفس بالخيلاء والكبرياء وإلى التباهي بالمعرفة..!

*****

على أن من الأمور اللازمة لكل شخص أن يعرف نفسه جيداً..

وصدق ذلك الفيلسوف الذي قال: "خير الناس من عرف قدر نفسه". وهكذا لا يقع في الغرور ولا يتجاوز حدوده ولا ينسب إلى نفسه ما ليس فيه.. بل يعرف ويوقن أنه مخلوق من تراب الأرض.

وأتذكر إنني قلت مرة في إحدى القصائد:

قُل لمن يعتز بالألقاب إن صاح في فخره: من أعظم مني؟!

أنت في الأصل تراب تافه - هل سينسى أصله من قال إني؟!

ويهمنا في المعرفة أيضاً: ارتباط المعرفة بالعمل. فماذا يفيد الإنسان إن عرف كل شيء عن الفضيلة ولم يسلك فيها؟!

لا شك إن الذي يعرف أكثر يطالب بأكثر.

٢٦ / ١١ / ٢٠٠٥

الوقت
قيمته، وموازينه، وكيف تقضيه

الوقت هو جزء من حياتك. والذي يضيع وقته، إنما يضيع جزءاً من حياته. والذي يقضي وقته في تفاهات، بلا شك أن حياته تافهة في نظره، لم يستفد منها، ولا أفاد غيره، لأن وقته لم يكن ذا فائدة لأحد!

لقد منحك اللّه الوقت لهدف، هو هدف الحياة ذاتها. لذلك فالذي يبعثر وقته، بدون أي هدف بنّاء، يكون وقته رخيصاً في عينيه. وبالتالي تكون حياته رخيصة عنده، وعند الناس!

*****

إن عظماء الرجال الذين سجّل التاريخ أسماءهم، هم الذين استغلوا وقتهم في بناء أنفسهم، وفي بناء المجتمع الذي عاشوا فيه. بل امتد نفعهم إلى أجيال طويلة أتت بعدهم. وذلك بما تركوه من تراث فكري أو علمي، كان نتيجة لاستخدام وقتهم في الخير والنفع..

كذلك طلاب العلم الذين نبغوا، هم الذين استفادوا من وقتهم في الدرس والاستذكار، فتفوقوا وبنوا لأنفسهم مستقبلاً مرموقاً، بعكس زملائهم الذين ضاع وقتهم هباءً، وضاع معه مستقبلهم!

ما أعجب الوقت، اسأل نفسك هل هو معك أم ضدك؟ لك أم عليك؟!

*****

ومن المهم لكل أحد: التوازن في توزيع الوقت..

لأن البعض يركّزون وقتهم في أمر معين يهتمون به، بينما يهملون أموراً أخرى لا يمنحونها نفس الأهمية!

أما الإنسان الحكيم، فإنه يوزّع وقته بعدل ففيما هو يعطي وقته لمسؤولياته الرسمية، يعطي وقتاً آخر لأسرته فيهتم بها، ووقتاً آخر لصحته، ووقتاً لتثقيف نفسه وتنمية معلوماته، ووقتاً لبعض الخدمات الاجتماعية. ولا مانع من وقت كذلك للرفاهية المقبولة،

حتى لا تكون حياته شداً مستمراً بدون راحة أو أي جانب من الاسترخاء "Relax". وقد وهبنا اللَّه يوماً في الأسبوع للراحة.

وفي توزيع الوقت، لابد من جانب يُخصّص للعبادة.. يقضيه، الإنسان في الصلاة والخشوع، وفي القراءة الروحية والتأمل، وفي التسبيح والترتيل، لأن حياته الروحية هي أيضاً جزءاً من مسؤوليته تجاه نفسه، وهي لازمة لعلاقته باللَّه تبارك اسمه..

وأنا ضد المثل القائل: "ساعة لقلبك وساعة لربك!!".

ذلك لأن هذا المثل فيه فصل بين القلب والرب! وكأن الساعة التي يعطيها الإنسان لقلبه، يكون فيها بعيداً عن ربه!! والوضع السليم أن الإنسان فيما يعطي ساعة لقلبه، يكون في نفس الوقت مرضياً لربه. وأيضاً فيما يعطي ساعة لربه، يكون سعيداً بذلك في قلبه..

*****

وفي توزيع الوقت، ينبغي الاحتفاظ بالنسب سليمة:

- فلا تطغي نسبة منها على نسبة أخرى. فمثلاً لا يكون الوقت الذي تقضيه مع ربك، قليلاً في مدته، وسطحياً في اهتمامه، بلا عمق! فأنت محتاج بالضرورة إلى وقت من الهدوء والسكون لأجل روحياتك، تحاسب فيه نفسك على ما فعلته من أخطاء، وتقدم فيه توبة للَّه..

- كذلك عليك أن تراعي النسبة بين الوقت الذي تمنحه لنفسك، والوقت الذي تبذله لأجل غيرك. ومن النبل أن تضحي بوقت مناسب لخدمة الآخرين. وثق أنه محفوظ لك عند اللَّه والناس..

*****

وما أجمل قول سليمان الحكيم: "لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السموات وقت.."

طبعاً، كل أمر ينبغي عمله في الوقت المناسب له. فللحزن وقت، وللضحك وقت. للجد وقت، وللهو وقت. كما أنه للكلام وقت، وللسكوت وقت. والإنسان الحكيم لا يسكت حين يجب الكلام، ولا يتكلم حين يحسن الصمت..

وكمثال: على الزوجة ألاّ تكلِّم زوجها في أمر مهم تريده، في وقت يكون فيه مشغولاً أو مرهقاً، أو غير متفرِّغ لها، أو غير رائق في طبعه أو أعصابه. إنما تتخير الوقت المناسب.

هنا ونسأل ما هي أفضل الأوقات للإنتاج الفكري أو العملي؟

يختلف هذا الأمر من شخص لآخَر، ولكنه على أية الحالات يكون الوقت الهادئ هو أنسب الأوقات، سواء من جهة الهدوء الخارجي، أو هدوء النفس من الداخل..

البعض يناسبه الليل الهادئ الساكن بعيداً عن ضوضاء النهار. بينما البعض الآخَر يناسبه الصباح الباكر، قبل أن تزحم ذهنه مشغوليات يوم جديد. والبعض يأخذ إيحاءه الفكري من أحداث تُعرض أمامه تحمل في طياتها معاني معينة.

وعلى كلٍّ، لا يخضع الفكر في إنتاجه لقاعدة تشمل الكل، بل كل شخص له ظروفه، كذلك الإنتاج الفني..

*****

من جهة الوقت، يسأل البعض أيضاً عن السهر والأرق وأسبابهما..

إن السهر غير الأرق. فقد يكون السهر عملاً إرادياً، بينما يكون الأرق هو عدم القدرة على النوم. وربما يكون من أسباب الأرق، انشغال الفكر بما يتعبه، وكذلك انشغال النفس والأعصاب. وفي ذلك يقول المثل العامي: "ينام الليل من له قلب خالي..".

ويرى بعض الشعراء الذين كتبوا في الغراميات، أن تعب القلب في هذا الأمر يسبب الأرق. فيقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

يا ليل الصب متى غده.. أقيام الساعة موعده.

وذلك في قصيدته التي يقول فيها أيضاً: مضناك جفاه مرقده.. وبكاه ورحم عوده.

وفي نفس المعنى يقول أحد الشعراء:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم.. ونفى عني الكرى طيف ألم.

وفي حديثنا عن الوقت، لا يفوتنا الكلام عن مقاييس الوقت:

هناك مقاييس طبيعية يحددها الليل والنهار، وتوالي الفصول والسنين، بل تحددها أيضاً الساعة والثانية... على أن هناك مقاييس أخرى: منها الألم والملل. لاشك أن دقيقة واحدة من ألم لا يُطاق، تكون أطول من ساعات عديدة في حالة الراحة..! إن الإحساس بالوقت في مقدار طوله، أو في حالة مروره وعدم مروره، تدخل فيه عوامل كثيرة جداً، بعضها نفسية أو مرضية..

والملل يجعل الوقت يمر طويلاً ومتثاقلاً، وكأنه لا يتحــرك! بينمــا أوقــات الفــرح والمتعة، تمر بسرعة دون أن يدري بها صاحبها ودون أن يحس.. كذلك أيام السعادة فــي حياة كل إنسان.

*****

أما الوقت الذي ليس له مقياس، فهو الأزلية والأبدية:

الأزلية تعني ما لا بداية له. والأبدية تعني ما لا نهاية له. والأزليــة خاصــة باللّــه وحده. إنه الوحيد الأزلي الكائن قبل الأكوان كلها، وقبل أن يخلق المقاييس التي يقاس بها الزمان والوقت..

أما الأبدية فتكون في العالم الآخَر، بعد القيامة العامة حيث لا تكــون هنــاك نهايــة للزمن. وعلى هذا فإن حياتنا إذا ما قيست بالأبدية تصبح لاشيء. فكل رقم إذا وضع على ما لانهاية، فإنه يؤول إلى صفر..

لذلك على الإنسان أن يهتم بأبديته. فلا تغره سنوات قليلة أو كثيرة يقضيها على هذه الأرض. ثم تواجهه بعد ذلك الأبدية، حيث لا يقف معه فيها سوى عمل الخير الذي عمله أثناء حياته على الأرض: الخير من جهة نقاوة قلبه وفكره وتصرفاته. والخير من جهــة ما عمله نحو غيره.

*****

لهذا كله على كل إنسان أن يستفيد من وقته ليكون تمهيداً لمصيره في الأبدية. حتــى يقف وقته شاهداً يدافع عنه أمام اللّه .. وفيما يهتم هنا بوقته ليكون نافعاً. عليــه أن يهــتم أيضاً بحرصه على أوقات الآخَرين، فلا يشغلهم بما يعطلهم.

٣ / ١٢ / ٢٠٠٥

كيـف؟!

نحن غالباً ما نتفق في الأهداف، ولكننا نختلف في الوسائل!

نتفق مثلاً في لزوم الإصلاح، والتغيير إلى أفضل.. ولكننا نختلف في كيف نصل إلى هذا الإصلاح، وكيف يكون التغيير إلى أفضل!!؟ وكل نزاعنا وصراعنا يدور حول كلمة "كيف؟!".

وجوب حل المشاكل القائمة أمر يسعى إليه الكل. ولكن المشكلة الأهم هى كيف تحل هذه المشاكل؟! وهنا تتعدد وتتباين الآراء من المفكرين والسياسيين، ورجـال الاجتمـاع والعلم.. والكل في حيرة وخلاف حول كلمة "كيف؟".

ليس عند الكل حل.. ثابت شاف يليق
فحلول لفريق.. غير أخرى لفريق

***

هناك أمور صعبة، لا نعرف كيف نصل إلى إجابة سؤال عنها. مثل مشكلة النسيان، وكيف نصل إلى نسيان أمور متعبة؟

وهنا أذكر قصيدة كتبتها منذ ٥٤ عاماً عنوانها "كيف أنسى؟" كانت بدايتها هكذا:

سوف أنسى اليوم والأمس وقد أنسى غدا
وسأنسى فترة في العمر قد ضاعت سُدى
غير أني سوف لا أنسى سؤالاً واحدا
حين قال القلب يوماً في ارتباك كيف أنسى؟

نعم، كيف ينسى الإنسان أموراً دخلت إلى عمق أعماق تفكيره، ورسمت في ذاكرتـه وفي عقله الباطن وفي اللاشعور؟ كيف ينسى؟!

أيضاً تدخل عبارة كيف؟ في التعامل مع الأمور المضادة.

كيف تتعامل أحياناً مع أمرين أحلاهما مر؟!

فتاة مثلاً قد حملت سفاحاً، ولجأت إلى طبيب لإجهاضها. ويقف الطبيب أمام تحريم الإجهاض كجريمة قتل جنين وحرمان نفس من الحياة... وبين ما تقابله هذه الفتاة من عار وفضيحة، وربما يلجأ أهلها إلى قتلها بحجة تلويثها لشرف الأسرة وهنا يقف الطبيب الذي لجأت إليه هذه الفتاة الخاطئة أمام سؤال صعب: كيف يتصرّف؟!

***

ومن دخول كلمة "كيف" في الأمور الصعبة: قصة القط والفئران:

زعموا أن قطاً متوحشاً كان يهجم على مكان الفئران، فيفترس منها ما يشاء فاجتمع الفئران في مؤتمر لبحث مشكلتهم والوصول إلى حل لها. وهنا وقف فأر متحمس، وقال: "أفضل الحلول هو أن نعلّق جرساً في رقبة القط. فإذا جاء إلينا يرن الجرس الذي في رقبته، فنحترس منه ونهرب.. وصفق الفئران الصغار فرحين بذكاء زميلهم.. على أن فأراً كبير السن مختبراً وقف وقال: ما اذكى هذا الاقتراح المقدم لنا، ولكن كيف يمكننا أن نعلّق الجرس في رقبة القط؟!

واحتار الجميع في كيف يمكن الجمع بين الذكاء النظري والاستحالة العملية؟!

***

وكثيراً ما تبرز كلمة "كيف" في أمور أخرى تبدو مضادة..!

كيف يمكن الجمع بين القوة والوداعة؟ وكيف الجمع بين الحزم والعطف؟ هنا نذكر بيتين في مدح أحد الحكماء:

يا قوياً ليس في طبعه عنف .. ووديعاً ليس في ذاته ضعف
يا حكيماً أدب الناس وفي .. زجره حب وفي صوته عطف

وأيضاً يقف أمامنا السؤال: كيف الجمع بين البساطة والحكمة؟

لاشك أن الأمر يبدو صعباً ويعاود الناس السؤال كيف الجمع بينهما إذن؟ ولعل هذا الجمع يكون ممكناً إذا كان معنى البساطة هو عدم التعقيد، وليس معناها السذاجة. فيمكن الجمع بين الحكمة وعدم التعقيد.

سؤال آخر هو كيف الجمع بين الصراحة والمجاملة؟

الأمر يحتاج إلى قوة في الشخصية، مع البراعة في الأسلوب ليكون مقبولاً ويحكى في ذلك أن هارون الرشيد كان في ليلة من الترف، وحوله جماعة من الشعراء سألهم أن يصفوا جمال تلك الليلة، فتباروا في مدحها وكان بينهم أبو العتاهية وهو من الشعراء الزاهدين وقد جلس صامتاً فسأله الرشيد رأيه فأجابه بصراحة شجاعة:

عش ما بدا لك هانئاً... في ظل شاهقة القصور

فإذا النفوس تحشرجت... ما بين خافقة الصدور

فهناك تعلم موقفاً.... ما كنت إلاّ في غرور

وتقول القصة: فبكى الرشيد حتى ابتلت لحيته، وأجاب "صدقت يا أبا العتاهية"..

***

سؤال آخر حول كلمة "كيف"، وهو: كيف سلك البعض في مجال المال والكرامة والسلطة؟

وتتعدد أنواع الناس. فيقول "إيليا أبو ماضي" من جهة المال:

لمّا صديقي صار من أهل الغنى.. أيقنت إني قد فقدت صديقي

ويقول الأستاذ مكرم عبيد "باشا" عن عكس ذلك: "الرجل الحق هو الذي يتطور دون أن يتغير ويكبر دون أن يتكبر ويحتفظ بثباته في وثباته".

ويقول القديس الأنبا أنطونيوس: قد يوجد إنسان يمكنه أن يحتمل الإهانة ولا يقدر أن يتحمّل الكرامة لأن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة.

***

سؤال آخَر من أسئلة كيف. وهو كيف يمكن الإجابة على أسئلة حرجة؟

نقول بالذكاء والحكمة فيتكرر السؤال: وكيف؟ نضرب لذلك مثالين:

قيل أنه في إحدى المرات، قام أمير البلاد بزيارة أحد كبار موظفيه المقربين إليه وفيما هو في بيت هذا الموظف سأل ابناً ذكياً له ليختبر ذكاءه. فقال له: بيت أبيك أعظم أم بيت الأمير؟!

وكانت الإجابة محيرة: كيف يجمع بين إكرامه لأبيه وولائه للأمير؟ ولكن هذا الطفل أجاب بذكاء وقال: "مادام الأمير في بيتنا، يكون بيت أبي أعظم من بيت الأميـــر" وهكـــذا فيما يمتدح عظمة بيت أبيه، ارجع سبب عظمته إلى وجود الأمير فيه.

وفي إحدى المرات سألوا أحد الوزراء وكان كبيراً في السن وأشيب الشعر: هل أنت أكبر أمْ السلطان؟ فأجاب على هذا السؤال المُحرج في ذكاء وقال: "فخامة الســـلطان هـــو أكبر مني ولكنني ولدت قبلاً منه".

***

يسألون أيضاً من جهة كلمة "كيف": كيف يمكن التعامل مع المتصفين بالعناد، ومع غير الطبيعيين في عقلياتهم وطباعهم وأعصابهم؟

ونجيب بأن الأشخاص العاديين قد يرون كيفية التعامل مع هؤلاء صعبة ولكنها بـــلا شك ليست صعبة مع الخبيرين بالنفوس والذين لهم طول البال والحكمة ويســـتطيعون أن يصلوا إلى المفاتيح التي يفتحون بها عقول غير الطبيعيين وطباعهم ... أمّا كيف يمكـــنهم معرفة تلك المفاتيح فهذا سؤال يحتاج إلى إجابة طويلة، ليس الآن مجالها ولكنهـــا ممكنـــة ومغلفة بكلمة "كيف".

***

أمامنا أسئلة أخرى صعبة، نضع أمامها كلمة "كيف؟"

كيف يواجه الناس الموت وبخاصة بعد بعض أمراض عديمة الشفاء؟

لاشك أن الناس يختلفون في ملاقاة الموت: ما بين مؤمن عاش حياة صـــالحة وهـــو مستعداً للموت، وله رجاء في الحياة الأبدية السعيدة، وهذا يختلف عن خاطئ يرتعب مـــن الموت، وأمامه كل خطاياه بدون أن يقدم عنها توبة، وثالث يُفاجأ بالموت وقد خدعوه بأن شفاءه قريب وأنه سوف لا يموت.. مع حالات أخرى لا نعرف نفسياتها .. ومع نوع رابع يتشبث بالحياة وأمامه آمال لم يحققها بعد .. وخامس يكون عمق تفكيره فيمن سيخلفه بعد موته من أبنائه وباقي أسرته. وسادس للأسف يكون تفكيره قبل موته في أمواله وممتلكاته التي سيتركها بعد أن تعب كثيراً في تكوينها وجمعها.

أمور أخرى صعبة تكتنفها كلمة "كيف؟":

- كيف يمكن أن يعيش المشوّه والمعوق؟ بأية نفسية؟
- كيف يعيش اليائس الذي لا أمل أمامه. وكل بارقة أمل تعرض عليه يشعر باستحالتها عملياً وإنها مجرّد تشجيع وهمي!
- كيف يمكن تعزية قلب فقد أعز الناس إليه؟ وكل كلمات التعزية لن تعوضه عما فقده وقلبه يرفض العزاء!!
- كيف يحيا من قال عنه سليمان الحكيم: "إن جريت مع المشاة فأتعبوك، فكيف تباري الخيل؟!
- أسئلة أخرى كثيرة تبدأ بكلمة "كيف؟" أرى أن هذه الصفحة قد ضاقت عن استيعابها.



١٠ / ١٢ / ٢٠٠٥

الحكمة

الفرق بين الحكمة والذكاء - والحكمة والدهاء
مصادر الحكمة - ومعطلات الحكمة

ما أروع الحكمة. إنها من أعظم الفضائل. بل هى أهم مفتاح للفضائل كلها. يحتاج إليها البشر جميعاً وبخاصة القادة وكل من هو منصب، بل تحتاج إليها الدول أيضاً. وهى الميزة التي يجب أن يتّصف بها رجال السياسة، ومن يُطلَق عليه لقب دبلوماسي.

إنها باب التوفيق والنجاح والتفوق. وما أجمل قول سليمان الحكيم: "الحكيم عيناه في رأسه. أما الجاهل فيسلك في الظلام". لذلك فهى نور داخلي ينير العقل والقلب، كما أنها نور خارجي ينير للآخرين طريقهم.

هنا ويقف أمامنا سؤال: هل من فارق بين الحكمة والذكاء؟

الحكمة لها معنى أوسع بكثير من الذكاء. وقد يكون الذكاء مجرّد جزء منها. فكل إنسان حكيم يكون ذكي. ولكن ليس كل ذكياً حكيماً..!

فقد يتمتع إنسان بذكاء خارق وعقل ممتاز ومع ذلك لا يكون حكيماً في تصرُّفه، فربما توجد عوائق تعطل عقله وذكاءه أثناء التصرُّف العملي!

فما الحكمة إذن؟ وفي أي شيء تتميز عن الذكاء؟

الذكاء مصدره العقل. وقد يكون مجرد نشاط فكري سليم، أما الحكمة فهى لا تقتصر على التفكير السليم بل تتبعه بالتصرف الحسن في السلوك العملي. وهى لا تعتمد على العقل فقط، إنما تستفيد أيضاً من الخبرة والإرشاد ومن معونة اللّه بالصلاة.

فالحكمة ليست هى مجرد المعرفة السليمة أو الفكر الصائب إنما هى تدخُّل في صميم الحياة العملية لتعبر عن وجودها بالسلوك الحسن... فإن كان العقل يميزه الفهم والتفكير فإن الحكمة يميزها حسن التصرُّف والتدبير... حقاً إن الذكاء أو التفكير السليم يجوز اختباراً دقيقا عند التطبيق العملي فإن نجح فيه يتحوّل إلى حكمة.

وهكذا تشمل الحكمة جودة التفكير ودقة التعبير وسلامة التدبير.

معطلات الحكمة:

قد يكون الإنسان ذكياً يفكر أفكاراً سليمة ولكن تنقصه الدقة في التعبير لنقص معلوماته عن المدلول الدقيق لكل لفظة. فيخطئ حينما يعبّر عن قصده. أما الإنسان الحكيم، فإنه يقول بدقة ما يقصده. وأيضاً يقصد كل ما يقوله.

*****

من معطلات الحكمة أيضاً السرعة في التصرُّف:

ولذلك يتصف الحكماء بالتروّي.. فالحكيم لا يندفع في تصرفاته. وإنما يهدئ اقتناعه الخاص حتى يتبصّر بأسلوب أعمق وأوسع.

إن السرعة لا تعطي مجالاً واسعاً للتفكير والبحث والدراسة ومعرفة الرأي الآخَر. كما إنها لا تفسح مجالاً للمشورة ولعرض الأمر على اللّه في الصلاة ... وربما تحوي السرعة في طياتها لوناً من السطحية... ولذلك كثيراً ما تكون التصرفات السريعة هوجاء طائشة!

والإنسان الذي يتصرّف بتسرُّع قد يرسل اللّه له من ينصحه قائلاً: "خلي بالك من نفسك". أعط نفسك فرصة أوسع للتفكير. راجع نفسك في هذا الموضوع.

أذكر في هذا المجال بعض أبنائنا من المهجر، الذين يحضرون إلى مصر ويريد الواحد منهم أن يتزوج في بحر أسبوع أو أسبوعين!

*****

إن الحكماء تصرفاتهم متزنة رزينة قد نالت حظها من التفكير والدراسة والعُمق والفحص مهما اتهموهم بالبطء.

ولا ننكر أن بعض الأمور تحتاج إلى سرعة في البت.

ولكن هناك فرقاً بين السرعة والتسرُّع!!

والتسرُّع هو السرعة الخالية من الدراسة والفحص ويأخذ التسرُّع صفة الخطورة إذا كان في أمور مصيرية أو رئيسية. كما يكون بلا عذر إذا كانت هناك فرصة للتفكير ولم يكن الوقت ضاغطاً لذلك فإنني أقول باستمرار:

إن الحل السليم ليس هو الحل السريع بل الحل المتقن.

وقد تكون السرعة من صفات الشباب إذ يتّصفون بحرارة تريد أن تتم الأمور بسرعة ولكنهم حينما يختبرون الأمر مع من هو أكبر منهم يمكن أن يقتنعوا بأن السرعة لها مخاطرها! وقد تكون السرعة طبيعية في بعض الناس وهؤلاء يحتاجون إلى التدريب على التروّي والتفكير وكثيراً ما يندم الإنسان على تصرُّف سريع قد صدر منه فاخطأ فيه أو ظلم فيه غيره.

*****

من معطلات الحكمة أيضاً: قلة المعرفة!

ومن أمثلة ذلك: ربما يكون رجلاً ذكياً جداً ومع ذلك هو فاشل في حياته الزوجية إذ لم يكن حكيماً في تعامله مع زوجته! وسبب ذلك هو جهله بنفسية المرأة والمفروض في الزوج الحكيم أنه يدرس عقلية المرأة ونفسيتها وظروفها. ولا يتعامل معها كأنها بنفسية رجل! وبالمثل على المرأة أن تدرس نفسية الرَّجُل وعقليته، لكي تعرف كيف تتعامل معه بما يناسبه.

ونفس الكلام نقوله في معاملة الأطفال إذ ينبغي أن ندرس نفسية الطفل وعقليته في كل مرحلة حتى نعرف الطريقة الحكيمة للتعامل معه.

*****

وهكذا في التعامل عموماً ينبغي للإنسان الحكيم أن يدرس نفسية وعقلية وظروف كل من يتعامل معه.. سواء كان زميلاً في العمل أو رئيساً أو مرؤوساً، أو صديقاً أو جاراً. ويعامله بما يناسبه.

فإن درست نفسية وعقلية من تتعامل معه تعرف حينئذ المفاتيح التي تدخل بها إلى قلبه. وتنجح في تصرفك معه.

وحتى لو تعطّل المفتاح حيناً تعرف كيف تزيته وتشحمه... ثم تعيد بعد ذلك فتح الباب فينفتح.

حقاً إنه في بعض الأحيان يكون فشلنا في التعامل مع أشخاص معينين ليس راجعاً إلى عيب فيهم، بقدر ما هو راجع إلى عدم معرفتنا بطريقة التعامل معهم.

*****

مصادر الحكمة:

أول مصدر هو اللَّه - تبارك أسمه - الذي يهب الحكمة لمن يشاء وهكذا قد يولد الإنسان حكيماً كموهبة له من اللَّه. وتظهر حكمته في مراحل سنه المختلفة... إنها الحكمة النازلة من فوق.

وأيضاً نحن في مواقف عديدة نطلب من اللَّه أن يهبنا حكمة لكي نستطيع أن نتصرّف حسناً، بمعونته.

المصدر الثاني هو المشورة: نأخذها من ذوي الحكمة. كما قال الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه.. واطلبوا الحكمة عند الحكماء.

وفي ذلك يضيف الإنسان معرفة إلى معرفته وعقلاً إلى عقله.. ويصير حكيماً بشرط أن ينفّذ المشورة التي أخذها من حكمة غيره. وما أجمل قول الشاعر في ذلك:

إذا كنت في حاجة مرسلاً.. فأرسل لبيباً ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى.. فشاور حكيماً ولا تعصه

وعكس ذلك يقول الآباء الروحيون: إن الذين بلا مُرشد يسقطون مثل أوراق الشجر، وبخاصة المبتدئون منهم.

المصدر الثالث هو قراءة سير الحكماء والناجحين في حياتهم لكي يتأثر القارئ بسيرة هؤلاء وسلوكهم وكيف كانت تصرفاتهم في شتى الظروف والملابسات وكيف كانوا يجيبون على الأسئلة المعقّدة، وكيف كانوا يحلّون المشاكل العويصة.

وكل ذلك يقدّم للقارئ أمثولة طيبة في فهم الحياة وفي حُسن التصرُّف فيعمل على محاكاتها والسير على نفس النهج من الحكمة. كذلك يدرس كيف يحترس من الأخطاء التي وقع فيها الغير. ومعرفة أسباب ذلك السقوط، وكيفية النجاة منه. وهكذا كما قال أحد الحكماء: "تعلّمت الصمت من الببغاء..!".

المصدر الرابع، هو الخبرة: فالإنسان المختبر يكون أكثر حكمة. وكلما زادت خبرته تتعمق على هذا القدر حكمته، لهذا يتحدث الكثيرون عن "حكمة الشيوخ" من واقع ما مر عليهم من خبرات في الحياة.

وبعد، أيها القارئ العزيز ألاّ ترى أن موضوع الحكمة يحتاج إلى مزيد من التفصيل؟ يخيل إلى هذا.

١٧/ ١٢ / ٢٠٠٥

الحكمة (٢)
الحكمة والدهاء - مجالات الحكمة
ردود الفعل - بُعد النظر

تكلمنا في مقالنا السابق عن الحكمة. ونتابع اليوم كلامنا في هذا الموضوع الواسع.. ونبدأ الحديث عن نقاوة الحكمة.

فالحكمة قد يستخدمها الخيرون كما يستخدمها الأشرار أيضاً!!

وعند الأشرار تتحوّل الحكمة إلى ألوان من الدهاء والمَكر والخبث فالأشرار - بكل حكمة أو دهاء - ينجحون في الإيذاء، وفي تدبير المؤامرات، وحبك المشاكل وإلحاق الضرر بالآخرين... بكل ذكاء وبطرق قد لا تبدو مكشوفة بحيث يتم لهم ما يريدون دون أن يقعوا في مسؤولية أو تحت إدانة القانون!

*****

وقد يريد أحدهم الشر بغيره، ولكنه لا يفعل ذلك بنفسه، وإنما عن طريق آخرين من معاونيه أو أصدقائه أو المشتركين في نفس الهدف... ويعتبر هذه حكمة منه: أن يختفي ويكون خارج الصورة ويبدو بريئاً براءة الذئب من دم ابن يعقوب! ذلك أن ما في قلبه لا يعرفه أحد وكل إجراءاته واتصالاته هى في طي الكتمان.

وقد تلبس هذه "الحكمة" الخاطئة ثوب الرياء، فينطق الشخص بعكس ما يقصده، ويتظاهر بغير ما ينوي ويسير في طريقين أحدهما ضد الآخَر. والمهم أنه يعمل إلى غايته بجميع الوسائل.

هدفه هو الوصول إلى غاية معينة بريئة كانت أم معيبة، والحكمة عنده هى الوسيلة الناجحة التي توصله بغض النظر صالحة هى أم شريرة..!

*****

الخير له طريق واحد مستقيم.. والشر له طرق كثيرة بعضها ملتوية.. لذلك كثيراً ما ينجح الشر. لأن الطريق أمامه سهل ومتشعِّب!

من أجل هذا قد يحتجّ البعض قائلاً: لماذا ينجح طريق الأشرار؟!

اطمئن كل الغادرين غدراً!! ولكنه نجاح إلى حين، ولا يستمر.. كما أن النجاح الحقيقي هو في انتشار الخير وباستخدام الحكمة بطريقة بارة تريح الضمير وترضي اللَّه القدوس.

*****

الحكمة الحقيقية هى في عمل الخير والخير أمامه أربعة أنواع: عمل هو خير واضح وعمل هو شر واضح. والاختيار بينهما لا يحتاج إلى حكمة لسهولة التمييز.

أما النوع الثالث فهو الذي يحتار أمامه الفكر: أهو خطأ أمْ صواب؟ أو يحتار أمام نتيجته أو وسيلته!

وهذا النوع بلا شك يحتاج إلى حكمة وتمييز أو على الأقل يحتاج إلى مشورة صالحة وإلى كلمة منفعة تنير الطريق أمامه، وهنا تقتضي الحكمة الاعتماد على الآباء الروحيين وعلى المرشدين والحكماء.

*****

والنوع الرابع الذي يحتاج إلى حكمة وتمييز فهو التفضيل بين طريقين سليمين لا يدري الضمير أيهما أصلح؟

كل من الأمرين خير في ذاته ولكن أيهما أكثر خيراً؟ أو أيهما أكثر مناسبة لهذا الشخص بالذات؟ وكثيراً ما يحدث هذا في اختيار شريك الحياة "في الزواج" أو اختيار نوع التعليم، أو نوع الوظيفة، أو التفضيل بين العمل الحر أو التوظيف.. وما أشبه ذلك.

أي الأمور هو الأفضل والإنسان في مفترق الطرق؟

الآمر يحتاج إلى حكمة وإلى تباطؤ ريثما تتضح الأمور، ويفحص الشخص ذاته وريثما يسمع صوت اللَّه في قلبه أو صوت اللَّه على أفواه مرشديه، يحتاج الأمر إلى حكمة الشخص نفسه، أو حكمة من ينصحه.

*****

الإنسان يحتاج أيضاً إلى الحكمة في كل تصرُّف وفي كل قرار يصدر منه. والإنسان الحكيم يلزمه أن يضع أمامه ردود الفعل لكل ما ينوي عمله: فقبل أن ينطق بكلمة يعمل حساب وقعها على من يسمعها، وفي كل تصرُّف له يحسب ردود فعله عند الآخرين: كيف

سيفهمونه؟ وماذا يكون موقفهم إزاءه؟ ولا يقل عن تصرف خاطئ ارتكبه. "قد فعلت ذلك بحسن نية"! فليس كل الناس يعذرون.

بل يكون في كل أقواله وأفعاله مثل لاعب الشطرنج، الذي قبل أن يحرّك قطعة من اللعب مما أمامه، يفكّر جيداً ماذا سيفعل زميله في اللعب؟ وما هي احتمالات تحركاته؟ وبماذا يرد عليه في أي احتمال؟ وماذا سيكون رد ذاك على رده؟ وبماذا يقابل ذلك؟ وهكذا يسبق التفكير الدقيق كل تحرُّك من الجانبين.

إن التصرفات العشوائية لا تليق بالحكماء بل كل ما يفعلونه إنما يحسبون حساب نتائجه قبل أن يفعلوه.

*****

والإنسان الحكيم لا ينظر إلى الأمور من زاوية واحدة بل تكون له النظرة الشاملة التي تحيط بكل الزوايا. كما أنه ينظر أيضاً إلى قُدّام بشيء من بُعد نظر.

لا ينظر إلى الأمور من جهة نفسه فقط، إنما من جهة غيره أيضاً سواء كان هذا الغير من الأصدقاء أو من الأعداء أو من عموم الناس. وهو يحسب حساب المستقبل وكيف تتطور الأمور إلى ما هو أفضل أو أسوأ.

وكمثال: فإن كثيرين من رجال الأعمال كان من أسباب ثرواتهم أنهم كانوا بعيدي النظر، يحسبون ما يطرأ على السوق في المستقبل. ومنهم من اشترى بعض الأراضي بثمن بخس وانتظر حتى صار سعرها بالملايين!

*****

والحكمة لازمة أيضاً في أمور معينة تبدو حسّاسة أو مصيرية.. فقد يتصرّف الإنسان بجهل تصرفاً يندم عليه كل أيام حياته.. وربما يرتكب غلطة تكون غلطة العمر كله ويندم بسببها أو يبكي طول حياته، دون أن ينفعه الندم أو البكاء! كل ذلك لأنه لم يتصرّف بحكمة وحرص.

وأحياناً يتحمّس شخص لتصرُّف معين حماساً يملك كل عواطفه بينما هذا الحماس لا يكون في صالحه وقد يندم عليه وقد يقول بعد فوات الفرصة: ليتني ما فعلت، ليتني تباطأت واسترشدت... لذلك فالمشورة تقدم وجهات النظر الأخرى وتعطي رؤية من زوايا غير واضحة أو تقدم تبصرة بنتائج لم يعمل لها حساب.

غير أن البعض قد تمنعه من المشورة ثقته الزائدة بنفسه وظنه أنه على دراية بكل شيء ونتائجه. وقد يكون مبالغاً جداً في ثقته بنفسه!

*****

الحكمة أيضاً لازمة في معرفة الفضيلة وفي ممارستها وسنضرب هنا مثلاً بموضوع الصمت والكلام؟

فالحكيم لا يصمت حين يجب الكلام. ولا يتكلّم حين يحسن الصمت.. وبالحكمة يعرف متى يتكلم؟ وكيف؟ وإذا تكلّم ماذا يكون قدر كلامه؟ وبأي أسلوب يتحدّث؟ وهكذا يتكلّم بميزان وبرويّة وحكمة وبفائدة ولا يندم على كلمة يقولها بل يمتدح الناس ما يقول.

والصمت قد يكون في بعض الأوقات رزانة ورصانة وقد يكون حكمة وتفادياً لأخطاء اللسان.. بينما في حالات أخرى قد يكون الصمت عن جهل أو خوف. وأحياناً لا يستطيع الإنسان أن يصمت إن كانت كلمة منه تحل مشكلة، أو إن كان صمته يفهم على غير ما يقصده.

*****

تلزم الحكمة أيضاً لمعرفة متى يكون الحزم ومتى يكون العطف وهذا الموضوع مهم في محيط التربية وأيضاً في مجال الإدارة وكذلك في التعامل. ففي التربية: نرى أن الابن الذي لا يخاف والديه قد يسلك باستهتار دون رادع وربما يصير مرارة نفس لوالديه. كذلك التلميذ الذي لا يخاف أساتذته، ما أسهل أن يتحول إلى طالب مشاغب، لضيع وقت زملائه ويتلف أعصاب أستاذه.

على أن المخافة هي مجرد مرحلة في التربية، تتحول إلى مهابة واحترام مع بقاء الحب نحو الوالدين والأساتذة.. وهؤلاء أيضاً عليهم باستمرار أن يخلطوا حزمهم بالحب، ولا تكون معاملتهم حزماً صرفاً ولا عطفاً صرفاً.. فيعرف الشخص متى يشتد ومتى يحنو؟ متى يوبّخ أو يؤدّب؟ ومتى يكتفي بمجرد النصح والتوجيه. وهذا حسب نوعية الخطأ ومقداره وأيضاً حسب نفسية المخطئ ومدى استجابته.

مثل الطبيب الذي يستخدم أحياناً العلاج بالأدوية وأحياناً تلزم الجراحة. وهكذا كانوا يسمون الطبيب حكيماً، لأنه في حكمة يعرف نوع المرض، ونوع العلاج النافع.

٢٤/ ١٢ / ٢٠٠٥

الآخَـر
من هو الآخَر؟
ما علاقتك بالآخَـر؟

الآخَر هو كل إنسان غيرك. فما هى علاقتك إذن بالآخر؟

حينما خلق اللَّه أبانا آدم، خلق له كائناً آخَر هو أمنا حواء.

وكانت علاقة كل منهما بالآخَر علاقة حب وتعاون، نضعها كمثال طيب أمامنا. فلم يحدث في يوم من الأيام أن اختلف أحدهما مع الآخر.

إنما عاشا متزاملين ومتلازمين، يقطعان غربة العمر معاً.

يقطفان الورد معاً، وقد يجرحان من الشوك معاً...

ثم كانت أول مأساة مع الآخر، فيما قاساه ابنهما هابيل من أخيه الذي قام عليه وقتله. فكان المثال الذي علينا أن نتحاشاه.

*****

وبمرور الوقت اتسعت دائرة الآخَر في الحياة: من العلاقة بين فرد وفرد، إلى العلاقة في محيط الأسرة، ثم القبيلة. وتطورت إلى العلاقات في البلد الواحد، إلى الوطن الواحد. وأخيراً إلى العالم كله، الذي نشأ من أسرة واحدة. فكيف يكون إذن التعامل مع هؤلاء؟ ولنبدأ بالتعامل مع الفرد، فنقول:

هل أنت تحترم الآخَر أياً كان، كإنسان؟ هل نتعاون معه؟

هل تساعد الآخَر؟ هل تجده؟ هل أنت على استعداد أن تبذل نفسك لأجل الآخَر، وتضحّي من أجله بكل شيء؟

اعلم أنه حسب نوعية التعامل مع الآخَر، يكون مقياس حضارة الإنسان، فالإنسان المتحضّر يكون سهل التفاهم مع الآخَر، يأخذ ويعطي معه في مودة ويُسر، ولا يسرع إلى الخلاف ...

*****

ما أجمل ما قاله أحد الحكماء: "ما عاش من عاش لنفسه فقط".

إنها الأنانية أو الانغلاقية، حيث يتمركَز الشخص حول نفسه، ولا يخرج منها ويندمج مع الآخَر. وهذا الاندماج هو البذرة التي يتكون بها المجتمع. وعلى العكس هناك من يرون أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون الآخَر.. بل كل نشاطهم هو من أجل الآخَر، وكل مواهبهم هى من أجل الآخَر. وفي هذا يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

يا صديقي أنا لولا أنت ما غنيت لحناً   كنت في قلبي لمّا كنت وحدي أتغنى

*****

وإن كانت هذه هى كلمات شاعر، وخواطره ومشاعره وألحانه، فإنها أيضاً هى علاقة الكاتب مع الآخَر، أعني مع القارئ..

وكأن الكاتب يقول للقارئ. بلغة إيليا أبو ماضي: "أنا لولا أنت ما كنت أكتب، إذ أنني من أجلك أكتب، حيث يختلط فكري بفكرك، ويصير لنا فكر واحد، وليس آخر. فأنت هدفي، وأنا وسيلتك. وأنت أذني، وأنا فمك. وكلانا واحد. وحقاً ماذا تكون جدوى كلماتي من غيرك؟! إنها لا شيء!

نفس الأمر مع كل مَن يعمل عملاً، هو لغيره، أو نتيجته لغيره.. فالبائع لا شيء، إن لم يوجد المشتري. والمتكلم لا جدوى لكلامه، إن لم يكن هناك الذي يسمع. والراعي لا صفة له، إن لم تكن هناك رعية. والمعلّم ما هدفه، إن لم يكن هناك من يتلقى عليه العلم. وهكذا دواليك. وفي كل هذه الأمثلة تظهر أهمية الآخَر..

نقطة أخرى في علاقة الإنسان بالآخَر، وهى:

إن الإنسان الواسع القلب، لا يزاحم الآخَر في طريق الحياة.. بل هو في سيره، يفسح طريقاً لغيره. يفسح له الطريق ليعبر، أو لكي يسير معه في نفس الطريق. إنه لا يتعالى على الآخَر، ولا يتفاخر، وهدفه أن يلتقيا ولا يتباعدا. وأتذكر أنني كتبت عن ذلك في إحدى قصائدي منذ زمن بعيد.

قل لمن يجري ويعلو شامخاً   يا صديقي قف قليلاً وانتظرني
نحن صنوان يسيران معاً   أنا في حضنك مل أيضاً لحضني
قل لمن يعتز بالألقاب إن   صاح في فخره: من أعظم مني؟!
أنت في الأصل تراب "تافه"   هل سينسى أصله من قال إني..؟!

يا أخي اعرف جيداً في صراحة كاملة:

إنه كلما ازدادت (الأنا) عندك، حينئذ يختفي الآخَر في مقاييسك حيث تقول: "مَن الذي يعيش ويظهر، وينمو وينتشر: أنا أم الآخَر؟" وحيث يقول البعض: إذا مت عطشان، فلا نزل المطر!! أو تقول: فلأكن أنا المنتصر على الدوام، وغيري المهزوم..!

الدنيا هى دنياي أنا، خلقها اللّه لي، لكي أعيش!! وتنسى أن اللّه تبارك اسمه، قد خلق الدنيا للكل، والكل رعاياه وموضع اهتمامه.

لماذا تطلب أن يختفي الآخَر لكي تظهر أنت؟ ألاَ يمكن لكما أن تعيشا معاً؟ حقاً إن عمق الاهتمام بالآخَر يكمن في إنكار الذات، وإيثار الغير على النفس. بينما إهمالك للآخَر لون من الأنانية..

*****

يا أخي، لماذا يكون قلبك ضيقاً، فلا يتسع للآخَر؟!

ولماذ. إذا ما اتسع قلبك. فإنما ينفتح لنوعية خاصة من الناس، بينما ينغلق أمام الآخَرين؟! لماذا تخسر الآخَر؟!

ليتك تستمع إلى سليمان الحكيم حينما قال: "رابح النفوس حكيم"..

على أن أسمعك وأنت تهمس قائلاً: "ولكن فلاناً لست اتفق معه، طبعي لا يتّفق مع طبعه، وفكري لا يتمشى مع فكره"، هنا وأراني مضطراً أن أردد عبارة جميلة قالها القديس يوحنا ذهبي الفم، وهى: "من لم توافقك صداقته، لا تتخذه لك عدواً".

لذلك نصيحتي لك، لا توسع دائرة أعدائك. فليس هذا من الصالح لك ولا لغيرك..

*****

وهنا أسأل: إذا اختلف معك الآخَر في الرأي، هل تحوّل ذلك إلى خلاف في القلب أيضاً؟!

وهل حينئذ تهاجم الآخر، وتعاديه، وتحقره، وتشهر به؟! أمْ تحاول أن تلتقي به وتتفاهم؟ وإن التقيت معه في حوار، أيكون حواراً هادئاً، أمْ ساخناً، أمْ ملتهباً؟ أم حواراً يسوده الاحترام والمودة؟

وهل يكون هدفك من الحوار أن تنتصر على الآخَر، وترغمه على قبول رأيك؟ وهل حوارك ليس للتفاهم، إنما لإثبات شخصيتك، وتثبيت فكرك؟ وهل يؤول حواركما حينئذ إلى مزيد من التباعد في الرأي والقلب؟!

يا صديقي، هل تؤمن بحرية الرأي؟ وبالتنوع والتعدد في الأفكار؟ وهل يظهر ذلك في تعاملاتك؟ أم أنك تعمل على إلغاء شخصية الآخَر!! فإما أن يوافقك، أو تطرحه بعيداً عنك. ويتحوّل التنوع إلى خلاف، ويتحوّل الخلاف إلى قتال ويؤول القتال إلى عداوة، تحتد وتشتد!!

*****

في الزواج مثلاً: لماذا يحدث الطلاق أحياناً؟ أليس السبب هو نفس الإشكال؟ أنا أم الآخر؟!

بينما الحكمة في الزواج، أن يصير الزوجان واحداً، لا أن يكونا واحداً وآخَر..! وهكذا عن باقي أفراد الأسرة والأقارب، حيث يقول الواحد منهم عن قريبه: إنه لحم من لحمي، وعظم من عظامي. إنه دمي، وليس آخَر...

وبالحب، يتّسع نطاق أسرتك، حتى يشمل المجتمع كله. ولا تقول عن فرد منه إنه آخر. بل هذا المجتمع هو ذاتك الكبرى، وليس آخر..! عندئذ يتحوّل العالم كله إلى أسرة كبيرة متحابة، يتحدثون فيها عن التعاون الدولي، والمؤسسات الدولية، وما إلى ذلك.

*****

لهذا كله، ينبغي على كل منا أن يتدرّب على محبة الآخر. فالعلاقة مع الآخر كلما ازدادت قرباً تتحول إلى وحدة. وأتذكر أنني سُئلت مرة عن الوحدة الوطنية فقلت:

يا أخي المواطن: حينما أنظر إلى نفسي فأراك، وأنظر إليك فأراني، وكأنني أنظر في مرآة، وكأننا زوج واحد في جسدين، عندئذ تكون هذه هي الوحدة الوطنية...

٣١ / ١٢ / ٢٠٠٥

الجدّيـة والتدقيـق

الجدية هى الميزة الأولى التي تميز الناجحين والمتفوقين عن غيرهم فعظماء الرجال الذين سجل التاريخ أسماءهم، هم أولئك الذين كان لهم خط واضح رسموه لحياتهم، وساروا فيه بقلب ثابت لا يتزعزع، ولم ينحرفوا عنه يميناً ولا يساراً، وكانت لهم مبادئ ثابتة لا يحيدون عنها. كما أنهم لم يسمحوا مطلقاً لأية ظروف أن تعوقهم.

وأيضاً طلاب العلم الذين نبغوا، وكانوا الأوائل بين زملائهم، هم الذين عكفوا على دراساتهم بكل جدية. وأيضاً العامل الناجح هو الذي يؤدي عمله بجدية. بل حتى اللاعب الناجح هو اللاعب الذي يكون جاداً في لعبه، لا يتهاون أو يتكاسل فيه ..

****

والإنسان الجاد هو جاد في كل شيء ..

هو جاد في وعوده، وفي مواعيده. لا يعد أحداً بوعد ويرجع فيه مهما كانت الأسباب. ولا يحدد لأحد ميعاداً ويغيب أو يتأخر عنه ملتمساً لنفسه الأعذار!

والإنسان الجاد إذا نذر نذراً، لا يعاود التفكير فيه أو المساومة ولا يؤجل الوفاء بنذره، ولا يحاول استبداله بغيره، ولا يماطل. إنما بكل سرعة، وبكل جدية، ينفّذ نذره كما هو. واضعاً أمامه القاعدة الذهبية التي تقول: "خير لك أن لا تنذر، من أن تنذر ولا تفي" لهذا فكل وعوده ونذوره، تكون موضع ثقة.

****

والإنسان الجاد يهدف إلى الكمال. لذلك فهو ينمو باستمرار ..

الجدية تمنحه حرارة روحية. والحرارة تدفعه كل حين إلى قدام .. وإذ يتمسّك - في كل ما يعمل - بأعلى درجة يمكنه الوصول إليها، لهذا فإنه بكل مثابرة واجتهاد، يمنح مسؤولياته كل قوته وكل إمكانياته، وكل إرادته وكل قلبه.. ويعمل بكل النعمة المُعطاة له، ولا يقصّر في شيء إنما يبذل كل طاقاته.. ولذلك فهو لا يحتاج كثيراً إلى من يدفعه في الطريق، فالدفع المستمر يأتيه من الداخل.

والإنسان الجاد لا يدلل نفسه ولا يحابيها. ولا يعذرها في أي تقصير. وإن توانت نفسه يوماً، يغصبها على العمل وعلى التقدم، حتى تتعود ذلك وتؤديه في تلقائية.

****

والإنسان الجاد، إذا صادفته صعاب، ينتصر عليها، ولا يعتذر بها ..

إنه لا يستسلم لعقبة، بل يكافح ساعياً إلى المثاليات، مصراً على النجاح في طريقه مهما كانت العقبات أمامه. وهو ينجح في كفاحه، طالما كان حارا في الروح، لا يفتر ولا يضعف..

ومادامت المثاليات أمامه، فإنه لا يرضى بأنصاف الحلول، ولا باجتياز مرحلة في الطريق والاكتفاء بها! بل يسعى بكل نشاط، حتى يصل إلى الغاية وإلى النهاية. لذلك فهو في صعود مستمر نحو الهدف..

وهذا الجاد الذي يتقدم باستمرار، لا يخشى عليه من النكسات أو من الرجوع إلى الوراء..

****

إن الجدية في الحياة، دليل على الرجولة وقوة الشخصية:

والإنسان الجاد في حياته، هو إنسان يحترم نفسه، ويحترم مبادئه، ويحترم الكلمة التي تخرج من فمه، ويحترم الطريق السليم الذي يسلكه. فهو- لهذا كله - يتميز بالثبات وعدم الزعزعة. إنه كسفينة ضخمة تشق طريقها في بحر الحياة بقوة متجهة نحو غايتها.. وليست كقارب تعصف به الأمواج في أي اتجاه..

إن الإنسان غير الجاد، يتأرجح في حياته دائماً بين الصعود والهبوط.

ومسيرته غير ثابتة، سواء في أمور عمله، أو في حياته الروحية..

فهو يسقط ويقوم، ويداوم القيام والسقوط، في غير استقرار!!

أحياناً يكون حاراً، وأحياناً يكون فاتراً، أو بارداً. في فترة يكون مهتماً، وفي أخرى يقابل الأمور بلامبالاة!!

الإنسان الجاد، تظهر جديته في سلوكه الروحي وعلاقته مع اللَّه:

فالجدية في السلوك الروحي، لا تقبل الإهمال والتراخي ولا التردد، ولا الرجوع أحياناً إلى الوراء. ولا تقبل التأرجح بين طريقين: حياة الفضيلة وشهوة الخطية! أو ساعة للقلب، وساعة للرب!! كما لو كان القلب والرب في طريقين متناقضين!!

الإنسان الجاد لا يتساهل في حقوق اللَّه مطلقاً. إنه يأخذ حق اللَّه من نفسه هو أولاً، قبل أن يسعى لأخذ حق اللَّه من الآخرين.

وهو يسلك في وصية اللَّه بكل حزم وبكل دقة وبكل عمق.. وطاعته للَّه - تبارك اسمه - تكون بغير مناقشة وبغير مساومة..

والجدية في الحياة الروحية لا تعني التزمُّت إطلاقاً!

فمن الممكن أن يسلك الإنسان بطريقة روحية في حياة الفضيلة، وفي نفس الوقت يكون بشوشاً، ومرحاً في وقار..

أما التزمُّت فهو لون من التطرُّف. والتطرُّف ضد الروحانية والجدية..

****

والإنسان الجاد الروحي، لا يقدم تبريرات للسقوط في الخطية!!

فالفضيلة واجبة، مهما كانت الظروف الخارجية ضاغطة.. ومثال ذلك يوسف الصدّيق العفيف: كانت الظروف من الخارج تضغط عليه، ولكنه لم يخضع لها، ولم يتساهل مع الخطيئة، بحجة أنه وقتذاك كان عبداً، وتحت سلطان غيره، وبامكان سيدته أن تؤذيه..

ولكن الخير الذي كان في قلبه، كان أقوى من الخطيئة التي تغريه، وكان أقوى من الضغوط الخارجية. وكان يوسف جاداً في حفظ نفسه طاهراً...

****

إذن يجب أن يكون الإنسان جاداً في حياة التوبة:

فيقاوم الخطيئة بكل جدية، إذا ما حورب بها. وإن سقط، يكون جاداً في توبته ولا يؤجلها. وإن تاب وترك الخطيئة، يتركها بجدية، ولا يعود إليها مرة أخرى. وليضع أمامه قول ذلك الأب الروحي: "لا أتذكر أن الشياطين قد أطغوني مرتين في خطية واحدة".

فقد يكون السقوط عن جهل أو ضعف. ولكن متى أدرك التائب الجاد ذلك، يحرص ألاّ يقع في نفس الخطأ مرة أخرى. بل تكون التوبة نقطة تحوّل كامل في سلوكه بغير عودة فهو يغلق أبواب فكره وقلبه أمام الخطية غلقاً تاماً، بعزيمة قوية وإصرار شديد على حياة البر، ويكون جاداً في تداريبه الروحية لا يكسرها مهما كانت الأسباب، ويحفظ تعهداته أمام اللَّه في جدية.

****

على أن الشيطان أو أعوانه، الذين يحاربون الإنسان في جدية الحياة الروحية، قد يغرونه بما يسمونه المرونة في سلوكه!!

لكن المرونة لا تكون أبداً بالخروج عن القيم الروحية. إنما المرونة بمعناها الحقيقي تكون في داخل القيم وليس خارجها...

وليست المرونة مطلقاً في عدم الالتزام، بل يكون الإنسان مرناً مع الالتزام بحياة الفضيلة والبر.

والجدية تلزم الإنسان أيضاً على حياة التدقيق.

****

من مظاهر الجدية، التدقيق في كل شيء:

والإنسان الجاد في حياته، يحرص أن يكون مدققاً في كل تصرفاته، وفي كل كلمة يقولها، وكل فكر. ويكون مدققاً من جهة حواسه ومشاعره، ومن جهة مواعيده ووقته. وبالاختصار في كل علاقاته مع اللَّه والناس، ومع نفسه. ويتدرّب على ذلك، حتى يصبح التدقيق جزءاً من طبعه.. وبعد يا قارئي العزيز، ألست ترى أن موضوع التدقيق يلزم له مقال خاص؟ إني أرى ذلك أيضاً. فإلى اللقاء.

٧ / ١ / ٢٠٠٦

حيـاة التدقيـق

بدأنا مقالنا السابق عن "الجدية والتدقيق. ونتابع اليوم حديثنا عن التدقيق في كـل تفاصيل الحياة".

إن الإنسان المدقق، يشمل تدقيقه كل تفاصيل حياته ولا يكون تدقيقه فقط أمام الناس، إنما حتى حين يكون وحده في غرفته الخاصة.

نقول هذا لأن التدقيق في التصرُّف قد يكون سهلاً نوعاً ما في حضرة النـاس لأننـا بطبيعتنا لا نحب أن ينتقدنا الناس، أو نخشى أن نكتشف أمامهم، وتظهر أمـامهم عيوبنـا وأخطاؤنا. ولهذا فإن القياس الحقيقي لتدقيقنا، يظهر حينما نكون وحدنا لا يبصرنا أحـد. وهنا يكون التدقيق حقيقياً وليس ريائياً.

****

والإنسان المستقيم، يصبح التدقيق جزءاً تلقائياً من طبعه، وليس مجرد محاولة منه أو تدريب.

إنه تعوّد أن يكون مدققاً في كل شيء، بدوافع داخلية فيه تمثل بعضـاً مـن مبادئـه وقيمه.. وحتى إن كان - في حياته الخاصة - لا يراه الناس، فهو يجب أن يكون بلا لـوم أمام اللّه الذي يراه، وأمام الملائكة الذين يرونه، وأمام أرواح الأبرار في العالم الآخر..

فهل أنت مدقق بهذا المقياس، بغض النظر عن أحكام الناس؟

هنا نسأل: ما هو التدقيق؟

التدقيق هو حرص على التصرف السليم، مع الاحتراس من أقل خطأ. هو سعي نحو أكمل وضع ممكن، بغير تسيُّب ولا تراخ ولا إهمال، وفي بعد عن التبريرات التي تـدافع عن كثير من الأخطاء، هو خطوة نحو الكمال.

فالذي يدقق محترساً من الوقوع في الصغائر، من الصعب عليه أن يقع في الكبـائر والذي يحترس بكل قوته لكي لا يقع في الخطيئة بالفكر، ليس من السـهل أن يقـع فـي الخطيئة بالعمل.

ولكن على الإنسان في تدقيقه، أن يحترس بحيث لا يقع في التزمُّت أو في الوسوسة أو الحرفية.

ففي التزمُّت والوسوسة، يظن المتزمِّت وجود الخطأ حيث لا يوجد خطأ، أو يفخم من قيمة الأخطاء فوق حقيقتها، أو تحاربه عقدة الإثم بدون سبب معقول. أو هو - في سبيل الدفاع عن الحق - يصل إلى التطرف الذي يؤثم تصرفات سليمة!!

مثل أولئك الناموسيين الذين قال عنهم السيد المسيح إنهم يحمّلون الناس أحمالاً ثقيلة عَسِرَة الحَمْلِ. وأنهم يغلقون ملكوت السموات قُدّام الناس، فلا يدخلون هم، ولا يدعون الداخلين يدخلون!!

إنما التدقيق - بمعناه الحقيقي السليم - هو تصرُّف في وضع وسط، ما بين التسيب والتزمُّت. إنه يذكرنا بميزان الصيدلي: بحيث كل مادة تدخل في تركيب الدواء. إن زادت عن الحد قد تضر، وإن نقصت قد تضر فالمدقق له مبادئ يحافظ عليها، بحيث لا يبالغ فيها ولا يهمل.

****

الإنسان المدقق، يكون حريصاً على وقته، كجزء من حياته .. يستخدم الوقت بطريقة سليمة. لا يضيع شيئاً منه فيما يندم عليه، أو فيما لا يستفيد منه. وهو يوزع وقته توزيعاً عادلاً على جميع مسؤولياته.

وفيما يحرص على وقته، يحرص على دقة مواعيده، وعلى نظام حياته. وكما يكون مدققاً من جهة وقته، يكون أيضاً مدققاً من جهة وقت غيره.

نقول هذا، لأن إنساناً قد يظن أن وقت الآخرين رخيص عندهم! فيزور غيره في موعد غير مناسب، أو يكلّمه ويشغله مضيعاً وقته. بينما هذا الغير لا يعرف في خجله كيف يهرب منه!

أما الإنسان المدقق فهو يحترم حياته ووقته، ويحترم حياة الآخرين ووقتهم. ولا يسمح لنفسه أن يضيع وقته في التوافه، أو أن يعطي أية مشغولية أو زيارة وقتاً فوق ما تستحق.

والإنسان الصالح ينبغي أن يكون مدققاً في كلامه:

فهو يزن كل كلمة قبل أن يقولها، سواء من جهة معنى الكلمة أو قصدها، أو مناسبتها للمجال أو للسامعين، أما الذي يتكلّم ثم يندم على قول، فهو غير مدقق في كلامه. وكذلك

الذي يتكلّم، ثم يعاتبونه على معنى كلامه، فيقول ما كنت أقصد ذلك، هو أيضاً غير مدقق في كلامه. ويخطئ أيضاً الذي يتكلم ويجرح شعور غيره، بغير حكمة وبغير تدقيق.

إن السرعة في التكلُّم، هى من الأسباب التي تؤدي إلى عدم التدقيق. سواء السرعة في إبداء الرأي، أو السرعة في الحكم على الآخرين، أو السرعة في الاستسلام للغضب. كل ذلك يعرّض الإنسان للخطأ. فلا يكون مدققاً في كلامه.

أما الذي يتباطأ، ويزن الكلمة قبل أن يقولها، فإنه يكون أكثر تدقيقاً. لأنه في الإبطاء أو في التفكير المتزن، يمكنه أن يتحكّم فيما يريد أن يقوله، بحيث يتخير الألفاظ المناسبة، ويحسب ردود فعلها لأن الكلمة بعد أن يلفظها، لا يستطيع أن يغيرها أو يسحبها! لقد حُسِبت عليه.

وكما يدقق الإنسان في كلامه، ينبغي أن يدقق في مزاحه وضحكه.

بحيث لا يخرج مزاحه عن حدود اللياقة والأدب، كما لا يجوز أن يتحول ضحكه إلى لون من التهكُّم على الغير أو الاستهزاء به، وجعله مادة لفكاهاته ولسخريته وتسلية الناس! ولا يجوز أن يؤدي ضحكه إلى جرح شعور غيره. فمن حق الإنسان أن يضحك مع الناس، لا أن يضحك على الناس. وليس له أن يهين غيره، ولو في مجال مزاح، ولو عن غير قصد.

****

والإنسان الروحي يكون أيضاً مدققاً في نقده وفي عتابه: فالنقد السليم ليس هو التجريح ولا التشهير. إنما هو لون من التحليل، تذكر فيه النواحي الطيبة. أما المآخذ فتذكر بطريقة موضوعية، وليس بطريقة شخصية، وبأسلوب غير هدّام.

والعتاب أيضاً لا يكون قاسياً ولا يوبخ الشخص من يعاتبه، كمن يريد أن يحطّمه. بل يكون هدفه أن يصالحه. والعتاب الخاطئ قال عنه الشاعر:

ودع العتاب فرب شر.. كان أوله العتابا

ما أكثر الناس الذين يستخدمون كلمة "الصراحة" في غير معناها الدقيق، فتتحول الصراحة إلى مهاجمة وتجريح، ولا تأتي بنتيجة.

الإنسان المدقق تظهر دقته أيضاً في كل عمله ومسؤولياته:

سواء كانت المسئولية إدارية أو مادية أو اجتماعية. فالدقة في العمل تقود إلى النجاح والإتقان، وإلى احترام الناس وثقتهم. والإنسان المدقق لا يحتاج إلى من يراجعه في عمله. فهو يبعد عن كل خطأ، وتكون دقته في العمل نموذجاً لغيره. وإن اخطأ لسبب ما لا يحاول أن يبرر ذلك بأعذار. فمحاولة تبرير الأخطاء هى ضد التدقيق.

هناك كثيرون يدققون في محاسبة غيرهم ولا يدققون في محاسبة أنفسهم!

أما أنت فحاسب نفسك بتدقيق شديد، ولا تعذر نفسك. ولكن بالنسبة إلى الآخرين، فحاول أن تلتمس لهم عذراً.

****

الإنسان الروحي يكون دقيقاً أيضاً في عبادته، وفي مقاومة الخطية:

إنه لا يقصّر في صلاته، وفي صومه، ولا في قراءاته الروحية، ولا في شيء مما يربطه بحياة الفضيلة والبر. ويكون حريصاً جداً في البعد عن أسباب الخطية. وإن عرضت له، يقاومها بكل حزم.

ويدقق في كل سلوكياته: في العمل، وفي هدفه، ووسيلته. ويحرص أن يكون أمام ضميره بغير لوم. ويحكم على نفسه قبل أن يحكم الناس عليه. وإذا كان في موقف إدارة، يحترس أن يتطور من الأمر إلى التسلّط. ويحترس أن يتحوّل من القدوة إلى محبة المديح وإعلاء الذات.

١٤ / ١ / ٢٠٠٦

محبة الخير
ومحبة الغير

محبة الخير أسمى بكثير من مجرد عمل الخير..

فقد يعمل الإنسان خيراً دون أن يُوصف بأنه شخص خيِّر!! وكيف ذلك؟ يرجع هذا إلى السبب الذي من أجله قد عمل الخير:

إذ أنه ربما يعمل الخير لمجرد كسب مديح الناس، دون أن يكون محباً للخير في قلبه. وهكذا يعمل الخير رياءً وليس عن فضيلة.. أو قد يعمل الخير مضطراً أو مرغماً أو لمجرد طاعة أمر، أو قد يفعل ذلك وهو متذمِّر في قلبه، فلا يوصف بأنه محب للخير. أوقد يعمل الخير كمجرد سياسة يصل بها إلى غرض ما. أو يعمل الخير انسياقاً وراء تيار ما، أو عن طريق المجاملة، أو لغير ذلك من الأسباب وفي كل ذلك لا يكون محباً للخير..

****

أما الإنسان محب الخير، فإنه يفعل ذلك من كل قلبه، دون أي هدف من وراء ذلك، سواء عرف الناس أولم يعرفوا، وسواء كوفئ على هذا الخير أو لم يكافأ.

بل هو يفضّل أن يعمل الخير في الخفاء، حتى لا ينال أجره من الناس هنا على الأرض. يفعل الخير لأن طبيعته هي هكذا، لا تستطيع أن تفعل سوى الخير. ويُسَرّ بكل مناسبة تعرض له لفعل الخير. ويعتبر أن كل يوم يمرّ عليه دون أن يعمل خيراً فيه، هو يوم لا يُحسب له في حياته أمام اللَّه.

****

ومُحب الخير يفعل الخير مع كل أحد، بشراً كان أو أي مخلوق آخر.. فهو لا يعمل الخير مع الناس فقط، إنما مع الحيوان أيضاً. ومن هنا وجدت جمعيات الرفق بالحيوان. والذي تكون له قسوة على الحيوان، لا يكون خيراً.. بل محب الخير، يهتم أيضاً بالطبيعة وبالبيئة التي يعيش فيها. ويشفق على النبات فيغذيه وينميه ويرويه... وقد ذكرني هذا بقول أحد الأدباء الروحيين: "سقيت شجيرة كوب ماء. فلم تقدم لي عبارة شكر واحدة. ولكنها انتعشت، فانتعشت". وهكذا سعد قلبه بانتعاش الشجيرة.

لقد أقام اللّه الإنسان وكيلاً على الطبيعة يرعاها ويهتم بها. وهو لا يستطيع أن يقوم بهذا الواجب بأكمل وجه، إن لم يكن يحب الطبيعة ويحب الخير لها، ويفعل في سبيل ذلك ما يستطيعه.

* * * *

والذي يحب الخير، ويحب الغير، ويحب الخير للغير، إنما يفعل الخير مع كل أحد، من أي جنس أو لون أو مذهب.

إنه يتعامل مع كل أحد كأخ له في الإنسانية فكلنا إخوة، من أب واحد هو آدم، ومن أم واحدة هى حواء.. وقد أمرنا اللّه. تبارك اسمه أن نحب بعضنا بعضاً، وأن يعمل كل منا الخير مع أخيه الإنسان، بغير تحيز أو تميز.. هذا من الناحية الإيجابية. أما من الناحية السلبية فلا يجوز لأحد أن يحمل في قلبه حقداً أو كراهية على غيره من البشر، لأن القلب الصالح لا تجتمع فيه المحبة والبغضة معاً!

* * * *

إن الحب هو الطبيعة التي خلق بها الإنسان. أما الكراهية فدخيلة عليه والانحراف عن المحبة، هو أمر لا يتفق مع الصالح العام، ولا مع السلام الاجتماعي، كما لا يتفق مع مشيئة اللّه.

بل حتى السلام مع الحيوان، كان هو السائد مع الإنسان الأول أيام أبينا آدم، وكذلك في الفلك أيام أبينا نوح. ثم تطورت الأمور، لمّا عرف الإنسان الصيد، وبالتالي دخل الافتراس في طبيعة بعض الحيوانات!

وللأسف، فإن البشرية بمرور الوقت لم تستطع أن تحتفظ بالحب حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، وهكذا هابيل قتله أخوه. وبتوالي القتل، عم القتال وتحول إلى حروب أصبح بعضها مدمّراً وواسع النطاق.

* * * *

وتتابعت مأساة فقدان الحب في تاريخ البشرية. وتشوّهت صورة البشرية، وخرجت من إطارها الروحي المقدس الذي أحاطها الرب به!!

وكثرت قصص العداوة والبغضاء والخصومة، وقصص الحسد وتصادم الأغراض، والتنافس على الرزق وعلى السلطة والمناصب. وكثر النزاع واشتعلت الحروب. واكتست

الأرض بدماء بريئة ودماء غير بريئة. وأصبح الأخ يعتدي على أخيه، والأخ يخاف أخاه، حتى قال الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير.

****

وكان لابد من معالجة الحال، ومن إعادة المحبة بين الناس:

كما كان يلزم تقديم قدوة عملية للناس، ومعالجة الأسباب التي أوصلت البشرية إلى التخاصم والعداوة والقسوة وسفك الدماء، مع العمل على ترميم بناء المحبة الذي تصدَّع أحياناً وانهار. فوضع اللَّه. جل جلاله.

وصايا للبشر تحث على السلام والمودة والتعاون والتفاهم، وعلى حسن التعامل مع الغير، وتنقية القلب من البُغضة، والارتقاء به إلى مشاعر الحب.

والحب هو القمة التي تصل إليها المشاعر البشرية.

والحب هو المقياس الذي تقاس به إنسانية البشر، أما القسوة فهي الدليل على ما وصلت إلية الطبيعة البشرية من الوحشية.

وهكذا كل خير نفعله، إن كان خالياً من الحب. حب الخير وحب الغير.

فإن اللَّه لا يعتبره خيراً على الإطلاق. على إن لهذا الحب قواعد ينبغي أن نعرفها لحكيماً يكون حباً سليماً ومقبولاً.

****

أولاً: أن تكون محبتنا للناس، داخل محبتنا للخير، فلا تتعارض معها فالأم التي تحب ابنها بأن تدلله تدليلاً يفسده، أو أن تغطّي على أخطائه بحيث لا يعرفها أبوه، لا تكون محبتها حقيقية ولا نافعة.

والصديق الذي يحب صديقه، بحيث يجامله في كل خطأ. ويخشى أن يقدّم له نصيحة مخلصة لئلا يجرح شعوره هذا لا يحبه بالحقيقة.

لذلك أيضاً، فالأب الذي يحب ابنه يؤدبه. وإن لم يؤدبه فهو لا يحبه.

****

شرط آخَر للحب، أن يكون عملياً: فلا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق، فمحبتنا للناس تظهر عملياً في معاملتنا لهم. في إخلاصنا لهم، ومشاركتنا الوجدانية.

ووقوفنا معهم في وقت الشدة، وإنقاذنا لهم من متاعبهم. ومحبتنا للفقراء تظهر في عطفنا عليهم، وإعطائهم ما يلزمهم، وليست في مجرد كلام العطف أو الدعاء.

وهكذا ارتبط الحب عموماً بالعطاء والبذل والحب الباذل يصل إلى قمته في بذل الذات، وبالعطاء من الإعواز، وبالاستعداد للتضحية والفداء إذا لزم الأمر.

* * * *

ومن شروط المحبة أيضاً، أن تكون طاهرة، وصادقة:

فليست محبة حقيقية: أن شاباً يحب فتاة فيفسد عفتها، ويضيع أبديتها، ويفقدها سمعتها في المجتمع الذي تعيش فيه.. مثل هذا الشاب إنما يهتم بإشباع شهواته، ولا يهتم بالفتاة وصالحها. وقد قلت مرة في الفارق بين الحب والشهوة: "إن الحب يريد دائماً أن يعطي أما الشهوة فتريد دائماً أن تأخذ".

ومن جهة المحبة الصادقة، ينبغي أن تكون بإخلاص بعيدة عن الرياء وعن الملق. وأن يسعى الشخص على رفع مستوى مَن يحبه، ولا يشاركه في خطأ ما.

* * * *

ومحبة الناس لها مجالات عديدة:

منها محبة الإبوة والأمومة، ومحبة البنوة والإخوة، ومحبة الأزواج ومحبة الأصدقاء، ومحبة العشيرة، ومحبة الوطن، ومحبة المجتمع عموماً.

وتوجد المحبة العامة التي تشمل العالم أجمع. وما أكثر الهيئات العالمية التي تعمل في نطاق الخير والإغاثة والإنقاذ لأي شعب على وجه الأرض.

نوع آخَر من المحبة، يظهر في محبة الغرباء، وإضافة الغرباء والاهتمام بهم.

وترتفع المحبة إلى أعلى قممها، فتصل إلى محبة الأعداء. وقد يقول البعض ومن الصعب عليَّ إن أحب عدوي فماذا افعل؟

أقول لك: على الأقل لا تبغضه، ولا تحقد عليه؛ ولا تنتقم منه، ولا تقابل الإساءة بالإساءة، وليتك تنسى إساءته وتسامحه، وتصلي من أجله أن يصلحه اللَّه ويقوده إلى التوبة ويغفر له. وهكذا تصل إلى محبته.

٢١ / ١ / ٢٠٠٦

المحبـة الضـارة

تكلّمنا في العدد الماضي عن المحبة وسموها وأهميتها بين جميع الفضائل.

وعلى الرغم من ذلك هناك ما يمكن أن يسمى بالمحبة الضارة؟

وهناك أسباب للمحبة الضارة، ومظاهر لها؟

ولعل من أسباب المحبة الضارة، أن تكون بغير حكمة، أو بفهم خاطئ، أو أن تكون بعيدة عن الروحيات أو تتعارض مع المحبة للّه، أو تتصف بالأنانية وبالرغبة في الاستحواذ، أو بأن تتحول من محبة إلى شهوة، أو تكون صادقة في الهدف ومخطئة في التعبير..

وسنحاول أن نتكلم عن كل هذه الأنواع ونشرحها..

****

أما المحبة الضارة بالاستحواذ، فهي التي تحبس من تحبه في حيزها الخاص.

وقد يحدث هذا الأمر في محيط الحياة الزوجية، أو في محيط الحياة العائلية بصفة عامة، أو في محيط الأصدقاء. وهنا تتصف المحبة بالأنانية..

مثال ذلك الزوج الذي تدعوه أنانيته في محبته إلى التضييق على زوجته في خروجها ودخولها، بل وأيضاً في الكلام والابتسام، وفي الزيارات واللقاءات وسائر العلاقات.. كمن يحبس عصفوراً في قفص ويمنعه من الطيران، ليكون له وحده! يتأمله وحده، ويغني العصفور له وحده. ولا تهمه حرية العصفور في شيء!

ومثل هذه المحبة الضارة التي تحدث بين الزوج لزوجته بشكل الاستحواذ، قد تدفعه إلى العصبية والعنف، فيجمع بين نقيضين: الحب والقسوة!

****

ومحبة الاستحواذ قد توجد أيضاً عند المرأة كما عند الرجل، وتصيبها بالشك والخوف والقلق.. وكما تضر نفسها بهذه المشاعر والأفكار، فإنها تضر زوجها كذلك بمحبتها! فتضيق عليه الخناق، وتكثر من أسئلتها له وتحقيقاتها حول مواعيده ومقابلاته وعلاقاته،

بطريقة تصيبه بالضجر والضيق النفسي وكل ذلك بِاسم الحب، الذي ارتبط بالغيرة المرة، فأصبح ضاراً!

وكما يضغط الرجل على زوجته في محبته الضارة، قد تضغط هى عليه بالدموع والمرض والحزن المتواتر!

****

ومحبة الاستحواذ قد توجد أيضاً في محيط الأصدقاء: فيضيع الشخص وقت من يحبه. وبسبب هذا اللون من المحبة، قد يشغل وقته، ويعطله بكثرة الأوقات والأحاديث، وكثيراً ما يؤثر بذلك على عمله، أو على دراسته إن كان تليمذاً.. فيضره بمحبته! أو بِاسم المحبة، يريده أن يتحيز له: فيصادق من يصادقه، ويعادي من يعاديه، وبهذا يضره من جهة علاقاته، ومن جهة روحياته أيضاً!

****

وقد تأتي المحبة الضارة عن طريق التدليل: وكثيراً ما يحدث ذلك في محيط الأسرة، وله أضراره العديدة:

ومنه الشفقة الزائدة، والإنفاق الزائد عن الحاجة، وتقديم أنواع من المتع قد تضر. وعدم فرض عقوبة مهما كان الذنب، أو تكون العقوبة نوعاً من التوبيخ البسيط جداً الذي لا يردع أحداً، فيستمر الخطأ. وقد يصل تدليل الأم لابنها، إنها لا تجرؤ على توبيخه، حتى لا تجرح شعوره. وقد تغطّي على أخطائه أمام أبيه!!

وهكذا قد يفسد الابن، نتيجة لهذه المحبة الضارة! كما أنه غالباً ما يفشل في حياته العملية وفي حياته الزوجية، لأنه تعوّد هذا التدليل وأصبح يطلبه في كل مجال يعيش فيه..

****

ومن مظاهر التدليل أيضاً الحرية الضارة مثل موظف مدلل من رؤسائه!

إذ يمنح المدلل - بِاسم المحبة - حرية بغير حدود، وبغير قيادة ولا ضابط يمكن أن توقعه في أخطاء يصعب علاجها، أو قد يسيء استغلال الحرية.

أو قد يعطي مسئوليات أو سلطات فوق مستواه. أو يأخذ منحاً وامتيازات أزيد مما يستحق.. وبالتدليل، يصدق رؤساؤه كل ما يرفعه إليهم من تقارير، ربما ضد زملائه. ويوافقونه على كل رأي أو اقتراح وبهذا يفسد العمل، ويفسد الموظف، ويصاب الزملاء بأضرار!

****

وقد تتركز المحبة الضارة في الجسد، وتتحول إلى شهوة وإذا حدثت هذه الشهوة بين فتى وفتاة، فإنها تضر كليهما: تضر سمعته وعفته ومستقبله وعلاقته بالله. ومهما سميت محبة، فهي شهوة، أو بالتجاوز هي محبة ضارة!

حتى شهوة الجسد - من جهة الطعام - هي شهوة ضارة. وعنها ينصح الحكماء بضبط النفس.

****

وعموماً: الشفقة على الجسد التي تضر الروح، تدخل في المحبة الضارة: كمن يشفق على جسده من التعب، فيركن إلى الراحة والنوم والخمول. ولا يجهد نفسه في القيام بمسئولياته أو في متابعة دراساته، أو في مواصلة طموحه.. هذا يضيع مستقبله. وتكون محبته لراحة جسده محبة ضارة. وبالمثل الذي يشفق على جسده بطريقة خاطئة، فلا يصوم. أو ينكب على الطعام بهدف الاهتمام بصحته.. هذا يضر صحته، ويضر روحه أيضاً.

****

ومن المحبة الضارة أيضاً المديح الزائد الذي يضر فمثل هذا المديح قد يدفع من يسمعه إلى الكبرياء أو إلى الغرور وقد يظن أنه ليس محتاجاً إلى مراجعة نفسه، وأنه من النوع الذي لا يخطئ! وقد يحدث هذا أحياناً في محيط الأصدقاء أو في تملق الملوك ورؤساء العمل، فيضرهم.

ويماثل هذا المديح الضار، الدفاع عن الأخطاء:

إنسان تدافع عن أخطائه - بدافع من المحبة الضارة - إنما تجعله يستمر في أخطائه أو يتشبث بها. وما أشد ما يصيبه نتيجة لذلك.

إن الصداقة الحقيقية ينبغي أن تكون صادقة. والصراحة الهادئة المؤدبة تكون أكثر حباً وأكثر نفعاً.

ومن أنواع المحبة الخاطئة الضارة: تسهيل الشر لمن تحب! كأن تسهل له إجراء غير شرعي، أو كسر قانون أو نظام عام من ذلك مثلاً تسهيل زواج غير شرعي، أو تطليق فيه ظلم للطرف الآخر. ومن أمثلته تلميذ يغشش زميله في الامتحان بدافع من المحبة والشفقة، أو طبيب يكتب لموظف شهادة مرضية وهمية... أو صديق يشهد شهادة زور تأييداً لصديقه. أو محاسب يساعد ممولاً على اختلاس حقوق الدولة في الضرائب... أو ما شابه ذلك من الأمثلة.

كل هذه الأنواع تدخل في نطاق المحبة الضارة، لأنها تفسد النفوس أو الضمائر، مهما بدت في ظاهرها نافعة!

****

ومن المحبة الضارة: إسراع الوالدين على تزويج ابنتهما بمن لا تحبه، حرصاً على استقرارها في بيت قبل أن يكبر سنها.

وبخاصة لو كان هذا الشخص ذا مال، وله مركز مرموق. ويرون هذه فرصة يجب ألاّ تضيع، مهما كانت الابنة رافضة. ولكنهم يدفعونها دفعاً ضد إرادتها. ربما هدفهم هو محبتها، ولكن الوسيلة خاطئة. وقد تشقى الابنة في زواجها!

****

هناك أنواع أخرى للمحبة الضارة، نذكر من بينها:

- إنسان ربما يحب شخصاً، فيضيع سمعته إما بالالتصاق به في كل مكان، مما يسبب له حرجاً، ويتقول الناس عن هذه العلاقة. أو يشيع أن له تأثير عليه، أو أنه بمحبته له يجعله يوافق على أي شيء!
- كذلك هناك محبة أخرى للمرضى تضرهم:

إما ببقاء مدة طويلة إلى جوارهم في التحدث إليهم، وهم صحياً في حاجة إلى الراحة، أو بخداعهم في نوع مرضهم فلا يهتمون بأبديتهم وما يلزمهم من توبة. أو بتقديم متع لهم أثناء مرضهم قد تضرهم.

٢٨ / ١ / ٢٠٠٦

المحبة الخاطئة للنفس

كل إنسان يحب نفسه، ولا يوجد أحد لا يحب نفسه، وهذا أمر طبيعي، على أن تكون هذه المحبة صادقة ونقية، وبعيدة عن الأنانية. غير أن هناك محبة خاطئة للنفس، لأنه توجد بعض الحروب الروحية التي تسمى حروب الذات، وكذلك عبادة الذات، التي يتمركز الإنسان فيها حول نفسه. ويقول: "أريد أن ابني نفسي، أن أحقق ذاتي، أن أرفع ذاتي..". ولا يهمه في كل ذلك أن يفقد نقاوة ذاته، أو أن يعمل على تحطيم غيره في محبته للنفس. وهنا تكون محبته لنفسه محبة خاطئة..

ونود هنا أن نتطرق إلى الوسائل التي بها يحب الشخص نفسه محبة خاطئة.

****

المحبة الجسدانية والمادية:

هذه التي فيها شهوة الجسد، وشهوة اللذة والمتعة والرفاهية: لذة الحواس التي تقود إلى الشهوة والخطية، وفرح الإنسان بهذه المتع بحيث يجد في تحقيقها محبة لنفسه ... وقد يجد أنه يؤكد محبته لنفسه بالأتساع في الغنى، وكل ما تشتهيه عيناه لا يمنعه عنهما. وهكذا يفتح أمام نفسه أبواب اللّهو والعبث والطيش، بكل ما في ذلك من صداقات وعلاقات خاطئة. ويظن أنه بذلك يعمل على إشباع نفسه من فرط محبته لها، بينما هو يفسدها!!

إن محبة النفس محبة حقيقية، لا تأتي في هذا الطريق الخاطئ، الذي ينام فيه الغير، ويبعد الإنسان عن اللّه، ويحيا وكأنه مجرد جسد، بلا روح!

****

المحبة الخيالية:

هى لون خاطئ آخَر في إشباع النفس... حيث لا يستطيع الشخص أن يمتع نفسه بطريقة مادية أو واقعية. فيسبح في تصورات إسعادها بمجرد الفكر. ويلذذ نفسه بالفكر وبالخيال! يسعد نفسه بما يسمونه: أحلام اليقظة فكل ما يريد أن يمتع به نفسه من أمور اللذة والرفاهية، يغمض عينيه ويتخيله! ويؤلف حكايات وقصصاً، عن متع لا وجود لها

في عالم الواقع... ويقول لنفسه سأصير وأصير وأعمل وأتمتع. وقد يستمر في هذا الفكر بالساعات وربما بالأيام! ويستيقظ لنفسه فإذا به في فراغ، وقد ضيع وقته..!

إن المحرومين عملياً، قد يعوضون أنفسهم بالفكر .. دون أن يتخذوا أي إجراء عملي بنّاء يبنون به أنفسهم. وكما يقول المَثل العامي: " المرأة الجوعانة تحلم بسوق العيش!".

مثال ذلك أيضاً تلميذ لم يستذكر دروسه ولم يستعد للامتحان، فيجلس إلى كتبه، ويسرح في أحلام اليقظة أنه نجح بتفوق وصار وصار. ويصحو لنفسه وقد أضاع وقته!

****

إن المتعة بالخيال، قد تكون أقوى من المتعة الحسية:

لأن الخيال مجاله واسع لا يقف عند حد. ويتصور تصورات لا يمكن أن تتحقق في الواقع. ويكون سعيداً بذلك سعادة وهمية..

وكثير من المجانين يقعون في مثل هذا الخيال الذي يشبعون به أنفسهم. ويجدون به أنفسهم في مناصب ودرجات وألقاب.. والفرق بينهم وبين العقلاء أنهم يصدقون ما يتخيلونه. ويصيبهم نوع من المرض يسمى البارانويا، وحكاياته كثيرة...

إنه خيال يظن به هذا النوع من الناس أنهم يجدون أنفسهم بالإشباع الفكري والمتعة الخيالية بالأوهام. بينما يضرون أنفسهم بإبعادها عن الجهد العملي الذي يفيدها.

****

المعارضة والصراع:

هناك لون آخَر ممن يحبون أنفسهم محبة خاطئة، يظنون أنهم يبنون أنفسهم عن طريق معارضة الكبار والصراع معهم. وهؤلاء يظهرون على الساحة وكأنهم شعلة من النار، في التفكير والحركة والعراك:

وإذ لا يقدرون على العمل البناء، يظنون أنهم يجدون أنفسهم بهدم الذين يبنون! فهم يعملون على هدم وتحطيم غيرهم إن استطاعوا. ويحسبون بذلك أنهم قد صاروا أبطالاً!! لا يسرهم شيء مما يعمله العاملون، فينتقدون كل شيء. ويبحثون عن أخطاء لتكون مجالاً لعملهم في النقد والنقض والتشهير. وكأنهم يعرفون ما لا يعرفه غيرهم. وفي نفس الوقت الذي يسعون فيه لتحطيم كل بنّاء بناه غيرهم، لا يبنون هم شيئاً!!

وإذ يفتخر الشخص منهم بأنه مقاتل Fighter يجد أخيراً أنه عاش في فـراغ، ولـم يكتب له التاريخ أي عمل إيجابي يستحق التسجيل ...

****

مثال هؤلاء التلميذ المشاكس في الفصل الدراسي:

الذي يشعر أنه قد وجد ذاته في معاكسة المدرسين! ويظن ذلك جرأة منـه وشـجاعة وبطولة يبني بها نفسه التي يحبها. بينما يكون قد فقد مستواه العلمي، وفقد بذلك مسـتقبله. ولا تنفعه تلك البطولة الزائفة!

ومثال آخَر: ذلك الذي يقول أن عنده الجرأة أن يقول للأعور: " إنه أعور في عينه"، ويفقد بذلك المحبة وحسن المعاملة والسمعة الحسنة. وأسوأ منه أولئك الذين يفقأون عيون المبصرين، ثم يعيرونهم بما فعلوه بهم!

****

نوع آخَر من الذين يحبون أنفسهم محبة خاطئة هم:

التائهون عن أنفسهم!

كإنسان كثير الحركة، ربما في أنشطة بلا عمق، وينسى خلالها روحياته وبناء نفسه! يرى إننا نعيش في عصر التكنولوچيا، فيجب عليه أن يكون إنساناً تكنولوچيّاً يسير مثـل الآلة: حركة دائماً بلا توقف ... يعمل في كل مجال، ولا يقف لحظة ليفكر فـي أبديتـه، أو ليحاسب ذاته أين قلبه الآن؟ وما درجة روحياته، وما هي علاقته باللَّه؟ وهل لديه وقت للصلاة والتأمل؟ وماذا أعدّ لأبديته؟!

وفي هذه المحبة الخاطئة لنفسه، التي قد نسيها في خضم مشغولياته العديدة كان عليه أن يقيم توازناً بين أنشطته وأبديته، وأن يذكر قول السيد المسيح: "وماذا ينتفع الإنسان لـو ربح العالم كله وخسر نفسه".

الحرية حسب هواها:

قد يحب الإنسان نفسه، فيرى أن تسلك نفسه حسب هواها، دون رقيب، ودون ضابط. ولا يقبل أن يتدخل أحد في شئونه، فلا نصح من صديق، ولا نقد من معارض. ولا سلطة من أب أو مشرف أو رئيس! بل يفعل ما يشاء بلا قيد. حتى القيم والمبادئ والتقاليد، يسره أن يتخلّص منها!!

بعض من هؤلاء، يسمون أنفسهم الليبراليين "أي المُتحررين" بينما الحرية الحقيقية هى أن يتحرر الإنسان في الداخل من الخطايا والشهوات المنحرفة..

وأكثر من هذا الوجوديون، الذين يريدون التمتع بالوجود، عن طريق التخلص من اللّه ووصاياه بشعار" من الخير أن اللّه لا يوجد، لكي أوجد أنا" !! كل هؤلاء بمحبة أنفسهم لحرية خاطئة منحرفة، إنما يهلكون أنفسهم ..

****

أمر آخَر في المحبة الخاطئة للنفس هو:

الإعجاب بالنفس:

كأن يكون الإنسان باراً في عيني نفسه، أو حكيماً في عيني نفسه!! ويدخل ذلك في عبادة النفس. ولا مانع. عند هذا الشخص. أن يكون الكل مخطئين، وهو وحده الذي على صواب. وهذا النوع يبرر ذاته في كل خطأ. وأن شرح له أحد أخطاءه، لا يقبل ذلك، ويستمر على ما هو فيه. ويرفض كل توجيه. وإذا عوقب على خطأ، يملأ الدنيا صراخاً إنه مظلوم! ولا ينظر إلى الذنب الذي ارتكبه، إنما يصف من عاقبه بالقسوة! ويظن أن دفاعه عن نفسه محبة لها، بينما هو يثبتها في أخطائها.

مثل هذا ترتبك مقاييسه الروحية والأدبية والعقلية. ويضيع نفسه.

****

والعجيب إنه. على الرغم من أخطائه يمدح نفسه. ويحب أن يمدحه الغير. وأن مدحوا سواه يستاء كما لو كان هو الأحق من غيره بكل مديح! على أن كثيراً من الذين يقعون في الإعجاب بالنفس، يكون اللّه قد منحهم بعض المواهب. لكنهم استخدموا المواهب في الإضرار بأنفسهم، وفي الغرور.

ومثلهم أيضاً من قد اضروا أنفسهم بما نالوه من مركز أو شهرة فلكي يتعالوا في الرفعة، وقعوا في الخيلاء، أو أصبحوا ينظرون من فوق إلى من هم دونهم في الوظيفة أو في المال!!

٤ / ٢ / ٢٠٠٦

القِيَم والمبادئ وتأثيرها

كل إنسان في الحياة تقوده أو تحرّكه مجموعة من القيم والمبادئ، تحدد سلوكه ومعاملاته وحسب القيم التي يؤمن بها كل إنسان ويحترمها ويحافظ عليها تتكون معالم شخصيته وصفاته.. أما الذي ليست له قيم ومبادئ يلتزم بها فإنه يعيش في طياشة، كفرع شجرة يميل مع كل ريح..!

وكما نتكلم عن الفرد نتكلم أيضاً عن الهيئات والمجتمعات... ولذلك يوجد في كل مجتمع قوم لهم شهامة نسميهم: حراس المبادئ والقيم.

****

والموضوع الواحد قد تكون له قيمة عند شخص وقد لا تكون له أية قيمة عند شخص آخَر.. وحسب تقييم كل منهما لا يكون اهتمامه أو عدم اهتمامه.. ومن هنا قلنا إن القيم هى التي تحدد سلوك الإنسان في الحياة.

وسنحاول أن نتناول عدداً من الأمور في الحياة الدينية لكل إنسان أو في حياته الاجتماعية أو الشخصية. ونرى مدى تقييمه لكل أمر وتأثير ذلك في سلوكه وفي اهتمامه وتعامله.

****

نأخذ مثالاً لذلك: قيمة الراحة أو التعب في حياة شخص:

فإن آمنت بلزوم الراحة لك كما يؤمن بذلك أيضاً مريض القلب مثلاً فلابد أنك ستعطي جسدك راحته مهما كانت ظروفك، وقد تؤجل بعض مشغولياتك إلى وقت آخَر التماساً لراحة جسدك واقتناعاً منك بإن الراحة تجدد نشاطك وتبعد عنك الإرهاق المضر، كما يقول المَثل: "إن لجسدك عليك حقاً".. كل ذلك لأن الراحة قد نالت قيمة معينة في مفاهيمك.. أما إن فقدت الراحة قيمتها في نظرك فسوف لا تعمل لها حساباً.

وهكذا فإن إنساناً آخر قد يري أن كل القيمة هى للتعب وليس للراحة كما يقول الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا.. تعبت في مرادها الأجساد.

فمثل هذا الشخص يؤمن أنه يجب عليه أن يتعب على قدر طاقته لكي يحقق أهدافه، وينال مكافأته حسب تعبه، هنا وفي الحياة الأبدية أيضاً.. بهذا تفقد الراحة الجسدية قيمتها. ويصبح التعب من القيم التي يؤمن بها هذا الشخص.

****

وهنا نجد خلافاً بين من يعطي كل القيمة لمصيره الأبدي في الحياة الأخرى، ومن تكون كل القيمة عنده، هى لمتعته على هذه الأرض!

فإن أخذت الأبدية قيمتها السامية عند شخص فإنه لا يعمل أي عمل يتعارض مع أبديته ويمس مصيره الأبدي في شيء.

أما إن فقد تقييمه للأبدية أو تجاهلها أو تناساها فحينئذ سيتصرف كيفما يشاء بلا ضابط وقد يصل إلى الاستهانة والاستباحة!

****

بنفس المنطق نتكلم عن قيمة كل من الجسد والروح في حياة كل إنسان:

غالبية الناس يعطون كل اهتمامهم بأجسادهم، فصحة الجسد لها قيمتها وأيضا جمال الجسد وزينته وقوته لها قيمة كبرى. لذلك يقدمون للجسد كل ما يحتاج من غذاء، ومن دواء، ومن علاج ومن راحة ونشاط واستجمام.. ويهتمون نفس الاهتمام بأجساد أبنائهم وكل من هم تحت رعايتهم... أما الاهتمام بالروح فيندر أن يأخذ نفس القيمة! لذلك تضعف أرواح الناس إذ لا تجد غذاءها الروحي الكافي، ولا ما تحتاج إليه من تقوية ومن قراءة وتأمل واجتماعات روحية وتداريب روحية ولا ما يلزمها أيضاً من علاج روحي إن فترت حرارتها أو وقعت في خطايا معينة... هذا التقييم المهم الذي يلزمنا أن نعطيه للروح، هو الذي يحدد سلوكنا اليومي ومدى اهتمامنا بكل تصرف نقوم به وبكل كلمة نلفظها.

****

موضوع القيم يدخل أيضاً فيما نقدمه لعقولنا من الفكر فنحن في كل يوم تقدم لنا الجرائد والمجلات عشرات من الصفحات، ولكننا نقرأ ما له قيمة في نظرنا، فهناك من تكون أخبار السياسة لها القيمة الكبرى عنده، وقد يهتم غيره بأخبار الرياضة أو أخبار الملاهي أو أخبار الوفيات حسبما يكون الأمر له قيمة عنده، وربما يهتم البعض بالفكاهات

والكاريكاتير.. ويقيناً أن هناك مقالات كثيرة لا يلتفت إليها البعض إذ لا تمثل قيمة عندهم وعلى العكس ربما تكون عند بعض القُرّاء قيمة لكاتب بالذات تجذبهم أفكاره.. نفس الوضع بالنسبة إلى الكتب والمؤلفات وبالنسبة إلى البرامج التي تقدمها وسائل الأعلام والروايات التي يمثلها بعض الفنانين.. عنصر القيمة أو التقييم هو الأساس فيما نختاره للعقل من فكر، وما ترتاح إليه حواسنا وأحاسيسنا.

****

تأثير القيم أيضاً يدخل في الحياة الاجتماعية كالزواج والصداقة:

فمن الذي تختاره الفتاة مثلاً وتفضله فيمن يطلب يدها؟ هل تضع أمامها قيمة المنصب والمركز لشريك حياتها؟ أم قيمة المال والثروة لتحيا حياة رفاهية؟ أم تفضّل قيمة العقل واللطف والحركة لتحيا حياة سعيدة؟ أم تفضل الرجل القوي الشخصية، كما يقول المثل: "قوة المرأة في جاذبيتها، وجاذبية الرجل في قوته". طبعاً حسب تقييمها الخاص سوف تختار.. كذلك الرّجُل أيضاً في انتقائه أيضاً لشريكة حياته إنما يختارها بناءً على قيم معينة يسعد بها تختلف من رجل إلى آخَر في نوعية تقييمه نفس الوضع بالنسبة إلى الصداقة، فإنها تتم - على الأقل لقيمة معينة - نقول: "إن الطيور على أشكالها تقع".

****

هنا نقطة مهمة في موضوع القيم وهي: ما قيمة "الآخَر" عندك؟

لو ارتفعت قيمته - كانسان - في نظرك لوجدت نفسك بالضرورة تحترم كل إنسان وتحب كل إنسان، ولا تجرؤ على جرح شعور إنسان ما.

ثم ما تقييمك لمدرسيك ومعلميك؟ هل قيمة المدرس عندك كما قال الشاعر:

قف للمعلم وفّه التبجيلا.. كاد المعلم أن يكون رسولا

وما هو تقييمك لمعاملة كبار السن؟ هل كل منهم بالنسبة إليك في مرتبة الوالد؟ تحترمه وتوقّر سنه أو شيخوخته.

وما قيمة مرؤوسيك في نظرك؟ هل تعاملهم بسيطرة كما لو كانوا خدماً بل ما تقييمك للخدم أيضاً؟ أليسوا هم بشراً مثلك؟!

وما تقييمك لمن يختلفون عنك في المذهب، أو من شعب آخَر؟ هل هم في نظرك إخوة لك في الإنسانية؟

نقطة أخرى هى تقييم المرأة في المجتمع؟

هل تنظر إليها كأخت أو ابنة أو أم؟ نظرة بريئة تماماً بكل عفة ووقار..؟ أم أن المرأة تثير فيك غرائز خاطئة تقودك إلى الشهوة؟! وإن حدث ذلك فهل تقيمه بعيب فيك أمْ عيب فيها؟

ثم ما تقييم المرأة بالنسبة إلى الوظائف؟ نشكر اللّه إنها في بلد وصلت فيه المرأة إلى درجة وزير، وإلى درجة عضو في البرلمان "في الهيئة التشريعية الرقابية". والمرأة تنتظر المزيد أيضاً.

هنا وأسأل - من جهة التقييم - لماذا يفرح الناس بإنجابهم للذكر أكثر من إنجابهم للأنثى؟ إن البشرية ما كان يستمر وجودها بدون الإناث.

****

لا شك أنه من الأمور المهمة أيضاً: مدى تقييمنا للمال:

هل نفرح بالمال كمظهر من مظاهر الرفاهية في الحياة وكمصدر لاحترام الناس لنا كما قال الشاعر:

إن قل مالي فلا خِل يصاحبني.. إن زاد مالي فكل الناس خلاني

فكم عدو لأجل المال صادقني.. وكم صديق لفقد المال عاداني

أمْ أن المال في نظرك هو وسيلة لقضاء الشهوات واللهو؟ أمْ هو الوسيلة للرشوة وشراء الذمم؟ أمْ هو الطريق الموصل إلى المناصب والدرجات؟ أمْ قيمة المال عندك أنه وسيلة لعمل الخير ولإسعاد الفقراء وذوي الحاجات، ولإنشاء المشروعات النافعة للمجتمع؟

حسب تقييمك للمال واستخدامك له يكون قدرك ووضعك كرجل مال..

****

إن تقييمك الأمور هو الذي يوجه سبيلها إلى الخير أو الشر، حسب نوعية استخدامها: فمثلاً تقييمك لرد فعل الإساءة: هل هو العفو أو الانتقام؟ وتقييم الترقّي: هل هو حسب الأقدمية والخبرة أم حسب الاختيار؟ وتقييم العمل: أيهما أفضل: عن طريق الوظيفة أم العمل الخاص؟ وهكذا دواليك.

١١/ ٢ / ٢٠٠٦

الكبرياء والتواضع

الكبرياء هى ارتفاع في القلب. هى حالة شخص يكبر في عيني نفسه، ويريد بالأكثر أن يكبر في أعين الناس.

+ وهى على نوعين: أحدهما عجرفة في المظهر الخارجي: في الملبس، في الملامح، في طريقة الكلام، في المشي أو في الجلوس. هى نفخة خارجية، كأن يتكلم بنوع من التعالي، أو ينظر في عظمة، أو يجلس في عنجهية.. أو يتخير المكان البارز.. كلها كبرياء في الظاهر.

+ وإلى جوار هذه المظاهر، توجد كبرياء في داخل النفس، يظن بها هذا الشخص أنه شيء! يرى أنه كبير، ويتطور إلى ما يجب أن يعامله به الغير ككبير، وما يتعامل به معهم مما يناسب عظمته!

****

فهو يكلّم الناس من فوق، هذا إذا تنازل إلى الكلام معه..

وهو يعاملهم بمعاملة لا يقبل على نفسه أن يعاملوه بها. معتقداً أنه يوجد فارق كبير بينه وبينهم. فهو أرفع من الناس قدراً، أو هو أعمق منهم فكراً ومعرفة، أو هو أكثر شهرة أو أكثر نفوذاً. ويظن دائماً أنه على حق، وغيره على باطل. ولا يعترف مطلقاً أنه قد أخطأ في شيء. ويتطلب لوناً خاصاً من الاحترام، وأسلوباً معيناً من المعاملة.

****

فما هى أسباب هذه الكبرياء إذن؟

ربما يكبر الإنسان في عيني نفسه من أجل مركزه، أو غناه، أو قوته، أو ذكائه، أو علمه، أو شكله وجماله، أو أناقته. أو قد يكون سبب كبريائه، ما حباه به اللّه من نِعَم أو مواهب، كالمواهب الفنية، أو القدرات الشخصية، أو بسبب مكانته العائلية. أو ربما يكبر لأسباب دينية راجعة إلى تقواه، أو لجوء البعض إليه ثقة في شفاعته!!

العجيب أن غالبية المتكبرين هم من النوع الذي أحسن اللّه إليه!!

فبدلاً من أن تقوده الموهبة إلى الشكر، ينحرف بها إلى الكبرياء!

والمفروض أن يتضع الإنسان كلما كثرت مواهبه. كما قال القديسون: إن الشجرة المحملة بالثمار تنحني أغصانها إلى أسفل بسبب ثقل ما تحمله من ثمر. أمّا الشجرة التي بلا ثمر، فإن الريح ترفع أغصانها إلى فوق بسبب خفتها.. وهكذا فالممتلئون يكونون دائماً مُتضعين أما الفارغون فيرفعون!

إنّ المفروض هو أن يتضع أصحاب المواهب، عارفين أن هذه المواهب هى من اللَّه لهم، وليس منهم. إنما هى موهوبة لهم من رب المواهب..

فواجبهم أن يرجعوا المجد إلى اللَّه ولا ينسبوه إلى أنفسهم. فهكذا يقول المزمور: "ليس لنا يا رب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعط مجداً".

إذن المتضعون يشكرون اللَّه على عطيته، ولا يمدحون أنفسهم.

****

إذا افتخر إنسان بسبب موهبة أو تكبر، فما أسهل أن يرفعها اللَّه منه، وتفارقه النعمة بسبب عجرفته.

وإذا تكبّر أحد بسبب قوته أو قدرته، فإن اللَّه قد ينزع منه القوة والقدرة، لأنه لم يعط المجد للَّه وإنما لنفسه..

لهذا قال سليمان الحكيم: "قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط: تشامخ الروح".

****

لذلك إن أعطى اللَّه لإنسان موهبة، فأحياناً يمنحه إلى جوارها ضيقة أو تجربة، لكي تحميه، خوفاً عليه من أن تجرفه الموهبة إلى التعالي!

وهكذا قيل أن الضيقات هى حافظة للمواهب من الكبرياء حقاً، ما أصعب المواهب! وما أكثر الذين لم يستطيعوا احتمالها!

فقد يمنح اللَّه بعض المواهب لإنسان، فلا يستطيع أن يحتملها، بل يمشي في الأرض مرحاً، ويرتفع قلبه في خيلاء، ولا تسعه الدنيا..

ولذلك ما أصدق القديس أنطونيوس حينما قال: "إن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة".

المتكبّر يحب السيطرة والنفوذ، ويبحث عنهما. فإذا حصل على سلطة يستخدمها إلى آخرِ حدودها، أو يسيء استخدامها أو قد يتجاوز حدوده وحقوقه وسلطته، ويستخدم نفوذاً ليس له، ويتسلّط، ويأمر وينهي في عظمة وتعالٍ..

أما المتواضع فلا يحب السيطرة. ولا يستخدم السلطة وهى في يده.. ولا يحب أن يأمر كثيراً، وفي سلطانه الأمر.. وحينما يكون رئيساً لعمل، يعامل مرءوسيه في رقة ولطف. وقد يكون حازماً، ولكن في غير عنف. وفي طاعتهم لأي إرشاد، يشكرهم ويمتدح عملهم.

****

من مظاهر الكبرياء أيضاً: الافتخار والحديث عن النفس:

والمقصود هو أن يكسب الشخص مديح الغير وإطراءهم. وفي الواقع إن مَن يتحدث عن فضائله ومزاياه، إنما يستخدم أسلوب أنصاف الحقائق.لأنه لو ذكر الحقيقة كاملة عن نفسه، لكان يلزمه أيضاً أن يذكر النواحي، السلبية في حياته. أما في ذكره الحسنات فقط من تصرفاته، فهو لا يكون في ذلك كامل الصدق، ولا كامل العدل..!

ومثل هذا الشخص قد يثير غيره، فيضطرهم أن يذكروا له عيوباً، لكي يقيموا توازناً بين مديحه لنفسه وحقيقة ذاته.. ولكنه في محبته للمديح، لا يقبل النقد، فيدافع عن نفسه بجميع الطرق التي تقبل النقد أيضاً، ويدخل في صراع.

****

أما المتواضع، فهو لا يتحدث عن نفسه، ولا يمتدح ذاته.

لا يتحدث عن أعماله، إنما أعماله هى التي تتحدث عنه. وهو من جانبه يحاول أن يعمل الخير في الخفاء، ولا يظهر ذاته بقدر إمكانه!

وإن مدحه الناس يهرب من ذلك في استحياء. وفي داخل نفسه يشعر أنه لا يستحق المديح، بسبب ما يعرفه عن ذاته من نقائص لا يعرفها الناس عنه.. يعرضعها أمام اللّه في صلاته طالباً المغفرة - وإن كان في مسؤولية، واضطر أن يتحدث عن إنجازات العمل، فإنه لا يركز الحديث على ذاته، إنما يخص بالأكثر المجهود الذي قام به العاملون معه، والمعونات الأخرى التي ساعدت على النجاح.

من مظاهر الكبرياء أيضاً: الأنانية وما تلده من أخطاء.

المتكبّر يقع دائماً في الأنانية ومحبة الذات، فهو إنسان متمركز حول ذاته، لا يرى في الدنيا سوى نفسه فقط . وكل من يصطدم بذاته هذه، ينبغي أن يحطمه، لتبقى ذاته وحدها وتكبر.. بينما نرى المتواضع يحب جميع الناس، ويفرح لهم إن نجحوا وكبروا.

****

أنانية المتكبر تقوده كذلك إلى الحسد والغيرة والمنافسة.

فالكبرياء هى أم الحسد.. وكل متكبر يمكن أن يكون حسوداً.

والحسود يتغذى بمصائب الآخرين. لذلك فالمتكبر يثقل عليه أن يمتدح غيره، في مجال يرى أن يكون فيه المديح له وحده. فمحبة الذات والأنانية تقوده إلى الحسد والغيرة. فلا يطيق أن يسمع مديحاً يقال في غيره!

قال أحد الآباء الروحيين: "افرحوا بكمال أخوتكم" ولكن المتكبر لا يفرح بكمال غيره. إنه يريد أن يكون هو المتفوق البارز الوحيد!

أما الإنسان المتواضع، فلا يحسد غيره. لأنه لا ينافس أحداً في الرفعة وهو- في اتضاعه - يقدم غيره على نفسه في الكرامة. ويفرح بنجاح الكل، ويهنئهم من كل قلبه.

****

نقطة أخرى.. وهى أن الكبرياء تلد التذمر، بعكس الاتضاع:

فالمتواضع - إذا أخذ شيئاً قليلاً - يشكر عليه، ويعتبره أكثر مما يستحق. وحتى إن لم يأخذ شيئاً، يشكر على مجرد الحياة والصحة! لذلك فهو في فرح دائم، وفي قناعة ورضا..

أما المتكبر فهو يتذمّر مهما أخذ، شاعراً، أنه يستحق أكثر وأكثر!!

وهو على استمرار يشعر بالظلم، سواء من جهة الأخذ، أو من جهة التعامل. كل ما يناله، يدعى أنه أقل مما يستحق.. ومهما نال يسخط ويتذمّر، لأنه دائماً يطلب المزيد، ولا يكتفي .. لذلك في نفسيته مرارة نتيجة لكبرياء طموحاته.

١٨ / ٢ / ٢٠٠٦

الكبرياء والتواضع (ب)

المتواضع إنسان وديع، والمتكبر يفقد روح الوداعة، الإنسان المتواضع هو إنسان هادئ وديع يتصرّف في كل أمر بهدوء. وهدوء في الفكر والقلب، هدوء في الأعصاب، هدوء في التعامل يحل كل مشكلة في هدوء يملك السلام على قلبه وألفاظه.

أما المتكبر فلا يعرف الهدوء ولا الوداعة، بل يظنها لوناً من الضعف. لذلك فتصرفاته تتميز بالعنف ويرى أن العنف مظهر للقوة... حتى صوته يكون في الغالب صاخباً أو حاداً.

وبينما يمر عليك الإنسان الوديع كنسيم رقيق عطر، يمر بك الإنسان المتكبر كعاصفة هوجاء تود أن تقتلع كل شيء..

****

المتواضع طيب القلب، ومتسامح ومسالم. يتحاشى الخصومة مع الناس، ويود أن يحيا مع الكل في سلام.

يكون دائماً بشوشاً ومبتسماً، لا يعبث في وجه أحد. لا يتهجم ولا يقطب جبينه. له ابتسامة حلوة محببة إلى الكل، وملامح مريحة لمن يتأملها. ولا تسمح له طبيعته الهادئة أن يزجر ويوبّخ ولا أن يحتد ويشتد. إنما في وداعة ولطف، يوجّه غيره إذا لزم التوجيه، دون أن يخدش شعور إنسان..

****

المتواضع لا يسرع إلى الغضب. وعلى قد امكانه لا يُغضب أحداً. إنه حليم، واسع الصدر، طويل البال، سهل التفاهم مع الآخرين، يأخذ ويعطي معهم في هدوء.

هو ليس سهل الاستثارة، مهما أراد أحد أن يثيره، يتلقى ذلك في موضوعية، بعيداً عن التأثر الشخصي، ولا يحتد، ولا يثأر لنفسه. إنما يوضّح الأمور بغير انفعال، ويكسب الطرف الآخَر. ويضع أمامه قول سليمان الحكيم: "الجواب اللين يصرف الغضب".

أما المتكبّر، فهو حسّاس جداً لكرامته، يثور لأتفه الأسباب، وقد يثور بلا سبب، سوى ظنه السوء في من يتعامل معه، أنه تصرّف بأسلوب لا يليق. لذلك فهو سريع التزمُّر والضجر.

أما المتواضع فيندر أن يتزمَّر أو يتضجر أو يشكو.

****

الإنسان الوديع المتواضع، يتمتع بسلام داخلي، لا ينزعج، ولا يضطرب، ولا يتجسس، مهما كانت الأسباب الخارجية...

إنه يذكرنا بالجنادل الستة التي في مجرى النيل - التي سُميت خطأً بالشلالات إنه صخور ثابتة قوية، مهما هاج البحر وارتفعت الأمواج وصدمتها، فلن تتأثر بشيء. بعكس السفن التي تهتز وتضطرب أمام الأمواج، وتميل ذات اليمين وذات اليسار...

هكذا الوديع، هو كالصخرة أو الجندل، ثابت لا يتزعزع. كما قال داود النبي في المزمور: "إن يحاربني جيش فلن يخاف قلبي. وإن قام عليَّ قتال ففي هذا أنا مطمئن".. إنه الإيمان باللّه الذي يحفظ الودعاء، فلا يضطربون. إنما في ثقة يطمئنون إلى معونته.

****

الإنسان المتواضع سهل التعامل. لا دهاء عنده، ولا مكر، ولا خبث، ولا هو يظهر غير ما يبطن...

إنه بسيط. وكلمة (بسيط) هنا لا تعني السذاجة. كلا، بل تعني عدم التعقيد. فهو قد يكون حكيماً جداً. ولكنه في حكمته لا يعقد الأمور، ولا يلف ويدور في حديثه، ولا يدبر خططاً ضد أحد. هو صريح ومريح، يمكنك أن تثق به وتطمئن إليه..

بعكس المتكبر الذي لا يكشف خططه أو نواياه، معتقداً أن بقاءه لغزاً غير مفهوم يضفي عليه شيئاً من المهابة والمخافة. وهو لا يتكلم ببساطة مع أحد، خوفاً أن تكون البساطة ضد الوقار!

****

الإنسان الوديع لا يؤذي أحداً، بل يحتمل الأذى من المخطئين.. وهو مملوء من الحنان والعطف حتى على أشر الخطاة، وإن غضب لسبب قهري، فإنه لا يحقد. إنما سرعان ما يصفو ويسامح. فإن رأيت إنسانا قاسياً في تعامله، اعلم أنه ليس وديعاً...

الوديع يحتمل المخطئ إليه، ولا يدع الحقد يدخل إلى قلبه من جهته. ويجعل مبادرة الصلح تأتي منه هو، فتعود المحبة بينهما، أمّا المتكبّر فإنه لا يغفر وإن أخطأ إليه أحد، يقول: "لابد أن ألقّنه درساً لا ينساه، لكي يعرف أقدار الناس..".

المتواضع في طبعه أن يحترم الغير:

المتواضع يحترم من هو أكبر منه سناً ومن هو أعلى منه مقاماً ومركزاً، ومن هو أكثر منه علماً وفهماً، ومن هو أكبر منه من جهة القرابة أيضاً. وليس فقط من هم أكبر منه .. بل المتواضع يحترم الصغار أيضاً، ولا يستصغرهم أو يحتقرهم.

والمتواضع يحترم أيضاً الرأي المعارض له. بينما المتكبر لا يحتمل أن يعارضه أحد. ومن الجائز أن يُسفّه كل رأي ضده! بعكس المتواضع الذي يقبل الرأي المعارض في هدوء، ويتعامل معه برقة. المتكبر يطلب الاحترام لنفسه فقط أما المتواضع فيحترم الآخرين.. المتكبر يطلب لنفسه احتراماً وكرامة وتوقيراً وتقديراً، وإعجاباً وإطراءً.. يطلب أن يكبر في نظر الناس ويحترَم. وفي نفس الوقت يعادي كل شخص لا يمنحه الاحترام المطلوب.

أما المتواضع، فلا يسعى وراء الإكرام والاحترام. وإن وصله يستحي من ذلك. ولذلك فهو محبوب ومحترم من الكل دون أن يطلب. بينما المتكبّر - إن احترمه الناس ظاهرياً خشية منه - فهم في داخله لا يحترمه. كما قال أحد الأدباء الروحيين: "من سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة سعت إليه..".

****

المتواضع يستر عيوب الناس، والمتكبر يكشفهم ويستهزئ بهم... المتواضع لا يجرح أحداً ولا يُحرج أحداً. ولا يقبل أن يُخجل أحداً. ولا يسأل أحداً عن أسرار من الحرج أن يبوح بها.

أما المتكبر فيحب أحياناً أن ينكشف الناس أمامه، لكي يعرف ضعفاتهم، ويقارن بينها وبين قوته! فيصغر الناس في عينيه، ويكبر هو في عيني نفسه!

فمن جهة عيوب الناس: المتواضع يرى كل شيء وكأنه لم ير شيئاً على الإطلاق وإن عرف، فكأنه لا يعرف.

إن كشف الناس وإحراجهم والتشهير بهم.. كل ذلك يدل على عدم محبة، وعلى قساوة قلب ويزيد ذلك إذا ما وصل إلى التهكُّم والاستهزاء. والمتواضع بعيد عن كل هذا.

المتكبّر يحب الغلبة والانتصار، وبخاصة فيما يتعلّق بالمعرفة هو يتباهى بمعرفته.. وإذا ناقش غيره، يحب أن يهزمه ويُظهر ضعفه، ويفرح بانتصاره عليه. أما المتواضع فيهمه أن يقنع من يحاوره بالحق، دون أن يشعره بالانهزام أمامه. إنما يحاول إيصاله إلى الحقيقة. فإن وصل إليها يمتدحه. لا يهزم مناقشيه، بل يكسبهم... إن بين المتكبر والمتواضع فروقاً في أسلوب وهدف الحوار: المتكبر يفكر في ذاته: كيف ينتصر وأن يحطم محاوره. بعكس المتواضع الذي يهتم بالموضوع، وكيف يتفق مع محاوره. لذلك فالمتكبر ربما يظهر في مناقشاته روح العجب والاعتداد بالذات، وربما يلجأ إلى الحدة والقسوة. ومعه يتحول الحوار إلى شجار. أما المتواضع فهو مؤدب في حوار، ورقيق. ويتخير في نقاشه الألفاظ المهذبة، ويبعد عن كل لفظ جارح أو خشن أو محرج.

****

المتواضع لا مانع عنده من أن يستشير، وينتفع بمعرفة غيره أما المتكبر فقد يكتفي بمعرفته ولا يرى أنه في حاجة إلى مزيد من المعرفة.



٢٥ / ٢ / ٢٠٠٦

طُرق مُتنوِّعة للتعامل مع المشاكل

يندر أن يوجد إنسان لا تقابله مشاكل في حياته، خفيفة أو ثقيلة..

والمشاكل التي تقابل الناس على أنواع كثيرة:

إمّا مشاكل عائلية قد تؤدِّي إلى الطلاق أحياناً، أو هي في محيط تربية الأبناء أو العلاقات مع الأقارب. أو هي مشاكل مالية أو اقتصادية من جهة الديون أو حالة السوق والأسعار. وربما تكون المشاكل في العمل بين الرؤساء والمرؤوسين، أو من جهة التعيين أو الترقية. أو مشاكل اجتماعية في محيط الجيران والأصدقاء... أو مشاكل صحية، أو سياسية، وما إلى ذلك.

****

وتختلف أساليب الناس في معالجة المشاكل، أو في التعامل معها، أو ي مدى التأثر بها... وذلك تبعاً لنفسية وعقلية كل إنسان، أو تبعاً لطباعه أو روحانيته أو شفافيته. أو تبعاً لنوعية المشكلة ومدى عمقها أو تصور نتائجها. أو يختلف التعامل مع المشكلة من جهة صاحبها: رجلاً كان أو امرأة، شاباً أو كهلاً.

وهناك أنواع من الناس تحطمهم المشاكل، بينما آخرون ينتصرون عليها. وهناك أساليب خاطئة في مواجهة المشكلة، وأساليب أخرى سليمة.

وسنحاول أن نستعرض النوعين، وأنواعاً أخرى بين بين...

****

١- الهروب من المشكلة:

هذا النوع لا يواجه المشكلة بأي حل من الحلول، إنما يهرب منها، أو يؤجل النظر فيها، تاركاً إياها إلى عامل الزمن: ربما بمرور الوقت تتطور أو تتغير أو تزول، أو تتدخل عوامل أخرى لحلها..!

مثل هذا الشخص قد يسافر بعيداً عن مكان المشكلة، ويلجأ إلى تغيير الجو، أو يحوّل المشكلة إلى شخص آخر للتصرُّف فيها، كما يحدث أحياناً في المجال العائلي.

ولكن الهروب من المشكلة ليس حلاً لها. ربما هو راحة منها بعض الوقت. ثم تعود المشكلة لمواجهة هذا الشخص الذي لم يواجهها...

****

٢- حل المشكلات بالأعصاب!!

قد يوجد شخص يواجه المشاكل بالزعيق والصياح، وبالغضب والنرفزة، وبالشتيمة والتهديد والوعيد، وبالصوت العالي الحاد، وبالألفاظ الجارحة. ولا يمكن لشيء من هذا كله أن يحل إشكالاً...

إن الأعصاب الهائجة وسيلة منفرة، تدل على قلة الحيلة، كما تدل على الفشل في استخدام الحوار والإقناع. وتدل على محاولة تغطية هذا الفشل بالعنف الظاهري، الذي هو شاهد على العجز الداخلي. أو هي محاولة لتخويف الطرف الآخر أو التخلص منه بهذا الأسلوب. ولكنها ليست طريقة اجتماعية محترمة. ويبقى معها الإشكال كما هو.

وقد تجلب الأعصاب الهائجة أمراضاً لصاحبها: مثل ضغط الدم، والسكر، وقرحة المعدة. بالإضافة إلى أمراض أخرى نفسية، وتعقيدات كثيرة في العلاقات الاجتماعية، يحاول إصلاحها فيما بعد، فلا يجد حلاً...

****

٣- النكد والبكاء:

إنه أسلوب الطفل الذي يواجه المشكلة بالبكاء. على أن هذا التصرف الطفولي يبقى عند البعض حتى بعد أن يكبروا، وبخاصة عند كثير من النساء! فكثير من الزوجات يواجهن المشاكل بالنكد والبكاء، ويخسرن بذلك أزواجهن...

يدخل الرجل بيته، فيجد امرأته مكتئبة تبكي، وربما لسبب تافه، فيحاول حله. ثم يتكرر البكاء لسبب آخر، ولسبب ثالث. ويصبح البكاء خطة ثابتة في مواجهة كل ما لا يوافق هواها، مع تأزم نفسي وشكوى وحزن! مما يجعل الرجل يسأم هذا الوضع، ويهرب من البيت وما فيه من نكد. وتخسر المرأة زوجها..!

٤- الضغط والإلحاح:

قد تكون مشكلة إنسان هى رغبة يريد تحقيقها، ويجد معارضة لذلك من أب أو أم أو رئيس. فيظل يلح ويضغط بطريقة توصله إلى غرضه أخيراً.

إن الإلحاح قد يوصل إلى موافقة ليست برضى القلب. والعجيب أن صاحب الرغبة يخرج بهذه الموافقة الظاهرية، ولا يهمه قلب من أعطاها وعدم رضاه!

****

٥- العنف... والجريمة:

أب لا يطيعه ابنه، فيلجأ إلى حل هذا الإشكال بالعنف، سواء بالضرب أو الزجر. وقد يسلك بنفس الأسلوب مع زوجته. وبذلك يخسر محبة أسرته له وقد يسلك بالعنف كل من هو صاحب سلطان، ولا يصل إلى نتيجة..!

والمقتنعون باستخدام العنف قد يحلون مشاكلهم بالجريمة أحياناً.

سارق يراه البعض وهو يسرق، فيقتل من رآه لئلا يكشف أمره... كذلك فتاة قد تحمل سفاحاً، فتقتل جنينها بالإجهاض. وهكذا يغطي هؤلاء الجريمة بجريمة أخرى. ومثلهم من يغطي خطيئته بالغش، أو بالتزوير، أو بالرشوة، أو بشهادة زور، أو بإلصاق الجريمة بشخص آخر بريء!

****

٦- الحيلة والدهاء:

وهذا الأمر يلجأ إليه كثيرون في حل مشاكلهم. والدهاء - كالعنف - قد يوصل إلى نتيجة سريعة تبدو حلاً، وغالباً ما يكون أسلوباً شريراً.. والذين يستخدمون الحيلة لحل مشاكلهم أو أخطائهم، يلجأون إلى الكذب وهو سلاح مشهور غالبية الخطاة يلجأون إليه، وينكرون ما فعلوا.

إنسان يرتكب جريمة، فيعمل على إخفاء معالمها، أو إثبات وجوده في مكان آخر في وقت ارتكاب الجريمة! أو يساعده البعض على أنه كان مريضاً يعالج في مستشفى وقتذاك! أو أي أسلوب آخر مشابه...

٧- سلاح الخيانة:

ما أسهل على خائن - لكي يصل إلى غرضه - أن يغدر بأحبابه أو بأوليـاء نعمتـه. أو يخون صديقاً إن رآه منافساً له، أو ظن أنه بالخيانة يمكنه أن يحـل إحـدى مشـاكله، أو يصل إلى التشفّي. ومع أن الخيانة أوصلت البعض إلى حل بعض مشاكلهم، إلاّ أنهـم فشلوا جميعاً واحتقروا ذواتهم.

إن الإنسان ربما يستطيع أن يحتمل احتقار الآخرين له، إلاّ أنه نادراً ما يقـدر علـى احتمال احتقاره لنفسه. فحينما تنكشف أمامه حقيقة حقارته، لا يحتمل.

****

٨- العناد وصلابة الرأي:

البعض إذا واجهته مشكلة، يصر على رأيه ووجهة نظره، مهما كانت النتائج سـيئة ووخيمة. ويتحول الأمر إلى عناد ويزداد تعقيداً.

وكل ذلك ناتج عن كبرياء داخلية واعتداد بالذات. والعناد لا يأتي بنتيجة، لأنه محاولة لإرغام الطرف الآخر. فإذا لم يقبل، لابد من التصادم. والعلاج هو العمل على التفـاهم، والتنازل عما تثبت عدم صلاحيته.

****

٩ - اللجوء إلى العقاقير وأشباهها:

يقع إنسان في إشكال ولا يجد له حلاً، فيلجأ إلى العقاقير وأصناف مـن المسـكنات والمهدئات والمنومات. وإذا قل مفعولها، يحاول أن يزيد كميتها. فإن لم تأت بنتيجة، يقـع في التعب النفسي أو اليأس. والعقاقير هى اعتراف بالفشل في مواجهة المشكلة، والفشـل في احتمالها وفي حلها...

وينضم إلى استخدام العقاقير، استخدام التدخين والخمر والمخدرات.

وكل تلك الوسائل لا تحل المشكلة، إنما يحاول بها الشخص أن يتوه عن نفسه... هو يهرب من مشكلته، وتظل باقية.

١٠- والبعض يقابل المشكلة بالاستسلام واللامبالاة، وليحدث ما يحدث!!

١١- أما الطريقة المثلى:

فهى أن تقابل المشكلة بهدوء وبغير اضطراب. وتبحث عن الحل العملي لهـــا، بكــل حكمة. وإن أعوزتك الحكمة، اطلب مشورة الحكماء من ذوي الخبرة...

والجأ إلى اللّه بالصلاة ليوجد لك حلاً، لأن "غير المستطاع عند الناس، هو مســتطاع عند اللّه". وفي كل ذلك "مرّر المشكلة دون أن تمررك"... أي اجعلها تمر، دون أن تسبب مرارة لنفسك.



٤ / ٣ / ٢٠٠٦

العطاء
أهميته ـ نوعيته ـ قمته

إن حياة الإنسان تقاس أو تقيّم، بمقدار ما يقدّمه من عطاء. لذلك فكل يوم يمرّ عليك، دون أن تعطي فيه شيئاً لغيرك، لا تحسب هذا اليوم من أيام حياتك...

ومن جهة العطاء، وضع سليمان الحكيم وصيتين ذهبيتين هما: "لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون في طاقة يدك أن تفعله"، "لا تقل لصاحبك اذهب وعُدْ غداً فأعطيك، وموجود عندك". الواجب إذن أن تعطي، ولا تؤجّل العطاء إلى غدٍ.

****

فإن أنعم اللّه عليك ببعض الخيرات، فلا تظن أنها كلها لك وحدك!

بل اللّه - فيما يعطيك - إنما يختبرك: هل أنت بدورك سوف تعطي أيضاً؟ أم سوف تملكك الأنانية فتستأثر بكل شيء لذاتك دون غيرك!!

إن العطاء هو خروج من محبة الذات إلى محبة (الآخَر). والعطاء يحمل فضيلة البذل، وشيئاً من فضيلة التجرُّد، وبعداً عن الجمع والتكويم.

والذي يتصف بالعطاء، يدل على أن المال ليس هو الذي يملُكه، بل هو الذي يملُك المال وينفقه في خير الآخرين.

****

والعطاء على درجات كثيرة: أولها التدرُّب على العطاء، ثم النمو فيه.

+ تدرب أولاً على أن كل ما يصلك من خير، أعط منه للغير.

وثِق أن ما تعطيه منه، إنما يجعل البركة فيما تبقى، فيزداد... وأيضاً ما تحصل عليه من محبة ودعاء ممن أعطيتهم يكون أكثر بمراحل من العطية ذاتها. وتكسب بذلك أصدقاء يشفعون فيك أمام اللّه ...

وهكذا يكون العطاء خيراً للمُعطي، ولمن يتقبل العطية.

ومثال ذلك الأم التي تُعطي من لبنها لرضيعها: يسعد هذا الابن برضاعته، وتستريح الأم أيضاً وتسعد. وبنفس الوضع يسعد المُعطي حينما يرى فرح من يتقبّل أيضاً عطـــاءه، فيفرح بفرحه. إن الشجرة تنتعش حينما يرويها الفلاح. كما ينتعش الفلاح بـــذلك ويفـــرح بانتعاش الشجرة...

****

ويتقدم الإنسان في العطاء، فيصل إلى السخاء والكرم:

فيعطي بسخاء وليس بتقتير، ولا بحسابٍ دقيق! ليس فقط ما يكفي بالكاد حاجة غيره، وإنما بالأكثر ما يفيض.

ويُعطي ليس فقط ما يطلبه الناس، وإنما ما يحتاجون إليه حتى دون أن يطلبوا. كالأب الذي يعطى لابنه ما يحتاجه، ولا ينتظر حتى يطلب...

وهكذا اللّه - تبارك اسمه - يعطينا دون أن نطلب، وفوق ما نطلب...

وهو بهذا يقدم لنا درساً في العطاء وكيف يكون. سواء كان ذلك بالنسبة إلى الأفراد، أو إلى المجتمع جملةً... إلى الذين يعرفون كيف يُعبّرون عن احتياجاتهم، والذين ليســت لهم القدرة على ذلك أو الوسيلة...

****

ويرتقي العطاء، فيصل إلى أن يُعطي الإنسان أفضل ما عنده:

ليس فقط الأشياء البالية أو المرفوضة منه. فليس في هذا احترام للذي يأخــذ. إنمـــا يُعطي الأشياء التي يتشرف بها الآخذ. وإن كان المثل يقول: "إن الهدايا على قدر مُهديها"، فهل نقول أيضاً إن العطايا على قدر مُعطيها، مع احترام من تُعطى إليه...

****

ومن النبل أيضاً: العطاء من العوز، أي تُعطي ما أنت محتاج إليه!

وهنا ننبّه إلى أن فضيلة العطاء، ليست هى فقط للأغنياء القادرين الذين يفيض المال عنهم. إنما يقوم بها أيضاً أهل الخير الذين يدفعون من إعوازهم، وبهذا يُفضّلون غيـــرهم على أنفسهم. ولا شك أن هؤلاء الذين يعطون رغم عوزهم، يكونون عند اللّه أكثر أجراً، كما يكونون عند الناس أكثر تقديراً...

والعطاء الحقيقي هو العطاء بفرح:

فلا يُعطي الإنسان نتيجة ضغط واضطرار، أو وهو ساخط ومتذمِّر، أو خوفاً من انتقاد الناس!! فمن يفعل ذلك، إنما يُعطي من جيبه، وليس من قلبه، ولا ينال من اللَّه أجراً على ما يُعطيه...

أما الذي يُعطي عن حب وإشفاق، ويفرح للخير الذي يقدمه لغيره بعطائه، فهذا هو المقبول أمام اللَّه والناس...

****

قديماً كان الناس يعطون ما يسمى بالبكور:

أي أوائل الأشياء. فيُعطي الشخص أول نتاج زرعه أو غنمه. كما يُعطي أول ثمار شجره. وهكذا يبارك اللَّه كل ما له في حقله.

على أن الأمر الآن لم يعد قاصراً على المجال الزراعي، بل امتد إلى الوظائف والحرف. وأصبحت فضيلة البكور لها اتجاه آخَر:

فيُمكن للموظف أن يقدّم أول مرتب له وأول علاوة له لعمل الخير. والمدرّس بالإضافة إلى المرتب يقدم ما يأخذه من أول درس خصوصي، وكذلك المحامي من أول أجر على قضية، والطبيب كذلك يدفع لأوجه الخير ما يصل إليه من أول كشف وأول عملية.. وهكذا الباقون...

وبهذا يبارك اللَّه دخل كل هؤلاء، لأن أول إيراد لهم لم يكن لأنفسهم، بل كان عطاءً منهم لغيرهم...

****

ومن صفات العطاء أن يكون بمداومة:

لأن هناك من يدفع مرة أو مرتين، ثم يسأم ويملّ، ويرفض إذا طُلبَ منه أكثر... أما القلبَ الواسع فهو لا يملّ من طلبات المحتاجين، بل يُعطيهم مهما طلبوا، برضى مقدراً لإعوازهم...

كذلك لا يكون العطاء بكل تحقيق وتدقيق:

ولا بإهانة الطالبين، ووصفهم بالكذب والاحتيال. فإن كان البعض يطلب عن غير استحقاق، فليس الكل كذلك. ونحن في عصر، غالبية الناس فيه محتاجون: ليس فقط الذين

يُقاسون من البطالة، بل أيضاً أصحاب الدخل المحدود، مهما كانت مرتباتهم. وبخاصة إن وقع أحدهم في مشكلة مالية، تتعلق بمرض أو عملية جراحية، أو تكاليف زواج ابنه، أو احتياج إلى سكن، وما إلى ذلك...

* * * *

هناك نوع آخر من العطاء هو العطاء المعنوي، غير المادي:

كمن يُعطي كلمة عزاء لإنسان حزين، أو يُعطي كلمة تشجيع لمن هو يائس أو واقع في صغر النفس، أو يُعطي عبارة حنان لطفل يتيم، أو كلمة منفعة لمن يحتاج إليها، ومثل ذلك من الأمور...

كذلك يوصف بالعطاء من قدّموا للناس فكراً نافعاً، أو فناً مفيداً، أو علماً وكان له تأثيره في راحة الناس أو في علاجهم أو في تعمير الأرض. ولا أقصد العلم أو الفن الذي أسيء استخدامه. كل أولئك كان في حياتهم عنصر العطاء، كل في تخصصه.

* * * *

على أن قمة العطاء تتمثل في من يُعطي نفسه لأجل غيره:

أي أنه يفدي غيره بذاته... مثال ذلك من يفدي وطنه بحياته، أو يبذل حياته من أجل دينه أو من أجل مبدأ من المبادئ السامية، أو من يقدم حياته لإنقاذ غريق، أو إنقاذ أسرة من الحريق. ولا يوجد حب أعظم من هذا: "أن يضع أحد نفسه عن أحبائه...".

إن الإنسان الذي يبذل نفسه لأجل غيره، يذكّرنا بالشمعة التي تذوب لكي تنير للآخرين، ويذكّرنا أيضاً بحبة البخور التي تحترق تماماً لكي تُعطي بخوراً عطراً للغير... إنها أمثلة واضحة لبذل الذات كاملة..

* * * *

بقى سؤال هام، وهو: ماذا عن الذين يريدون أن يعطوا وليس لهم؟

إنه عطاء بالنية، والله هو فاحص القلوب، والعارف بقدرة كل شخص أو عدم قدرته. ونحن نُصلّي من أجلهم في الكنيسة ونقول: "اذكر يارب الذين يريدون أن يقدموا لك وليس لهم. عوّضهم عِوض الفانيات بالباقيات.

١١ / ٣ / ٢٠٠٦

حريـة الإرادة
وقـوة الإرادة أو ضعفهـا

لقد خلق اللّه الإنسان بإرادة حرة. ولمّا انحرفت إرادته بحريته نحو الخطأ، وضع له اللّه ضوابط من وصاياه المقدسة. وكذلك وضع المجتمع ضـوابط لـلإرادة، مؤداهـا أن الإنسان لا يستخدم حرية إرادته ضد حريات الآخرين أو حقوقهم. كما لا يستخدم حريتـه ضد القانون والنظام العام.

وبقيَ الإنسان يتمتّع بحرية إرادته داخل هذه الضوابط، على أنه يستطيع في حريتـه أن يُعطي وصايا اللّه، وأن يخرج عن الضوابط التي وضعها المجتمع. وبهذا يصبح مذنباً أو شريراً، يتعرّض لعقوبة اللّه وعقوبة المجتمع...

الخير أمام الإنسان: يريده أو لا يريده... هنا حرية الإرادة.

أما أن يفعل الخير أو لا يفعله. فهنا قوة الإرادة أو ضعفها.

فما الذي يؤثر على الإرادة، ويجعلها تضعف عن فعل الخير...

أول ما يضعف إرادة الإنسان، الشهوة أياً كان نوعها، سواء كانت شهوة الجسـد، أو شهوة السُلطة، أو شهوة المال، أو شهوة الانتقام... وما إلى ذلك من الشهوات التي تسيطر على القلب، ثم العقل، ثم الإرادة.. وأمامها تختفي كل القيم، ولا تبقى سوى الشهوة سـيدة الموقف.

الشهوة تُخضع العقل لها، وتستخدمه لتنفيذ أغراضها، فيبرر لها الهدف، ويبحث لهـا عن وسائل للتنفيذ. ويجعل العقل يشتعل بالرغبة.

وأمام طغيان الشهوة، وخضوع العقل والقلب لها، تصبح الإرادة أيضـاً مجـرد أداة منفذة لرغبات الشهوة.

وهنا تصبح الإرادة ضعيفة لا تستطيع أن تقاوم الشهوة، فلا يقف إلى معونتها عقـل ولا ضمير... لذلك على الإنسان الصالح أن يقاوم أية شهوة خاطئة، من بادئ الأمر، قبل أن تقوى وتدخل إلى القلب وتسيطر عليه، وقبل أن يخضع العقل لها.

وإن كانت الإرادة تضعف أمام الشهوة، فهي تضعف بالأكثر أمام العادات الخاطئة. وتنهار الإرادة الخيرة تماماً وإن تحوّلت العادة إلى طبع.

فالإنسان - بصفة عامة - ضعيف الإرادة أمام طبعه وأمام عاداته. ولهذا لا تسمح لأخطائك أن تتطور إلى عادات. والمعروف أن العادة تنتج عن عمل إرادي يتكرر. فالخطأ الذي تعمله بإرادتك اليوم، قد تجد نفسك منساقاً إلى عمله بغير إرادتك، إذا طالت المدة عليك في عمله.

لذلك لا تسمح لنفسك أن تخضع لعادة معينة يصبح لها سيطرة عليك. قاوم ذلك من بادئ الأمر قبل أن يتأصل...

****

يُضعف الإرادة أيضاً الإغراء الشديد، والقرب منه:

لذلك ابعد عما يغريك، وبالتوالي يضعف إرادتك، فلا تستطيع أن تقاوم. إن الهروب من مصادر الخطيئة، والبعد عن مؤثراتها، أمر يُعتبر فضيلة في حد ذاته، لأنه يدل على رفض القلب لتلك الخطيئة...

ومن هذه المصادر الضارة التي ينبغي أن يبعد عنها الإنسان الصالح: الأماكن والأشخاص والمغريات. فإن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة. وليس حقاً أن يدعى إنسان بأنه لا يتأثر! على الأقل كلما تعرض للأسباب، سيتأثر شيئاً فشيئاً، ولو قليلاً قليلاً مما يضعف إرادته...

****

تضعف الإرادة أيضاً أمام الضغوط الخارجية:

وهكذا قد يتصرّف الإنسان بغير إرادته نتيجة لضغوط تفرض عليه من والديه، أو من رئيسه في العمل، أو من إلحاح ودموع زوجة، أو من سيطرة زوج... وفي كل هذا قد يضعف ولا يملك إرادته. وفي خضوعه أو استسلامه لهذه الضغوط الخارجية، قد يتصرف بعكس ما يريد!!

وإن قاوم ورفض، ما أسهل أن يتهموه بالعناد وصلابة الرأي، وعدم التفاهم أو عدم الطاعة...! ويبقى الأمر معلقاً - حسب نوعية شخصيته - هل تنتصر إرادته، أم تنتصر الضغوط الواقعة عليه...

من الجائز أن يكون الضغط الخارجي على الإرادة بسبب التيار العام فلا يستطيع الشخص أن يسبح عكس التيار، وإنما يجعل إرادته تتمشى مع الوضع السائد بقدر امكانه، في حدود ما يرضاه ضميره...

أما المصلحون الاجتماعيون، فقد وقفوا بإرادة قوية وبعقلية مؤثرة ضد أوضاع مجتمعهم، واحتملوا النقد والمقاومة، ونجحوا أخيراً، وغيّروا أوضاعاً كانت قائمة وراسخة... ولكن ليس الجميع بمثل هذه القوة...

* * * *

مما يضعف الإرادة أحياناً: بعض العوائق القائمة ضدها...

على أن العوائق ليست كلها موانع. وصاحب الإرادة القوية يمكنه أن ينتصر على العوائق، فلا تمنعه من تنفيذ ما يريد...

هكذا فعل العصاميون الذين شقوا طريقهم في الحياة بدون إمكانيات، وكأنهم يحفرون في صخر! وهكذا أيضاً سلك بعض الذين قاسوا من تعويقات جسدية وانتصروا عليها... إن "طه حسين" مثل رائع في هذا المجال. لأنه وقد فقد بصره، استطاع بقوة إرادته ومثابرته وجهاده، أن يدرس ويتفوق، ويصير زعيم الأدب العربي في عصره، ويصل إلى الأستاذية وإلى رئاسة جامعة الإسكندرية، وإلى منصب وزير التربية والتعليم...

بتهوفن - في الموسيقى - كان مثلاً آخر. وغير هذين كثيرون.

قد تضعف الإرادة أيضاً بسبب ضعف الشخصية:

كأن يكون الشخص غير قادر على البتّ في الأمور، أو أنه يريد ولا يستطيع، أو يكون من النوع المتردد، المتحير بين أن يفعل أو لا يفعل. أو يكون خائفاً من جهة النتائج وردود الفعل. أو يكون متحيراً في أسلوب التنفيذ، بأية الطرق يكون؟! أو يكون الأمر غير واضح أمامه... كل ذلك يجعل إرادته ضعيفة، مهتزة، غير واثقة من العمل ذاته، ولا من نتائجه...! وعلى مثل هذا الشخص أن يتروى، ويدرس الموضوع جيداً. ولا يقدم عليه إلاّ بعد التأكّد والثقة التامة.

يسأل البعض عن الأحلام التي تشمل بعض الأخطاء، وما موقف الإرادة فيها؟ وهل تعتبر أخطاؤها أعمالاً غير إرادية؟

لا يمكن أن نقول إنها غير إرادية تماماً. لأن غالبيتها تكون عبارة عن صور أو أخبار أو رغبات، ترسبت في العقل الباطن نتيجة لأعمال إرادية سابقة. فالإرادة قائمة - ليست في موضوع الحلم بالذات - إنما فيما سبقه من أعمال إرادية كانت هى السبب فيه أما لو كان الخطأ الذي في الحلم غير مقبول تماماً، وضد الإرادة والرغبة بطريقة، فلابد أن الشخص يستيقظ ولا يكمل حلمه، لأنه لا يحتمله...

لذلك يمكن أن نقول عن هذه الأحلام إنها شبه إرادية. فهى ليست إرادية، وليست غير إرادية بحكم مطلق...

****

إن ضعفت إرادة الإنسان، فماذا يفعل لكي يقوي إرادته؟

وأقصد كيف يقوي إرادته في عمل الخير. لأن هناك من يرتكبون الخطيئة بإرادة قوية، ويفعلون الشر بتصميم، وينتصرون في فعله على كل العوائق.

هناك تداريب كثيرة لتقوية الإرادة، في مقدمتها تدريب ضبط النفس... ولو أدى الأمر إلى التغصُّب. لذلك اعمل الخير، ولو بأن تغصب نفسك على ذلك، فسيأتي الوقت الذي تعمل فيه الخير بإرادتك، وبدون تغصُّب...

وما دامت العادة الخاطئة هى نتيجة عمل إرادي متكرر، إذن بإرادتك اعمل ما هو عكسها أو ضدها، بتكرار حتى يثبت ذلك في طبعك...

****

ويقوي إرادتك أيضاً: التدين ومخافة اللَّه:

ضع في ذهنك باستمرار، أن اللَّه يرى كل ما تفعله، ويسمع كل ما تقوله، ويحاسبك على كل ذلك... حينئذ تدخل مخافة اللَّه في قلبك، وتقوى إرادتك في عمل الخير وفي البعد عن الشر، وتحميك من التردد، وتمنحك نعمة وقوة...

١٨/ ٣ / ٢٠٠٦

عَشَر قيـادات مُتنوِّعـة

كل إنسان سائر في طريق الحياة، يرى أن أشياء معينة تدفع مسيرته، وتحدد له كيف يسلك... فما هي هذه الدوافع التي تقوده؟ إنها تختلف من شخص إلى آخر. نذكر من بينها:

١- هناك إنسان يقوده فكره في التمييز بين الخير والشر:

يقوده فهمه الخاص. فما يراه حقاً، هو الحق بالنسبة إليه. وما يراه باطلاً، فهو الباطل بالنسبة إليه وفهم هذا الإنسان ليس مضموناً. هل هو ناضج أم متعثر؟ ويقول الحكيم: "توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت".

حقاً، ما أصعب أن يركن الإنسان إلى فكره ليقوده، وبخاصة لو كان من المبتدئين، وإن كانت الأمور التي أمامه تحتاج إلى عمق في الفحص، وإلى خبرة...

****

٢- هناك إنسان آخر تقوده رغباته وشهواته:

فهو يسعى لتحقيقها، ويرى أن له كل الحق في ذلك. بينما ليس لديه وقت ليفحص هذه الرغبات، وهل هي سليمة أم مخطئة. وإن فكرّ في ذلك، يجد فكره مؤيداً لرغباته! وكما نقول دائماً: "إن الفكر كثيراً ما يكون خادماً مطيعاً لرغبات النفس!".

****

٣- إنسان ثالث يقوده مرشد روحي:

ومن اللازم أن يكون هذا المرشد خبيراً، وسليم الفكر، غير متحيز لاتجاه معين. وإلاّ انطبق المَثل القائل: "أعمى يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة". لأنه إن ضل هذا المرشد، يضل كل من يتبعه... والله - تبارك اسمه - لا يقصد أن الطاعة له تتحول إلى أي إنسان أياً كان، حتى إن كان أحد الوالدين. ذلك لأنه "ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس"... فلا نعصم المرشدين، إنما نُحكِّم الضمير...

٤- هناك أشخاص آخرون تقودهم الأحلام أو الرؤى:

فليست كل الأحلام والرؤى من اللَّه. لذلك ينبغي على كل إنسان أن يكون لديه الإفراز الكافي، الذي يدرك به هل الأحلام التي رآها هى من اللَّه، أم من الشيطان، أم من العقل الباطن، أم من أمور مترسبة في نفسه نتيجة لقراءات أو سماعات أو مناظر أو قصص أو رغبات كامنة في نفسه، تحوّلت إلى أحلام؟؟!

إن الشيطان، إذا تيقن أن أشخاصاً يؤمنون بالأحلام، ما أسهل عليه أن يقودهم بأحلام مضللة من عنده...

****

٥- هناك أشخاص آخرون تقودهم الكتب، ووسائل النشر والإعلام:

فالفكر الذي يقرأونه في كتاب ما، أو في جريدة أو مجلة مشهورة، ما أسهل عليهم أن يعتنقوا هذا الفكر، وربما يتحمّسون له ويرددونه بلا تفكير، وكأنما قد صاروا مجرد صدى لما قرأوه..!

على أن الإنسان الحكيم لا يضمن كل ما ورد في كتب، أياً كانت شهرة الكاتب! بل يقرأ بعقل وتمييز، ويحترس من بعض الأفكار الجديدة التي تخالف بعض الثوابت التي تسلمها من قبل. بل يفحص ويسترشد، ويرفض ما يجب رفضه...

****

٦- هناك أيضاً من تقوده الدَفعة الأولى The First Push

كإنسان أول علاقة له بالحياة الفكرية أو الفلسفية، أقنعوه بالفكر الشيوعي على اعتبار أنه الطريق السليم إلى الاشتراكية الحقة، وحُسن توزيع الثروة بمساواة بين الجميع فلا غني ولا فقير، وبأن الدين هو أفيون الشعوب، لأنه يخدّر الفقراء في واقعهم البائس فلا يحتجون عليه، بل يقبلونه بالتسليم للإرادة الإلهية!! لذلك من يتلقى هذا الفكر، يستمر في الدفعة الأولى التي دفعته..

إنه مثل كرة ألقاها أحدهم من على جبل: ففي الاتجاه الذي ألقاها فيه تظل تتحرك وتتدحرج بدون تفكير..!

على مثل هذا الشخص أن يوسّع ذهنه لمناقشة الأفكار الأخرى، ولا يتحمس لفكره الأول، في رفض لكل ما يقابله من نقد...

كذلك كل من كان انتماؤه الأول إلى هيئة ما، يتحمس لها مهما انحرفت أو تغير مسارها...

****

٧- هناك إنسان آخَر تقوده عوامل نفسية معينة:

كأن يكون في نفسيته عامل الخوف. فيقود الخوف حياته، ويوصله الخضوع لأية رئاسة والاستسلام لأية سلطة. أو يكون في نفسيته عنصر المجاملة أو عنصر الإشفاق أو ما شابه هذه المشاعر، فتقوده نفسيته إلى اتجاهات ربما تكون بعيدة تماماً عن الحق!

وهكذا تختلف تصرفات الناس حسب نوعية نفسياتهم وقيادتها لهم: ما بين إنسان يقوده الهدوء الذي في طبعه، وآخَر يقوده العنف الذي تتميز به نفسيته.. واحد يقوده الطموح، وآخَر تقوده القناعة والرضى بما هو فيه، وثالث يقوده الزهد. كل منهم حسب نوعية نفسيته...

فإن كان شخص غضوباً، يرى أن الوسيلة المثلى هى أن ينفذ ما يريده بالعنف والشدة. لأن هذه - في نظره - هى الطريقة الفعالة التي توصل إلى المطلوب بسرعة ونجاح وبنتيجة مضمونة!! ولا شك أن هذا التفكير غير سليم، ولا يتفق مع الحق.

ولكنه على أية الحالات، يدل على أن البعض تقودهم نفسياتهم وطباعهم، وليس الفكر أو الحكمة.

****

٨- هناك نوع آخر من الناس تقوده المنفعة أو المصلحة الخاصة:

يزن كل شيء بمقدار ما ينتجه من نفع خاص به. ويرى أن هذه المنفعة هى الحق بالنسبة إليه. ويقول هذا هو حقي، أو هذا هو الخير بالنسبة لي. ولا يضع أمامه أية مقاييس للحق أو للخير، سوى المنفعة. وطبعاً يعني منفعته الخاصة، وليست المنفعة العامة!

مثل هذا الشخص: إن أردت أن تقنعه بأي أمر، فهذا هو المفتاح الذي تدخل به إليه: أعني ما يعمله من نفع...

٩- هناك نوع آخر، تقوده التقاليد أو القدوة أو التيار العام:

ونذكر في مقدمة هذا النوع: الأطفال، والمبتدئين، والعامة، ومن هم في مستوى هؤلاء وأولئك... فحسب الأمثلة التي أمامهم ينقادون، وحسب روح الجماعة يسيرون بالتيار السائد...

هذا النوع يأخذ مبادئه وقيمه من المجتمع الذي يعيش فيه، سواء مجتمع الأسرة أو المدرسة أو العمل، وما في تلك المجتمعات من تأثيرات وأفكار وتوجيهات...

لذلك ننصح بأهمية وجود القدوة الصالحة في محيط الأسرة. فهى المنبع الأول الذي يتلقى فيه الإنسان أولى أمثلته، وفيها القيادات الأولى التي يصادفها... وإلى جوار ذلك ما يجب أن تكون عليه القدوة في دور التعليم، وفي مراكز الشباب وفي مجال الرياضة...

وكذلك كل ما تقدمه الأفلام من توجيهات وإيحاءات ترسخ في العقول والنفوس، وتقود البعض - عن طريق التقليد - إلى مواقف عملية في الحياة، متأثرين بما رأوه.

****

١٠- قيادة أخرى تعتبر من أهم القيادات، وهى الضمير:

على شرط أن يكون ضميراً صالحاً، مؤسساً على الخير المطلق، وما توحي به وصايا اللّه وتعاليمه. وهذا الضمير يمكن أن يسيطر على كل القيادات الأخرى، بحيث أن تسنده إرادة خيرّة قوية.

لأنه قيل أحياناً عن الضمير إنه قاضٍ عادل. ولكن الضعف يقف أحياناً في سبيل تنفيذ أحكامه. ونقصد ضعف الإرادة، وليس ضعف الضمير.

٢٥ / ٣ / ٢٠٠٦

الكمال والممكن

كلنا مطالبون بالكمال. غير أن الكمال المطلق هو للَّه وحده. أما نحن، فأقصى ما نصل إليه هو الكمال النسبي، نسبةً لمقدراتنا، وما يمنحه لنا اللَّه من نعمة...

وهذا الكمال المطلوب منا هو الممكن، أي ما يمكننا عمله... أو ما يمكننا الوصول إليه دون أي تقصير من جانبنا...

****

طفل صغير في بداية التعليم، يدرّسونه الجمع والطرح في علم الحساب. فينجح في الامتحان ويحصل على الدرجة النهائية. نقول إنه وصل إلى درجة الكمال في الرياضة (الحساب) طبقاً لمستواه. على الرغم من أن مستواه يُعتبر لا شيء، إذا ما قورن بالمستويات العليا في الرياضيات. ولكنه حصل على الكمال النسبي، نسبة إلى سنه، وإلى مستوى تعليمه. وليس هو مطالباً بأكثر من هذا...

****

في الحياة الاجتماعية أو الأسرية: نحن مطالبون بالاحتمال. وأي احتمال؟ إنه "حسب طاقتكم، سالموا جميع الناس".

المفروض طبعاً أن نعيش في سلام مع جميع الناس. ولكن يحدث أحياناً أن زوجة لا تستطيع إطلاقاً أن تعيش في سلام مع حماتها في بيت واحد، لاختلاف الطباع أو اصطدام الآراء. فبدلاً من أن يتكرر الشجار كل يوم، من الأفضل أن تنفصلا، كل منهما في بيت. ولا يكون هذا خصاماً، إنما إبعاداً للقش عن النار... وتستمر العلاقة في سلام. ولكنه السلام النسبي أو الممكن.

****

ينبغي إذن أن ننظر إلى إمكانيات كل شخص. ولا نطالبه بما هو فوق طاقته. والناس يتنوعون في مستوياتهم حتى الروحية منها..

فهناك مثلاً الشخص المبتدئ، وهو غير المختبر الناضج. وكلاهما غير الإنسان الروحي صاحب المواهب التي منحه الله إياها.

والناس يختلفون أيضاً من جهة السن: فما يستطيعه الشاب غير ما يقدر عليه الشيخ، غير ما يستطيعه الطفل... ونرى من جهة الصحة والمرض أن ما يقدر عليه المريض غير ما يقدر عليه القوي في صحته.

والكمال الممكن لكل هذه النوعيات من الناس، يختلف طبعاً من شخص إلى آخر... كل واحد منهم على قدر طاقته...

****

لذلك يجب على المُرشدين والمُعلمين والوعاظ، ألاّ يطلبوا من الناس ما هو فوق طاقتهم من جهة الوصايا والتعليم...

ونفس الكلام نقوله للآباء والأمهات، وكل الذين يعملون في مجال التربية وفي مراكز الشباب. بل وفي مجالات التنمية أيضاً...

أعطوهم إذن الممكن الذي يقدرون عليه. وليس النافع هو كثرة الوصايا، بل ما يقدر السامع أن ينفذه منها.

لهذا، كان السيد المسيح يوبّخ المعلمين من الكتبة والفريسيين قائلاً: "إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة، ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يقدرون أن يحركوها بأصابعهم"...

والمستويات العليا يصل إليها الناس خطوة خطوة، ربما بتدريج طويل أو قصير، حسب إمكانياتهم...

****

والله - تبارك اسمه - سوف يحاسب الناس، حسب إمكانياتهم وطاقاتهم. حسب الممكن، وليس حسب المطلق...

كل منهم حسب مستوى عقله وفهمه، وما ورثه من طباع، وما يتعرض له من ضغوط خارجية لا تقوى عليها أرادته. نقول هذا من معرفته بعدل الله وأيضاً رحمته. وكلاهما يقرنان الوصية بالمقدرة. والله لا يطالب إنساناً بوصية هى فوق قدرته أو فوق معرفته...

ومن هنا أيضاً تدرّجت وصايا اللّه للناس. فما أمرهم به في عصر الوثنية وعبادة الأصنام وتعدد الآلهة، كان من الطبيعي أن يرتفع في عصور المعرفة والنعمة وعبادة الإله الواحد...

على أنه يجب أن نذكر ملاحظة هامة عن الممكن وهى:

لا يصح إطلاقاً أن يتحول الممكن إلى لون من التسيُّب!

فلا تقصّر في تنفيذ الوصية، وتغطّي تقصيرك بالأعذار، وبأنه لم يكن في امكانك غير ذلك!! كلا، بل ليكن لك ضمير صالح أمام اللّه وأمام نفسك، في صدق وتدقيق. لئلا تصل إلى تدليل النفس في هروبها من الوصية أو في استهتارها!

مثال ذلك: إن كانت هناك إعفاءات من الصوم في حالات معينة للمرضى والعجائز والحبالى والمرضعات. فلا تتخذ مثل هذا التصريح سبباً للتسيب، إن كانت الصحة تحتمل...

****

ملاحظة أخرى: وهى إن كانت إمكانيات شخص لا تستطيع الآن: فمن واجبات الإنسان الصالح أن يقوّي إمكانياتها ويزيدها.

وهناك تدريبات عملية كثيرة يستطيع أن يسلك فيها الشخص لكي يقوي قدرته، ويكتسب إمكانيات جديدة. وما كان غير مستطاع له بالأمس، يصبح اليوم ممكناً. وهكذا فالأعذار التي كانت تغطّي عجزه من قبل، لم يعد لها وجود الآن.

****

وفي حدود الامكان، يسلك الإنسان بأسلوب التدرُّج.

فإن كنت لا تحب الخير الآن، اغصب نفسك عليه. وبالتوالي سيأتي وقت تتعود على عمل الخير، بل تشتاق إلى عمله. ولا يكون بعد عن طريق التغصب، إنما بكل رغبة واقتناع.

درّب نفسك على الاحتمال. وما لا تستطيع احتماله اليوم، فإنك بالتدريب سوف تستطيعه فيما بعد.

درّب نفسك على العطاء، ولو بالقليل! المهم أن تعطي بأي قدر. ثم تدرج في العطاء. زِدهُ شيئاً فشيئاً. وكلما وجدت ثماره الخيرة، فإنك ستنمو في عطائك، وتزداد في كمالك النسبي.

ليكن هدفك باستمرار هو الكمال. ولا تقف عند حد.

وهذا الهدف سوف يدفعك إلى النمو في عمل الخير.

ولاحظ نفسك. إن كان نموك الروحي قد توقف. فادفعه مرة أخرى بأساليب وطـــرق شتى. لأنه على قدر ما تصل إلى كمال نسبي هنا على الأرض، سوف تكون مجازاتك في السماء...

واطلب معونة من اللّه القادر على كل شيء، حتى تستطيع بمعونته وعمل نعمته، أن تنتقل من كمال إلى كمال أعلى في كلٍّ من المستوى النسبي والممكن...



١ / ٤ / ٢٠٠٦

أهم ما في الأمور نهايتها

دائماً يبحث الناس عن النهاية، ويهتمون بها:

وذلك في كل نواحي الحياة: تروي قصة أو تشاهد رواية، وكل ما يهمك ويهم غيرك، هو كيف انتهت القصة أو الرواية؟ وقد توجد قضية أو خلاف بين زوجين، أو حادث في الطريق... المهم هو كيف انتهي؟... وقد يشرح لك الراوي تفاصيل ما حدث. ولكنك تسأل في لهفة: والنهاية؟.. نفس الوضع في أية مباراة، أو أية منافسة، أو أية حرب بين دولتين، أو أي حوار أو تفاوض... السؤال المهم هو: وماذا كانت النهاية أو النتيجة؟...

****

نفس الوضع نقوله بالنسبة إلى العصاميين، والمعوقين...

العصاميون بدأوا حياتهم في ظروف صعبة ما كانت تبشر بشيء من المستقبل السعيد. ولكن بالجهاد والصبر والاحتمال، قد تمكنوا من اجتياز الصعاب التي صادفتهم. وكانت النهاية طيبة جداً، حصدوا فيها ثمار جهادهم...

ويشبه هذا، من بدأت حياتهم بإعاقة بشرية مثل فقد البصر مثلاً. فقد كانت بداية هؤلاء متعبة. ولكن كانت النهاية طيبة. نقول هذا عن "طه حسين" الذي صار وزير التعليم في مصر، وعميد الأدب العربي، ورئيس جامعة الإسكندرية. وهكذا نذكر أيضاً "أبا العلاء المعري" الذي صار من أعظم شعراء اللغة العربية. ونذكر مع هذين الأديبين الكبيرين القديس "ديديموس الضرير" الذي على الرغم من كفّ بصره، اخترع طريقة للكتابة على البارز قبل العلاّمة "برايل" بحوالي ١٥ قرناً، وصار من أعظم علماء المسيحية....

وهنا نقول أن المهم في حياة هؤلاء وأمثالهم، كانت النهاية التي انتهوا إليها، وليس نقطة البدء.

مثال آخَر هو الذين كابدوا ضيقات كثيرة وشديدة في حياتهم. ولكن المهم في حياتهم كان هو الانفراج الذين لا قوة في النهاية...

+ نذكر من بين هؤلاء يوسف الصديق الذي عامله إخوته بحسد وعنف، حتى بيع كعبد. وعلى الرغم من إخلاصه وعفّته، اُتهم اتهاماً باطلاً وظالماً من امرأة سيده، وقاسى كثيراً. لكنه في النهاية خرج من السجن ليكون أعظم وزراء مصر، والثاني في المملكة...

+ نذكر مثالاً آخر هو أيوب الصديق وما قاساه في مرضه. وكيف صبر في آلامه، حتى يُضرب به المثل في الصبر. وكيف عافاه اللّه في النهاية، وصارت نهاية عمره أفضل من بدايته...

+ كل هذا يفتح باباً للرجاء أمام الذين تصادفهم ضيقات أو أمراض. فربما تكون نهاية الضيقة هى الفرج، ونهاية المرض هى الشفاء.

****

لهذا، ففي كل طريق يسلك فيه الإنسان، عليه أن يسأل نفسه في دقة وصراحة: ماذا ستكون نهاية هذا الطريق؟

+ مثال ذلك: فتاة تحب شاباً ولا أمل في أن ينتهي مثل هذا الحب بالزواج! ومع ذلك تتعلق به، ولا تضع أمامها نهاية هذا التعلُّق! وقد تخطئ معه، دون أن تفكر ما تنتهي إليه الخطيئة، أي الضياع!!

+ أو زوج يختلف مع زوجته، ويحتدم الاختلاف بينهما ويستمر بلا صلح، دون أن يفكر أحد منهما: ماذا ستكون نهاية هذا الخلاف، ونتائجه عليهما وعلى أولادهما؟ إنهما ينشغلان بالخلاف فقط، ولا يفكران ماذا تكون النهاية! بينما الخطورة في النهاية...

+ كذلك شاب يبدأ التدخين - ولو بسيجارة واحدة، مجاراةً لزملائه، أو رغبةً في أن يجرب طعم التدخين! مثل هذا، عليه أن يفكر جيداً ما نتيجة هذه التجربة؟!

وبنفس الطريقة كل ممارسة يمكن أن تنتهي إلى عادة.

+ شخص في حاجة إلى قرض مالي. وفي مقابل ذلك يوقّع على شيك بدون رصيد، أو يوقّع على إيصال أمانة. وأسوأ من هذين من يوقّع شيكاً على بياض!! يمكن أن يكتب

عليه الذي يستلمه أي مبلغ خيالي!! فأين كان عقل كل شخص من هؤلاء حينما وقّع على ورقة أو شيك، يمكن أن تنتهي به إلى السجن؟! ولكنه - للأسف الشديد - أسلوب مَنْ لا يُفكِّر في النهاية!

+ أو شخص آخر يدخل في مشروع اقتصادي أو استثماري لم يدرسه، فتكون النهاية إفلاسه أو استدانته، وقد وضع فيه كل ماله! أو أنه يشارك في المشروع شخصاً يضع فيه كل ثقته، فتكون هذه المشاركة سبباً في ضياعه! ثم يشكو لأنه لم يفكّر في النهاية...

****

أيضاً كل خطأ يرتكبه الإنسان، عليه أن ينظر إلى النهاية، أي إلى نتائج هذا الخطأ وردود فعله...

فلا يظن أنه فعل وانتهى الأمر. إنما ليسأل نفسه: وماذا بعد؟

فمثلاً: كل غضب يشتعل في داخله، ويظهر في ألفاظه ومعاملاته، فليسأل نفسه ماذا تكون ردود فعله عند الطرف الآخَر؟ سواء بالنسبة إلى نفسيته ووقع ذلك الغضب عليها، أو بماذا سيرد؟ فالأمر لم ينته بعد. وربما تكون له نهاية لا نعرف إلى أي حد! وهكذا يكون التفكير من جهة كل إساءة من نحو الآخرين..

****

هنا ونتناول بالتحليل المعركة بين الحق والباطل:

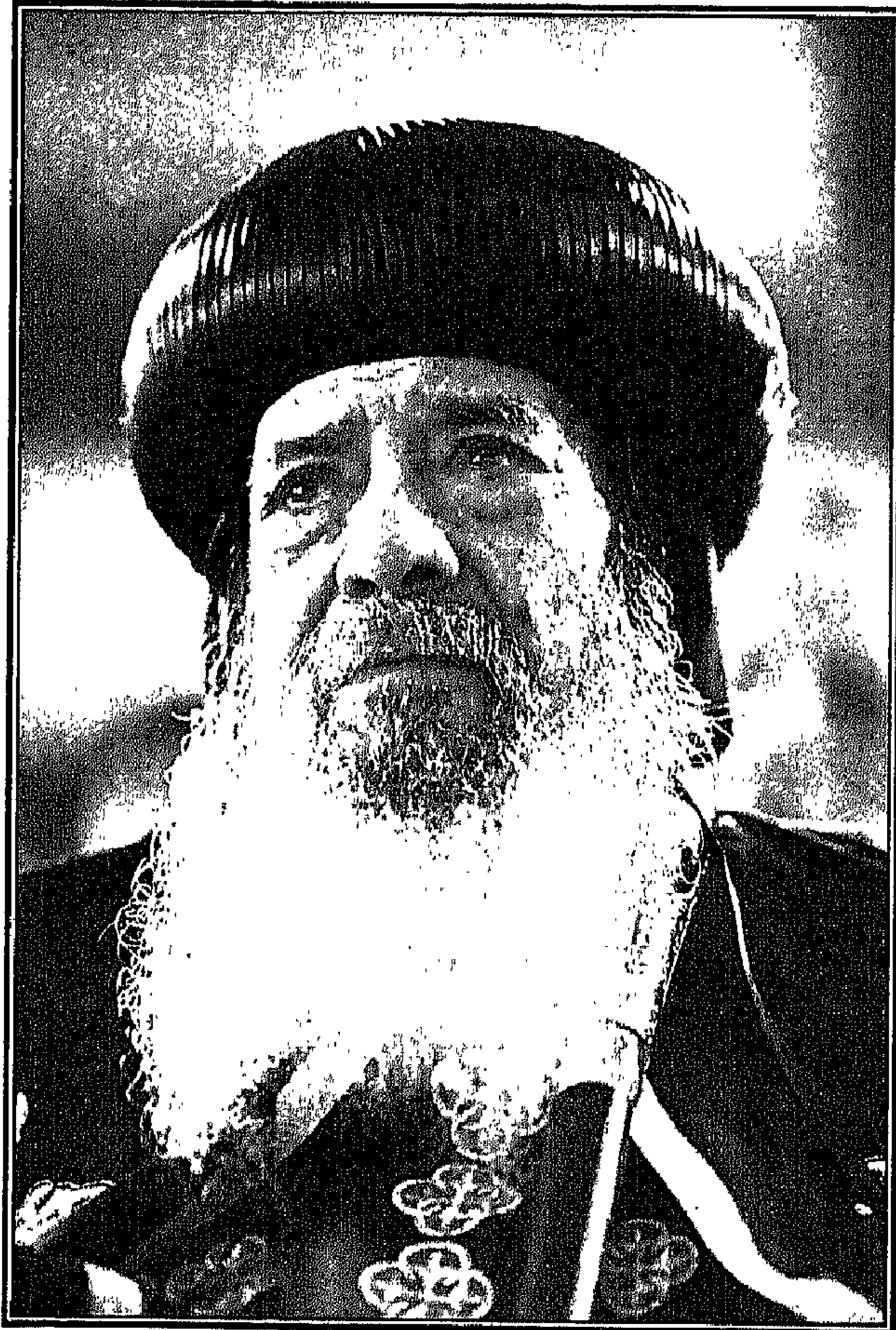
كثيراً ما ينجح الباطل أولاً، لأن له وسائل وحيلاً أكثر من الحق! فالباطل يستطيع أن يكذب ويخدع، ويلجأ إلى التزوير والادعاء والنفاق... بينما لا يستطيع الحق أن يلجأ إلى شيء من هذا كله... فإن نجح الباطل بوسائله الملتوية، فلا تيأس... ليس المنتهى بعد... غالباً ما ينكشف بالوقت، وتبطل كل مؤامرته... ثم ما يلبث الحق أن ينتصر، ولكن في النهاية، بعد حين.

قدّم القديس أوغسطينوس مثالاً لذلك فقال: عند إيقاد نارٍ من خشب، تبقى النار من تحت، ويرتفع الدخان إلى فوق، ويظل يرتفع وتتسع رقعته، ولكنه في كل ذلك يتبدد، بينما تبقى النار محتفظة بذاتها. وهكذا يكون الأمر بين الحق والباطل، في كيف تكون نهاية كل منهما... والمهم في النهاية.

هنا ونتأمل حياة كل إنسان ونهايته.

قد يبدأ إنسان حياته بالخطية، ثم يتوب ويرجع إلى اللَّه، ويحيا في حياة الفضيلة وينمو فيها. ويلاقي الموت وهو إنسان بار. هذا أفضل بلا شك من إنسان آخَر بدأ حياته باراً، ثم انحرف فأخطأ واستمر في الخطيئة حتى موته. المهم في نهاية كل منهما...

بالمثل أيضاً شخصان: أحدهما فشل في مبدأ حياته، فأخذ درساً من فشـله وأصـلح مسيرته فنجح أخيراً. بينما الشخص الآخَر كان في بادئ الأمر ناجحاً، وأصابه غرور من نجاحه، فتهاون كثيراً ثم انتهى إلى الفشل. والمهم هو نهاية كلٍّ منهما...



٨ / ٤ / ٢٠٠٦

الصراحة
كيف ؟ ومع من ؟ وما حدودها ؟

سألني أحد الشبان ذات مرة قائلاً:

"إنني إنسان صريح. لا أعرف النفاق ولا الرياء ولا المجاملة. ولا أقول غير الصدق في صراحة كاملة. ولكنني - للأسف الشديد - ساءت علاقتي مع الذين أصارحهم برأيي فيهم أو في تصرفاتهم. فيتعبون، ويسببون لي متاعب...

فماذا أفعل. بماذا تنصحني؟ هل من الخطأ أن أتكلم بصراحة؟".

ولمّا كان موضوع الصراحة يهم الجميع، كما يهم صاحب هذا السؤال، لذلك يسرني أن أناقشه معه ومعكم في هذا المقال...

الصراحة ليست خطأ، بل قد تكون فضيلة أحياناً:

إنما المهم هو في أسلوبها، ومع من تكون، وكيف تكون؟

والذي يتعب من صراحتك، إنما يتعب من الأسلوب الذي تتكلم به أثناء صراحتك معه. هل هو أسلوب لائق أم غير لائق؟ هل هو أسلوب جارح أو أسلوب قاسٍ؟ وهل يشمل اتهاماً أو توبيخاً؟ وهل هذا الاتهام فيه لون من الظلم، لأنه يعتمد على معلومات غير سليمة قد وصلت إليك؟ وهل أنت تتكلم بروح المحبة أم بروح الهجوم والهدم؟ وهل أنت في صراحتك تتدخل في ما لا يعنيك، وتتجرأ على ما هو ليس من اختصاصك؟

كذلك - في صراحتك - راع الأسلوب الذي تتكلم به مع شخص أكبر منك سناً أو مقاماً أو مركزاً.

لا شك أن الصراحة معه تختلف عن صراحتك مع شخص في نفس سنك ومركزك. وتختلف عن صراحتك مع صديق توجد بينك وبينه دالة. وتسمح هذه الدالة أن تستخدم معه ألفاظاً لا تستطيع أن تستخدمها مع شخص كبير... إنك تستطيع مثلاً أن تقول في صراحتك مع صديق: "أنت غلطان". ولكنك ربما لا تستطيع أن تقول هذه العبارة لوالدك

أو عملك أو أي شخص له مهابة في نظرك. إنما تستخدم تعبيراً آخر يكون فيه لون من الأدب والاستحياء...

لذلك فإن الصراحة يلزمها أدب المخاطبة:

فعليك في صراحتك أن تكون حريصاً على انتقاء الألفاظ. بحيث تستخدم ألفاظاً تصل بها إلى هدفك، دون أن تهين من تكلمه أو تجرحه أو تسيء إليه، لأن هذا غير لائق ولا يأتي بنتيجة سليمة... فهناك أشخاص - في صراحتهم - يستخدمون ألفاظاً مثل رجم الطوب. ويحاولون أن يخفوا هذا الخطأ تحت اسم الصراحة! ويكون العيب ليس في صراحتهم، وإنما في عدم حرصهم على أدب التخاطب، وفي عدم اللياقة...

****

كذلك ينبغي أن تكون الصراحة في حكمة، وبهدف روحي سليم...

فهل الهدف من صراحتك هو التوبيخ والإهانة ومجرد النقد؟ أم الهدف هو تبليغ رسالة معينة؟ أم الهدف هو العتاب والتصالح؟ فإن كان الهدف سليماً، تكون الوسيلة الموصلة إليه سليمة أيضاً وتأتي بنتيجة طيبة...

أقول هذا، لأن البعض يظنون أن هدف الصراحة هو توبيخ المخطئ أو من يظنون أنه مخطئ. حسب قول أحدهم مفتخراً بصراحته:

"أنا إنسان صريح". أقول للأعور: "أنت أعور في عينه".

فهل يا أخي إن قلت هذا للأعور، تكون قد كسبته أمْ خسرته؟! وهل في معايرتك له بأنه أعور، تكون صراحتك سبباً في إرجاع البصر إلى عينه العوراء؟! أمْ هي صراحة لمجرد التجريح والإهانة والإيذاء؟! وبلا فائدة تجنيها منها...

****

مثل هذا الإنسان (الصريح) يرى في الصراحة إثباتاً لجرأته!!

يرى نفسه شجاعاً في تطاوله على غيره! إذن فلو كانت صراحته مجرد مجال لإثبات الذات، لا تكون حينئذ فضيلة، بل خطية...

إنه يتجرأ في الهجوم على الكبار. وكلما ازداد قدر الذي يهاجمه، ازدادت ثقته بنفسه، واعتبر صراحته دفاعاً عن الحق، أو ما يتصوّر أنه حق! والمشكلة أن مثل هذا

الشخص يتطور من الموضوعية إلى النواحي الشخصية! ولا يحترس في استخدام الألفاظ، حتى يصل إلى ما يعتبر سباً وقذفاً!!

ويظن أن هذا كله هو لون من حرية التعبير! غير أن حرية التعبير لن تكون حرية في التحقير أو في التشهير!!

هنا ونشير إلى نوع من الصراحة، هو الصراحة الظالمة:

كأن يتكلم إنسان في (صراحة)، دون دراسة وافية لما يقوله، وإنما اعتماداً على بعض شائعات أو أقاويل لا نصيب له من الصحة. فيوجّه اتهامات قاسية تجرح المشاعر، يقولها بدون تحقق، وبغير مبالاة لنفسية من يتهمه ظلماً. ويدعى أن الدافع له هو الصراحة. ولكنها صراحة ظالمة...

****

والبعض قد يُدخل الصراحة في موضوع العتاب:

والعتاب يكون مقبولاً ونافعاً، إن كان الهدف منه هو التصالح وتنقية الأجواء، وإن كان في محبة ومودة. كأن يبدأ بذكر محاسن الصديق ومواقفه الطيبة، قبل أن يتعرض لنقطة العتاب. بهذا يكون أسلوبه مقبولاً ويصل به إلى نتيجة طيبة...

غير أن البعض - بِاسم الصراحة وعدم المجاملة - يعاتب في عنف، وبألفاظ جارحة. وكأنما ينتقم لنفسه أثناء العتاب، ويحط من شأن صديقه. فلا يقبل ذلك منه، ويرد عليه بالمثل، ويشتعل الموقف. وينتهي هذا (العتاب الصريح) بتوسيع الهوة بينهما. وكما قال الشاعر: ودَعْ العتاب فربّ شرٍّ كان أوله العتابا.

****

أما عن الصراحة التي تصدر من كبير إلى صغير:

فينبغي أن تسودها روح الحنو، والرغبة في إفادته وليست السيطرة عليه. وهكذا تكون في محبة وإقناع، وفي نصح وتعليم. ولا تكون مجرد أحكام تصدر بتوبيخ وتعنيف، بِاسم الصراحة!

إن الصراحة عموماً، من المفروض أن تمتزج بالأدب واللياقة، سواء من كبير إلى صغير، أو من صغير إلى كبير...

حقاً، إن هناك فرقاً بين الصراحة وسلاطة اللسان!

١٥ / ٤ / ٢٠٠٦

رعاية الشباب

الشباب طاقة جبّارة، من قوة وحماسة وحيوية واندفاع... سعيدة هي الدولة التي تستخدم شبابها خير استخدام فيما ينفع.. أما إهمال الشباب فقد يدفعه إلى الانحراف، أو تستغله قوى أخرى وتدفعه إلى طريق لا ندري نتائجه...

والشباب يبدأ من مرحلة التعليم الثانوي، أو قبلها بقليل في أواخر المرحلة الإعدادية. ويشمل طبعاً مرحلة التعليم الجامعي، وما يناسبها في السن خارج كليات العلم...

ومسؤولية الشباب تقع على عاتق الأسرة أولاً، ثم المدرسة والكلية والجامعة. كما تقع على عاتق الدولة أيضاً في مراكز الشباب.

****

وسؤالنا الأول هنا: ماذا تفعله المدارس في رعاية الشباب؟

كانت في بادئ الأمر تظن أن اختصاصها هو نشر العلم. لذلك كانت وزارتها تسمى "وزارة المعارف". ثم تطور الاسم فأصبح اسم هذه الوزارة: "وزارة التربية والتعليم". وبقي أن نعرف كيف تقوم مدارس هذه الوزارة بالتربية، وليس بمجرد التعليم؟

قديماً كان يوجد ما يُعرف بِاسم: "مدرس الفصل" يجلس مع طُلابه خارج نطاق العلم والمقررات، مرة أو أكثر كل أسبوع يتفاهم معهم، وينصحهم بروح الأبوة. وكأنه لهم في مركز المرشد الروحي...

وكان هناك أيضاً المشرف الاجتماعي لمجموعة من الفصول. فهل لا تزال هذه الوظيفة قائمة؟ وحينئذ نسأل: ما هي اختصاصات المشرفين الاجتماعيين في كل مدرسة؟ وكيف يقومون بمسئولية رعاية الشباب؟

أعتقد أن المدارس الأجنبية، أو ما تُعرف بِاسم مدارس اللغات، تقوم بدور أعمق في المسؤولية عن رعاية شباب مدارسها...

يبقى التعليم الجامعي لغزاً من جهة مسؤولية رعاية الشباب!

هل الأساتذة مجرد محاضرين، يلقون محاضراتهم في العلم، وينصـرفون دون أية علاقة شخصية بينهم وبين الطلاب، إلاّ علاقة الخوف والمهابة بشعور الطلبة أن مستقبلهم يقع في أيدي هؤلاء الكبار!!

ثم ما هو دور رؤساء الأقسام، ودور العمداء في كل كلية علمية من جهة رعاية وتربية هذا الشباب، الذي يحترمهم في تلقي العلم عنهم؟ ولا شك أنه يكون على استعداد لتلقي توجيهاتهم أيضاً...

وما دور رؤساء الجامعات: هل وضعوا - في نطاق مسئولياتهم - خطة عملية في رعاية الشباب الذي يدرس في جامعاتهم؟

****

إن شباب الجامعة، إذ لا يجد توجيهاً روحياً وتربوياً في دور العلم، سيتجه إلى مصدر آخر يرشده ويعرّفه كيف يسلك!!

وإذا لم يلجأ الشباب إلى مصدر أخرى، فإن مصادر أخرى كثيرة سوف تتجه إليه دون أن يطلب، وتقوم بتوجيهه وإرشاده حسبما ترى. وحينئذ تكون الدولة قد تخلّت عن مسئوليتها، وتحصد نتيجة ذلك!!

أو قد يعيش الشباب في فراغ من جهة التربية ومن جهة الوقت. ويلقيه الفراغ في ميادين خطرة، وفي متاهات، وربما في صحبة سيئة تفسد أخلاقه. أو يجد متعته في اللهو والعبث أو في المخدرات... وهنا نكون قد فقدنا هذا الشباب وكل ما عنده من طاقة!!

****

نصل حالياً إلى واجب الدولة في رعاية الشباب.

ونركّز حديثنا عن واجب وسائل الإعلام ومراكز الشباب...

هل توجد في وسائل الإعلام برامج هادفة لرعاية الشباب؟ وتكون في نفس الوقت برامج مشوّقة تجذب الشباب إليها، فلا تطغى عليه كل برامج اللهو؟! وهل يوجد متخصصون يشرفون على برامج للشباب سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو تنمية لمداركهم في كل هذه النواحي... بحيث يقبل الشباب على هذه البرامج ويتجاوبون معها ويشتركون فيها...

ماذا فعل التلفزيون في هذا المجال؟ وكذلك القنوات الفضائية؟ وهل اشترك بعض رجال الفن وبخاصة الذين يحبهم الشباب - نعم، هل اشتركوا بأفلامهم وأقلامهم ومثالياتهم في رعاية الشباب...

****

أقول أيضاً: ما هو دور الصحافة في رعاية الشباب؟

ما أكثر ما يكتب في الجرائد والمجلات عن السياسة، وعن الحوادث والأحداث، وعن التجارة والاقتصاد، وعن الملاهي واللهو... ولكن أين ما يكتب لأجل الشباب: أين هي المثل العليا التي توضع أمامهم لكي تجتذبهم؟ وأين القصص المؤثرة الهادفة التي تعمل على تكوين شخصية ناجحة فاضلة ذات شأن؟

هل يوجد في كل جريدة أو مجلة باب للشباب؟

أم نشكو نحن من الشباب إذا انحرف، بينما لم نقم بواجبنا من نحوه، ولم نبذل الجهد اللازم في رعايته وتوجيهه؟!

****

ننتقل بعد هذا إلى واجب مراكز الشباب في رعاية الشباب:

منذ زمان وأنا كنت أنادي بوجود وزارة متخصصة للشباب، لا تستهلك طاقاتها في موضوع كرة القدم، ونظن أن هذا هو جوهر العمل لأجل الشباب. وقد كتبت عن هذا الأمر في مجلة الشباب حينما كان يرأس تحريرها الصحفي القدير الأستاذ "رجب البنا"...

المفروض الاهتمام بالشباب من كل ناحية: ثقافياً، واجتماعياً، وخلقياً، ونفسياً، واقتصادياً، وسياسياً. والنظر إلى مستقبله.

وهنا يبدو العمل الأساسي لمراكز الشباب.

ويمكن أن تُعقد في مراكز الشباب: مؤتمرات، وندوات، ومحاضرات. وتقام مناقشات يشترك الشباب فيها، ويأخذ ويعطي...

نفتح قلوبنا للشباب. ويفتح الشباب قلوبهم لنا. ونعرف ماذا يشغلهم؟ وما هي مشاكلهم؟ ونناقش معهم الحلول اللازمة والمقترحات الممكن تنفيذها، وما يعرضونه وما يُعرض عليهم. وما هي الأفكار التي ترد إليهم من كافة الاتجاهات، وما فيها من خير أو ضرر؟!

ونثقفهم إيجابياً بما فيه الصالح لهم ولبلادهم...

والشباب يحتاج أيضاً إلى من يكتشف مواهبه، ويعطي هذه المواهب فرصة للظهور. ويقوم بتشغيلها لصالحه وللصالح العام.

وللشباب طاقات صالحة، يسعده أن نتعرف عليها وننمّيها، ولا نتجاهلها... سواء كانت في الأدب أو الفن أو في العلم أو الاختراع. ونعطيه مجالاً لمعرفة نفسه وما فيه من خير، وكيف يعبّر عنه...

وهو محتاج لأنشطة يعمل فيها. وكثير من الشباب الذين اشتركوا في فرق الكشافة والجوالة، تركت في أنفسهم أثراً جميلاً.

وعلينا أن ندرّب الشباب فيما ينفعه وينفع وطنه. وأتذكر في بدء سنوات الثورة الأولى في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، أنه قد استخدم الشباب في عمليات التشجير وتعمير الصحاري واستصلاح أراضيها. وأتى ذلك بخير وفير...

****

فلنهتم بالشباب إذن، ونشعره باهتمامنا به، عملياً لا نظرياً. ولا نغدق عليه بمواعيد، دون تنفيذ..!

ولنشعره أيضاً بأن مستقبله أمانة في أعناقنا. وأننا لن نتركه فريسة للبطالة ومشاكلها العديدة.

لذلك فإن من الأمور اللازمة للشباب مدارس التدريب المهني، الذي تعطيه إمكانيات للعمل، سواء العمل الخاص أو التوظف تبعاً لقدرات قد تدرب عليها.

الموضوع طويل، وميادين التفكير فيه واسعة جداً. وعلينا أن نساهم فيها جميعاً بكل هيئاتنا.

٢٢ / ٤ / ٢٠٠٦

إمكانيـة القيامـة ولزومهـا

إمكانية القيامة:

إن إقامة الأجساد بعد الموت، معجزة تدخل في قدرة اللّه على كل شيء. ولا شك إن إقامة الأجساد أسهل من خلقها.

فاللّه الذي أعطاها نعمة الوجود، هو قادر بلا شك على إعادتها إلـى الوجـود. هـو خلقها من تراب الأرض، وهو قادر أن يعيدها من تراب الأرض مرة أخرى. بل أعمـق من هذا أنه خلق الكل من العدم. خلق الأرض وترابها من العدم، ثم مـن تـراب الأرض خلق الإنسان.

أيهما أصعب إذن: الخلق من العدم، أم إقامة الجسد من التراب؟!

إنها القدرة غير المحدودة لإلهنا الخالق، الذي يكفي أن يريد، فيكون كل ما يريد، حتى بدون أن يلفظ كلمة واحده أو يصدر أمراً..

****

القيامة هى إذن عقيدة للمؤمنين:

الذي يؤمن باللّه وقدرته، يستطيع أن يؤمن بالقيامة... فهي في جوهرها تعتمد علـى إرادة اللّه، ومعرفته وقدرته.

+ فمن جهة الإرادة، هو يريد للإنسان أن يقوم من الموت، وأن يعود إلى الحياة. وقد وعد الإنسان بالقيامة والخلود. ومادام اللّه قد وعد، إذن لابد أنه سينفذ ما قد وعد به...

+ ومن جهة المعرفة والقدرة: فاللّه يعرف أين توجد عناصر هـذه الأجسـاد التـي تحللت، وأين توجد عظامها. ويعرف كيفية إعادة تشكيلها وتركيبها. كما يعرف أيضاً أين توجد أرواح تلك الأجساد. ويسهل عليه أن يأمرها بالعودة إلى أجسادها، ويسـهل عليهـا ذلك. وهو يقدر على هذا كله. جلّ اسمه العظيم، وتعالت قدرته الإلهية...

إن الذي ينكر إمكانية القيامة، هو بالضرورة ينكر المعجزات جملةً. وبالتـالي ينكـر الخلق من العدم، وينكر قدرة اللّه، وقد ينكر وجوده أيضاً!

يدخل في هذا الجهل، الملحدون، وأنصاف العلماء، وغير المؤمنين. أما المؤمنون الذين يؤمنون باللَّه، وبقدرته غير المحدودة، فإنهم يؤمنون بالمعجزات، ومنها القيامة.

****

ضرورة القيامة

كما أن القيامة ممكنة بالنسبة إلى قدرة اللَّه، كذلك هى أيضاً ضرورية بالنسبة إلى عدل اللَّه وصلاحه وجوده.

١- إنها لازمة من أجل العدل:

لازمة من أجل محاسبة كل إنسان على أفعاله التي عملها خلال حياته على الأرض خيراً كانت أو شراً. فيثاب على الخير، ويعاقب على الشر. ولو لم تكن قيامة، لتهافت الناس على الحياة الدنيا، وعاشوا في ملاذها وفسادها، غير عابئين بما يحدث فيما بعد! وأيضاً إن لم تكن قيامة، لساد الظلم واستبد القوي بالضعيف، دون خوف من عقوبة أبدية. أما الإيمان بالقيامة وما يعقبها من دينونة وجزاء، فإنه رادع للناس. إذ يشعرون أن العدل لابد سيأخذ مجراه، إن لم يكن في هذا العالم، ففي العالم الآخَر..

****

٢- والقيامة لازمة أيضاً لأجل التوازن:

ففي الأرض لا يوجد توازن بين البشر. ففيها الغني والفقير، السعيد والبائس، المنعّم والمعذّب... فإن لم يكن هناك مساواة على الأرض. فمن اللائق أن يوجد توازن في السماء. ومن لم ينل حقه على الأرض، يمكنه أن يناله بعد ذلك في السماء. ويعوّضه الرب عما فاته في هذه الدنيا، إن كانت أعماله مرضية للَّه.

****

٣- إن اللَّه وعد الإنسان بالحياة الأبدية. ووعده هو للإنسان كله، وليس للروح فقط التي هى جزء من الإنسان...

فلو أن الروح فقط أُتيح لها الخلود والنعيم الأبدي، أذن لا يمكن أن نقول إن الإنسان كله قد تنعّم بالحياة الدائمة، بينما قد حُرم الجسد من ذلك! فبالضرورة إذن ينبغي أن يقوم الجسد من الموت، وتتحد به الروح. ويكون الجزاء الأبدي للإنسان كله.

٤- والقيامة ضرورة. لأنه لولاها لكان مصير الجسد البشري كمصير أجساد الحيوانات!

ما هى إذن الميزة التي لهذا الكائن البشري العاقل الناطق، الذي وهبه اللّـه موهبة التفكير والاختراع والعلم، والقدرة على صنع مركبات الفضاء التي توصله إلى القمر، وتدور به حول الأرض وترجعه إليها سالماً..! هذا الإنسان الذي قام بمخترعات أخرى مُذهلة كالكمبيوتر والفاكس والـ Phone Mobile. هل يُعقل أن هذا الإنسان العجيب الذي سلّطة اللّه على نواح عديدة من الطبيعة، يؤول جسده إلى مصير كمصير بهيمة أو حشرة أو بعض الهوام؟!

إن العقل لا يمكن أن يصدق هذا. إذن لابد من القيامة.

****

٥- إن قيامة الجسد تتمشى عقلياً مع كرامة الإنسان.

الإنسان الذي يتميز على جميع المخلوقات الأخرى ذوات الأجساد، والذي يستطيع بما وهبه اللّه أن يسيطر عليها جميعاً، وأن يقوم لها بواجب الرعاية والاهتمام إذا أراد، أو أن يقوم عليها بحق السيطرة والاستخدام... أليست كرامة جسد هذا المخلوق العاقل لابد أن تتميز عن مصير باقي أجساد الكائنات غير العاقلة وغير الناطقة التي هى تحت سلطانه..؟!

****

٦- والقيامة أيضاً لازمة لتقدم لنا الحياة المثالية التي فقدناها هنا:

تقدم لنا صورة الحياة الجميلة الرائعة في العالم الآخَر، حيث لا حزن ولا بكاء، ولا فساد ولا ظلم، ولا عيب ولا نقص. بل هى حياة النعيم الأبدي والإنسان المثالي الذي بلا خطية.. بالإضافة إلى العشرة الطيبة مع اللّه وملائكته وقديسيه...

ما أجمل هذه الحياة التي في العالم الآخَر، التي لم ترها عين، ولم تسمع بها أُذن، ولم تخطر على قلب بشر.

القيامة هى عيد. فتهانئي للجميع بعيد القيامة.

٢٩ / ٤ / ٢٠٠٦

ومرة أخرى "رعاية الشباب"

نسأل أولاً: ما هو نطاق الشباب الذي تلزم رعايته؟

هو كل الشباب: بدءاً من الشباب في التعليم الثانوي، إلى شباب الجامعات المصرية وكل كلياتها، والمعاهد العليا، وشباب الجامعات الأجنبية: الأمريكية والإنجليزية والألمانية والفرنسية. وشباب الخريجين سواء في الوظائف أو في البطالة. وشباب العمال في كل الهيئات العمالية، وشباب الريف، وباقي الشباب الحرّ والمستقطب. وكذلك العاملة في محيط الشباب، مثل جمعية الشبان المسلمين، وجمعية الشبان المسيحية، وأسقفية الشباب في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

وهكذا نرى الدائرة قد اتسعت أمام المجلس الأعلى لرعاية الشباب في مصر.

****

الأمر يحتاج إلى لقاء مع الشباب على أوسع نطاق:

لا أن نكلمه وهو يسمع، بل أن يتكلم هو أيضاً ونحن نسمع... وندخل معه في حوار واضح، وأخذ وردّ، قاعدته هي الصراحة الكاملة، ووسيلته هي الاقتناع. نحن نريد أن نعرف ما في داخل الشباب من مشاعر ومن أفكار، ونناقشها معه، ونخرج بحلول يرضى عنها الكل...

****

وكما يلزم اللقاء مع الشباب، يلزم اللقاء مع كل قادة الشباب:

أولئك الذين لهم تأثير عليه، والذين يغرسون في نفسه أفكاراً معينة، ويحفّزونه إلى عمل شيء، ويثق الشباب بهم ويخضع لتوجيههم. سواء كانوا قادة في معاهد العلم كمعيدين أو مدرسين أو أساتذة في الكليات، أو كانوا موجهين على المستوى الاجتماعي، في الجمعيات أو الهيئات... فاللقاء مع القياديين أمر هام.

لأنه لا يكفي أن نناقش فكر الشباب، دون أن نناقش مصادره! وقد تكون هذه المصادر شخصيات أو كتابات أو مصادر أخرى سمعية. المهم هو معرفة الأجواء التي

تحيط بالشباب وتؤثر عليه فكريا وإرادياً، مما لا يجوز تجاهله. وكما يقول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ ؟!

****

هنا ونسأل في صراحة: ما مركز الشباب حالياً في اهتماماتنا؟

ما مركز الشباب في وسائل الإعلام؟ هل له برنامج خاص يتحدث فيه ويحاور ويناقش؟ ما مركز الشباب في الصحافة؟ وهل له صفحة معينة؟ أو يُعطى مجالاً للتعبير عن نفسه؟ ما مدى اهتمام الكبار به؟ بل أيضاً ما مركز الشباب عملياً في الأحزاب السياسية؟ هل له لجان فيها وفروع تمثله في كافة المحافظات والمدن؟

أم نقول: "لا علاقة للشباب بالسياسة!!". سواء أردنا أو لم نرد، لهم علاقة رضينا عنها أو لم نرضَ. فإن كنا لا نقوم نحن بتوجيههم في هذه الناحية، سيقومون بدون توجيهنا أو بتوجيه غيرنا، ويجتمعون ويتظاهرون ويهتفون. ونحصد النتيجة...

هل نترك الشباب بدون توجيه؟ ثم نعهد إلى السلطات الأمنية بضبط الأمور؟ وتصطدم بالشباب، ويصطدم الشباب بها!! ويبدو أنه لا يوجد تنسيق بين كافة الأجهزة، التي من المفروض أن تسير كلها في اتجاه واحد...

****

ليس المفروض فقط الاهتمام بالشباب، بل بالأكثر العمل على إعادة قادة من الشباب لهم فاعلية...

فكما يوجد لكل مهنة نقاباتها، وكما يوجد لكل هيئة قادتها، كذلك ينبغي أن توجد قيادات للشباب. ولكي توجد هذه، ينبغي أولاً إنشاء لجان للشباب تحت قيادة من الكبار، وتدريب أعضاء هذه اللجان حتى يتولى أمرها من يقودها من بين أعضائها...

ويكون لكل هؤلاء فكر واحد، واتجاه واحد، يسعى كله لخدمة الشباب وحلّ مشاكله، ولخدمة الوطن بوجه عام.

نتدرج الآن إلى عمل مراكز الشباب:

أولاً، هل توجد مراكز كافية لاستيعاب هذا العدد الكبير من الشباب؟ وهل لها إمكانيات كافية لتشمل كل طاقات الشباب وأنشطته؟ وهل لها الدعم المالي الذي يساهم في

حل ولو بعض مشكلات الشباب؟ وهل أمام هذه المراكز خطة معينة عملية في النهـوض بالشباب؟

أمامها أولاً تجميع الشباب، ثم تثقيف الشباب وتوجيهه، وإن أمكن اسـتخدام طاقـات الشباب وتشغيله في ما يفيد.

****

نريد أن نسمع عن ندوات للشباب ذات فاعلية:

ندوات عامة، في قاعات كبيرة، يحضر فيها الآلاف من الشباب، للاشتراك في بحث موضوعات منتقاة تهمهم وتهم الوطن كله. لا يكونون فيها مجرد مستمعين، إنما يتكلمون أيضاً ويناقشون، ويخرجون بتوصيات نافعة قابلة للتنفيذ.

ويشترك في هذه الندوات محاضرون لهم جاذبية عند الشباب، ويكون لهـم توجيـه وتأثير.

ونريد أيضاً مناهج تثقيفية للشباب:

كان يجب أن تبدأ من المرحلة الدراسية، وتشترك فيها بطريقة عملية وزارة التربيـة والتعليم، ثم تكمل في مراكز الشباب.

وفي هذه المناهج يعرف الشباب حقوقهم وواجباتهم، وتُغـرس فـيهم مبـادئ وقـيم يتصرفون بها داخل المجتمع. ويدرسون أيضاً ما يحتاج إليه وطنهم منهم بأسلوب حكـيم غير مندفع.

****

والشباب يحتاج أيضاً إلى مجالات لتشغيله

من المجالات الناجحة المفيدة، فِرَق الكشافة والجوالة، وما تتصف به هذه الفِرَق مـن صفات نبيلة، وما تقوم به من خدمات متعددة.

هناك من يشتركون في فِرَق الصليب الأحمر والهلال الأحمر، وفي أنواع أخرى من فِرَق الإنقاذ المتعددة.

وبعض المحافظين قاموا بتشغيل الشباب - أثناء العطلة الصيفية - في الاهتمام بنظافة المدينة، وفي الاشتراك في حفظ انضباط حركة المرور... وكانوا يعطونهم مقابـل ذلـك أجراً رمزياً. المهم أنهم شغّلوا طاقاتهم.

والبعض شغّلهم في حماية بعض المنشآت، بعد تدريبهم على ذلك..

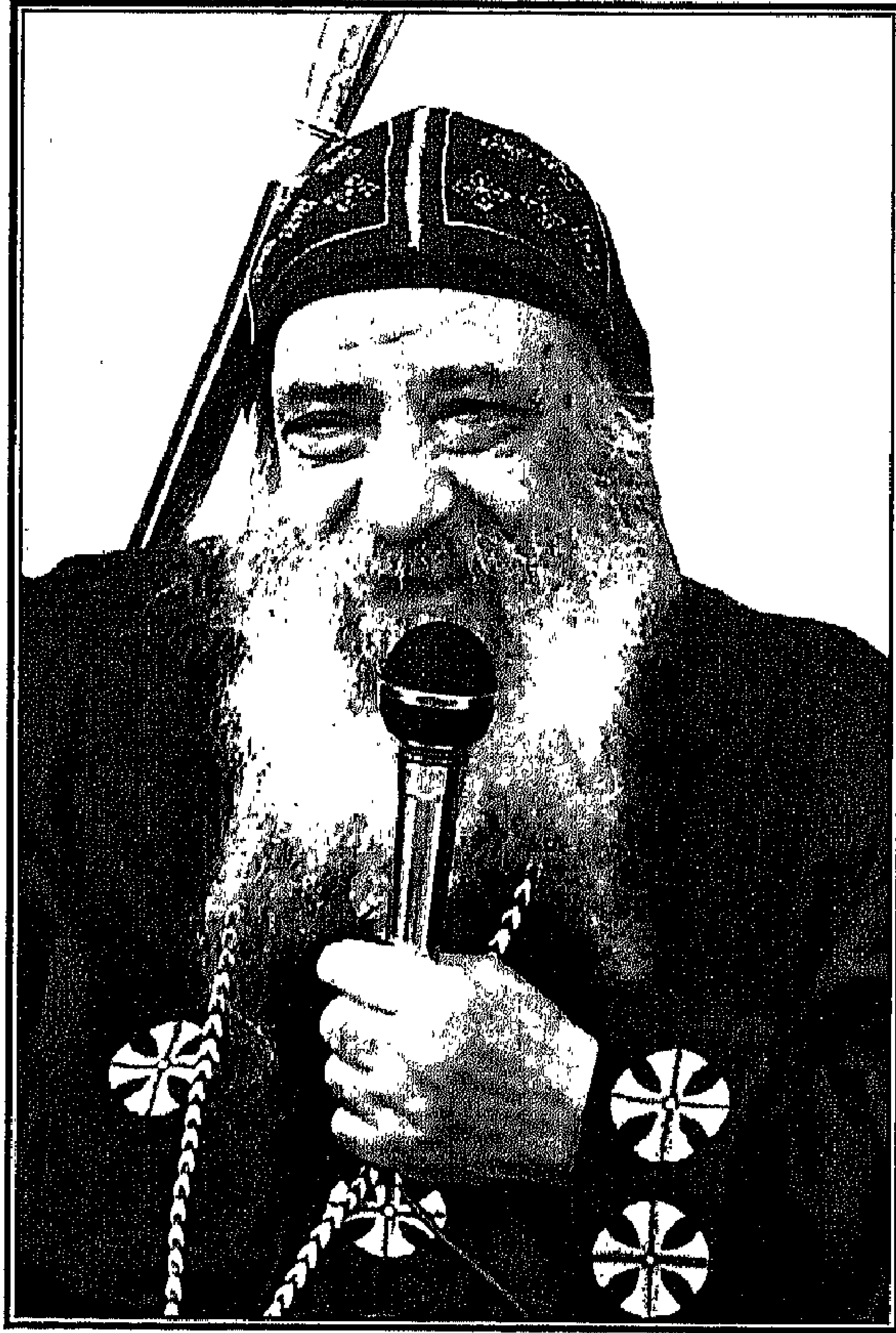
ويمكن تشغيل الشباب في العمل الاجتماعي أيضاً... وهناك أساليب كثيرة يمكن ابتكارها لينشغل بها الشباب، فتحميه من الفراغ الذي يُدمِّر نفسه، ويُدمِّر به غيره...

****

والأكثر أهمية هو فكر الشباب وتوجيهاته:

وهذا ما ينبغي أن تعني به مراكز الشباب، وكل الهيئات المهتمة بالشباب، بحيث يكون فكراً صالحاً بناءً، يبعد عن الانحراف، وعن الانفعال الطائش، ولا يخضع لأي توجيه رديء.

وهذا موضوع طويل، لا أظن أن هذا المقال يتسع له.



٦ / ٥ / ٢٠٠٦

الفكـر ومصـادره

الحواس

فكر الإنسان ينبع من مصادر، ويصب في أخرى.

وحواس الإنسان هى من منابع فكره. كذلك ما يقرأه أو ما يسمعه يولد لــه أفكــاراً. وما يراه أيضاً ينشغل به العقل والفكر.

الحواس إذن توصل إلى العقل أفكاراً. وما يفكر فيه العقــل، يوصــلـه إلــى القلــب كمشاعر وأحاسيس. وما أسهل أن تصل مشاعر القلب إلى الإرادة، وتحولها الإرادة إلــى عمل.

****

والحواس لا تؤثر فقط على العقل الواعي، إنما تؤثر على العقل لباطن أيضاً.

ما تجمعه العين والأذن من مناظر وسماعات وقراءات، كثيراً ما تنبع - حسب عمقها في العقل الباطن، وتظهر فيما بعد كأحلام أو ظنون أو أفكار أخرى. لأن الفكر يلد فكراً، أو أفكاراً كثيرة. والعقل دائم العمل لا يتوقف.

****

وحسب الغذاء الذي تقدمه للعقل، تكون أفكاره!

قد تجلب له الحواس أفكاراً خيّرة. وقد تجلب له أفكاراً شريرة. وحسب نوعية الوقود، تكون النار. لذلك كن حريصاً في ضبط حواسك، لكي تضمن سلامة فكرك.

واسأل نفسك: أي نوع من الفكر يجول في عقلك؟ أهو فكر روحي، أم فكر خطية، أم فكر تافه من أمور العالم الزائلة؟؟

كذلك ما الذي تقدمه الحواس لعقلك من مناظر وصور، ومــن ســماعات وأخبــار وقصص، ومن موسيقى وأغانٍ وألحان ونغمات، ومن أفلام لكل منها نوعيته وتأثيره؟

القراءات:

للقراءة تأثير كبير في حياتك وشخصيتك.

فيمكن - حسب نوعيتها - أن تغرس فيك مبادئ معينة وقيماً...

فالذي يقرأ كثيراً عن الحرية، غير الذي يقرأ في عمق عن الالتزام. والذي يقرأ عن الهدوء، غير الذي يقرأ عن الجهاد. والذي يقرأ عن مشاهير العلماء غير الذي يقرأ عن أبطال الحروب... كل من هؤلاء يتأثر بما تتركه القراءة في أثره من دوافع ورغبة في التقليد..

كذلك القراءة توسّع الفكر، وتزيد معارفه، وتعمّق فيه مفاهيم معينة. وما أصدق ما قاله الشاعر عن القراءة في التاريخ:

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمرهِ

****

والقراءة تستطيع أن تبعد الفكر عن التوافه:

فالمرأة التي لا تقرأ، ربما لا تعرف سوى الحديث عن الموائد والملابس والحفلات وأخبار الناس. بعكس المرأة المثقفة التي تجيد الكلام في موضوعات لها عمق. وبالمثل فالرجل الذي لا يعرف سوى المقهى والنادي ودور اللهو، تكون شخصيته سطحية وأحاديثه بلا نفع أو قد تضر. وعلى عكسه الرجل الذي يقرأ ويدرس ويثقف نفسه، هو قادر أن يزيد غيره علماً ومعرفة.

****

والقراءة تمنح العقل لوناً من النمو والنضوج:

فهى توضح أموراً ما كان العقل يعرفها. وتدخل معه في حوار من جهة موضوعات تحتاج إلى مناقشة...

ونلاحظ حالياً اتساع نطاق المعلومات بازدياد المطبوعات سواء من الكتب أو الجرائد أو المجلات، وتغير الفكر عن ذي قبل بحسب نوعية الثقافات. وأصبح لابد للإنسان من القراءة لكي يواكب تيار المعرفة، ولا يبقى متخلفاً عن مستوى عصره.

مستوى المعرفة قد أزداد. ولكن أية معرفة؟

أية معرفة تبغي؟ وأية أنواع من القراءة تشبع رغباتك؟

هل تقرأ للتسلية وللمتعة؟ كمن يقرأ قصصاً وحكايات؟ أم تقرأ للتدريب على الذكاء؟ كمن يقرأ ألغازاً لحلها؟ أم تقرأ للدراسة والبحث عن الحقيقة؟ أم تقرأ في موضوعات

تروقك في السياسة أو الاقتصاد أو الرياضة أو الأخبار؟ أم أنك تقرأ لمجرد الهروب من الفراغ، ولقتل الوقت؟ أم تقرأ كتباً في العقيدة والإيمان، أو في الفضيلة وسير الأبرار؟

إن خير نوع من القراءة هو ما يبني نفسك: ما يثقفك بطريقة سليمة، وما يشبع روحك وعقلك...

لذلك فيما نشجعك على القراءة، ندعوك أن تكون حكيماً في اختيار مما تقرأه. فليست كل قراءة نافعة ولا بنّاءة. وهناك قراءات مضللة، وأخرى تثير الشك حتى في المسلّمات. وقراءات أخرى تنشر أخباراً خاطئةً أو معتقدات هدّامة... وللأسف فإن حرية النشر تسمح بكل شيء !! وقد تقرأ فيتغير فكرك دون أن تدري، ولو عن طريق التدريج، وعلى مدى زمني.

لا تقل أنا لا أتأثر! فقد تتأثر دون أن تشعر..!

إنني أعرف كثيرين كانوا مؤمنين وقرأوا كثيراً من كتب الشيوعية فصاروا شيوعيين. والبعض تعمقوا في قراءة كتب عن الإلحاد، فاهتز إيمانهم ! لذلك كن حريصاً جداً من جهة الأفكار الغريبة...

****

لهذا كله، اقرأ بفهم، وبفحص، ولا تعتنق كل ما تقرأ:

فكثيرون يقبلون كل ما يقرأون باقتناع تلقائي! دون دراسة، ودون تعمق في التفكير، كما لو كان ذلك مكتوباً بوحي!!

أما أنت فاقرأ بميزان دقيق، وبتحليل أدقّ. ولا تصدق كل ما يُكتب وما ينشر. فكثيراً ما نجد أشياء يعارض بعضها بعضاً فيما تنشره الجرائد من أخبار ومن أفكار!

والعجيب أن البعض لا يكتفون بتصديق كل ما يقرأونه، أنما يحاولون نشر ذلك بين الذين يحيطون بهم. وقد يكون ذلك منافياً للحقيقة. إذن على الإنسان أن يشغّل عقله في كل ما يقرأ، ويمنح لسانه عطلة حتى يثق بموضوع الحقيقة أين تكون..؟

١٣ / ٥ / ٢٠٠٦

التجارب والضيقات
حدودها وفوائدها

لا تخلو حياة إنسان - أياً كان - من التجارب والضيقات. فهي للكل، حتى للأنبياء والقديسين، والأمثلة عديدة، نذكر منها ما تعرّض له أيوب النبي ويوسف الصدّيق...

فلا يظن أحد أن التجارب والضيقات هي للخطاة فقط بسبب خطاياهم. وإنما هي لجميع الناس. وهناك فرق بين خاطئ يتعرّض لضيقة بسبب أخطائه، وبين بار تصيبه ضيقة بسبب شر الآخرين أو حسدهم، أو لأي سبب خارج عن إرادته.

وجميع الأبرار اجتازوا بوتقة الألم، واختبروا الضيقة والتجربة، ولم يستثنهم اللّه من ذلك، فكثيرة هي أحزان الصديقين، ومن جميعها ينجيهم الرب.

****

وحدوث تلك التجارب، لا تعني مطلقاً تخلي اللّه عمن أصابتهم تلك المتاعب والضيقات. كما لا تعني غضبه عليهم أو عدم رضاه..!

بل أنه - تبارك اسمه - قد يسمح بالتجربة لمنفعتهم. ويكون معهم في التجربة، يعينهم ويقويهم ويحافظ عليهم، ويسندهم أيضاً...

إنه يسمح بالضيقة، ولكنه يقف معنا فيها...

وهكذا يغني المرتل في المزمور ويقول: "لولا أن الرب كان معنا، حين قام الناس علينا، لابتلعونا ونحن أحياء، عند سخط غضبهم علينا... نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا من عند الرب الذي صنع السماء والأرض" (مز ١٢٤).

إنه اختبار جميل: أن نرى معونة اللّه في خلال ضيقاتنا...

وأن نختبر حنو اللّه ومحبته وعمله من أجلنا. وهذه هي إحدى فوائد التجارب التي فيها نشعر أن بعض القوات السمائية تقف معنا، وتصد عنا. ونختبر أيضاً قول المزمور: "ملاك الرب حالّ حول خائفيه وينجيهم".

من أجل هذا، فإن المؤمن لا يمكن أن تتعبه الضيقات. ذلك لأنه يؤمن بتدخُّل اللَّه وعمله وحفظه. ويؤمن بأن اللَّه يهتم به أثناء الضيقة أكثر من اهتمامه هو بنفسه.

وكلما حلّت به مشكلة، يؤمن أن اللَّه قادر على حلها، بل أن اللَّه عنده حلول كثيرة. لذلك فالمؤمن لا يفقد سلامه الداخلي أثناء التجارب، ولا يفقد اطمئنانه، وثقته بعمل اللَّه.

إن كل تجربة هى بلا شك مجال لخبرة روحية جديدة، تُعمّق مفاهيم الإنسان برعاية اللَّه وعمله وإنقاذه...

****

على أن اللَّه - في شفقته وحنانه - قد وضع قواعد معينة للضيقات التي يسمح لها إن تحدث. وفي مقدمتها:

+ إن اللَّه لا يسمح بتجربة هى فوق طاقتنا البشرية.

إنه - جلّت قدرته - يعرف مقدار احتمال كل واحد منا، ولا يسمح أن تأتيه التجارب إلاّ في حدود احتمال طاقته البشرية.

ولعلّ أحدهم يسأل: ما أصعب التجربة التي وقعت على أيوب الصديق، في موت أولاده، وضياع ثروته، وفقد صحته، وتخلّي أصدقائه... مَن كان يستطيع أن يحتمل كل هذا؟!

ونُجيب بأن اللَّه كان يعلم أن الطاقة الروحية لأيوب كانت تقدر أن تحتمل كل هذا، لذلك سمح بما حدث.

أما أنت فلا تخف. لو كنت في قامة روحية مثل أيوب، لأمكن أن تتعرض لمثل تجاربه. ولكن اللَّه لا يسمح. لك أن تُجرّب إلاّ في حدود احتمالك.

****

+ الشرط الثاني إن اللَّه لا يسمح بالضيقة إلاّ ومعها المنفذ...

أي تأتي المشكلة ومعها الحل. فلا توجد تجربة وهى حالكة الظلام، دون أية نافذة من نور... فليس هناك مجال لليأس. إن الحل موجود، وربما يحتاج إلى شيء من الوقت، يمنح صاحب التجربة فضيلة الصبر وانتظار الرب. حيث ينظر إلى المشكلة في رجاء، يرى الحل بعين الإيمان قادماً من خلال محبة اللَّه وقدرته... واللَّه قادر أن يمنح الاحتمال والصبر.

+ ينبغي أن نعلم أيضاً أن التجارب التي يسمح بها اللّه، هى للخير. أو تنتهي بـــالخير... فكل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب.

حتى إن كانت المشكلة تبدو شراً في ذاتها، فإن اللّه بصلاحه قادر أن يحوّلهـــا إلـــى خير. وهكذا فالإنسان المؤمن يؤمن بخيرية التجارب، سواء في وقتها أو فيما بعد... ولهذا فإن التجارب لا تطحنه، ولا تضغط عليه، ولا تفقده سلامه. وكثيراً ما كنت أقول:

"إن الضيقة سُميت ضيقة، لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أما القلب الواسع فلا يتضيّق بشيء".

****

+ شرط رابع للتجربة: إن لها زمناً محدداً تنتهي فيه..

فلا توجد ضيقة دائمة تستمر مدى الحياة... ولهذا ففي كل تجربة تمرّ بك، يمكنك أن تقول: "مصيرها أن تنتهي" أي سيأتي وقت تعبر فيه بسلام... إنما عليـــك - خـــلال هـــذا الوقت - أن تحتفظ بهدوئك وبسلامة أعصابك. فلا تضعف ولا تنهار، ولا تصغر نفســك أمام التجربة. ولا تفقد الثقة في تدخُّل اللّه ومعونته وحفظه...

****

واعلم أن التجارب نافعة بلا شك. ولولا منفعتها، ما كان اللّه الشفوق يسمح بها...

وما أكثر الفضائل التي يمكن أن نحصل عليها، إن كنا نتعامل مع الضيقات بطريقـــة روحية.

إنها تقوي النفس، وتمنحها ألواناً من الخبرات، سواء في معالجة المشـــاكل، أو فـــي الرجاء والإيمان بعمل اللّه. أو في الحكمة التي يقتنيها المختبرون، أو في التـــدرُّب علـــى الصمود وقوة الثبات أمام الضيقة حتى تنتهي، مع التدرُّب على الاحتمال والصبر...

ولولا الدخول في بوتقة التجارب، لأصبحت النفوس هشّة مدلّلة لا تقوى على شيء، ولم تتدرب على الدخول في الصعاب واحتمالها..

٢٠ / ٥ / ٢٠٠٦

الحق والباطل

منذ بداية الخليقة، وهناك الحق والباطل:

الحق في الملائكة الأطهار، والباطل في إبليس وأعوانه من الشياطين. الحق في هابيل البار ابن أبينا آدم، والباطل في أخيه الذي قتله... ومرت العصور والحق والباطل موجودان.

والعجيب أن الباطل انتشر انتشاراً كبيراً في الوثنية، وتعدد الآلهة، وعبادة الشمس، وعبادة الأرواح. كما أنتشر الباطل في الفساد بألوانه وأنواعه... بينما انزوى الحق بين قلة تعبد اللّه الحق، وتتمسك بالإيمان والفضيلة والعمل الصالح...

****

وعاش الحق والباطل يتصارعان على مدى العصور.

وكثيراً ما كان الباطل ينتصر، لأن وسائله أكثر...

الباطل يستطيع أن يكذب ويغش ويخدع، والحق لا يستطيع ذلك.

الباطل يمكنه أن يقسو ويبطش ويقتل ويغدر، والحق لا يمكنه أن يفعل ذلك.

الباطل يلجأ إلى حبك المؤامرات وتدبير الحيل المهلكة، بينما الحق لا يسمح له ضميره بفعل شيء من هذا كله... الباطل يقدّم لأتباعه المغريات والنجاسات مما يرضي غرائزهم المنحرفة، والحق يرتفع عن هذا المستوى.

أيضاً الحق مقيد بقيم ومبادئ ووصايا إلهية، لا يستطيع أن يخرج عن طاعتها، بينما الباطل متسيب يفعل ما يشاء، ويسلك حسب هواه بلا ضابط. لذلك فالوسائل عديدة أمامه، والباب مفتوح له في أي طريق يسلكه..!

****

لذلك فالباطل له أنصاره وأتباعه الكثيرون، لأنه يوصّلهم إلى أغراضهم بشتى الطرق والحيل والأساليب...

يوصّلهم بالادعاء، أو بالرشوة، أو بالتزوير والتزييف، أو بالاتصال بمراكز القوة وأصحاب القرار. فينالون ما يشتهون!

أما الحق فطرقه ضيقة ومحدودة. يحاول أن يلجأ إليه البعض، فيقول لهم: هذا ضد الدين، وهذا ضد القانون، وهذا ضد الأخلاق. هذا لا يليق، وهذا لا يجوز... لذلك يبعد الناس عن الحق أحياناً، ويتهمونه بأنه يعقّد الأمور، بينما الباطل يسهلها..!

وبهذا يصبح أصحاب الباطل أكثر، وينتشر الفساد..!

****

ولكن الباطل يسمي الأخطاء بغير أسمائها، وكأنها حق!!

يسمي التحايل أو الحيلة، بأنها لون من الذكاء. ويسمي القسوة بأنها شيء من الحزم. ويسمي العلاقات الشبابية الخاطئة بِاسم الحب. كما يسمي المغريات في وسائل اللهو بِاسم الفن. وسلوك كل إنسان حسب هواه يسميه الحرية. ويسمي السب والقذف في الجرائد والمجلات بِاسم حرية النشر والتعبير... وكل خطأ من الأخطاء، له عند الباطل اسم جميل يجذب إليه، أو سبب معقول يبرره...

****

على أن الباطل ينتصر أولاً على الحق، فإن الحق ينتصر أخيراً:

لقد شكا إرميا النبي من انتصار الباطل قائلاً: "لماذا تنجح طريق الأشرار؟! اطمئن كل الغادرين غدراً!"، وأجاب القديس أغسطينوس فقال عن الباطل المنتصر: إنه يشبه الدخان الذي يرتفع إلى فوق وتتسع رقعته، ولكنه في كل ذلك يتبدد..!

إن الاستعمار هجم على كثير من البلاد التي هى أضعف منه، وبرّر انتشاره بأسباب سياسية واقتصادية، ثم جاء وقت انتهى فيه الاستعمار وتأسست في مكانه دول مستقلة... في وقت من الأوقات استعمرت انجلترا الهند... ثم حدث أن الناسك الهندي العظيم "المهاتما غاندي"، استطاع بهدوئه وسلامه أن يحصل على استقلال الهند، فتخلّصت من الاستعمار...

****

إن الحق عليه أن يحتمل بعض الوقت حتى ينتصر أخيراً:

السياسة البيضاء حكمت جنوب أفريقيا زمناً مضطهدة للسود. ثم خرج واحد من السجن، ليكون أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا..

و"هتلر" دوّخ العالم زمناً، بقوة عجيبة، واستولى على بلاد عديدة. وصار رعباً في زمنه. ثم أتى الوقت الذي انتهى فيه هتلر، وانتصر الحلفاء. كذلك الشيوعية سيطرت على روسيا سبعين سنة، ثم بعد ذلك عاد الإيمان إليها، وانقشعت الشيوعية.

حقاً، إنه بعد كل ليل دامس، يأتي الفجر، ثم النهار الساطع النور.

****

إن الباطل قد يعتز بأساليبه وبنجاحه الأول، لكن ذلك لا يستمر!

بالغش قد ينجح الطالب في الامتحان، ولكنه لا ينجح في حياته العملية. إنه نجاح مؤقت، كالبخار يظهر قليلاً ثم يضمحل...

والباطل يقول إن الكذب ينجي!! ولكن ذلك ليس في كل حال، كما أن الكذب قد ينكشف، فتكون النتيجة أسوأ...

كذلك البطش قد يخضع الضعفاء إلى حين. ومع ذلك فالحال لا يستمر. فما أسهل أن يثور هؤلاء على الطغاة ويتخلصوا من بطشهم...

الأب القاسي، قد يصوّر له الباطل إنه بالشدة والعنف قد يربي بناته تربية سليمة، ويحبسهم في البيت، ويمنعهم عن كل صلة.. وربما تكون النتيجة عكسية، فيهرب البنات من سطوته إلى أي صدر حنون!!

****

الحق والباطل قد يتصارعان حول المبادئ والقيم. وقد تختلف الموازين. فيحتار الناس: أين الحق؟ وأين الباطل؟!

الكل يقول إنه على حق. حتى الباطل نفسه يدعى أنه هو الحق!! والمسألة تدور حول الخلاف في المفاهيم، أو الخلاف في الانتماء. فكل من ينتمي إلى مجموعة معينة، يقول إنها على حق...

وأحياناً يتوقف ميزان الحق على القوة. فدائماً يرى الفريق الأقوى أنه يمثل الحق، وأن الحق هو مصدر قوته. بينما الزعيم سعد زغلول يقول: "الحق فوق القوة"... ولعله لا يقصد كل قوة، بل القوة التي هى ضد الحق... فهذه يكون الحق فوقها...

٢٧ / ٥ / ٢٠٠٦

دروس من نهر النيل

نهر النيل مصدر عطاء لنا. فهو يعطينا الماء الذي نشربه، والماء الذي يروي الأرض والنبات والشجر. ولكنه فوق ذلك كله - بشيء من التأمل في تاريخه ومساره - يعطينا الكثير من الدروس الروحية. فما هي تلك الدروس؟

نحن نعلم أن هذا النهر أصله قطرات من الماء، نزلت مطراً، وتجمعت فصارت نهراً، على مدى سنوات طويلة جداً.

فقطرات الماء، بالتوالي والمدى الزمني، استطاعت أن تكوّن نهراً. فهذا النهر العظيم أصله شيء بسيط: قطرات من الماء..

ومن هنا نأخذ الدرس الأول: فلا نستهين بالشيء البسيط. إنه بالزمن قد يتحول إلى شيء ضخم. وهذا ما نراه في الحياة: إن أكبر مشروع، أو أكبر اختراع بدأ بفكرة. وكما يقول المثل: "إن أطول مشوار أوله خطوة"... ومن الناحية السلبية: إن أبشع جريمة يمكن أن تبدأ بمجرد انفعال! ومستعظم النار تكون من مستصغر الشرر! فلنحترس إذن من الصغار التي تقود إلى الكبائر...

****

الملاحظة الثانية: إن قطرات الماء اللينة الناعمة، لما سقطت بمتابعة واستمرار، استطاعت أن تحفر في الجبل والأرض طريقاً!

وبمرور الأيام والأعوام عمّقت هذا المجرى وأطالته واستقرت فيه. وهنا نأخذ درساً من المثابرة وعدم النكوص أمام العقبات ما دامت نقطة الماء تستطيع أن تشق لها طريقاً وتحفر لها مجرى...

ولكنها ليست نقطة ماء وحدها، بل تجمُّع من هذه النقاط، أعطاها طاقة وقوة. وهذا هو الدرس الثالث الذي نأخذه: إن قطرة الماء وحدها قد لا تستطيع أن تفعل شيئاً. ولكن تجمُّع هذه القطرات يجعلها طاقة جبّارة...

ملاحظة أخرى: وهى أن هذا الماء في منبعه من جبال الحبشة، يحمل معه طيناً. ويبدو لأول وهلة معكراً، بينما كله فائدة.

هذا الطين الذي يعكّره هو الغرين الذي كان سبب خصوبة أرض مصر، وهو الذي كسا رملها بالطين، وجعلها أرضاً زراعية منتجة. فلا تنظر إلى الماء وقتذاك وتنتقد عدم صفائه، بل العكس - في عمق - تمتدح دسمه.

وعلى الرغم مما كان يحمله من الطين، فإن له عذوبة في مذاقه، بعد بعض عمليات من التصفية. وما أعذب ماء النيل!

وهذا الأمر يعطينا درساً آخر في عدم الحكم حسب الظاهر. إنما نحكم في عمق وبعد تحقق.

****

نلاحظ أنه في بادئ الأمر، قبل أن يعمّق النيل مجراه، كانت المياه تنسكب على الجانبين مكونة مستنقعات، ما لبثت أن زالت بمرور الزمن... كلما تعمّق المجرى شيئاً فشيئاً..

هذا الأمر يعطينا فكرة عن التدرج. ويعطينا درساً في أننا لا نحكم على أمر إلاّ بعد أن يستقر ويكمل. فنقطة البدء أحيانا لا تسرّ... ولكن يجب أن نعطي الأمور راحتها، في المدى الزمني الذي تستكمل فيه وضعها ورونقها... ونصبر على كل مبتدئ، حتى يصل إلى غايته.

****

إننا نأخذ درساً آخر من الجنادل الستة التي في مجرى النيل، التي سُميت خطأ بالشلالات...

هذه تمثل الصلابة والصمود. آلاف السنين تمر عليها، والمياه والأمواج تصدمها، وهى ثابتة في مكانها لا تتزعزع. إنها أقوى من الماء. وقد احترم النيل وجودها واستبقاها وسط مياهه، أو أن قوة مياهه لم تقدر عليها. فبقيت شاهداً على أن لكل قوة حدوداً!!

****

درس آخر نأخذه من نهر النيل، وهو:

إنه لم يكتف بأن عمّق مجراه، إنما أيضاً صار له شاطئان:

هذان الشاطئان ليسا حاجزين يحدان حريته في الجريان، إنما هما يحفظانه في مجرى سليم، بحيث لا ينسكب ماؤه هنا وهناك.

إنهما درس لنا أن يمارس الإنسان حريته وسط حاجزين لا يتجاوزهما: الأول هو وصايا اللّه، والثاني هو النظام العام وقوانين الدولة. وبين هاذين يسير في مجراه كما يشاء. ويقول إن هذين الأمرين لا يحدان حريته، إنما يحفظانه من الضياع...

****

درس آخر نأخذه من (وفاء النيل) الذي كان عيداً تقيمه مصر للنيل كل عام ذاكرةً وفاءه.

فهو في كل عام كان يرتفع منسوب مائه إلى الحد الذي يطمئن به الشعب إلى أنه سيكون كافياً لهم في الشرب وفي الزراعة... فيقيمون احتفالاً لذلك يفرحون فيه ويبتهجون...

وفي الحقيقة إن هذا الوفاء يرجع إلى اللّه تبارك اسمه، الذي لم يحرمنا من أمطاره التي سبّبت امتلاء النيل بالماء.

وإن كنا في عيد وفاء النيل، إنما نذكر ضمنا نعمة اللّه علينا بالماء، فهذا درس آخر ينبغي أن نذكره على الدوام، فنشكر اللّه الذي ينعم علينا بالماء.

****

ملاحظة أخيرة، وهي أن النيل من منبعه إلى مصبه، قد قطع رحلة طويلة حتى وصل إلينا. وكان في أثنائها يوزع من خيره على كل بلد يصادفه: فأعطى أثيوبيا، والنوبة، والسودان، ومصر، وكل الصحراوات المحيطة.

إنه درس في كرم العطاء، وفي منح الخير لكل من يصادفه.

ونحن نشكره على كل ذلك. وهذه البلاد التي منحها من مائه تنطوي كلها تحت عنوان (أبناء النيل).

٣ / ٦ / ٢٠٠٦

فكر جاء متأخراً

إنسان بدلاً من أن يفكر في نتائج عمله قبل أن يقدم على العمل، فإنه يعمل دون تفكير في العواقب، ودون أن يعمل حساباً لردود الفعل... ثم بعد أن يتم عمله، ويُواجه بنتائجه، يبدأ في أن يفكر في ما حدث...

إنه تفكير جاء متأخراً، بعد فوات الفرصة...!

****

وإنسان آخر ينذر نذراً، دون أن يفكر قبل النذر هل باستطاعته الوفاء به أم لا؟... ثم بعد أن يتم الأمر، ويجد نفسه مقيداً بالنذر، مع علمه بأنه من الخير للإنسان أن لا ينذر، من أن ينذر ولا يفي!! حينئذ يبدأ أن يفكر: هل يغيّر النذر، أو يبدله، أو يعلن عجزه عن الوفاء به...! إنه تفكير جاء متأخراً بعد أن انتهى الأمر.

****

أو امرأة تعيش مع زوجها في خلاف مستمر، وفي نكد وعناد، بنوع من المعاملة تفقدها محبته، وتطيع أمها وأقرباءها أكثر منه. ولا تأبه بأية نصيحة لتغيير مسلكها. وتغضب أحياناً وتثير إشكالاته، وترفض مع ذلك كل التدخلات للصلح. ويحاول زوجها أن يرضيها، فلا يستطيع. وأخيراً بعد أن يصل به الوضع إلى أن يكرهها، ولا يعود يتصوّر المعيشة معها، ويسعى إلى الانفصال عنها... فهل حينئذ، إذا بدأت الزوجة أن تشعر بسوء حالتها، وأُخذت تفكّر في أن فقدها لزوجها ليس من صالحها... ألاَ يكون هذا التفكير قد جاء متأخراً بعد فوات الأوان!!

****

وأب يهمل تربية أولاده، وينشغل عنهم بكثير من أعماله، حتى يصبح غريباً عن أسرته. وينشأ أولاده على الانفرادية والاستقلالية واللامبالاة، وعدم الاهتمام بأوامر الأسرة. ويرسخ فيهم كل ذلك كطباع، وتصبح تصرفاتهم مرارة قلب للوالدين والإخوة... وأخيراً يفكِّر الأب في أن انشغاله عن أولاده كان من أخطائه... ألاَ يكون هذا الفكر قد جاء مُتأخراً، بعد رسوخ طباع أبنائه!!

وتلميذ يستهويه اللعب واللهو طول العام الدراسي، ولا يعطي اهتماماً لدراسته واستذكار دروسه... ثم يُفاجأ بأن الامتحان على الأبواب. وحينئذ يبدأ أن يفكّر كيف يستعد للامتحان. ألاَ يكون هذا تفكيراً قد جاء متأخراً؟!

****

والكاتب الذي تعوّد أن يهاجم المعارضين في الفكر أو في السياسة، بأية ألفاظ أو بأي أسلوب. والمهم عنده أن يحلل شخصية من يعارضه، ويثبت العيوب التي يلصقها به... هل إذا فلت الحرص من هذا الكاتب، واتهم أمام القضاء بتهمة سب وقذف. هل إذا بدأ يُفكِّر في أنه كان يجب عليه أن يحترس في أسلوبه، ألاَ يكون هذا الفكر قد جاء مُتأخِّراً؟!

****

وأيضاً رجل الأعمال الغني، الذي كلما كان ينجح في عمله، يزداد رأس ماله، حتى بلغ درجة كبيرة من الثراء. وليس له فكر سوى تنمية عمله، واستثمار أمواله، والدخول في مشروعات جديدة وأعمال اقتصادية عالية المستوى... وهو في كل ذلك لم يهتم بالفقراء والمحتاجين. وفيما تزداد كنوزه على الأرض، لم يكنز له شيئاً في السماء! أو كان عطاؤه للمحتاجين ضئيلاً جداً لا يتناسب مع ثرواته... هل هذا الإنسان إذا ما فاجأه مرض خطير، ووجد نفسه على فراش الموت، وسيترك كل الأموال التي تعب في جمعها، دون رصيد له في الأبدية. هل إذا فكر أنه لم يفعل شيئاً لآخرته. ألاَ يكون فكراً قد جاء متأخراً؟!

****

وذلك الإنسان المُتردّد بطبعه، الذي لا يستطيع أن يكمل عملاً قد بدأ فيه. هل إذا فاتته فرص كثيرة كان من الخير أن تفيده. فندم على تردده. ألاَ يكون ندمه متأخراً؟!

****

وتلك الفتاة التي تهب نفسها لكل شاب يغريها، واثقة من كلامه ووعوده... هل إذا خلا بها الكل بعد أن تكون قد فقدت عفتها... ثم جلست أخيراً إلى نفسها تندب سوء حالتها. وتقول يا ليتني ما كنت سهلة في تعاملي واستسلامي للغير. ألاَ يكون هذا الفكر قد جاء متأخراً؟!

ونقول نفس الكلام عن الشاب الذي يجري وراء اللذة الخاطئة، حتى يقع أخيراً فريسة لمرض الإيدز بلا شفاء... أو الشاب الذي تجرفه المخدرات إلى مستوى الإدمان، ويجد إرادته عاجزة أمام إدمانه... هل إذا فكّر أخيراً بأنه ما كان يجب عليه سلوك هذا الطريق، ألاَ يكون تفكيراً قد جاء متأخراً؟!

****

تذكّرني غالبية هذه الأمور، بتلك القصة الخيالية التي تقول: إن شخصاً كانت عنده دجاجة تبيض له كل يوم بيضة من ذهب، فرأى أن يذبحها ويأخذ الكنز الذي في داخلها دفعة واحدة!! فلمّا فعل ذلك لم يجد شيئاً. فندم على ذلك ندماً شديداً. ولكن ندمه جاء متأخراً، بعد فوات الفرصة...

****

لذلك كله، على الإنسان أن يتنبه لنفسه من أول الطريق. ويعرف أين هو؟ وإلى أين يقوده ما هو فيه؟ سواء كان ذلك طبعاً ثابتاً فيه، أو أسلوباً في الحياة يتبعه...



١٠ / ٦ / ٢٠٠٦

صفات اللّه الذاتية
التي يختَصّ بها وحده

هناك صفات يشترك فيها اللّه مع بعض خليقته. وتكون في اللّه مطلقة وغير محدودة، بينما تكون في المخلوقات نسبية ومحدودة. مثال ذلك: الحكمة.

فاللّه يتّصف بالحكمة، وكثير من البشر يوصفون بأنهم حكماء. ولكن حكمة اللّه مطلقة وغير محدودة، بينما حكمة البشر محدودة. وهى حكمة نسبية، نسبة لما وهبهم اللّه من ذكاء، ومن حُسن تصرف...

وما نقوله عن الحكمة في هذا المجال، نقوله أيضاً عن القوة والرحمة والجمال والمعرفة، وما شابه ذلك من الصفات...

****

الأزلية:

غير أن هناك صفات خاصة باللّه وحده، لا يشاركه فيها أي مخلوق مهما ارتفع... ومن هذه الصفات الذاتية: الأزلية.

فاللّه وحده الأزلي، الذي لا بداية له. ولا يوجد كائن آخر أزلي، لأن كل الكائنات الأخرى لها بداية. وبدايتها هى يوم خُلقت، يوم وُجدت، يوم وُلدت... وقبل ذلك لم يكن أيّ من تلك المخلوقات موجوداً

وهذا الكون كله، بكل ما فيه من قارات وأقطار وبلاد، وما فيه من شموس وأقمار وكواكب... كل هذا الكون مخلوق، وله بداية، ولا شيء فيه يتصف بالأزلية...

لذلك من الخطأ أن نقول مثلاً: علاقتنا بالبلد الفلاني هى علاقة أزلية!! لأنه لا هذا البلد ولا نحن يمكن أن يوصف بالأزلية! المقصود طبعاً إنها علاقة قديمة جداً. ولكن مهما كانت درجة قدمها، فلها بداية. إذن هى ليست أزلية...

الخلق:

من صفات اللّه الذاتية أيضاً إنه الخالق.

هو وحده الخالق. وهو وحده قد خلق كل شيء... وعبارة (خلق) تعني أنه أوجد من العدم، من لا شيء...

أما ما ينسب إلى العقل البشري من أشياء مبهرة، فهو قد صنعها ولم يخلقها، وقد صنعها من المادة التي خلقها اللّه، كما أنه صنعها بذكاء جبّار اتصف به العقل البشري. ولكن العقل البشري من خلق اللّه، وذكاء ذلك العقل من موهبة اللّه.

اللّه إذن هو الذي خلق المادة، وخلق العقل والذكاء. والعقل استخدم المادة والذكاء، في مجال التكنولوچيا وغيرها، وصنع كل تلك الصناعات المبهرة. ويبقى اللّه هو الخالق وحده.

****

واللّه لم يخلق فقط المادة وكل ما هو مادي، إنما خلق أيضاً الروح والعقل. وخلق الملائكة وهم أرواح...

خلق الحياة... وكخالق يمكنه أيضاً أن يسحب هذه الروح التي منحها للحياة. لذلك فهو المحيي والمميت. بيده الحياة والموت. وهو الذي خلق الطبيعة، وبامكانه أن يفنيها...

****

واجب الوجود:

أيضاً من صفات اللّه وحده أنه واجب الوجود. ويقول البعض عن هذه الصفة أنه موجود بالضرورة. أي أن الضرورة تحتم وجوده. ذلك أن كل الموجودات تحتم وجود كائن أعلى كلي القدرة هو الذي أوجدها، وكان سبب وجودها. لذلك يصفه بعض الفلاسفة بأنه (العلة الأولي) أي السبب الأصلي لإيجاد جميع الموجودات...

لا يوجد كائن غير اللّه، يمكن وصفه بأنه واجب الوجود.

أو الضرورة تحتم وجوده. لأنه ما دامت كل الكائنات الأخرى مخلوقة ولها بداية، ولم تكن موجودة قبل هذه البداية، إذن فهى ليست موجودة بالضرورة. فما دام قد مرّ وقت قبل خلقها، لم تكن موجودة فيه، إذن وجودها لم يكن ضرورياً...

غير محدود:

من صفات اللَّه أيضاً إنه: غير محدود.

فهو غير محدود في القدرة، أي أنه قادر على كل شيء.

وهو الوحيد القادر على كل شيء، لا يشاركه في هذه الصفة البشـــر ولا الملائكـــة. فالملائكة لهم قدرة عظيمة، لكنهم ليسوا قادرين على كل شيء. والبشـــر مهمـــا عظمـــت قدرتهم، ليسوا قادرين على كل شيء. يكفي أن الموت قد غلبهم جميعاً.

ومن مظاهر قدرة اللَّه على كل شيء، صنعه المعجزات...

****

اللَّه أيضاً غير محدود من جهة المكان. فهو موجود في كل مكان، ولا يسعه مكان.

هو دائم الحضور في كل موضع. وهذه صفة خاصة به وحده. فلا يستطيع أحـــد أن يكون موجوداً في مكانين في نفس الوقت. واللَّه إذ يوجد في كل مكان، إنما يرقـــب كـــل ما يحدث فيه... وبهذا المعنى نقول إنه فاحص للقلوب، وقارئ للأفكار.

****

اللَّه أيضاً غير محدود من جهة المعرفة. فهو يعرف كل شيء عن كل شيء. وهـــذا الموضوع يحتاج وحده إلى مقال خاص.

****

صفات أخرى:

من صفات اللَّه أنه لا يتغيّر.

وأنه حيّ دائم الحياة، له في ذاته الخلود.

وأود أن اكتفي بهذا الآن. لأن اللَّه غير المحدود أعظم من أن يسع الحديث عنه مقال صغير مثل هذا.

(وللحديث بقية)

١٧ / ٦ / ٢٠٠٦

اللّه الخالق

ما أعجب عملية الخلق! إنها في مستوى فوق العقل. نقترب إليه عن طريق الإيمان والوحي. فالخالق غير الصانع. الصانع يصنع أشياء من مادة موجودة. أما الخالق فيخلق من العدم، ينشئ شيئاً من لا شيء!!

والعجيب أن اللّه أوجد كل شيء من لا شيء.

وليست الأمور المادية فقط، وإنما الأرواح أيضاً..

كما أننا نرى في خلقه للكل آيات من القدرة والحكمة والفن والنظام والجمال. بل التواضع أيضاً. لأنه من تواضع اللّه، أنه لم يشأ أن يكون الوجود له وحده، فأوجد كائنات أخرى، منحها الوجود لتكون معه...

****

أمّا سبب خلقه لكل الكائنات، فهو جوده وكرمه ومحبته.

إنه لم يكن محتاجاً إلى هذا الكون. بل الكون هو المحتاج إليه.

كان اللّه مكتفياً بذاته، تمجده صفاته، وتمجده طبيعته السامية التي لا تحد. ثم مرّت على ذلك ما لا يُعد من السنين، بل لم تكن هناك مقاييس للسنين بعد. ثم في وقت لا نعرفه بدأ اللّه عملية الخلق، فخلق السموات والأرض.

ومع خلقه للطبيعة الجامدة، منح بعض مخلوقاته نعمة الحياة.

منح الحياة للنبات والحيوان والإنسان. ومن قبل ذلك للملائكة. ومن محبته منح للإنسان روحاً خالدة، وكذلك الملائكة. ومنح للحيوان نفساً تنتهي بموته. وهكذا جعل الحياة على درجات ومستويات تتنوع بين النبات والحيوان والإنسان، والملائكة...

****

خلق اللّه كل مستويات الخليقة، حتى ما يبدو ضئيلاً منها...

خلق العاقل وغير العاقل. خلق الحي والجماد. خلق الفيل الضخم، كما خلق النملة الضئيلة، والدودة التي تسعى تحت حجر. خلق الأسد القوي الشجاع، كما خلق الأرنب

الضعيف الخائف. خلق القرد كما خلق الغزال. خلق الجبل العالي، والوادي السحيق. خلق الحرّ والبرد، النور والظلام. الكل صنعة يديه.

وكانت للّه حكمة في خلقه العالم بهذا التنوع...

تصوروا لو كان العالم كله طبيعة واحدة وشكلاً واحداً، كيف كان يمكن أن تعيش؟!

****

ومن العجيب في قدرة اللّه في الخلق، العدد الهائل لمخلوقاته.

ملايين الملايين من المخلوقات، تتكرّر كل جيل، وبعضها يتكرر كل سنة أو عدة سنوات. وبعضها لا يُحصى مثل رمل البحر، ومثل نجوم السماء، وما في السماء من كواكب ومن مجرات وشهب...

ونحن نعرف الظاهر فقط من مخلوقات اللّه، ولا نعرف الخفي منها.

أو نبذل الجهد لكي نعرف ما خفي منها. فنحن مثلاً لا نعرف كل ما في باطن الأرض من أسرار. ولكن نبذل الجهد بحفريات كثيرة، لنعرف منابع الماء التي تحت الأرض، ومصادر البترول التي في جوف الأرض، وما تلفظه البراكين من باطن الأرض. كذلك بالتنقيب يمكن أن نتعرف على ما في جوف الجبال من ذهب وأحجار كريمة ومعادن وغير ذلك... أضف إلى ذلك ما في أعماق البحار، وما يمكن أن تكشفه دراسات علوم الفضاء. فما الذي نعرفه عن هذا الكون الواسع العجيب...؟!

****

والعجيب أيضاً أن اللّه قد خلق العالم في نظام عجيب...

يكفي أن ننظر مثلاً إلى الفلك، والروابط التي تربط الأجرام السمائية بقوانين تحفظها قائمة في مكانها، وتدور حول بعضها البعض في نظام ثابت، يدل على أن الذي نظّم هذه القوانين الفلكية هو - كما يسميه الفلاسفة - مهندس عظيم.

إلى جوار هذا ما وضعه من نظام للأجواء من جهة الحر والبرد، والرياح والأمطار، والرطوبة والجفاف، والظلمة والنور...

****

وكالنظام والتناسق في فلك السماء وأجواء الأرض، هكذا أيضاً في جسم الإنسان، حتى يسمون الإنسان العالم الصغير Micro Cosmos

فالمتأمل في تكوين أجهزة الإنسان وعلم وظائف الأعضاء، يرى عجباً يدل على قدرة الخالق سواء في المخ ومراكزه وعمله وما يصدر عنه من أوامر لباقي أعضاء الجسد... أو القلب أو الكبد، وعمل كل منهما، وعمل الجهاز الدوري في الجسم، وعمل الأعصاب، وفصائل الدم.. الخ.

بل إن عجب خلق اللّه يظهر عميقاً في بصمات أصابع الإنسان.

هذه التي تدل على كل فرد، وتميزه عن غيره. وهنا نقف في ذهول أمام مئات الملايين من بصمات الأصابع التي لا تتشابه أبداً. أيّ مهندس أو رسام - مهما كانت براعته - يستطيع أن يرسم أشكالاً متنوعة من بصمات الأصابع مثلما صنع اللّه الخالق؟!

هل نضم إلى هذه بصمات الصوت أيضاً؟ بحيث يكلّمك إنسان تليفونياً من آلاف الأميال، فتميز صوته وتتعرف عليه!!

وهل نضيف إلى كل هذا، ما خلقه اللّه من ملامح عديدة مميزة لملايين وعشرات الملايين من البشر...

****

وماذا نقول عن خلق اللّه للملائكة وقوتهم وإمكانياتهم العجيبة...

بحيث يمكن أن ينزل الملاك من السماء إلى الأرض في لمح البصر، ويفعل ما يعهد به اللّه إليه من عمل أياً كان بقدرة عجيبة.

وماذا نقول أيضاً عن روح الإنسان، الروح العاقلة الناطقة، ومدى صلتها بالجسد، وكيف تفارقه بالموت، وكيف تعود إليه بالقيامة... أليس في هذا كله عجب أي عجب..!

ثم لننزل إلى بعض المخلوقات البسيطة كالنحلة والنملة.

هنا نرى عجب الخالق العظيم في أن يمنح النحلة حكمة التدبير في نظامها وحكمة الإنتاج للشهد وغذاء الملكات، كل ذلك من رحيق الأزهار. ويمكنها بدقّة عجيبة أن تحفظه في خلايا دقيقة أيضاً...

هكذا النملة أيضاً في نظام حياتها النشيط الذي لا يهدأ، وفي تعاون أفرادها، ودقة اتصال بعضهم ببعض، وطريقة تخزين طعامهم إن عجائب اللّه في خليقته لا تحصى، لا تكفيها مقالة أو مقالات...

٨ / ٧ / ٢٠٠٦

معرفة اللّه

يشمل هذا الموضوع الحديث عن نقطتين: إحداهما هى معرفتنا نحن باللّه، والثانية هى المعرفة التي للّه كإحدى صفاته تعالت صفاته..

أما عن معرفتنا باللّه، فهى معرفة محدودة، تكفي للإيمان به وتمجيده، وتدعونا إلى طاعته وحفظ وصاياه، والاتكال عليه، والصلاة له...

إن اللّه - تبارك اسمه - هو غير محدود في كل شيء. بينما الإنسان كائن محدود. إنه محدود في عقله وفي معرفته، مهما كان عالماً... وطبيعي أن المحدود لا يمكنه أن يدرك غير المحدود. إنما يكفيه أن يتمتع بالقدر الذي تمنحه النعمة إياه من المعرفة باللّه، ويشكر على ذلك...

من أجل هذا قلنا إن معرفتنا باللّه معرفة محدودة.

****

قيل إن أعلم الناس في المعرفة، هو الذي - من جهة العمومية - يعرف شيئاً عن كل شيء. ومن جهة التخصص: يعرف كل شيء عن شيء. وحتى هذا التعبير مخطئ عملياً. لأنه لم يوجد حتى الآن شخص واحد يعرف شيئاً عن كل شيء، ولا شخص واحد يعرف كل شيء عن شيء... إنما معرفتنا البشرية قاصرة على معرفة بعض الأشياء عن بعض الأشياء. ونحن نسعى إلى استكمالها في كافة المجالات، إن استطعنا...

أما اللّه - تعالت قدرته - فهو يعرف كل شيء عن كل شيء.

أي أنها معرفة شاملة كاملة. ولاشك أن معرفة اللّه بكل شيء، هى واحدة من صفاته الذاتية التي ينفرد بها عن سائر مخلوقاته.

وليسمح لي القارئ العزيز أن أتأمل قليلاً في معرفة اللّه، وفيما يميز هذه المعرفة من صفات...

****

من صفات معرفة اللّه، أنه يعرف الأمور قبل كونها، أي أنه يعرف المستقبل، ويعرف الغيب...

والمستقبل ليس فقط في معرفة اللّه، إنما هو أيضاً تحت سلطانه. وهو أيضاً تحت ضبطه، وهو يقدر على تغييره إذا شاء.

ومعرفة اللّه بالمستقبل هى معرفة يقينية ثابتة، وليس عن طريق الاستنتاج كما يقول بعض البشر في معرفتهم. فقد يقول أحد المدرسين عن بعض تلاميذه قبل الامتحان هذا الطالب سيرسب، وذاك سينجح بتفوق. ويتم ذلك فعلاً، ولكن عن طريق الاستنتاج، وبناء على معرفة سابقة بحالة كل طالب..

وقد يتحدث علماء الأرصاد عن حالة الجو في الأيام المقبلة من جهة الحرارة أو المطر. ولكنها معرفة استنتاجية بناء على رصدهم لحركة الرياح وللسحب المحملة بالمياه. ومع ذلك قد تصدق توقعاتهم أو لا تصدق...

أما معرفة اللّه بالمستقبل، فلا تدخل تحت دائرة الاستنتاج. كما أنه قد يوحي بها إلى بعض رسله، فيتنبئون الناس بها، وتسمى نبوءة. وهى مجرد نقل معرفة اللّه بالمستقبل، ولو بعد عصور بعيدة في أزمنة ستأتي...

****

ومن صفات معرفة اللّه، أنه يعرف الأمور بدون واسطة، وأيضاً بدون تدرُّج. بعكس معرفة البشر...

ما أكثر المقاييس والأوزان والأجهزة عند الناس. وفي عالم الطب مثلاً، لا يتأكّدون من حقيقة المرض وتشخيصه إلاّ بناء على وسائط عدة، كالتحاليل، أو كشف الأشعة، أو الـ M.R.I ، أو القسطرة، أو ميزان الحرارة، أو جهاز معرفة ضغط الدم، وما إلى ذلك من الوسائط...

أما اللّه فيعرف طبيعة المريض وعلاجه دون أية وسائط... كذلك كثيراً ما يجهد البشر أنفسهم في اكتشاف مناطق البترول أو الذهب أو الأحجار الكريمة بعديد من الحفريات، قد لا يأتي الكثير منها بنتيجة. أما اللّه فيعرف كل تلك المناطق التي يجهد البشر أنفسهم في معرفتها، ذلك لأنه هو الذي شاء أن يوجد الذهب أو البترول في تلك المناطق، بإرادته الإلهية وحسن تدبيره.

من صفات اللّه أيضاً أنه يعرف طبائع الكائنات أو المخلوقات كلها، ذلك لأنه هو الذي منحها تلك الطبائع حينما خلقها..

فقد يستنتج البشر أن المادة الفلانية أو العشب الفلاني يصلح لعلاج مرض معين. أما اللَّه فيعرف ذلك، لأنه هو الذي وضع في تلك المادة تلك الخاصية منذ خلقها، قبل استنتاج البشر لذلك...

إنه جلّت قدرته، يعرف طبيعة المادة بصفة عامة، ويعرف طبيعة جميع المواد كلٍ منها على حدة. ويعرف طبيعة الروح والعقل والنفس، لأنه هو الذي وهبها طبائعها، بحكمة إلهية من عنده.

وقد يحاول البعض أن يعرف طبيعة الروح مثلاً، وعلاقتها بالجسد، ومصيرها بعد الخروج من الجسد. ويؤلف علماء الروح في ذلك كتباً، وقد يختلف معهم رجال الدين في كثير من النقاط. وتبقى المعلومات اليقينية الثابتة في جميع التفاصيل في علم اللَّه، إلاّ ما سبق وأعلنه اللَّه ...

****

اللَّه أيضاً يعرف الماضي والحاضر والمستقبل، كله دفعة واحدة...

كل ذلك كائن أمامه في نفس الوقت، صورة واضحة، لا يسبق أحدها الآخر. بما في ذلك ما كان قبل خلق الكون، وما سوف يكون أيضاً في الأبدية التي لا تنتهي ومصير كل واحد فيها...

****

اللَّه أيضاً - في معرفته غير المحدودة - يعرف العوالم الأخرى...

يعرف كل ما يتعلق بالكواكب والنجوم والشموس والمجرات والشهب، بتفاصيل كثيرة فوق معرفة جميع البشر وعلماء الفضاء منهم...

يعرف أعماق السماء، وأعماق الأرض كل الأرض، وأعماق البحار كل البحار، ويعرف طبيعة الجو والهواء مهما كان الارتفاع عن سطح الأرض. وكل ذلك دفعة واحدة. ولا يخفى عليه شيء...

واللَّه يعرف أيضاً عالم السماء والملائكة، وطبيعة كل منهم...

ويعوزني الوقت إن تابعت الكلام عن معرفة اللَّه، كما تعوزني المعرفة أيضاً.

١٥ / ٧ / ٢٠٠٦

اللّـه القـوي
القـادر على كل شيء

قوة اللَّه عجيبة تشمل كل شيء. وهى أولاً قوة ذاتية..

أي أن اللَّه قوي في ذاته، وليست قوته من أي مصدر خارجي مثل قـوة البشـر أو الملائكة، فكل هؤلاء مصدر قوتهم من اللَّه خالقهم.

فمن جهة البشر، إن قلنا إن العقل البشري له قوة عجيبة استطاعت أن تصـل فـي الفضاء إلى بعض الكواكب، وأن تقوم باختراعات مذهلة... نقول إلى جوار ذلك إن العقل هو هبة من اللَّه للبشر. واللَّه هو الذي أعطاه هذه القوة

ونفس الوضع نقول عن الملائكة. أما اللَّه فقوته في ذاته كذلك يمكن لأي كائن قوي أن يفقد قوته، أو أن تقل القوة التي له، أو أن ينافسه أحد في قوته ويعقل مفعولها ولو إلى حين. أما اللَّه فقوته ثابتة بلا منافس، ولا تتغير...

****

نقطة أخرى تميز قوة اللَّه عن أية قوة أخرى.

وهى أن اللَّه وحده هو القادر على كل شيء.

قد يوجد مخلوق قادر في ناحية من النواحي. ولكن لا يوجد إطلاقاً أي مخلوق قـادر على كل شيء. فهذه الصفة هى للَّه وحده. وهى إحدى صفاته الذاتية.

معروف أن الملائكة أقوياء يمكنهم أن يقوموا بأعمال معجزية، ولكنهم ليسوا قادرين على كل شيء. وبعض البشر قد يكونون مقتدرين في بعض المجالات، ولكنهم بلا شـك ليسوا قادرين على كل شيء. كما أن قوة البشر والملائكة مصدرها هو اللَّه.

كذلك الطبيعة قد يكون لها قوة. فالزلازل والبراكين مثلاً قد تستطيع أن تهدم وتخرب وتحرق وتشرد البشر. ومع ذلك كله فقوة الطبيعة محدودة، وليست هى قادرة علـى كـل شيء.

نقطة أخرى، وهى أن اللّه بلا منافس في قوته وقدرته.

بعض الشعوب البدائية كانت تؤمن بوجود إلهيْن: إله للخير. وإله للشر. ولكن ذلك ضد الإيمان بقوة اللّه. ونحن جميعاً نؤمن بإله واحد تشمل قوته كل أحد. ولا نؤمن أن الشيطان منافس للّه أو أنه إله للشر. فهو أيضاً من خليقة اللّه. واللّه قادر أن يفنيه أو يوقف عمله. ولكنه صابر عليه، وسيكون مصيره الهلاك في اليوم الأخير.

ولاشك أن معجزة إخراج الشياطين هى ضد قوة الشيطان. والشيطان أيضاً ليس قادراً على كل شيء، وإلاّ كان قد ضرب العالم.

****

أيضاً من دلائل قدرة اللّه على كل شيء: قدرته على الخلق..

هو وحده الذي يخلق. وهذه هي إحدى صفاته الذاتية.. أما الإنسان فأقصى ما يصل إليه، أن يكون صانعاً ومكتشفاً... يكتشف طبيعة الأشياء وخواصها، ويصنع منها ما يستطيعه عقله. وهذه الأشياء أو المواد التي يصنع منها الإنسان ما يقدر عليه هى من خلق اللّه، وعقله أيضاً هو من خلق اللّه. وقدرته وإبداعه هبة من اللّه. ولكنه لا يستطيع إطلاقاً أن يخلق، أي يُوجد شيئاً من العدم: فهذه قدرة اللّه وحده...

وتظهر قوة اللّه العجيبة في الخلق، من جهة عدد الخليقة التي خلقها، وأنواعها: ما يُرى وما لا يُرى. مما لا يستطيع إحصاءه أي عقل بشري...

****

قدرة اللّه على كل شيء، تظهر أيضاً في إقامة الموتى.

إنها معجزة فوق عقولنا جميعاً، أن يقدر اللّه على إقامة الموتى جميعاً، ملايين الملايين من البشر منذ آدم إلى آخر الدهور، في كل بقاع الأرض، ممّن قد تحوّلت أجسادهم وتحولت إلى تراب!! وتقوم كلها في وقت واحد، وتدخل فيها أرواحاً وتقف أمام اللّه في يوم الدينونة، ليُجازي كلاً منها حسب أعمالها!

****

أيضاً تظهر قوة اللّه على كل شيء، في كثرة المعجزات والأعاجيب.

إنها معجزات وأعاجيب لا نستطيع حصرها، ورد الكثير منها في الكتب المقدسة، نذكر من بينها منح البصر للعميان، وشفاء الأمراض المستعصية، وشق البحر الأحمر أيام

موسى النبي، والطوفان أيام أبينا نوح. ومعجزات أخرى على أيـــدي بعـــض البشـــر أو الملائكة...

والمعجزة ليست شيئاً ضد العقل، ولكنها فوق العقل. وقد عجز عن فهم كيف تمـــت. لذلك سميت معجزة. وهى بلا شك من صنع اللّه القادر على كل شيء.

* * * *

ومن تواضع اللّه في قدرته، أنه منح قدرات لبعض مخلوقاته:

فقد منح قدرات عجيبة للملائكة، بحيث يمكنهم أن ينتقلوا من الســماء إلـــى الأرض، وأن يقوموا بأعمال معجزية يكلّفهم بها.

كذلك القدرات التي منحها اللّه للعقل البشري، فاستطاع العلماء أن يبتكروا ويخترعوا ويصنعوا أشياء تفوق الخيال، مثل الطائرات، والكمبيوتر، والفاكس، والتليفون بين القارات واستخدام الذرة والليزر في مخترعات تفيد البشر، وبخاصة في مجال الطب.

ولكن كل قدرات البشر والملائكة ليست ذاتية، بل هى هبة من اللّه ...

* * * *

هناك نواحٍ أخرى تظهر قدرة اللّه العجيبة.

+ مثل قوة اللّه في احتماله، وكيف احتمل عبادة الأصنام عصوراً طويلـــة، وقـــد انتشـــر الإيمان في الأرض، واحتمل الإلحاد كما في روسيا الشيوعية ٧٠ سنة، واحتمل الإلحاد الذي نشرة بعض الفلاسفة. وكيف احتمل فجور الناس وخطاياهم حتى تابوا..!

+ تظهر أيضاً قوة اللّه في محبته وعطائه. وكيف أنه يعطي بســخاء، ويعطـــي دون أن نطلب، وفوق ما نطلب، ويفتح كوى السماء فتفيض بالخيرات التي تكفي لسكان الأرض كلها.

+ كذلك قوة اللّه في الإنقاذ، حيث ينقذ البعض في حالات يبدو فيها لا أمل ولا نجاة. لذلك نفرح إننا في حماية إله قوي قادر أن ينقذ مهما كانت كل الأبواب تبدو مغلقة.

+ تظهر أيضاً قوة اللّه في مغفرته. وكيف أن الإنسان حينما يتوب، يغفر اللّه كل ما سبق مهما كانت بشاعة خطاياه!

+ هناك نواحٍ أخرى في قوة اللّه العجيبة لا تتسع لها هذه الصفحة.

٢٩ / ٧ / ٢٠٠٦

الثمن

كل شيء له ثمن، سواء في السماء أو على الأرض.

فهكذا يقتضي العدل: عدل اللّه، والعدالة الأرضية أيضاً.

الحرية مثلاً لها ثمن. وقد صدق الشاعر في قولاً:

وللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مضرّجة تُدقُّ

أي مضرجة بالدم، دم الذين جاهدوا ليحصلوا عليها...

حرية العبيد في أمريكا، كان لها ثمن هو ثورة العبيد في أمريكا.. وحرية السود في جنوب أفريقيا، كان لها ثمن دفعه مانديلاّ الذي احتمل السجن سنوات عديدة، حتى خرج ليكون أول شخص أسود حكم جنوب أفريقيا بعد زوال التفرقة العنصرية..

****

ونجاة مصر من الاحتلال البريطاني، كان له ثمن:

ثمنه الثورة الجبارة التي قام بها سعد زغلول سنة ١٩١٩ بعد أن نُفي إلى "سيشل" هو وأصحابه. تلك الثورة الشاملة التي قامت في مصر كلها. وأعقبها الحصول على الدستور لأول مرة سنة ١٩٢٣م.

كذلك حصول الهند على الاستقلال بعد أن حكمتها انجلترا سنوات عديدة. هذا أيضاً كان له ثمن، هو الجهاد المضني الذي قام به الزعيم "مهاتما غاندي"، في أصوام وفي صبر واحتمال، حتى اعترفت بريطانيا باستقلال الهند أخيراً.

****

النجاح أيضاً - في أي شيء - له كذلك ثمن:

وثمنه التعب والجهاد. ولا ينال النجاح بمجرد الرغبة فيه، فهذه الرغبة وحدها لا يمكن أن توصل إلى النجاح. وكما قال الشاعر:

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

وعلى رأي المثل: "من جدَّ وجد". ولا يقل أحد: "لا داعي لأن أتعب. أنا أستريح، وأنال ما أريد عن طريق الفهلوة". فالفهلوة يا أخي هى أيضاً ثمن، لمن يستطيع أن يتقنها. وحتى إن أوصلت إلى ما تسميه نجاحاً، فهو غير دائم، وقد ينكشف...

يضاف إلى النجاح: التفوّق. وهذا لا يمكن أن يناله الإنسان إلاّ بجهد فائق، غير عادي...

****

الصحة أيضاً، لا يحصل عليها أحد إلاّ بثمن.

وثمنها هو مراعاة كل القواعد الصحية، وإبعاد الجسد عن كل أسباب المرض والضعف، وتقويته بما يحتاج إليه من غذاء ورياضة وهواء نقي. أما في حالة المرض، فثمن الصحة هو العلاج اللازم والدواء، وإطاعة الإرشادات الطبية واحتمال الألم. وما أكثر الثمن الذي يبذله الإنسان في ظروف العمليات الجراحية، سواء من جهة ماله أو احتماله، والصبر حتى يُشفى. وبعد ذلك أيضاً الحرص في فترة النقاهة خوفاً من أن ينتكس...

****

كذلك أيضاً، كسب محبة الناس، ما أعظم الثمن الموصل إليها...

يحتاج الإنسان في ذلك إلى تدريب طويل على البذل والعطاء، والثبات في ذلك، واحتمال أخطاء الآخرين، وحُسن معاملة الكل صغار وكبار، وعدم التعامل بالمثل، وعدم الخوض في سيرة الآخرين. وإن تحدّث عنهم يذكر فضائلهم وينسى ما لهم من سيئات... بهذا كله يكسب محبة الناس. كما أنه يدرس ويختبر نفسيات الذين يتصل بهم، ويتعامل مع كلٍّ منهم حسب ما يناسب نفسيته...

صدقوني، حتى الحب العاطفي بين فتى وفتاة، له أيضاً ثمن. والكل يذكر قصة (مجنون ليلى) وما بذله وما احتمله وقاساه...!

****

الأمانة أيضاً لها ثمن، والطاعة كذلك لها ثمن.

الأمانة الخاصة بعفّة اليد، ثمنها تدرُّب الشخص على ألاّ يأخذ شيئاً ليس من حقّه، ولا يأخذ شيئاً أزيد من حقه. وهكذا يبعد تماماً عن المال الحرام، ويحترس من الرشوة بكل إغراءاتها...

الأمانة في أداء الواجب، ثمنها بذل الجهد على قدر المستطاع في القيام بمسؤولياته، وعدم التقصير في شيء منها...

أما عن الطاعة، فثمنها محبة من تطيعه، والتضحية بمشيئتك الشخصية لأجل تنفيذ مشيئته، في نطاق مشيئة اللَّه.

****

كذلك تكوين الثروة له ثمن، والوصول إلى السلطة له ثمن...

الثروة لا تهبط على الإنسان من فوق، كعطية مجانية من السماء! وإنما تحتاج إلى جهد وتعب في الحصول. وكثير من الناس يشتهون الثروة ويسعون إليها، ولكن لا ينالها إلاّ الذين تعبوا في الحصول عليها...

السُّلطة ما أكثر الذين يسعون إليها ويشتهوها. ولكن الذين حصلوا عليها هم الذين تعبوا من أجلها وصبروا، حتى حصلوا على مكانة توصلهم إلى السُّلطة.

وفي كل ذلك، ليس فقط الحصول على الثروة والسُّلطة، يحتاج إلى ثمن. بل كذلك الحفاظ على كلٍّ منهما يحتاج إلى ثمن. لأن كثيرين من الذين حصلوا عليهما قد فقدوهما بسبب سوء الاستخدام، أو بسبب النفخة الكاذبة والكبرياء...

****

التوبة أيضاً لها ثمن، وثمنها هو جهاد النفس ضد الخطية.

ونقصد بالخطية كل أنواعها: سواء خطايا الجسد أو الفكر أو القلب، أو خطايا اللسان أو خطايا الحواس وغير ذلك. ومن الناحية الايجابية حفظ نقاوة القلب وامتلائه بمحبة اللَّه. ثم الثبات في كل ذلك، والبعد عن كل أسباب النكسة الروحية.

صدقوني يا إخوتي، إن الخطية أيضاً لها ثمن.

فما أكثر الذين بذلوا الجهد والمال والصحة ثمناً للخطية. ثم بعد ذلك فقـدوا الكـل. فلا بقى لهم جهد ولا مال ولا صحة. كما فقدوا الخطية ولم تدم لهم...

****

أخيراً أحب أن أقول: إن السماء والحياة الأخرى لها أيضاً ثمن.

وثمنها هو الإيمان السليم والحياة الطاهرة المقبولة أمام اللَّه. وسعيد كـل مـن ثبـت فيهما. وكل من كان في كل حين مستعداً للقاء اللَّه، بضمير صالح قدّامه.



٥ / ٨ / ٢٠٠٦

خطايا اللّسان

اللسان عضو صغير جداً في جسم الإنسان، ولكن ما أضخم خطاياه التي لا تتناسب مطلقاً مع حجمه. ولذلك قال أحد القديسين:

"كثيراً ما تكلّمت فندمت. وأما عن سكوتي فما ندمت قط".

فما هى خطايا اللسان إذن؟ وما مدى خطورتها حتى يندم الإنسان عليها.

أول خطورة للسان هى إن خطاياه نابعة من القلب. فالقلب الطاهر لا يلفظ سوى ألفاظ طاهرة. أما ما في القلب من خطايا، فهذه يكشفها اللسان. ولهذا يعرفون طبيعة الإنسان من ألفاظه، فلغته تظهره... ولهذا فإن خبراء السياسة - إذا أرادوا أن يعرفون بواطن إنسان - يتركونه يتكلم، وكلامه يكشفه، فيحكمون عليه.

****

ثاني خطورة للسان هى أن الكلمة التي تخرج منه، لا يستطيع مطلقاً أن يسترجعها. لقد حُسبت عليه..

فإن حدث ذات مرة، وزلف لسان إنسان، فجرح شعور صديق له بكلمة لا تليق. فإنه - مهما ندم على قوله - فإن تلك العبارة قد حُسبت عليه، وربما لا ينساها له ذلك الصديق! مادام الأمر هكذا، فليحترس الإنسان في كل ما يقوله. وخير له أن يزن كل لفظ قبل أن ينطق به.. ويحاسب نفسه على كلامه قبل أن يحاسبه الناس علية ..

****

والأمر الثالث في خطورة اللسان، هو أننا سوف نقدم للّه حساباً في يوم الدين عن كل كلمة بطّالة خرجت من أفواهنا.

فملكوت اللّه يُشترط في الذين يدخلونه أن يتّصفوا بعفة اللسان وعفة الألفاظ. إذن أليس هو تدريباً نافعاً جداً أن ندرب أنفسنا على عفة الألفاظ، وأن نراجع أنفسنا من جهة نوعية كلماتنا، وننقيها من كل كلمة موشية غير مهذبة... وكيف يكون ذلك؟

نبعد أولاً عن الكذب بكل أنواعه: أي كل ما لا يتفق مع الحق والصدق. وربما من بين هذا أيضاً بعض أنصاف الحقائق التي لا تعطي صورة دقيقة عن الصدق والواقع. وأيضاً كلام المبالغة الشديدة التي تصوّر الأمور بغير واقعها. وما يتحايل البعض على تسميته بالكذب البريء، بينما هذه العبارة أيضاً غير بريئة، لأنه لا توجد أنواع من الكذب مقبولة على الإطلاق.. ومنها أيضاً عبارات المديح الزائد، والنفاق والرياء. من هنا ينبغي الحرص في مراعاة الدقة في كل ما يقوله الإنسان. وبهذا يصبح موضع ثقة من الناس.

****

ثانياً: البعد عن إهانة الآخَرين أو جرح مشاعرهم:

سواء باللفظ، أو الكتابة، أو بالدسّ والوقيعة والنميمة والغيبة. والاغتياب هو أن يتحدث الشخص بالسوء على أحد الناس في غيبته، مما لا يجرؤ أن يقوله في حضرته. وعلى العموم فإن الخوض في سيرة الآخرين والحديث عن سلوكهم والتعليق عليه، هو من الخطايا الشهيرة التي يقع فيها غالبية الناس، ويجدون وسيله لقضاء الوقت وللتسلية!!

ومن الخطيئة في العلاقات الشخصية العتاب المرّ القاسي، الذي يجرح الشعور، والذي يقصده الشاعر بقوله:

ودَعْ العتابَ فرُبّ شر   كان أوله العتابا

إن كان الأمر هكذا، فماذا نقوله إذن عن عبارات السبّ واللعن التي يحكم عليها القانون، أو عبارات السب المغطاة التي لا يطولها القانون، ولكنها تطولها أفهام الناس ومشاعرهم فتتأذى؟!

****

من أخطاء اللسان أيضاً عبارات الغضب والنرفزة:

هذه التي لا يضبط فيها الشخص أعصابه، فتخرج الألفاظ منه جارحة مؤلمة مهينة، إلى جانب منظرة وهو غاضب الذي لا يقل عن ألفاظه في الإثارة. كما أن علو الصوت الصاخب لا يليق أيضاً، وكذلك حدّة العبارات وقساوتها. نعم، ما أكثر الأخطاء التي يقع فيها الإنسان في ساعة غضبه، والتي ربما يندم عليها حينما يهدأ، ولكن بعد فوات الفرصة يضاف إلى هذا ما يقوله أحياناً في غضبه من عبارات التهديد والوعيد!

من أخطاء اللسان أيضاً الثرثرة والحديث في التافهات...

إن اللَّه قد خلق اللسان لأجل فوائد معينة ورسالات يقوم بها، وليس لكي يستخدمه فيما لا يفيد أحداً بل قد يفد!

ومن أمثلة الثرثرة الإطالة المملة في الحديث مما يتعب الأعصاب.. ومن أخطرها الحديث في التليفون في أوقات غير مناسبة، وفي موضوعات لا تهم السامع في شيء. ومحصلتها كلها هى إضاعة الوقت...

ومن أمثلتها كذلك، الفكاهات البذيئة التي لا تتفق مع الأخلاق في شيء.. وكذلك عبارات المزاح الرديء.

****

كذلك من أخطاء اللسان، استخدامه في اللهو والعبث...

كأن يقضي الإنسان وقت فراغه في بعض الأغاني البطّالة التي قد يكون لها تأثير سيء على خلقه، أو يقضي الوقت في كلام العبث مع أصدقائه، ويظن هذا لوناً من التسلية، ولكنها تسلية ضارة... وإذا لا يجد شيئاً يشغل به وقته، فإنه يشغله بإضاعة وقت الآخرين..!

ومن أخطاء اللسان أيضاً، كلام الافتخار والتباهي.

والأجدر بالإنسان أن يمدحه الآخَرون على ما يفعله من خير، لا أن يمدح هو نفسه ويتباهى بما قاله أو ما فعله. وغالباً ما يكون سماع كلام الافتخار ممقوتاً من الناس، وبخاصة إذا أطاله...

****

من هذا كله يتضح أن خطايا اللسان ضارة بمن يقولها، وضارة بمن يسمعها. وهكذا فإن العقلاء قد فضّلوا الصمت. وما أجمل قول سليمان الحكيم:

"إذا صمت الجاهل يُحسب حكيماً".

١٢ / ٨ / ٢٠٠٦

بين الصمت والكلام

بعض الناس - لخوفهم من أخطاء اللسان، يفضلون الصمت. ويقولون إن الصمت أفضل من الكلام، وأكثر حرصاً منه. وفي الحقيقة أنه ليس في كل كلام خطيئة، ومنه ما هو نافع. كما أنه ليس كل صمت فضيلة. فأحياناً ندان على صمتنا...

والإنسان يعرف متى يصمت، ومتى يتكلّم. وكيف يتكلم بحيث لا يخطئ. وكما قال سليمان الحكيم: "تفاحة من ذهب في مصوغ من فضة، كلمة مقولة في حينها". فما هي إذن الأمثلة التي من الكلام النافع؟

****

إن كثيراً من السوّاح كانوا يأتون من أقاصي الأرض إلى بعض نُسّاك مصر المتوحدين يطلبون من أفواههم كلمة منفعة. وكانت كل كلمة منهم لها عمق وتأثير بحيث تثبت في آذان وعقول سامعيهم، ويتخذونها مصدر هداية لهم في طريق الحياة. حقاً إن الذين لا يتكلّمون إلاّ قليلاً، يكون لكلامهم وزن مُعين لا يُقدّر بثمن...

وللآن مازال البعض يطلب كلمة منفعة من الحكماء أي من الذين يثق بحكمتهم، أو يثق بعلاقتهم باللّه وبعمق تفكيرهم وبخبرتهم في الحياة، وحُسن توجيههم.

****

وكما يطلب البعض كلمات المنفعة ويحرص عليها، كذلك يطلب كلمات البَركة ويسعى إليها... بَركة من أحد الوالديْن أو من كليهما.. وبركة من شيخ بار له دعواته الطيبة، وبركة من مرشده الروحي...

إن كلمة البَركة تسعد الإنسان وتبقى معه كل حياته، وبخاصة لو كانت بركة شاملة، تحل عليه وعلى أولاده، وعلى بيته، وعلى كل ما تمتد إليه يده، وهكذا كل ما يعمله ينجح فيه...

ويتعوّد هو على حياة البَركة، ويحرص على أن يبارك الطعام قبل أن يأكله، ويطلب من اللّه أن يبارك ماله. فالقليل الذي في يده يصبح بالبركة كثيراً، ولا يعوزه شيء.

أيضاً من كلام المنفعة: كلام التعليم والوعظ والإرشاد.

إنه مثل الماء للفردوس الجُدُد، يروي النفس ويشبعها وينميها... ومن أهميته لا تخلو منه دور العبادة، ولا كل مراكز الإرشاد...

ولا يستغني الإنسان عن كلمة التعليم مهما كبر. إنما تختلف في عمقها حسب سنه. وطوبى للإنسان الذي يطلب كلمة التعليم طول عمره، من المهد إلى اللحد، وبخاصة من هو أكبر منه سناً أو أعمق منه حكمة أو أكثر منه خبرة بالحياة...

****

وإن كان الكل تنفعهم كلمة التعليم، فإن البعض يحتاج إلى كلمة التشجيع، وبخاصة إن كانوا من المبتدئين أو الصغار. كلمة التشجيع تحفّز همتهم إلى المزيد، وتزيل منهم عامل الخوف. ولسنا نقصد فقط المبتدئين من جهة العمر، إنما أيضاً المبتدئين في أي عمل جديد، أو في أية دراسة أعلى، أو في وظيفة إدارية كبرى... كلهم يحتاجون إلى كلمة تشجيع. كذلك المُقدمون على مغامرة ما، أو على إصلاح إدارة شَمَل الفساد كل فروعها. وربما تطهيرها من المفسدين يكون أمراً مخيفاً لأنهم تدربوا على تدمير كل شيء. لذلك العمل في وسطهم يحتاج إلى كلمات التشجيع لئلا ييأس المصلحون ويفشلوا...

****

من الكلمات النافعة المطلوبة أيضاً كلمات الصلح والسلام والتهدئة. وما أصدق عبارة: "الجواب الليّن يصرف الغضب". ولا شك أنه أيضاً يهدئ النفس. وكذلك كل كلام المصالحة الذي بواسطته ينتهي الخصام، وتعود المحبة، ويسود السلام. وبنفس الوضع كل كلمة لتهدئة الخواطر والمشاعر الثائرة. وطوبى لصانعي السلام بكافة الطرق.

وليس السلام فقط لازم في الصلح بين المخاصمات، وإنما كلمة السلام لازمة في كل لقاء وفي كل مقابلة. ونحن نلقي السلام على كل من نلتقي به، ونعتبر هذا أمراً واجباً.

****

ومن الكلمات اللازمة، كل كلمة في مناسبتها:

* كلمات التعزية لمن فقدوا عزيزاً عليهم في وفاة أو في حادث أليم. وهى كلمات لازمة، ويؤاخذ من يقصر في قولها.
* كلمات التحية والترحاب بكل زائر يزورنا.

* كلمات الوداع لِمَنْ يُفارقنا في سفر طويل.

* كلمات الشكر نقولها لكل من قدم لنا خدمة مُعيّنة، أو لِمَنْ قدّم هدية في مناسبة عيد أو حفل.

* كلمات التهنئة نقولها لكل من نجح في امتحان، أو لمن فاز بجائزة أو بتقدير، أو لِمَنْ قَدِم من السفر بسلامة اللّه.

* كلمات النصح نقولها لصديق حتى يحترس من خطر مُعين، أو يستعد للقاء هام، أو يقدم على مشروع جديد.

كل هذه كلمات لازمة، ولا يمكن أن نقصّر فيها معتذرين بفوائد الصمت. فكل صمت في المناسبات السابقة هو خطأ نلام عليه.

****

كذلك من المواقف التي يلزم فيها الكلام: الدفاع عن الحق إذا ما سئلنا في ذلك، أو حينما نشعر أن الواجب يلزمنا أن نقف وندافع، وبخاصة لكي ندفع الضيم عن مظلوم يفتك به من هو أقوى منه! هل في مثل هذه الحالة نصمت عن الشهادة للحق أو عن الدفاع عن المظلوم؟! ظانين أن الصمت فضيلة؟! كلا أن الصمت في هذه الحالة هو خطيئة...

****

من الكلمات اللازمة أيضاً والمفرحة كلمات العفو والمسامحة: يقولها أحد الرؤساء لمرءوسي له قد اخطأ. أو يقولها أب لأبنه الذي ينتظرها من فمه، أو يقولها حاكم لمجموعة من شعبه...

كلها كلمات تفرح القلب، وتنقذه من ضيق كان يجثم على صدره، ومن ذنب كان يزعجه في نومه وصحوه...

إن الصمت عن منح كلمة العفو يزعج النفس، وكذلك التأخير في النطق بها... ومثل كلمة العفو، كل كلمة تفرح القلب.

****

إذن ليس كل صمت فضيلة... إنما الصمت يحسن في المواقف التي تناسب ذلك...

١٩ / ٨ / ٢٠٠٦

العطاء والبذل

"مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ".

بهذه العبارة الدسمة في معانيها، نبدأ موضوعنا عن العطاء والبذل.

إن اللّه تبارك اسمه - هو أول من أعطى، وأعطى بسخاء.

لقد أعطى الإنسان نعمة الوجود حينما خلقه، وأعطاه معها نعمة الحياة، وأيضاً نعمة العقل والنطق. وهكذا تميز الإنسان بأنه مخلوق حي عاقل. ناطق. أعطاه اللّه أيضاً سلطاناً في الأرض، وكرامة فوق كل المخلوقات الأرضية، بل أعطاه فوق ذلك كله، شرف التحدُّث إليه (في الصلاة). وزوّده طوال حياته ببركة الرعاية والحماية.

لهذا كله، كان لقب (المُعطي) من ألقاب اللّه عز وجل.

أما الإنسان الذي يقدّم العطاء، فهو عبد المعطي، أخذ من سيده ما يعطيه لغيره..

حقاً إن اللّه - ليس فقط هو المعطي الأول، بل أيضاً هو المعطي الوحيد الذي يعطي من عنده. أما نحن فنعطي غيرنا مما يعطينا اللّه.

الذي علّمنا موهبة العطاء، وأعطانا الذي نعطيه.

****

وقد دربنا اللّه على العطاء، وشجّعنا عليه بأمور عدة.

منها أنه أمرنا بإعطاء يوم من الأسبوع له. هو يوم مقدس للّه. ومنها أيضاً أنه أمرنا أيضاً بتخصيص جزء من أموالنا له، ننفق على الفقراء والمحتاجين، وعلى مشروعات البر.

ومن تشجيعنا على العطاء، أنه جعل مكافأة عليه، سواء في السماء أو على الأرض، حيث أنه على قدر ما نعطي، يعطينا اللّه وأزيد.

فما هي إذن قواعد العطاء؟ وكيف يكون في وضعه المثالي؟

القاعدة الأولى هى أن تعطي عن حب وإشفاق، وعن اقتناع.

فهناك من يعطي مرغماً، حين يلحون عليه وهو لا يريد! ومن يعطي لمجرد الخجل ممن يطلبون إليه من أجل المساهمة في مشروع بر! ومثل مَن يعطي مجاملةً، أو لمجرد أداء واجب، أو انسياقاً مع تيار معين ليس من السهل التخلُّف عنه! وهنا من يعطي محبة للظهور وللمديح!!

كل أولئك قد يعطون من جيوبهم وليس من قلوبهم! وليس هذا هو العطاء المطلوب، إذ ليست فيه أية عاطفة نحو المحتاجين...

****

والعطاء المُثلى، ليس هو فيمن يطلب منك فتعطيه، بل الأكثر هو الإحساس باحتياج أولئك المحتاجين، وإعطائهم دون أن يطلبوا...

فإن اللّه تبارك اسمه كثيراً ما يعطينا دون أن نطلب. فكم بالأولى إذا ما طلبنا منه، فإنه يعطينا أكثر مما نطلب...

فلتكن فينا هذه المثالية التي قدّمها لنا اللّه، فنعطي الآخرين أكثر مما يطلبون. لأنهم قد يكونون في حاجة، ومع ذلك لا يطلبون كل ما يريدون، إما خجلاً أو خوفاً من أن يوصفوا بالطمع...

****

ومثالية العطاء أيضاً هو أن تعطي من الأشياء الجيدة الفائضة.

لأن هناك أشخاصاً لا يعطون إلاّ من الفضلات، أو من الأشياء المرفوضة منهم، فيتخلصون منها عن طريق العطاء، ولكن ليست هذه هى فضيلة العطاء الذي يتمثل الإنسان في أعطاء أجود وأفضل ما عنده. وهكذا كان يفعل "حاتم الطائي" الذي كان من أكرم العرب في عطائه...

وميزان العطايا لا تكون على قدر من يأخذونها. إنما كرم العطايا هى أن تكون على قدر معطيها...

وأفضل نوع من العطاء، هو أن يعطي الإنسان من إعوازه...

أي أن يعطي وهو محتاج. هذا يكون عطاؤه ذا عمق. لأنه يحمل معنى التضحية بالإضافة إلى صفات العطاء الأُخرى. وما أعمق ما قاله مرشد روحي في إحدى فترات

المجاعة، حيث قال: "إذا لم يكن عنده ما تعطيه لهؤلاء المساكين. فصُم وقدّم - لهم طعامك!".

ومن هنا كان العطاء الذي يقدّمه الفقراء - مهما كان قليلاً في كميته - فهو في نوعيته أفضل مما يقدمه الأغنياء من فضلاتهم.

****

ومن أجمل صور العطاء، أن يصبح عادة عند المعطي..

فهو يعطي باستمرار، ويعطي كل يوم. ويأسف إن مرّ عليه يوم لم تتح له فيه فرصة للعطاء. وهو لا يرد طالباً مطلقاً. ويعطي الكل دون تفريق. ولا يعطي بكيل أو مقياس، إنما يعطي بلا حدّ، وبلا عدّ. وينمو في موهبة العطاء يوماً بعد يوم...

ومتى أعطى يعطي بكرم وسخاء، كعطايا اللّه التي تتدفق علينا...

****

والمعطي لا يفتخر بعطائه، ولا يطلب عنه أجراً هو مديح الناس.

إنما بقدر الإمكان يعطي في الخفاء، وأجره عند اللّه الذي يرى كل ما في الخفاء ويكافئ عليه... وهو يواظب على العطاء، واثقاً من أنه ليس يتنازل عن شيء من أمواله. إنما هو يكنز له كنوزاً في السماء...

ويدرك في أعماق قلبه، وفي ثقة أنه لا يعطي إنما هو يأخذ! أي يأخذ بركة هى أعمق بكثير مما يعطيه. وهذه البركة تتابعه في أمواله، وفي كل ما تمتد إليه يده. فهو يستبدل العطية المادية الفانية بعطية أبدية لا تفنى....

****

والعطاء الأكبر، هو أن يعطي الإنسان نفسه فداءً لغيره...

لأن كل عطية أخرى هى خارجة عن ذاته. أما تقديم النفس عطية، فهو أعظم من كل شيء. وكثيراً ما يعبّر أحدهم عن محبته لصديق له، فيقول: "أنا مستعد أن أفديه بحياتي"... هنا قمة العطاء.

على الأقل إن لم يستطع أحد عن يقدم حياته، أو لم تأت مناسبة لذلك، فعلى الأقل يمكنه أن يتبرع بشيء من دمه، حينما يُطلب ذلك منه لإنقاذ حياة مريض أو جريح...

إن مجالات العطاء متسعة، وليساهم كل أحد فيها بما يستطيع...

٢٦ / ٨ / ٢٠٠٦

مُحاسبة النفس

يحتاج الإنسان كثيراً إلى جلسة مع نفسه.

يجلس إلى نفسه في هدوء، لكي يفحصها ويفتش دواخلها، ويراقب تصرفاتها ويحاسبها، حتى يكون في يقظة مستمرة... وهذه الرقابة الذاتية وملاحظة النفس لازمة لكل إنسان، مهما علا في حياته الروحية، ومهما ارتفع في منصبه...

ولهذا فإن الشيطان يحاول بكل قوة أن يمنع كل إنسان من الجلوس إلى نفسه.

ما أسهل أن يغرقه في مشغوليات عديدة جداً تستغرق كل وقته، وتستحوذ على كل مشاعره، فلا يجد فراغاً يجلس فيه إلى نفسه! وإن كان إنساناً خدوماً، يمكن أن يشغله بالخدمة ومتطلباتها، حتى يجعل الخدمة تشغله، بحيث لا يهدأ ليفكر في أخطائه في خدمته!

وهكذا كثيراً ما يعيش غالبية الناس في دوّامة دائمة، خارج أنفسهم!

****

أما أنت أيها القارئ العزيز، فلا تكن من هذا النوع. بل اخرج من دوّامة المشغوليات، والتفت - ولو قليلاً - إلى نفسك.

أنت محتاج أن تجلس إلى ذاتك، لأسباب كثيرة:

منها أن تعرف أخطاءك، سواء كانت أخطاء اللسان، أو أخطاء الفكر أو الحواس أو مشاعر القلب، أو أخطاء الجسد. وبالجملة لتعرف أخطاءك ضد وصايا اللّه، وضد الناس، وضد نفسك، لتصلح كل هذه... بل لتدرس طباعك الثابتة فيك، ربما يحتاج بعضها أن يتغير!

وأيضاً لتعرف الخطايا التي تتسمى بأسماء فضائل، وربما تفتخر بها!

وكما تحاسب نفسك على السلبيات التي تقع فيها، حاسبها أيضاً على ما ينقصها من الفضائل. وكذلك من جهة توقُّف النمو الروحي، لأنه من المفروض أن تنمو روحياً باستمرار...

وكل إنسان عليه أن يضع أمامه عبارة الحكيم الذي قال:

"احكم يا أخي على نفسك، قبل أن يحكم الناس عليك".

ولكن كيف تكون محاسبة النفس بطريقة مثالية؟

+ **أولاً:** يحاسب نفسه بكل صراحة، وبغير مجاملة للذات:

وهنا يحاول الشيطان أن يمنعه بإحدى طريقتين:

إما أن يقول له: "لا تبالغ في حكمك على ذاتك، لئلا تقع في (عقدة الذنب) "Sense of Guilt" وإما أن يقول له: احترس من أن تقسو على نفسك، لئلا تقع في الكآبة Depression والشيطان ليس مخلصاً في نصائحه، لأنه يريد أن يبعد الإنسان عن تبكيته لنفسه ليصلحها...

****

أيضاً في محاسبة الذات: على الإنسان أن يحترس من أن يلتمس لنفسه الأعذار، كما تتغطى أخطاؤها بالتبريرات!

النعمة قد تعمل في الإنسان كي يدرك أخطاءه، كما يتحوّل إلى مشاعر التوبة. ولكن الشيطان - إنه يريد أن يبعده عن تبكيت النفس والتوبة - يقدم له أعذاراً وتبريرات تغطّي على الأخطاء!

فليحترس كل أحد من تقديم مثل هذه الأعذار والتبريرات، لأنها لون زائف من الإشفاق على النفس، بالدفاع عنها، ومحاولة تخفيف الذنب الذي اقترفته، ليبعدها عن التوبة!

فإن كنت يا أخي تحب نفسك حقاً، فلا تشفق عليها بهذا الإشفاق الخاطئ الذي يحرمها من مشاعر التوبة، والندم على ما فعلته! وهذا لا يفيدها بشيء. بل على العكس: قد تتعود النفس هذا الاعتماد على الأعذار والتبريرات، وتستمر في الأخطاء! كما أن الذي يحاول أن يعذر نفسه في أخطائه، قد يصبح ضميره من النوع الواسع الذي يبتلع كل خطأ دون أن يندم عليه!

وربما يعتذر الإنسان عن أخطائه بسبب المعطلات الخارجية:

هذه التي تعوق طريق الفضيلة، بينما كان عليه أن يجاهد لكي ينتصر على تلك المعوقات، فيغلبها دون أن تغلبه وتمنعه..

هوذا أبونا نوح البار، كان يعيش في جو في منتهى الفساد، وسط جيل شرير استحق أن يغرقه اللّه بالطوفان. ومع ذلك فإنه عاش في بره، وحفظ نفسه في الإيمان هو وأسرته. ولم يتأثر بالوسط المحيط...

كذلك يوسف الصديق كانت الخطية تضغط عليه من زوجة سيده كل يوم. ومع ذلك رفض كل ذلك الضغط والإلحاح، ولم يخطئ. وتحمَّل ما لحقه من سجن وظلم وعار، لينتصر على الخطية.

إذن الضغط الخارجي لا يستسلم له سوى الضعف الداخلي...

أمّا الإنسان القوي من الداخل - من جهة قلبه وضميره - فإنه لا يعتذر مُطلَقاً بالضغوط الخارجية مهما كانت شديدة...

****

فلا يلتمس أحد العذر، بأنه كان ضعيفاً، والخطية أقوى منه!

الضعيف عليه أن يجاهد لكي يغلب وكل إغراءات الخطية، لكي يكون غالباً لا منهزماً أمامها، عالماً أن النعمة سوف تسنده في جهاده، وواضعاً أمامه أن ملكوت اللّه لا يُعطى إلاّ للغالبين... ولا يقول إن الوصية كانت صعبة، لم أستطع تنفيذها..

إن أبانا إبراهيم، أب الآباء والأنبياء، استطاع تنفيذ وصية في منتهى الصعوبة، فأخذ أبنه الوحيد الذي يحبه ليقدمه ذبيحة للّه...

اقرأ إذن قصصاً عن الأبرار الذين انتصروا في حياتهم الروحية على الرغم من كل المعطلات الخارجية. فإنها قصص تشجّعك وتقويك.

****

إن الاعتذار بالضعف، ما هو إلاّ تدليل للنفس!

وأمثال هذه الأعذار مجرد حيل للتخلّص من تنفيذ وصايا اللّه. وهي غير مقبولة أمامه. مثال ذلك الذي يعتذر عن الصوم لضعف صحته. وكذلك الذي لا يدفع من ماله، ما هو حق اللّه عليه، معتذراً بالظروف الاقتصادية، وبنفس السبب يعتذر من لا يفي بنذره...

فليكن الضمير أقوى من كل تلك الحجج والأعذار.

ننتقل إلى محاسبة النفس فنسأل: متى يحاسب الإنسان نفسه؟

هناك من يجلسون إلى أنفسهم لمحاسبتها في مناسبات: مثل نهاية عام وبداية عام جديد. ومن يحاسبون أنفسهم في آخِر كل يوم على أخطاء النهار. ومن يحاسبون أنفسهم عقب الفعل الخاطئ مباشرة، فيبكتون ذاتهم على فعلهم ويندمون.

أما الوضع الأمثل والأكمل، فهو أن يحاسب المرء نفسه قبل العمل: هل هذا يجوز أم لا يجوز؟ هل هو لائق أم غير لائق. ولا يتسرّع مثلاً في الكلام، بل يزن كل كلمة قبل أن ينطقها، من جهة معناها وأسلوبها ومقدار وقعها على الناس. فإن اطمأن يلفظ تلك الكلمة...

وبهذا يمكن تفادي الخطأ قبل وقوعه، أفضل من أن يقع المرء في الخطأ ويندم ويبكّت نفسه عليه...



٢ / ٨ / ٢٠٠٦

التداريب الروحية

ليس الدين مجرد معلومات، أو مجرد امتلاء من المعرفة الدينية. فالمعرفة وحدها لا تكفي... ماذا يستفيد الإنسان إن كان يعرف كل المعلومات عن الفضيلة، دون أن يسلك فيها؟!

إننا نقرأ الكثير من الدروس الروحية، ونستمع إلى الكثير. ولكن المهم هو ماذا نفعل؟ وما هو تأثير كل هذه المعلومات على حياتنا العملية؟ هل اكتفينا بالمعرفة، أم اهتممنا أن نحوّل تلك المعرفة إلى حياة؟

****

وهذه هي فائدة التداريب الروحية: تحويل كل المعارف والاشتياقات الروحية إلى ممارسة وعمل وإلى حياة.

يدخل بها الإنسان في مواجهة عملية مع نفسه، فيعرف حقيقتها، ويدرس ضعفاته ونقائصه وأخطاءه، ويعرف ما هي أسباب أخطائه، وما هو طريق مقاومتها، وما هي العقبات، وكيف يمكن الانتصار عليها؟ وهكذا لا يقف عند حدود المعرفة الدينية، ولا يكتفي بمجرد الاشتياقات إلى الفضيلة، إنما يتدرّب عملياً عليها، لاكتساب فضائل جديدة، أو للنمو روحياً. وبالتدريب يبدأ في أن يجاهد مع نفسه، كما يطلب معونة من اللّه تسنده وتنميه..

****

إن الأبرار - في سموّهم الروحي - لم يصلوا إلى درجاتهم العالية دفعةً واحدة. بل تدربوا حتى وصلوا، بجهاد وتعب، وعلى مدى زمني...

فلا يجوز لنا أن نأخذ ما كُتب عن قممهم الروحية كأنه نقطة بدء لنا! ولا نبدأ نحن بما وصلوا إليه في نهاية جهادهم، بل نتدرج ... وإن كنا نشتاق إلى اقتفاء أثرهم، واقتناء فضائلهم، فلنتدرب على ذلك خطوة خطوة...

حسن أن يشتهي المرء الحياة الفاضلة. ولكن عليه أن يسير في هذا الطريق بحكمة. وحبذا لو كان ذلك تحت توجيه مرشد روحي قد اختبر ونجح...

والتداريب الروحية تدل على أن صاحبها سهران على خلاص نفسه... لا تلهيه مشاغل الدنيا عن التفكير في الأبدية ومداومة العمل لأجلها. فهو يحاول باستمرار أن يكتشف أخطاءه، أو الأخطاء التي يكشفها له غيره، ويعمل على تفاديها. لأنه بدون ذلك لا يمكنه أن يتدرّب على تركها...

فلا تتضايق إذن ممن يظهر لك عيباً فيك. بل استفد من هذا الكشف لكي تتخلص من هذا العيب. وأنت من ذاتك أفحص نفسك في ضوء وصايا اللّه، وأعرف ما ينقصك حتى تجاهد في اقتنائه...

****

واحذر من تبرير نفسك، ومن تغطية الأعذار بالأخطاء.

فإن عمى الخطأ، هو أن يرى الإنسان نفسه بلا خطأ، وأن يكون باراً في عيني نفسه!! والذي يبرر نفسه، يبقى دائماً حيث هو، ولا يُصلح من ذاته شيئاً... وكثير من الناس لهم طباع خاطئة ثابتة فيهم، لا يرجعون عنها على مدى الزمن. ذلك لأن نفوسهم – للأسف – جميلة جداً في أعينهم! وهم يرون أنهم دائماً بلا عيب ولا نقص. ويهاجمون كل من يُظهر لهم عيباً فيهم، ويعتبرونه عدواً أو مدعياً...

أما أنت فلا تكن كذلك، بل حاسب نفسك بدقة شديدة، ولا تعذر نفسك مطلقاً. فسوف يأتي وقت تقف فيه أمام اللّه بلا عذر...

****

وإن كنت تستحي من أن يكشف لك الغير خطأً فيك، فلا شك أنك لا تستحي بنفس القدر إذا ما اكتشفت أخطاءً في نفسك...

لهذا اجلس مع نفسك، وكن صريحاً مع ذاتك إلى أبعد الحدود. ولتكن مقاييسك الروحية عالية في مستواها. ولا تكتفِ بالمستوى العادي، بل حاول أن ترقى بالمقياس الروحي الذي تقيس به نفسك. واطرق نقط الضعف التي فيك، والتي تكشفها لك قراءتك عن سير الأبرار وفضائلهم، أو التي تدركها من سماعك بعض العظات التي تشعر إنها تمس حياتك..

وثق إنك لو درّبت نفسك على فضيلة واحدة كل أسبوع، أو حتى كل شهر، لأمكنك أن تقتني عدداً كبيراً من الفضائل كل عام، أو أن تثبت فيها بكثرة الممارسة. وأعلم أن الفضائل مرتبطة ببعضها البعض. فإن مارست إحداها، ستقودك إلى فضائل غيرها ما كنت قد وضعتها في تدريبك. ذلك لأنها جميعها في ارتباطها مثل حلقات في سلسلة واحدة...

****

وَثِق أنك إن بدأت في تداريبك الروحية، فإن نعمة اللَّه ستبدأ معك.

فإن اللَّه لن يتركك وحدك في تداريبك، لأنك قد أظهرت بها أنك جاد وملتزم بالسلوك في الحياة مع اللَّه. وبشعورك هذا سوف تتجاوب معك المعونة الإلهية. وإن كان الشيطان يحاول أن يحاربك بشتى الطرق أن تكسر التدريب أو تنساه، فإن النعمة سوف تسندك لكي تتذكره وتنجح فيه. والمهم هو أنك لا تتراجع ولا تتراخى. بل كن حازماً مع نفسك...

****

وإذا دربت نفسك على فضيلة ما، فأعرف أن الثبات فيها هو أهم بكثير من مجرد اقتنائها...

لأنه ما أسهل أن تستمر في إحدى الفضائل يومين أو ثلاثة أو أسبوعاً.. ثم تتخلى عنها. إنما المهم أن تستمر فيها، حتى تصبح هذه الفضيلة عادة فيك، أو تتحول إلى طبع. وهكذا يحتاج كل تدريب إلى مدى زمني حتى يرسخ في أعماق نفسك. لأن كل تدبير لا تثبت فيه زمناً، يكون بلا ثمر...

لأن الزمن والاستمرارية هما المحك العملي لمعرفة عمق الفضيلة فيك. والوقت أيضاً يعطي فرصة لمعرفة المعوقات التي تقف ضد التدريب، ولمعرفة طرق التغلب عليها.

لذلك فإن القفز من تدريب إلى آخر، لا يفيد روحياً.. وكثيرون يريدون أن يصلوا إلى كل شيء في أقل فترة من الوقت، فتكون النتيجة أنهم لا يصلون إلى شيء، بسبب عدم التركيز...

وليكن التدريب الذي تدرّب نفسك عليه واضحاً ومحدداً...

فلا تقل لنفسك: أريد أن أدرّب نفسي على حياة الوداعة والاتضاع. بينما تجد عبارة (الاتضاع) غير واضحة أمامك في معناها وتفاصيلها، وهكذا لا تفعل شيئاً! بل ادخل في التفاصيل مثلاً، وقل: "أريد في حياة الاتضاع أن أدرب نفسي على أمر واحد فقط وهو إنني لا أمدح نفسي". فإن أتقنت هذا الأمر زمنناً، تقول: "أُدرِّب نفسي على ألاّ أسعى وراء مديح الناس". فإن أتقنت هذا أيضاً، تقول: "أدرب نفسي على شيء آخر، وهو أنه إذا مدحني آخر، لا أشجعه على الاستمرار، أو أغيّر مجرى الحديث. أو على الأقل لا أُسرّ بالمديح، بل أتذكر بعض ما أعرفه عن نقائصي، لكي تتوازن مع ما سمعته من مديح"...

ولا تدرب نفسك على محبة الآخرين دون أن تعرف مثلاً تفاصيل هذه الفضيلة. وإن عرفتها، أسلك فيها واحدةً فواحدة...

****

وليكن تدريبك الروحي في حدود إمكانياتك، تستطيع تنفيذه عملياً...

ذلك لأن البعض قد يضع لنفسه تدريباً فوق مستوى إرادته، أو لا تساعده عليه ظروفه! أو في تدربه على فضيلة ما، يقفز إلى مستوى درجة عالية لا يمكنه الاستمرار فيها. وقد يصيبه ذلك بنكسة فيما بعد ترجعه إلى الوراء خطوات...

بل يمكن مثلاً أن يتدرج في التدريب. بحيث لا يأخذ في كل مرّة إلاّ جزءاً واحداً من تفاصيله، كما ذكرناً في حديثنا عن الاتضاع...

****

ولتكن تداريبك في صميم حياتك العملية الواقعية...

فإن ما يصلح لغيرك من التداريب، قد لا يصلح لك أنت... وكذلك لتكن تداريبك في حياة الفضيلة تناسب قامتك الروحية، وتتفق معك حياتك وظروفك من كل النواحي.

ولا تبالغ في تقييم مقدرتك، بل اسلك باتضاع وحكمة...

وإن فشلت في تدريبك في وقت ما. فاستفد من فشلك بأن تعرف أسبابه، وتحاول أن تتحاشاه فيما بعد. وليكن ذلك سبباً في اتضاعك، وأيضاً يدفعك إلى الإشفاق على الذين يفشلون...

٩ / ٩ / ٢٠٠٦

التأمُّلات
عمقها، وأنواعها

ما معنى التأمُّل؟ يتأمل إنسان شيئاً، يعني أنه يمعن النظر فيه، يدقق يفحص، يحلله، يرى ما أعماقه.

التأمل إذن هو الدخول إلى العمق، سواء في عمل الفكر أو عمل الروح..

هو الوصول إلى لون من المعرفة، فوق المعرفة العادية بكثير، هى معرفة قد تكون فوق الحس. هى معرفة جديدة عليك، مبهجة لروحك، تجد فيها غذاءً ومتعة روحية...

أو التأمل هو تفتُّح العقل والقلب والروح لاستقبال معرفة من فوق!

والتأمل يناسبه السكون والهدوء، والبعد عن الضوضاء التي تشغل الحواس، وبالتالي تشغل العقل وتبعده عن عمل الروح.. إذن فالتأمل يزداد عمقاً، كلما تحررت الحواس من الشغب الخارجي، وكلما تحرر العقل من سيطرة فكره الخاص لكي يستقبل ما تعطيه الروح. ويساعد على التأمل: الرغبة في الفهم، والسعي إلى العمق..

****

وللتأمل مجالات عديدة، نذكر من بينها.

التأمل في الخليقة والطبيعة، والتأمل بالأكثر في السماء والملائكة، وفي الموت والدينونة وما بعدهما. وأيضاً التأمل في الأحداث، وفي سيَر الأبرار، وفي الفضيلة عموماً، وفي وصايا اللّه...

وهناك نوع آخر أسمى وأعمق، هو التأمل في صفات اللّه الجميلة. ومنها التأمل في المطلق، في الحق، وفي الخير.

على أن موضوعات التأمل هى أكثر من أن نحصيها، بحيث يتأمل الإنسان الروحي في كل شيء، حتى الماديات، محاولاً أن يستخرج منها روحيات تفيده...

على أن الخطوة الأولى التي يقوم بها الذهن في التأمل، هى فتح الباب للروح...

وما المجهود الذي تقوم به أفكارنا وقلوبنا سوى طلب نرجو به من نعمة اللّه أن تفتح عقولنا لتستقبل ما يسكبه اللّه فيها...

ومن هنا تظهر أهمية ارتباط التأمل برفع القلب إلى اللّه، لكي يملأ عقولنا بالفهم الذي من عنده، وما أعمقه! وهكذا يصبح التأمل هبة من اللّه، تأخذ منه الـروح مـا يريـد أن يعطيه...

إن التفكير العقلي المحض لا ينتج تأملاً...

بل قد ينتج علماً أو فلسفة وما أشبه.. وهنا يبدو الفرق بين العالم والعابد، بين الدارس والمتأمل، بين الباحث والمستقبل من الروح!

إن التأمل ليس هو مجرد فكر، إنما هو خلط الفكر بالقلب، وترك العقل كمجـرد أداة من الروح. ثم تبتهل الروح لتأخذ من اللّه ما تعطيه للعقل... فلا تقف يا أخي في تأملاتك عند مستوى العقل... بل اطلب من اللّه الذي عنده كنوز المعرفة، ليعطيك الفهم العميق...

****

القراءة في الكتب الدينية والروحية، قد تكون مصدراً للتأمل.

القارئ السطحي يقرأ كثيراً ولا يتأمل. أما القارئ الروحي فالقليل من القراءة يكـون له نبع تأملات لا ينضب. إنه لا يركز على كثرة القراءة إنما على ما فيها مـن تـأملات. وقد تستوقفه عبارة واحدة، فيغوص في أعمقها، ويظل سابحاً في تلك الأعماق... ويفـتح اللّه قلبه، فيجد في تلك العبارة الواحدة كنزاً عظيماً، مهما اغترف منه لا ينتهي...

إن تركت القراءة في نفسك تأثيراً، فلا تقف عند حد هذا التأثير. بـل خـذها مجـالاً لتفكيرك وتأملك، منتظراً أن يمنحك اللّه من خلالها شيئاً...

****

معاملات اللّه مع الناس، هى أيضاً مجال واسع للتأمل

ليس فقط من جهة الأبرار، وسادتنا الرسل الأطهار الذين أحبهم اللّه وأحبوه، وكانت له معهم علاقة وطيدة، واستخدمهم في رسالات... وإنما أيضاً معاملة اللّه للخطاة الـذين انتفعوا من طول أناة اللّه وغنى رحمته، فتابوا وتغيرت حياتهم إلى العكس تماماً. وأيضـاً معاملته تعالى للذين عاندوا وتقسّت قلوبهم...

حقاً إن معاملات اللّه تصلح للتأمل. وما أكثر الكتب التي نشرت عنها..

اقرأ إذن كثيراً في الكتب الروحية، فالقراءة تشغلك بفكر روحي.

ويظل هذا الفكر يتعمّق فيك. والفكر يلد فكراً من نوعه، ويلد أيضاً الكثير من المشاعر والعواطف والتأملات، ويمنح قلبك نقاوةً وطهراً...

ومتى قرأت لا تقف عند حدود القراءة والتأمل في ما تقرأ، بل اخلط ذلك بحياتك العملية، واستخرج منه منهجاً تسير عليه، ويدخل في علاقتك باللّه والناس. كما أن التأمل في ما تقرأ، يفتح لك طاقات من نور، تشرق على ذهنك.. والتأمل يعوّدك العمق...

****

واعرف أن موهبة التأمل هي للكل: للأبرار كما هي للخطاة.

فالخطاة لهم قدرة عجيبة على التأمل، وإنما في مجال الخطيئة. فالذي يحب خطيئة معينة، ما أسهل أن يسرح فيها، ويتأملها بعمق، وتملك على فكره وقلبه ومشاعره، ويؤلف حولها قصصاً ولو في خياله.

والتأمل موهبة للأدباء والشعراء ومؤلفي الروايات والحكايات..

كذلك فإن الخطاة الذين لهم موهبة التأمل - إذا تابوا - يحولون موهبة تأملهم في مجال روحي، كما فعل القديس أوغسطينوس في كتابه (الاعترافات)، وفي كتابه (مدينة اللّه)، وفي مؤلفات أخرى...

****

التأمل في الطبيعة.

ليس مجرد التأمل في مجال الطبيعة، إنما بالأكثر فيما تحمل من روحيات.. كقول داود النبي في المزمور: "السموات تحدّث بمجد اللّه. والفلك يخبر بعمل يديه". وهكذا نتدرّج من الطبيعة إلى عظمة خالقها، كقول أحمد شوقي أمير الشعراء:

هذي الطبيعة قف بنا يا ساري   حتى أريك بديع صنع الباري.

لهذا كانوا يدرّسون الفلك في الكليات اللاهوتية. لأن النظام الدقيق العجيب الذي فيه، يثبت وجود خالق كلي القدرة استطاع أن يوجده...

إن التأمل في السماء والسماويات، لاشك يرفع عقل الإنسان وقلبه إلى فوق، ويسمو به كثيراً عن مستوى المادة والماديات...

ويرتبط التأمل بالسماء تأمل آخر في الملائكة وكل القوات السمائية...

وإن كان هذا التأمل أعمق منا، فلنتأمل في أرواح الأبرار الذين انتقلوا إلى السماء، وبخاصة منهم أولئك الذين يرسلهم اللَّه في خدمات على الأرض، ودرجات كل من هؤلاء..

ثم ماذا عن الأبدية، والمجد العتيد في ملكوت اللَّه؟ أليست كل هذه موضوعات للتأمل؟ وإن كان ذلك فوق مستوانا، فلنهبط إلى الأرض ونتأمل الخليقة المحيطة بنا، وقدرة اللَّه في صنعها:

الزهور من حيث جمالها، وتعدد ألوانها، وعطرها وتناسقها.

هذه التي لم يكن سليمان في كل مجده يلبس كواحدة منها. ولو تأملنا الفارق العظيم بين الزهور الطبيعية وغيرها من الزهور الصناعية التي مهما افتنّ الإنسان في صنعها تبقى بلا حياة، بلا رائحة بلا نمو. هنا عظمة الخالق سبحانه!

نفس الوضع إذا تأملنا في طيور السماء، في تعدد أنواعها وأشكالها، ونغمات أصواتها، وطباعها ورحلاتها وقناعتها، يزيد صورة اللَّه من عظمة اللَّه في خلقه...

****

صدقوني حتى حشرات بسيطة كالنملة أو النحلة يمكن أن تكون مجالاً للتأمل:

حقاً، إنني في حياتي كلها لم أرى نملة واحدة واقفة بلا عمل! إنها دائمة الحركة، دائمة العمل، لا تهدأ. كما أن جماعات النمل درس عجيب في التعاون والنظام، وفي حمل أشياء في عشرات حجمها، وهى تسير في طابور طويل متجهة نحو هدف ثابت، وباتصالات بعضها بالبعض!

النحلة أيضاً، التي قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي:

مملكة مدبَّرة بامرأة مؤمّرة

تحمل في العمال والصناع عبء السيطرةْ

أعجبْ لعمال يولون عليهم قيصرةْ

إن النظام المذهل الذي تعيشه مملكة النحل هو مجال لتأمل عميق... كيف خلق اللّه النحل بهذه الإمكانيات والقدرات؟! وكيف تستطيع أن تجمع الرحيق وتصنعه شهداً؟! وكيف تصنع خلاياها بهندسة متقنة عجيبة؟! وكيف تصنع غذاء الملكات؟! ما أعجبها! وما أعجب خالقها!

إن الإنسان الروحي يستطيع أن يتخذ كل شيء مجالاً للتأمل. ويمكن أن يستخرج من الماديات ما تحمله من دروس روحية.

إن جسم الإنسان - وهو مادة - إلاّ أنه مجال واسع للتأمل يكفي أن تتأمل كل عضو فيه، وعلم وظائف الأعضاء: المخ مثلاً وما فيه من مراكز عجيبة، للنظر والسمع والحركة والكلام. بحيث إذا لم يصل الدم إلى مركز منها، يبطل عمله ويصير صاحبه معوّقاً!...

كذلك القلب - وهو كقبضة اليد - ولكنه جهاز دقيق جداً، تتوقف عليه حياة الإنسان، كما المخ أيضاً، ويعوزنا الوقت إن تحدثنا عن كل أجهزة الجسم البشري، وكيف تعمل متناسقة في اتزان عجيب. وبعض هذه الأجهزة إذا تلف، لا يقدر كل التقدم العلمي على إرجاعه إلى وضعه الطبيعي... أليس هذا إعجازاً يدل على قدرة اللّه في خلقه؟! لذلك كانوا قديماً يدرّسون علم الطب، لأنه يعمّق الإيمان بقدرة الخالق...

وإن كانت قدرات الجسد هكذا، فكم بالأكثر قدرات الروح!!

****

التأمل في الأحداث...

ليس من صالحنا أن تمرّ علينا أحداث التاريخ مروراً عابراً، دون وقفات من التأمل في يد اللّه في التاريخ...

هل التاريخ مجرد علم وأحداث، أم فيه أيضاً عبر لمن يعتبر؟!

وفيه أيضاً عمل إلهي يحتاج إلى تأمل. إننا لا يمكن أن ننكر يد اللّه في التاريخ!!

هل نستطيع مثلاً أن ننكر يد اللّه في الأحداث التي غيّرت مصير روسيا والاتحاد السوفيتي وقضت على الحادٍ استمر أكثر من سبعين عاماً، وانتهى بسرعة عجيبة غير متوقعة، ممّا يدل على تدخّل يد اللّه فيه؟!

حقاً إن فصل التاريخ عن اللّه وتدخُّله، هو عمل غير روحي...

هناك أيضاً موضوعات أخرى للتأمل:

كالتأمل في الصلاة وكلماتها. لقد قيل عن الروحيين أنهم: "من حلاوة الكلمة في أفواههم، ما كانوا يستطيعون بسهولة أن ينتقلوا إلى كلمة أخرى من عبارات الصلاة". أما الذين يتلون عبارات الصلاة بسرعة وسطحية، فإنهم لا يستفيدون روحياً...

كذلك التأمل أيضاً في الموت والدينونة ونهاية العالم تهب المصلي مشاعر من وجوب السهر الروحي والاستعداد.

وأيضاً التأمل في إحدى الفضائل وعمقها وطرق التعبير عنها.. والتأمل في صفات اللَّه الجميلة، ويده القوية... والتأمل في سير الأبرار والشهداء... نرى في كل ذلك غذاءً شهياً للنفس.



١٦ / ٩ / ٢٠٠٦

الخوف
أنواعه وأسبابه وعلاجه

الخوف أنواع ودرجات:

منه خوف مقدس، وخوف طبيعي، وخوف مرضي:

+ أما الخوف المقدس فهو مخافة اللّه "رأس الحكمة مخافة اللّه". ومخافة اللّه تعني مهابته، وعبادته بكل خشوع وتوقير. وتعني أيضاً طاعته والعمل بوصاياه. والخوف من الوقوف أمامه في يوم الدينونة الرهيب الذي فيه يجازي الرب كل واحد بحسب أعماله. والإنسان الذي لا يخاف اللّه، هو إنسان خاطئ يمكنه أن يرتكب أية خطيئة دون خشية ولا خجل..!!

+ وسوف نتكلم عن باقي أنواع الخوف بالتفصيل...

+ أما درجات الخوف، فتشمل إلى جواره: الخشية، والجبن، والفزع، والهلع، والرعب. وقد يوجد إنسان يمكن أن يموت من الخوف، أو يمكن أن يفقد عقله، أو أن تنهار أعصابه، أو يرتعش جسمه خوفاً...

***

أما عن الخوف الطبيعي:

+ فقد قال أحد علماء النفس: إن الإنسان يخاف من أحد ثلاثة أسباب: الظلام والمجهول والحركة المفاجئة..

وفي الواقع إن هذه الثلاثة أسباب تتركز في سبب واحد هو المجهول. فالظلام يعني مجهولاً خلفه. والحركة المفاجئة لها سبب مجهول...

على أن هناك أشخاصاً لهم جسارة قلب، لا يخافون الظلام ولا الحركة المفاجئة. وتحاول عقولهم أن تجد حلاً للمجهول، ولا تخافه...

+ وقد يدخل الموت تحت عنوان الخوف الطبيعي أيضاً...

الخوف من الموت:

غالبية الناس يخافون خوفاً طبيعياً من الأذى، ومن الموت ومسبباته:

والخوف من الموت هو نوع من الخوف من المجهول أيضاً. فالموت هو شيء من المجهول، ولم يجرّبه الإنسان، ولا يعرف طبيعته وكنهه. فهو يجهل كيف يموت؟ وكيف تخرج روحه من جسده؟ كما أن ما وراء الموت هو شيء مجهول أيضاً!! وكل هذه الأسباب تخيف الكثيرين...

***

أمّا الذي يضمن - بالإيمان مصيره بعد الموت، فإنه لا يخافه مطلقاً بل يشتهيه، شاعراً أنه بالموت سيذهب إلى النعيم الأبدي...

إنما يخاف الموت: القلب غير التائب، أو المتعلّق بحب العالم وما فيه من الشهوات... نعم، يخاف الموت من لا يستعد له بالتوبة وبالعمل الصالح. وعكس هذا: لا يخافه من ليست له في هذه الدنيا شيء يخشى أن يفقدها. لذلك حسنا قال القديس أُغسطينوس: "جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي إني لا أخاف شيئاً، ولا أشتهي شيئاً".

***

وخوف الموت: إما يجعل الإنسان يستعد له أو يهرب منه!

إذ أن الشيطان قد يستغل خوف الإنسان من الموت، فيلقي بضحيته في اتجاه عكسي: فيجعله يهرب من الموت، ومن سيرته وأخباره! وينهمك في ملاذ الدنيا، فلا يسمع عن هذا الموضوع المتعب!

وللأسف نجد مرضى في حالة خطرة وعلى حافة الموت، يخدعهم أحباؤهم بأكاذيب وطمأنة زائفة! ويشغلونهم بأحاديث وسمر ولهو، لكي ينسوا سيرة الموت، حتى يدهمهم الموت فجأة دون أن يستعدوا له!!

وأحياناً يحصر خوف الموت ذهن المريض، فينشغل بالموت وليس بالاستعداد للأبدية!!

إن الذي يخاف الموت، يخاف أيضاً من أسبابه، كالأمراض مثلاً.

فهو يرتعب من الأمراض الخطيرة التي لا شفاء منها. وكذلك يخاف من المرض عموماً، ومن العدوى التي تسببها، ويحاول أن يتجنبها. وقد يحاول أن يتجنب الميكروبات بطريقة مبالغ فيها! وينطبق عليه المثل القائل: "الناس من خوف المرض في مرض!".

* * *

الخوف من الناس وأذيّتهم:

+ فيتخيل أن في الناس قوة يمكن أن تبطن به أو تتعبه أو تضيّع مستقبله، أو تشوّه سمعته فيعمل لهم ألف حساب!

وقد يستغل الشيطان هذا الخوف، فيلقيه في الرياء والنفاق والتملُّق يكسب محبة هؤلاء، أو يمنع أذيتهم عنه، وشعاره المثل القائل: "أرضهم مادمت في أرضهم، وحيّهم مادمت في حيهم".

وهكذا يجرفه التيار فيسيره الخوف، وليس الضمير!!

+ ومن هذا النوع مَن يخاف كل من هو أقوى منه، أو من يخاف رؤسائه في العمل وبطشهم.

+ ومنهم من له أخطاء جسيمة، وتجاوزات ضد القانون والأخلاق. ويخاف الذين يقدرون على كشفه ويسببّون له فضيحة!

+ أو يخاف أن يفقد من هو مصدر متعته وشهواته!

+ وهناك من يخافون حسد الناس، ويسيرون بالمثل القائل: "دار على شمعتك لئلا تنطفئ"...

+ أو من يخافون من ينشغلون بالسحر، أو ما يسمونه "العَمل!".

* * *

حقاً، ما أكثر الذين حطّمهم الشيطان بالخوف، وكان إيمانهم من الداخل، أضعف بكثير من المخاوف التي تأتي من الخارج!

إن الذي يخاف من الناس، يقوى هم عليه، إذ يدركون أنه غير قادر عليهم، فيقدرون هم عليه أو يستمرون في تخويفهم له! وفي خوفه منهم، يخضع لهم بالأكثر. وفي خضوعه لهم، يزداد إيذاؤهم له، وتدور الدائرة هكذا...

الخوف من الشيطان، ومن التجارب.

لا تخف من الشيطان، إذ لا قوة له على الإنسان المؤمن... ذلك أن نعمة اللَّه التي تسندك، هي أقوى من الشيطان إن أراد أن يحاربك... إذن لا تعطِ للشيطان قدراً فوق قدره، ولا تخف منه فوق ما ينبغي... وكل ما يلزمك في محاربات الشياطين، هو الحرص منهم وليس الخوف.

أما عن التجارب، فاعلم أن اللَّه لا يسمح بأن تجرّب فوق ما تطيق...

***

نوع آخر للخوف، هو الخوف بلا سبب!!

إنه خوف طفولي، وقد يكون لوناً من الخوف المرضي.

كالطفل الذي يخاف من لصوص في البيت أو عفاريت، حيث لا وجود للصوص أو عفاريت!

أمّا الخوف المرضي، فمثل الشخص الذي يتصور أن هناك من يعملون على إيذائه، بينما لا يؤذيه إلاّ مرضه النفسي!

ينبغي أن يكون عند الإنسان أن اللَّه يحميه ويرعاه. فلا داعٍ إذن لهذا الخوف الوهمي بلا سبب!

إن الإيمان بقوة اللَّه الحافظة، هو يحمي الإنسان من كل خوف.

٢٣ / ٩ / ٢٠٠٦

الشك وأنواعه

الشك هو حالة من عدم الإيمان، أو عدم التصديق. أو هو تأرجح للفكر بين حالتين: أيهما يصدق؟!

والشك هو جحيم للفكر وللقلب معاً.

قد يكون دخوله سهلاً. ولكن خروجه من الفكر صعب جداً، وربما يترك أثراً مخفياً لا يثبت أن يظهر بعد حين!

والشك يجعل الإنسان يفقد سلامه ويفقد طمأنينته...

وإذا استمر الشك ما أسهل أن يتحوّل إلى مرض وإلى عُقد لها نتائجها.

وهذا الشك قد يتلف الأعصاب، ويدعو إلى الحيرة وإلى كثرة التفكير، ويمنع النوم. وأحياناً يكون من نتائجه التردد والخجل، وعدم القدرة على البتّ في الأمور..

***

هناك أنواع الشك:

منها الشك في اللّه ووجوده، والشك في بعض أمور الدين والعقيدة. والشك في إخلاص الأصدقاء، وفي الناس عموماً. بل الشك في النفس أيضاً! والبعض قد يشك في الفضائل ولزومها، وفي إمكانية التوبة أو في قبولها. والشك في بعض طرق الحياة..

وسنحاول أن نتناول هذه النقاط واحدة فواحدة، ونبحث ما هو كنهها ومصادرها..؟

***

الشك في اللّه:

كأن يشك الإنسان في وجود اللّه. والشك في وجود اللّه يُسمى (الإلحاد).

وهو دخيل على الإنسان، لأن الطفل الطبيعي يُولَد مؤمناً. بدليل أننا عندما نعلّم الطفل الصلاة، لا يسأل من هو اللّه الذي نصلي إليه؟ ولا كيف نخاطبه ونحن لا نراه. بل يقبل كل ذلك في هدوء وتسليم...

على أن الشك في وجود اللّه قد يكون حرباً من الشيطان في سن معينة. أو يكون سببه قراءة كتب تحوي أفكار الملحدين أو معاشرة هؤلاء والتأثر بهم. أو يكون السبب هو المناقشة في أمور هى أعلى من مستوى الشخص وتفكيره، أو قراءة بحوث منحرفة في الفلسفة أو في بعض العلوم أو في تاريخ الكون ونشأته. أو قد يثير هذا الفكر أشخاص يريدون الشهرة عن طريق مبدأ (خالف تُعرف!).

***

وربما لا يكون الشك هو في وجود اللّه، إنما في مدى معونته للبشر!!

قال بهذا أولئك الذي نادوا بأن اللّه هو في برج عالي بعيداً عن البشر لا يهمه ضيقاتهم واحتياجاتهم! فكيف يترك البعض يعيشون في فقر مدقع، بينما هناك أغنياء من أصحاب الملايين والقصور؟! وطبعاً هذا الفارق الاجتماعي والاقتصادي ليس سببه اللّه، إنما له أسباب أخرى، والرب يساعد الفقراء بطرق كثيرة.

وربما البعض يقع في مثل هذا الشك بصورة أقل، بسبب شعوره أن اللّه لم يستجب صلاته وهو في حالة ضيقة وتعب! فيشك في مدى معونة اللّه للبشر، ويشك في جدوى الصلاة..

***

على أن الشك في اللّه، قد يكون مجرد غطاء للاستمرار في الخطية!!

وقع في ذلك الوجوديون الذين يرون وصايا اللّه عن البر وحياة العفة والنقاوة، إنما تعوق حريتهم في ممارسة خطاياهم! وكأن شعور الواحد منهم هو: "من الخير أن اللّه لا يوجد، لكي أوجد أنا"!! أي لكي يوجد حراً في ممارساته بعيداً عن وصايا اللّه!!

***

أما شك الإنسان في عقيدته، فيأتي نتيجة قراءات أو سماعات ضدها..

وعليه أن يأخذ كل ذلك بعقل وتدقيق. ولا يصدق كل ما يقرأ أو يسمع. بل يسأل الحكماء والعارفين، حتى يعطوه جواباً عن كل ما دخل ذهنه من الشك...

شك الشخص في بعض أصدقائه أو أهل بيته:

+ يأتي ذلك بسبب قلة المحبة أو قلة الثقة. فإن الإنسان إذا أحب شخصاً محبة حقيقية، فإنه يثق به، وبالتالي لا يشك...

ولكن قد يقول شخص: "أنا أحب فلاناً من كل قلبي، ولكني لست أضمن محبته هو!". وهنا قد يشك في مدى إخلاصه، وبخاصة إذا وُجدت هناك أسباب تدعو إلى ذلك...

وعلاج ذلك هو العتاب، بجو من الصراحة، وفي محبة ولياقة... وكذلك عدم التأثر بالسماعات والوشايات، وعدم تصديق كل ما يقال. فلا يجوز أن يحكم على أحد حكماً سريعاً بدون الاستماع إليه...

+ أما شكّ الشخص في زوجته، أو شكّ الزوجة في رجلها: فعلاجه ثقة متبادلة بين الزوجين مبنية على علاقتهما الشخصية التي عمادها الحب العميق مع عدم إساءة الظن في أية حركة بريئة ليست وراءها نية سيئة..

هناك شك آخر في الناس كلهم سببه خطأ فردي وتطبيقه على الجميع!

مثل سقطة فرد في أسرة توجب الشك في كل الأسرة بينما يكون بعض أفرادها صالحين جداً، بل يتمادى الشكّ حتى يشمل شعباً بأكمله بسبب أخطاء أفراد منه!

***

الشكّ في بعض الفضائل:

كأن يقول البعض ما فائدة الصوم؟ وهل الفضيلة الجسدية لها قيمة في ذاتها؟! أو أن يشك البعض في لزوم الصلاة! ويقولون ما فائدة الصلاة، مادام اللّه يهتم بنا دون أن نصلي؟!

أو قد يشك البعض في المبادئ والقيم، وفي ما هو الحلال؟ وما هو الحرام؟ أو يشك في بعض المخترعات الحديثة كالموسيقى والراديو والتليفزيون والسينما: وهل هي حرام أم حلال؟ أو في مسائل طبية مثل تحديد النسل!

***

الشك في النفس:

قد يشك الإنسان في ثقته بالنفس، وفي مدى قدراته وإمكانياته! واحتمال نشك! كَشَك طالب في قدرته على النجاح، وفي كفاية الوقت له! أو يشك شخص في تصرفاته: وهل هي سليمة أمْ خاطئة؟ وعن علاقته بالناس: وهل هو محبوب أم مكروه؟ أم لا يشعرون بوجوده؟!

الطفل قد يحدث له هذا. من أجل ذلك يحتاج إلى المديح والتشجيع لكي يكتسب ثقة بنفسه. أما التربية القاسية وكثرة اللوم والتوبيخ، فقد تسبب له عقدة الشك في النفس. حتى الكبار أيضاً يحتاجون إلى التشجيع وإلى كلمة طيبة، وإلى رفع روحهم المعنوية، وبخاصة لو كانوا في مرض أو في ضيقة أو في مشكلة، حتى لا يدركهم اليأس، وحتى لا يقول الواحد منهم: قد ضِعت!

والإنسان قد يشك في الطريق الذي يختاره في حياته، وما يناسبه وما يصلح له؟! وبخاصة في المراحل المصيرية في حياته، التي يدركه فيها التردد، ويكون الطريق غير واضح أمامه!

***

أنواع الشك كثيرة. ولكني اكتفى بهذا الآن. وإلى اللقاء في مقال آخر، أحدثك فيه عن أسباب الشك...



٣٠ / ٩ / ٢٠٠٦

أسباب الشك وعلاجه

كلمتكم في مقالنا السابق عن الشك وأنواعه. وأود اليوم أن أحدثكم عن أسباب الشك، وبقدر الإمكان عن علاجه أيضاً...

إن أسباب الشك قد تكون داخلية، نابعة من الإنسان نفسه.. وقد يكون للشك أسباب خارجية. وسنحاول أن نتأمل تفاصيل كل هذا، لكيما ندرك المناسب له:

١- قد يكون سبب الشك هو طبيعة الشخص نفسه:

كأن يكون بطبيعته شكاكاً، يمكن أن يشك في أي شيء، أو يكون موسوساً يسهل عليه أن يقع في الشك. ومثل هذا الشخص علاجه صعب جداً، إذ أنه قد يشك في أي علاج يُقدم له، فلا يقبله!!

وقد يكون ضيق التفكير، ليس أمامه سوى الشك. ولو كان واسع الأفق لزال شكه...

***

٢- ومن أمثلة ضيق الأفق: الانحصار في سبب واحد:

+ فمثلاً شخص أقام حفلة بمناسبة عيد ميلاده، ودعا لحضورها جميع أصدقائه. غير أن واحداً منهم تغيب، وربما تكون هناك أسباب كثيرة عاقته عن الحضور على الرغم منه. ولكن إذا حصر الداعي تغيب صديقه في سبب واحد - حسب تخيله - وهو إهمال هذا الصديق ونقص محبته، حينئذ يدخله الشك في إخلاصه.

+ كذلك إذا تأخر زوج عن موعد عودته إلى منزله في ذات مساء: فإن حصرت زوجته سبب تأخره في افتراض واحد، فحينئذ سيدخلها الشك من جهته!

+ أو أم تأخرت ابنتها في الرجوع إلى بيتها: فإن انحصرت في تعليل واحد سيء ومخيف، كأن يكون قد حدث لها حادث أصابها بمكروه، أو إن أحداً خطفها، أو ما شابه ذلك من الأضرار، فلابد ستعصف بها الشكوك وتعيش في قلق وخوف حتى تعود ابنتها، أو قد تشك في إنها سوف تعود!!

+ لذلك فليكن ذهن الإنسان متسعاً، وليفترض أسباباً عديدة، حتى يريح نفسه، كما يريح الآخرين من شكوكه. لأن العجيب في أن الذين ينحصرون في سبب واحد، إنما يتحيرون أسوأ الأسباب التي تقلقهم وتشل تفكيرهم...!

* * *

٣- من أسباب الشك أيضاً تعميم الخطأ:

+ كإنسانة تعيش في بيت مملوء بالنزاع والشجار، ولها أبٍ قاسٍ يسيء معاملة أمها. فتخاف من الزواج وتتخيل أن كل زوج سيكون في نفس طباع أبيها، وأنه سوف يسيء معاملتها كما كان يفعل أبوها مع أمها!! والخطأ هنا في تعميم القاعدة، بينما ليس كل الأزواج كذلك! وليت هذه الابنة تضع أمامها أمثلة أخرى لأسرات سعيدة ...

+ مثال آخر مشابه، وهو لأسرة أخطأت إحدى بناتها وانحرفت... وللأسف نرى كثيرين يتخوفون من التزوج بإحدى أخواتها الكثيرات، يشكّون في أن تكون مثل أختها التي انحرفت! كأن عنصر الانحراف قد سرى في الأسرة كلها!!

+ أو كإنسان خانه أحد أصدقائه. فيشكّ في جميع الأصدقاء وإخلاصهم! وربما تكون النتيجة أنه ينطوي على نفسه! ويخشى أن يقول كلمة سرّ لأحد مهما كان قريباً على قلبه، ويظن أنه سوف يخونه هو أيضاً!

+ وبنفس تعميم الخطأ، يقول أحدهم: كل شعب البلاد الفلانية بخلاء! أو احترس أن تتزوج واحدة من الشعب الفلاني لأن كل فتياتهم مستهترات! ويكون كل ذلك بسبب حالات فردية لا تشمل الكلّ...

* * *

٤- سبب آخر للشك هو البساطة، أو العمق أحياناً...

+ الإنسان البسيط يصدق كل شيء، فلا يقع في الشك.

ولكن ربما بسبب بساطته، يحكى له أحدهم أخباراً متتابعة عن صديق له يتكلم عنه دائماً بالسوء، فيصدق تلك الأخبار ويشك في إخلاص صديقه!

أو بسبب بساطته، يخدعه البعض من جهة أمور تتعلق بالعقيدة والإيمان، فيوقعه في شكوك..!

+ ومن الناحية الأخرى نرى المتعمق في تفكيره يصل إلى الشيء وعكسه!! فالعمق في التفكير يقوده إلى العمق في الإيمان فيكتشف زيف الشكوك ويرفضها ولا يقبلها. كما أن التعمق في التفكير قد يقود إلى لون من العقلانية البحتة البعيدة عن الإيمان ويحاول أن يفحص أموراً أعلى من تفكيره خاصة باللّه أو العقيدة. فيقع في شكوك..!

***

٥- وقد يأتي الشك من معاشرة الشكاكين أو من الشائعات:

كم أنه بمعاشرة أهل الإيمان يتعمق الإنسان في إيمانه، كذلك بمعاشرة الشكاكين تنتقل إليهم عدوى شكوكهم. فالبعد عن هؤلاء أفضل. وعلى الأقل عدم تصديقهم...

كذلك ينتقل الشك عن طريق الشائعات التي كثيراً ما تكون خاطئة. ولكنها مع ذلك تنتشر وتزداد! فخير لك أنك لا تسمعها. وإن سمعتها لا تصدقها...

+ ومن مصادر الشك أيضاً قراءة الكتب التي تحوي شكوكاً. فأبعد عن هذه الكتب، وتخيّر الكتب التي تبني إيمانك، وليست التي تهدمه...

***

٦- من أسباب الشك أيضاً، حروب الشيطان...

فهذا هو أسلوب الشيطان باستمرار: أن يغرس أفكار الشك في أذهان الناس في كل شيء: في اللّه ووجوده، وفي استجابة اللّه للصلاة، وفي الإيمان عموماً... وفي العلاقات مع الآخرين.. وذلك لكي يبلبل بها أفكار الناس... فلا تستجب إطلاقاً لأفكاره.

٧- الشك بسبب الوهم:

بعض الناس يحاربهم الشك بسبب أوهام لا تتعب غيرهم في شيء. مثال ذلك من يشك في سلامة يومه إذا بدأه بسماع صوت بومة أو صوت غراب أو ما أشبه...

وهناك من يحاربه الشك بسبب رقم (١٣) ويشعر أنه لابد من شرّ وراءه. فيدخله الشك في كل يوم يكون تاريخه (١٣) أو مضاعفاته! كذلك إن كان رقم بيته (١٣) أو تليفونه يبدأ بهذا الرقم.. إلخ.

وكلها أوهام لا تبنى على أية قاعدة أو عقيدة أو منطق...

***

٨- الشك بسبب العَمَل أو السحر:

البعض إذا كان في ضيقة لا يعرف لها سبباً، كفتاة كلما يأتيها عريس ينصرف ولا يعود، تشك أن البعض قد عمل لها عملاً (أو سحراً). وهكذا قد تلجأ إلى المشعوذين بحجة فك العمل، فتقع في أيديهم واستغلالهم!!

وما (العَمَل) إلاّ شيء آخر من الوهم لا وجود له...



٧ / ١٠ / ٢٠٠٦

الكآبة
المؤقتة والمرضية

الكآبة المؤقتة.

هى إما كآبة روحية أو كآبة طبيعية أو كآبة خاطئة. وكلها لها وقت محدد، قد يطول أحياناً وقد يقصر، ثم تزول وتنتهي. وهى غير الكآبة المرضية التي يتدخل فيها الطب، ويصف لها أدوية وعقاقير. وسنتكلم الآن عن الكآبة المؤقتة التي منها:

كآبة روحية.

وهى مثل كآبة الشخص بسبب خطاياه، مع ندمه وربما يصحبها بصوم. ويصلي طالباً المغفرة. وتنتهي بالتوبة، وتزول حالما يتأكد من مغفرة خطاياه... ومن هذا النوع أيضاً كآبة الراعي بسبب خطايا رعيته، وكآبة أب على خطية ابنته، وطلبه إلى الرب أن يغفر لها ويُصلح لها أمورها.

أما الكآبة الطبيعية: فهى مثل كآبة شخص على وفاة أحد أفراد أسرته أو على وفاة إنسان عزيز عليه. وهى قد تستمر وقتاً حسب قرب هذا المتوفي إلى قلبه.

أمّا الكآبة الخاطئة:

فلها أسباب عديدة. وهى أيضاً مؤقتة...

***

من ضمن أسباب الكآبة الخاطئة:

١- كآبة إنسان في قلبه شهوة خاطئة لم يستطع أن يحققها.

ولا شك أن ذلك كان في صالحه. ولكنه مع ذلك كان يريد تحقيق ما في قلبه من شهوة مهما كانت خاطئة...

٢- هناك كآبة أخرى سببها الحسد والغيرة.

ومثالها كآبة أي إنسان يشعر أن غيره قد حصل على شيء بينما هو أحق منه به. حتى لو كان هو ليس مستحقاً لشيء، ولكن الغيرة تنهش قلبه وتتعبه.

* * *

٣- وهناك كآبة سببها الفشل:

بينما الفشل لا يصلح علاجه بالكآبة، وإنما بمعرفة أسبابه، ومعالجة تلك الأسباب بطريقة ايجابية. أما مجرد الكآبة، فإنها تضيف إلى الفشل مشكلة أخرى - وهى الكآبة - تحتاج إلى حلّ.

وتزداد الخطورة في مثل هذه الكآبة إن كان سببها الفشل في ارتكاب خطية!

* * *

٤- وقد توجد كآبة سببها اليأس:

مثل ابن مسافر كان يريد أخذ بركة أبية المريض. ولكنه عاد من السفر، فوجد أباه قد مات قبل وصوله. فاكتأب في يأس...

* * *

٥- وهناك كآبة سببها الضيقات:

كأن ينحصر بالضيقات، ويبقى فيها حزيناً بلا رجاء. والكآبة التي بلا رجاء هى كآبة خاطئة بلا شك، حتى لو كانت بسبب طبيعي كالبكاء على ميت، أو بسبب روحي كالكآبة بسبب خطية. وكذلك الكآبة بلا رجاء بسبب المشاكل والضيقات.

ونصيحتي لك: لا تجمّع مشاكلك وتكوّمها أمامك، وتقف حزيناً، بلا حل، بلا رجاء، بلا اتكال على اللّه! فهذا كله غير نافع لك، ولا يُوجد لك حلاً. بل إن تجمّعت حولك المشاكل، فرّقها، وضَع اللّه بينها وبينك، حينئذ يظهر اللّه بمعونته، وتختفي المشاكل التي هى سبب كآبتك. وثق أن اللّه عنده حلول كثيرة، وعنده مفاتيح لكل باب مغلق...

* * *

٦- هناك كآبة أخرى سببها الحساسية الزائدة!

إذ قد يوجد شخص حساس جداً نحو كرامته، أو حساس جداً نحو حقوقه. يتضايق جداً لأي سبب، أو لأقل سبب أو بلا سبب! يريد معاملة خاصة، في منتهى الرقة،

في منتهى الدقة، في منتهى الحرص! فإن لم يجدها، ونادراً طبعاً ما يجدها، فحينئذٍ يكتئب!
علاجه أن يترك حساسيته الزائدة هذه ولكن كيف يتركها؟! هذه مشكلة...

***

٧- **وقد يأتي الاكتئاب أيضاً للذين لا يعيشون في الواقع، بل يرفضونه! ولا يقبلون غيره سوى بديل خيالي لا يتحقق!!** فهم ثائرون على وضعهم. ولكنهم لا يحاولون تغييره بطريقة عملية توصلهم إلى ما يريدون! إنما يكتفون بالثورة، ويبقون حيث هم، في كآبة وفي سخط على كل شيء! وإن أتتهم لحظات سعادة، تكون ببعض أحلام اليقظة التي يعيشون فيها في خيال يتمنونه. ثم يستيقظون من خيالاتهم وأحلامهم، ليجدوا واقعهم كما هو، فيزدادوا سخطاً عليه، وتزداد كآبتهم.
ونصيحتي لهؤلاء أن يكونوا واقعيين. فإما أن يعيشوا في قناعة تسعدهم، راضين بما عندهم، بل شاكرين أيضاً. وإما أن يعملوا على تغيير الواقع بطريقة عملية. ولا يكتفون بالكآبة...

***

٨- **قد يأتي الاكتئاب بسبب ضيق الصدر وعدم الاحتمال.**
فالإنسان الواسع الصدر والقلب يمكنه أن يمرر أشياء كثيرة، تذوب في قلبه الواسع ولا يضيق بها. أما الذين لا يحتملون، فإنهم يصلون إلى الكآبة..
وسعة الفكر يمكنها أن تعالج الكآبة. وبدلاً من الكآبة يفكر في حلّ. والإنسان الذكي إذا أحاطت به مشكلة أو ضيقة، بدلاً من الاكتئاب وإرهاق أعصابه بالمشكلة ومتاعبها، يشغل ذهنه بمحاولة إيجاد حلّ للخروج من المشكلة. فإن وجد الحل يبتهج، وتزول حدة المشكلة. وإن لم يجد الحل، يصبر. والذي لا يستطيع أن يصبر، لا شك أنه ضيق الصدر. وهذا تزداد كآبته، ويكون سببها قلة الحيلة...

***

٩- **وقد تحدث الكآبة بسبب حرب خارجية من عدو الخير، دون ما سبب ظاهر...**
يغرس في النفس أسباباً للضيق ولو يخترعها اختراعاً، أو يكبّر ويضخم في أسباب تافهة لا تدعو إلى الكآبة، أو يحاول أن يلهو بالإنسان كلما يسعد بوضع فيغريه

بأوضاع أخرى كأنها أفضل مما هو فيه. فإن وصل إليها، يغريه بغيرها، أو بالرجوع إلى وضعه الأول!!

ويوجده في جو من التردد وعدم الثبات يكون سبباً في الكآبة...

مثال ذلك ناسك يعيش في حياة الوحدة (التفرد). فيغريه بالخدمة والاشتراك في حل مشاكل الناس وبناء الملكوت. وإن نزل ليخدم يغريه بالعودة جمال الحياة متوحداً، في التأمل والسكون والصلاة الدائمة، ومتعة الوجود في حضرة اللّه. وهكذا يجعله متردداً لا يثبت على حالٍ، فيكتئب!

***

١٠- الشك أيضاً سبب من أسباب الكآبة:

وإذا استمر فإنه يحطم النفس، ويجعلها في حالة قلق. سواء كان شكاً في إخلاص صديق، أو في أمانة زوجة وعفتها، أو كان شكاً في الإيمان أو في حفظ اللّه ومعونته.أو قد يكون الشك في تدابير يدبرها البعض ضد سلامة الإنسان وهو لا يدري! إن أفكار الشك تخرج من العقل، لكي تُوجد عذاباً للنفس. مثل حالة زوج يشك في عفة زوجته، فيغلق عليها الأبواب والنوافذ، ويتجسس عليها. ويسمح لنفسه أن يفتش خطاباتها وأدراجها، ويحقق معها في كل ما يظنه سبباً للشك. ويجعل حياتها عذاباً، وقد تكون بريئة كل البراءة...

حياتها تصبح في جحيم، وحياته أيضاً تصبح في جحيم. وكله بسبب الشك..

***

بقى أن أحدثك عن الكآبة المرضية وأسبابها وعلاجها، وعن علاج الكآبة بصفة عامة... فإلى اللقاء في العدد المقبل، إن شاء الرب وعشنا.

١٤ / ١٠ / ٢٠٠٦

الكآبة التي هى مرض

كل منا ممكن أن يقع في الكآبة لفترة محدده ثم تزول. أما الكآبة المرضية فهى التي تستمر وتطول، ويبدو أنه ليس حدّ لنهايتها..!

فيها تضغط الأفكار على الإنسان حتى تحطّم كل معنوياته، وتزُيل منه كل بشاشة. فكر الكآبة يلصق بالمريض ولا يفارقه! يكون معه في جلوسه وفي مشيه، في نومه وفي صحوه.. بأفكار سوداء كلها حزن وخوف وقلق، وصور كئيبة أمامه بلا حل ولا رجاء! كآبة تضيّع حياته وروحياته، ونفسيته وعقله، باقتناع داخلي أنه قد ضاع!

***

أسباب الكآبة:

+ كإنسان مثلاً يظن أن خطاياه لن تُغفَر.

ربما يكون الشيطان هو الذي ألقى في نفسه هذا الفكر، حتى يوقعه في الكآبة ثم اليأس، على اعتبار أنه قد فقد أبديته ولا خلاص له!

+ أو قد يكون سبب كآبته هو عقدة الذنب.

كأن يموت له أب أو ابن، فيشعر أنه السبب في موته. ويظل هذا الفكر يتعبه، ويجلب له حزناً لا ينقطع. ويظل يقول: ربما أكون قد قصرت في حقه، ولولا تقصيري ما مات! ربما لو أحضرت له طبيباً أكثر شهرة وخبرة، ما مات. ربما لو كان قد سافر إلى الخارج للعلاج... وهكذا تطوف به الأفكار..!

+ وربما يكون سبب الكآبة هو مرض الشخص بمرض يظن أنه بلا شفاء!

أو يتوقع له نتائج خطيرة يصورها له الوهم أو الفكر الأسود..

+ وما أكثر الأسباب التي تؤدي إلى الكآبة المرضية، والتي تصيب المريض بحزن لا يتخلّص منه، ولا يعطي لنفسه فرصة للشفاء منه!

***

أما عن أعراض الكآبة المرضية:

فالمريض بالكآبة يكون ساهماً باستمرار، كئيب الوجه والملامح، كثير البكاء، كثير الشكوى، يائساً تطمنه الأفكار السوداء، بلا رجاء!

يظن أنه قد ضيّع أبديته، أو ضيع نفسه ومستقبله أو ضاعت صحته، أو أنه تسبب في ضياع غيره، وأن ما ينتظره هو أسوأ مما هو كائن!

وقد تحاول تصحّح له أفكاره، فلا يقبل. فينظر إليك في يأس ويبكي فهذا الذي تقوله قد سبق أن سمعه أو فكّر فيه. وظهر له إنه حل بلا جدوى!

أو قد يرفض الحديث جملةً، إذ لا فائدة منه، ويشعر أن من يكلمونه لا يحسون به!

+ وهناك نوع عكسي، يريد أن يحكي عن متاعبه، لكي يجد حلاً.

ومشكلة هذا الشخص إنه أبا لا يجد حلاً، فتزداد كآبته. أو يجد الشخص الذي يستريح إليه، فيظل يتردد عليه كثيراً. وفي كل مرة يقضي ساعات في الكلام، حتى يهرب منه هذا الشخص المريح! فيتعبه هذا الهروب ويرى أنه يفقد القلب الذي أراحه. وفقدانه يزيد كآبته.

ومن جهة العلاج، هناك نوعان من المصابين بالكآبة:

+ نوع يرفض العزاء ويرفض التفاهم.

+ ونوع يتشبث بالفكر. وكلما يخرجونه، يعود إليه. وكلما يشفى، يعود مرة أخرى إلى مرضه كما كان، وربما أزيد!

+ وربما تخطر عليه فكرة الانتحار لكي يتخلّص به من آلامه ومن حزنه. فإما أن ينفذ الفكرة، أو يجدها هي أيضاً بلا فائدة، إن كان يؤمن بالأبدية. أو لأنه يفضّل الكآبة على الموت. أو لأنه يحاول أن يحل مشاكله عن طريق الخيال والفكر وأحلام اليقظة...

وعموماً يكون للكآبة تأثيرها السيء على صحته. من جهة إنهاك الفكر له، فالكآبة تنهك الأعصاب. وأيضاً من جهة التعب النفسي وتأثيره على الجسد. وأيضاً فكرة واحدة محيطة به، لا يعرف كيف يخرج من حصارها له..

إنه مرض يتعبه، ويتعب كل الذين حوله، ويتعب طبيبه معه. وأيضاً يتعب مرشده الروحي، ويحتار كيف يتصرف معه..

إذن ما هو العلاج؟

ينبغي أن يعرف أولاً أن الكآبة ليست حلاً لمشاكله.

لقد حدثت له مشكلة حزن بسببها. وكل الناس تحدث لهم مشاكل. فإما أن يجدوا حلاً، أو يتركونها إلى الله حلاّل المشاكل كلها..

أما هذا الشخص فقد اكتأب بسبب كلها، وطال الزمن في اكتئابه حتى تحولّت الكآبة بمرضاً، وأصبحت كآبته مشكلة أضخم من المشكلة الأولى التي كانت سبباً في كآبته. ثم ما الذي استفاده من الكآبة على طول مدتها؟! ليس هو سوى الكآبة، بل عرضت على الناس نقصاً فيه ما كانوا يعرفونه من قبل..

ويجب أن يكون أقوى من المشكلة، وأقوى من الكآبة. ويحاول أن يتخلّص من هذا الجو الذي يعيش فيه.

***

ثم أن هناك علاجاً آخر للكآبة هو المشغولية:

فليشغل نفسه باستمرار، ليهرب من هذا الفكر الكئيب الذي يحاربه. لأن مداومة الفكر في المشكلة ترهق أعصابه ونفسيته.

فليشغل نفسه باستمرار بأي شيئاً يبعد عنه الفكر. والعمل يقدم له فكراً جديداً ينشغل به. ويشعره أنه قادر على أنتاج شيء، وقادر على تحمل المسؤولية.

ولتعرض عليه مشغوليات أو أنشطة معينة يختار منها ما يشاء..

غير أن البعض قد يرفضون العمل أو يهربون منه، لكي يخلو ذهنهم مع الأفكار التي هى من أعراض أمراضهم.

أما إن قبل المريض العمل والمشغولية، تكون هذه علامة صحية تبشر بقرب الشفاء من مرضه.

***

الموسيقى للعلاج:

لا شك أن هناك أنواعاً من الموسيقى لها تأثير قوي على النفس ويمكنها أن تريح وتهدئ، وتبعد الإنسان عن جو الحزن والكآبة، وتنقله إلى أجواء أخرى. ويمكن اختيار قطع الموسيقى التي لا تضر روحياً، وفي نفس الوقت يكون لها العمق والتأثير، والقدرة على نقل المشاعر المتألمة وفتح أبواب الرجاء لها.

ولا أظن أن الإنسان المكتئب يرفض الموسيقى. وليس المقصود بالموسيقى أن تكون مصحوبة بالغناء. فهناك موسيقى عميقة لا يصاحبها غناء.

إن الموسيقى هي علاج للنفس من الداخل. علاج للمشاعرِ والأحاسيس وقد تكون أكثر تأثيراً من العظات في بعض الأحيان.

***

العلاج الكيماوي عن طريق العقاقير:

العلاج بالعقاقير قد يكون مقبولاً إذا كان المريض في حالة معينة، أو في حالة نفسية لا تقبل التفاهم والحوار. فيعطونه العقاقير للتهدئة. وربما تهدئ أعصابه، وتصبح في حالة تسمح بالعلاج النفسي.

والعقاقير تُعطى حينما يكون المريض غير محتمل للألم، والأفكار تضغط عليه بطريقة تمنع عنه النوم. فتُعطى العقاقير كمسكنات، ولكي يقدر على النوم.

نقول هذا مع معرفتنا بأضرار كثيرة من العقاقير. ولكن في الحالات الصعبة، ربما لا يجد الطبيب علاجاً غيرها في ذلك الوقت.

والمريض قد يأخذ العقاقير من مهدئات ومسكنات ومنومات، فيستريح من الفكر الذي يتعبه، وينام ويصحو، وإذا الفكر الذي يتعبه مازال موجوداً. فيحتاج إلى دفعة أخرى من العقاقير، وتتكرر العملية!

وقد لا يأتي العقار بنتيجة فتزاد الكمية المعطاة منه، أو يعطونه عقاراً آخر أشد تأثيراً، أو يُستبدل العقار بمنوم...

إن العقاقير ربما تكون لعلاج نتائج المرض، وليس لعلاقة الأسباب. وإن أعطوه آخر يجعله ينسى، سيؤثر هذا على قوة الذاكرة والمخ...

إن أسباب الكآبة قد يصلح لها العلاج النفسي بأسلوب أعمق. والمشكلة أن العلاج النفسي يحتاج إلى وقت.. وسأم الطبيب من الإطالة وكثرة الكلام من المريض وتكرار كلامه قد يجعل النفسي يتوقف.

وبعد ذلك قد يحتاج المريض إلى نوع من العلاج الروحي، وليس هذا هو مجاله الآن لأن المقال قد أوشك على الانتهاء...

٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٦

العنف والإيذاء

إننا نرفض العنف في كل صوره، لأنه سلوك غير روحي، كما أنه يشمل الكثير من الأخطاء، مما سنذكره الآن:

* إنه خطيئة مركّبة ومنفرة. لذلك فهو مكروه من الكل، ولا يقبله سوى مقترفيه. والذي يتصف بالعنف، لا يستطيع أن يربح أحداً من الناس. وسنحاول أن نحلل العنف، لنرى ما بداخله من الخطايا...
* العنف دليل على قسوة القلب. فالذي يؤذي أو يقتل بعضاً من الناس، هو بالضرورة إنسان قاس. أما القلب الرقيق فلا يمكن أن يكون عنيفاً. بل تكون تصرفاته رقيقة، وألفاظه أيضاً رقيقة ومنتقاة، لا يسمح لنفسه أن يخدش شعور أحد. وبالتالي يبعد عن الإيذاء، الذي لا يناسب طبعه.
* وبالتالي فإن العنف ضد فضيلة الوداعة وفضيلة الهدوء

***

* والعنف أيضاً ضد فضيلة المحبة. لأن الإنسان الروحي يعالج كل المشاكل بالحب وليس بالعنف. أما الإنسان العنيف، فلا شك أن في قلبه كراهية دفعته إلى العنف والإيذاء، وبها يخسر الكل...
* والعنف أيضاً خطيئة عدوانية. وإن كانت الحياة الروحية السليمة تبعدنا عن الغضب والنرفزة، فكم بالأكثر إذا تطور الأمر إلى العدوان!
* وإذا حاول العنيف تبرير عنفه، تكون موازينة الروحية قد اختلّت!

***

العنف دليل الضعيف:

إذا لم يستطع قلب الإنسان أن يتسع بالحب، وإذا لم يتمكن عقله من حل الأمور بحكمة وهدوء، وإذا لم يقدر أن يضبط أعصابه في اتزان، حينئذ يلجأ إلى العنف!

ويكون عنفه دليلاً على قلة الحيلة والعجز عن التصرف السليم.

حقاً إن غالبية العنفاء ضعاف في حقيقة شخصياتهم، ليست لديهم قوة أعصاب، ولا قوة احتمال، ولا قوة تفكير، وسأضرب لذلك أكثر من مثل:

* المدرس الذي يلجأ إلى العنف مع تلاميذه، هو مدرس ضعيف: أقصد المدرس الذي لا يستطيع أن يضبط النظام بين تلاميذه، فيثور عليهم، ويضرب هذا، ويطرد ذاك، ويشتم ويعاقب، هو بلا شك إنسان ضعيف. لأنه لو كان قوياً، ما كان يلجأ إلى شيء من هذا. بل يمكنه أن يضبط الفصل بقوة شخصيته، أو بذكائه وجاذبية شرحه، أو بمرحه ولطفه، أو بمحبة تلاميذه له...

ولكنه إذ خلا من كل هذه الصفات المحببة، لجأ إلى العنف بدافع من قلة الحيلة.

* مثال آخر: هو الأم التي تضرب أطفالها...

أم يصيح ابنها، أو يلهو ويجري ويعبث، ولا تستطيع أن تهدئه، كما لا تستطيع أن تتركه يلعب، فتلجأ إلى العنف: تضرب أو تشتم أو تهدد، أو تخيفه بطريقة ما! كل هذا لأنها لا تملك الخبرة ولا المعرفة بالطرق التربوية وكيفية معاملة الأطفال. ولو عرفت لكسبت طفلها دون اللجوء إلى العنف.

لأن العنف هنا يكون وسيلة لتغطية العجز، أو مجرد رد فعل لقلة الحيلة! أو هو تغطية لضعف داخلي، ربما يكون عدم الاحتمال. ذلك لأن الشخص الذكي يستطيع أن يخرج من إشكالاته بسهولة، في حكمة وحسن تصرف. أما الضعيف فيستخدم العنف!

***

أنواع من العنف:

١- اشهر نوع من العنف هو **الإيذاء بكل درجاته.**

ويشمل الضرب، والقتل بأنواعه. وكل ذلك كل أنواع التعذيب الجسدي أو المعنوي كالتخويف، وإثارة الذعر، مما يدخل في العنف العصبي.

٢- عنف آخَر هو **الإرهاب.**

ويشمل جرائم الخطف للإفراد وللطائرات والسفن، وتفجير السيارات الملغومة، والرسائل الملغمة، وكافة أعمال النسف والتدمير، والتخريب، والذعر.

٣- ومن العنف أيضاً **الحرب.**

وأخطرها الحروب النووية، والتي تستخدم فيها الغازات السامة، والأسلحة الفتاكة

والمحرقة، وبخاصة إن ضربت المستشفيات، أو مساكن المدنيين الآمنين، أو دمّرت مدناً بأكملها، وخلّفت مجموعات من المشوهين والمعوقين.

٤- وهناك عنف على مستوى فردي هو **تحطيم المعنويات:**

ومن أمثلته الزجر الشديد، والتوبيخ القاسي، والتركيز باستمرار على الأخطاء، وتحطيم الشخصية. ويدخل في هذا النوع عنف الإهانة: ويشمل التهكم اللاذع، والازدراء، والتشهير، والتجريح، والقذف، والتجاهل، والمقاطعة، والسب.. وما إلى ذلك من ألوان القتل الأدبي أو المعنوي. وما يصحب ذلك من عبارات التهديد والتخويف.

٥- هناك مظهر آخر للعنف هو **عنف العتاب.**

ويشمل العتاب الشديد القاسي، ربما لسبب تافه لا يستحق. وقد يستمر هذا العتاب طويلاً، وبأسلوب يجرح، وربما أمام الآخرين، ويكون مصحوباً بعصبية، وعلى كل صغيرة وكبيرة، وبه يُفقد الأصدقاء كما قال الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهْ
فعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرةً ومجانبهْ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه

هناك نوع آخر من العنف يختلف عن كل ما سبق يمكن أن نسميه بالعنف السلبي.

٦- **العنف السلبي:**

مثال ذلك شخص لا يقدر على العنف الإيجابي، فيلجأ إلى العنف السلبي، وهو نوع آخر من الضغط. ومن ذلك الكآبة المستمرة، والبكاء الدائم، والإضراب عن الطعام، والصمت الحزين، والانسحاب... وكلها أنواع من العنف الهادئ الصامت يمثل ضغطاً. وما أكثر استخدام النساء لهذا النوع...

٧- **عنف الشهوات:**

وهو نوع من العنف ليس موجهاً ضد الآخَر، إنما هو يعمل داخل الإنسان ذاته... فقد توجد شهوات تحارب الإنسان بعنف حتى تدمره تدميراً، مثل شهوة المخدرات، وشهوات أخرى كالجشع والزنى والكبرياء... والمعروف أن الشهوات لا تستريح حتى تكمل، ثم تستمر.

وقد تصحب الشهوات أفكار مدمرة: تلصق بالعقل في إلحاح ولا تفارقه، حتى تحطم صاحبها. لدرجة أن البعض يعالجونها بالمقومات ليستريح من الأفكار.

***

وبعد، إن حديثنا عن العنف لم يتم. بقى أن نتكلم عن أسباب العنف، وعن الفرق بين العنف الخاطئ والعنف السليم. فإلى اللقاء.



٤ / ١١ / ٢٠٠٦

أسباب العنف

١- من أسباب العنف القسوة في الطباع:

فهناك أشخاص قساة في طباعهم. يتعاملون باستمرار بقسوة. فإذا ازدادت حدة القسوة عندهم، فإنها تتحول إلى عنف. وهذه القسوة في الطبع قد ترجع إلى ظروف اجتماعية حادة أدت بهم إلى استخدام القسوة. وربما يكونون قد حصلوا عليها عن طريق الوراثة.

***

٢- وقد يكون السبب في العنف تعب في الأعصاب:

وهذا التعب ربما يكون قد نتج عن الإرهاق. والمعروف أن الإنسان في حالة الإرهاق وتعب الأعصاب، لا يكون قادراً على الاحتمال، فيرد بشدة. وإذا زاد الضغط عليه، يتصرف بعنف...

***

٣- وقد يكون السبب في العنف هو قلة الحيلة.

أو إخفاء الضعف بالعنف كما ذكرنا من قبل.

***

٤- وقد يكون سبب العنف هو مرض عصبي أو مرض عقلي:

ومعروف أن بعض الأمراض العقلية وكذلك العصبية يصحبها عنف.

ولعل من المدرسة الإيطالية علماء يقولون إن كل مجرم هو إنسان مريض. وهكذا يبحثون عن المرض الذي كان دافعاً إلى الجريمة... ولكن ذلك كله لا يمنع أن هناك مجرمين يقومون بأعمال عنفهم وهم في حالة عقلية تامة. وإلاّ زالت المسؤولية عن غالبية الجرائم!

***

٥- وأحيانا يكون الخوف من اكتشاف الجريمة سبباً آخر للعنف:

كسارق اقتحم بيتاً لغرض السرقة فقط، وليس القتل في نيته إطلاقاً. ولكنه قد يضطر إلى ذلك إذا ما اكتشف أحد أمره، فيقتله لئلا يخبر عنه. أو كعصابة تقتل - لنفس السبب - بعض الذين يعرفون أسرارها، حتى لو كانوا من أعضائها، خوفاً من أن يكشفوا هذه الأسرار، خيانة منهم، أو حتى ظروف ضاغطة.

مثال آخَر: شخص يظن أن آخر يتآمر عليه، فيقتله خوفاً من تآمره.

***

٦- وقد يكون سبب العنف: الغرور أو الاعتزاز بالقوة:

ففي الغرور يسئ الشخص ما لديه من قوة وإمكانيات. كمن يضرب الآخرين ليشعرهم بأنه أقوى منهم، وأنه يستطيع قهرهم متى أراد. ويحدث هذا أحياناً مع بعض المراهقين، ومع بعض الطغاة، ومع بعض العصابات في إخضاع أفراد العصابة لسلطة قائدها...!

***

٧- وربما يكون سبب العنف هو الحقد:

فالذي يحقد على آخرين، قد ينفس عن حقده بالعنف! كشخص يحقد على آخر ظاناً أنه ينافسه في الميراث، أو أنه يسعى لكي يحل محله في مركزه، فيستخدم معه العنف...!

وقد تدفع الغيرة أو الحسد إلى مثل هذا أيضاً...

أو قد يكون السبب في العنف هو ردّ العنف بالعنف...

***

٨- وقد يكون سبب العنف هو الاضطهاد الديني:

كما قال السيد المسيح لتلاميذه عما سوف يلقونه من مؤامرات اليهود وقسوة الرومان: "تأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة للّه"...! وهنا امتزج الاضطهاد بالفهم الخاطئ.

ومن أمثلة الفهم الخاطئ الذي يؤدي إلى لون آخر من الاضطهاد أو من العنف: من يقتل وفي مفهومه أنه يمحو عاراً للأسرة، أو أنه ينتقم لدمائها...

***

٩- وهناك من يلجأ إلى العنف، ظاناً أنه أسهل الحلول وأسرعها!!

وهذا ظن خاطئ، لأن أسهل الحلول ليس هو أفضل الحلول. كما أن العنف له الكثير من ردود الفعل السيئة...

أو قد يرى مثل هذا الشخص أن العنف هو الحل الوحيد! وقد يقول لك: هذه الأمور لا يصلح لها إلاّ العنف!! أو هؤلاء الأشخاص لا ينفع معهم إلاّ العنف!!

وهذا بالطبع تفكير ضيق، لا يريد أن يبحث عن وسائل أخرى!

***

١٠- وقد يكون العنف لوناً من السياسة أو الحيلة:

وذلك حسبما يقول المثل السائد: "اضرب المربوط فيخاف السائب"! أو حسبما يقال: "اضرب الراعي فتتشتت الرعية"... وهنا لا يكون العنف مقصوداً لذاته إنما لنتائجه. أي هو هنا مجرد وسيلة لغاية...

وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى وهي:

١١- العنف الظاهري:

وليس هو عنفاً حقيقياً... ومثاله: الأب الذي يتظاهر بالغضب، وبالرغبة في استخدام العنف، وذلك لكي يقود ابنه إلى الطاعة وحسن السلوك. أو مثال رئيس العمل الذي يهدد بعقوبة عنيفة لا ينوي مطلقاً أن يفرضها. وذلك لتخويف مرؤوسيه حتى يسلكوا كما ينبغي...

***

١٢- العنف المشترك:

ومثال: شخص ليس في طبعه العنف. ولكنه قد يسلك بالعنف في وسط أصدقائه العنفاء، فيشترك معهم في عنفهم، أو يستخدم عنفاء لكي يوصلوه إلى غرضه، على اعتبار أن العنف يكون غير مباشر بالنسبة إليه!

العنف الخاطئ والعنف السليم:

لا نستطيع أن نسمي كل عنف خطيئة. فهناك مواقف يلزم لها العنف، مثل معاقبة الخطاة المستهترين أو المستبيحين، أو الذين يهددون المجتمع بجرائم تحطمه أو تحطم تراثه وقيمه...

ومن أمثلة ذلك عقوبة الإعدام للقاتل ومن يرتكب جريمة مماثلة.

والله نفسه - تبارك اسمه - عاقب على مجرى التاريخ بعقوبات عنيفة، كالطوفان مثلاً...

وهناك جرائم - إذا لم تؤخذ بعنف - قد يستهتر مرتكبوها فيكررونها، أو يكونون قدوة سيئة لغيرهم. أما إذا ما عولجت بحزم وحسم وبسرعة، فإن المجتمع يتنقى ويتطهّر.

وهنا يكون العنف فضيلة يقوم بها كل من هم في مسؤولية، واضعين أمامهم أن الحق العام لا تساهل فيه، وأن المجتمع يحتاج إلى صيانة، حتى لا يعبث فيه كل من نامت ضمائرهم، وحتى لا يأكل فيه القوي الضعيف...



١١ / ١١ / ٢٠٠٦

الفراغ وأنواعه

الفراغ من أنواع كثيرة مثل فراغ الوقت، وفراغ الفكر، والفراغ الروحي، وفراغ الشخصية، والفراغ العاطفي... وسنحاول أن ندرس معاً كل هذه الأنواع بشيء من العناية...

فراغ الوقت:

هذا الفراغ يتعب مَن يشعر به. وقد يقوده إلى أخطاء عديدة، إذا أساء الطريقة التي يملأ بها هذا الفراغ.. لذلك عندما خلق اللّه أبانا آدم، لم يتركه في فراغ، بل أوجد له عملاً يعمله.. وحتى الرهبان أصبح العمل جزء من حياتهم، بشرط ألاّ يعطلهم عن روحياتهم..!

+ إن الفراغ قد يسبب للإنسان لوناً من الملل والضجر. لذلك يهرب منه إلى تسليات تريحه. وقد يخطئ في اختيار نوع هذه التسليات! وربما يلجأ إلى الثرثرة مع الناس، بطريقة يضيع فيها وقته ووقت من يتحدث معهم، وربما يلجأ إلى الملاهي أو المقاهي أو النوادي وما أكثر ما يصادفه هناك من أخطاء! وقد يلجأ البعض إلى المشي، أو ما يسميه البعض بالنزهة، بلا هدف..!

أو قد يصب فراغه في الآخرين فيضيع وقتهم، وإضاعة الوقت هكذا في فراغ، هي إضاعة جزء من حياة الإنسان كان يمكن استغلاله فيما يفيده ويفيد غيره!

والذي يضيع وقته، لا شك أنه لا يشعر بقيمة حياته، وغالباً ليس أمامه هدف كبير يسعى إليه! أما الذي يكون له هدف كبير، إنما يستغل كل وقته لتحقيق هذا الهدف. وقد يشعر أحياناً أنه محتاج إلى وقت ولا يجد..

***

لذلك عليكم أن تملأوا فراغكم بشيء مفيد، وكذلك فراغ أولادكم: ربما تتضايقون أحياناً من الضوضاء التي يحدثها الأطفال. وتشبعونهم توبيخاً ولوماً وانتهاراً ودروساً في الأخلاق!!... وتكثر أوامركم ونواهيكم وتهديداتكم لهؤلاء الأطفال... وغالباً ما يكون سبب

إشكالاتهم كلها هو الفراغ! ولو أنكم استطعتم أن توجدوا لهم طريقة سليمة يملأون بها هذا الفراغ، لاسترحتم واستراحوا من هذا كله... فكّروا إذن في شغل وقت الفراغ عند أولادكم، بما ينفعهم ويريحكم...

***

وهنا نسأل كيف تقضون وقت فراغكم؟ وهل الطريقة سليمة وتنفعكم؟

اشغل يا أخي وقت فراغك من أجل نموك الروحي، أو الفكري، أو في خدمة الآخرين، أو في أية تسلية غير ضارة، أو في أي عمل محبة نحو الناس وفي افتقادهم ... أم وقت فراغك هو وقت ضائع؟! ربما تقضيه إلى جوار الراديو أو التليفزيون الذي أحياناً لا يأخذ وقت فراغك فقط، إنما يطغي على وقتك كله، حتى الذي يلزم لتأدية مسؤولياتك أيضاً!! ولعلكم تجيبون على هذا السؤال.

هل معالجتكم لفراغ الوقت أدت بكم إلى فراغ في الروح؟!

***

فراغ الفكر.

أحياناً يؤدي فراغ الوقت إلى فراغ في الفكر أو في التفكير. ويبقى العقل بلا عمل! فيأتي الشيطان ليشغله أو ليشاغله. وكما يقول المثل: "**عقل الكسلان معمل للشيطان**".!

لذلك من الخطورة بمكان الوحدة أو الخلوة التي لا تنشغل بعمل روحي.. فإذا لم يوجد فكر روحي يضبط العقل، فإنه يعيش في فكر خاطئ...

إنما مفهوم الوحدة في معناها الروحي إنها خلوة مع اللَّه! فهي ليست فراغاً.

***

+ هناك فراغ آخَر في الفكر من جهة عدم امتلائه من المعرفة النافعة، أو خلوّه منها...

فالإنسان الذي لا يدأب على تثقيف نفسه بالمعلومات المفيدة له روحياً وعملياً، بالإضافة إلى المعلومات الثقافية العامة اللازمة له، فإن مثل هذا الإنسان يوجد نفسه في فراغ فكري! بحيث إذا تحدث مع غيره، لا ينطق بشيء له عمق أو له فائدة.

+ من هنا أن تعليم المرأة الريفية أمكن أن يخرجها من هذا الفراغ الذي عاشته في عصور مظلمة. وبهذه المناسبة نود أن نشكر القائمين على فصول محو الأمية في الريف سواء للنساء أو للأطفال أو للكبار.

+ وكذلك خدمة الكلمة لازمة لإخراج الناس من الفراغ الفكري دينياً، إلاّ إذا كان ما يقدم لهم هو فراغ أيضاً!! وذلك لفراغ المعلمين والمتكلمين بسبب إهمالهم في تحضير دروسهم أو مقالاتهم أو عظاتهم. فأصبحوا لا يقدمون للسامعين شيئاً يفيدهم! ومثلهم الذين لا يقدمون إلاّ معلومات معروفة مُتكرِّرة لا عُمق فيها، ولا جديد ولا تأثير! إنها أيضاً فراغ!! ومثال ذلك أيضاً الذين يقدمون أفكاراً لا روح فيها، بل هي مجرد معارف ومعلومات لا تتصل بالقلب ولا الروح في شيء! بل هي أيضاً فراغ!

هذا يقودنا إلى نقطة أخرى من موضوعنا هي الفراغ الروحي. ثم علينا أن نتحدث عن فراغ الشخصية، ثم عن الفراغ العاطفي.

فإلى اللقاء في مقال ثان بمشيئة اللَّه، إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

١٨ / ١١ / ٢٠٠٦

الفـراغ الروحي
والفـراغ العاطفي

تحدثنا في المقال الماضي عن الفراغ... من جهة فـراغ الوقـت، وفـراغ الفكـر، ويسرني أن نتكلم اليوم عن الفراغ الروحي، وفراغ الشخصية، والفراغ العاطفي...

الفراغ الروحي:

الروح التي تحيا بعيدة عن محبة اللّه، تعيش في فراغ، مهما كانت ألوان العواطـف المقدمة لها.. كلها لا تشبعها...

وربما يوجد أشخاص لهم مشغوليات كثيرة تملأ كل وقتهم، ولهم مشروعات ضـخمة يقومون بها، ومسؤوليات خطيرة ملقاة على عواتقهم. وقد تكون لهم معلومات واسعة جداً، ولهم دراسات عميقة... ومع ذلك يعيشون في فراغ روحي! وكل ما يقومون به من عمل، لا يشبع الروح التي فيهم...

وقد يتعب هؤلاء في حياتهم، من أجل أهداف متعددة قد يحققون بعضها ولكن تبقـى في قلوبهم رغبة لم تتحقق بعد، تشعرهم باستمرار بفراغ أرواحهم. وهذه الرغبة لا تحققها إلاّ الصلة العميقة باللّه، والثبات في محبته..

إنه لا ينفع الشخص شيئاً أن تمتلئ حياته بأمور كثيرة، دون أن يمتلئ قلبـه بمحبـة اللّه. فما أسهل أن يتحول الإنسان إلى ماكينة دائمة الدوران، بلا روح فيها. وعلى الرغم من هذا العمل الكثير، ينظر اللّه إلى هذا الإنسان فيجده فارغاً!! فيقول له. إن لك اسماً أنك حي، وأنت ميت!!

****

لذلك يا إخوتي الأحباء: املأوا أرواحكم بمحبة اللّه ومعرفته. فأرواحكم تشعر بفراغ إن بعدت عن اللّه ومحبته ومعرفته..

وإن امتلأتم، يمكنكم أن تفيضوا على الآخرين... فالحب الذي فيكم يمكنـه أن يمـلأ قلوبهم حباً. والسلام الذي فيكم، يمكنه أن يملأ حياتهم سلاماً. وهكذا فـإن الـروح الـذي يعيشون به، يقودهم إلى السلوك بالروح..

ما أجمل - بعد عمر طويل - حينما تصعد أرواحكم إلى اللّه، أن تصعد وهى ممتلئة حباً وفرحاً وسلاماً، مع كل ثمار الروح الأخرى.

****

إذن املأوا أرواحكم بالغذاء الروحي، لكي تمتلئ من ثمار الروح... كالشجرة التي تقدم لها ما تحتاجه من الماء والسماد، فتقدّم هى لك ما تطلبه أنت من زهر وثمر.. أتشعر إذن أن روحك في فراغ، املأها من كل وسائط النعمة. قدّم لها ما تحتاج هى إليه من القراءات والتأملات الروحية العميقة، وفي مقدمتها كلام ووصايا اللّه. زوّدها بصلوات وتسابيح ومزامير وتراتيل وأغانٍ روحية، وكل ما يشبع الروح...

ولا تترك روحك فارغة أو معوزة شيئاً من أعمال النعمة.

وأعلم أن الروح القوية تنتج شخصية قوية، والروح الفارغة تنتج شخصية فارغة. وهذا ينقلنا إلى نوع آخر من الفراغ هو فراغ الشخصية..

****

فراغ الشخصية:

ما أصعب أن يشعر إنسان بأن شخصيته فارغة! لا قيمة لها في المجتمع الذي يعيش فيه، ولا ثمر لها، ولا تأثير!

قد يشعر الإنسان بهذا الشعور فيما بينه وبين نفسه. وقد يقع بهذا السبب في صغر النفس.. إذ يرى أنه لا عمق له ولا فكر، ولا معلومات، بل ولا شخصية، ولا قوة!

وقد يصاب بعقدة النقص، إذ يحاول أن يملأ نقصه بنقص آخر!! وبدلاً من أن يملأ فراغ شخصيته، فإنه يضيف إليها فراغاً آخر، يحاول به أن يغطي فراغه، بلا جدوى..!

فما مظاهر هذا العلاج الخاطئ؟

****

+ إما أن هذا الشخص يحاول أن يعيش في الخيال وليس في الواقع! بأن يرضي نفسه بأحلام اليقظة حتى لا تشعر بفراغها. ولكن هذه الأحلام لا تنفعه...

لأنه يفيق من أحلام اليقظة على واقع مؤلم، لا تغيره الأحلام..

+ وقد يحاول شخص آخر أن يعالج شعوره بالفراغ، بالثرثرة وكثرة الأحاديث، كما لو كان الكلام يُوجد له شخصية! وغالباً يسأم الناس من كلامه، ويرونه فارغاً.

+ وربما يحاول أحدهم التغطية على فراغ شخصيته، بمدح ذاته أمام الناس! فيشرح الأعمال "العظيمة" التي قام بها! أو ينسب أعمال غيره إلى نفسه!! أو يحطم غيره انتقاداً وتشهيراً، لكي يبدو هو في قمة المعرفة، وخارج دائرة النقد! أو يقاوم العاملين لأنه يتضايق من كونهم يعملون وهو لا يعمل! أو يجلس في عظمة، ويغطي فراغه بالغنى والأناقة ومظاهر الكبرياء شكلاً وصوتاً!

ومثال ذلك أيضاً: المرأة التي تغطي على فراغ شخصيتها بالزينة والتجمل والتحلي بالذهب والأحجار الكريمة..!

****

ليت المجتمع يستطيع أن يعالج هؤلاء الذين يشعرون بفراغ في الشخصية، بأن يوجد لهم ما يشغلهم، ويستغل طاقاتهم المعطلة إن كانت لهم طاقات يمكن الاستفادة بها.. ويا ليت كل إنسان يكتشف طاقاته، ويحاول أن يستغلها للخير.. والذي يشعر بفراغ شخصيته، عليه أن يملأها بطريقة سليمة، بدلاً من محاولة تغطيتها بطرق خاطئة..

وعلى كل إنسان في كل يوم أن يجاهد في أن يعمل أي عمل مفيد: ليس لكي يشعر بالامتلاء، وإنما حباً في الخير وفي الناس، وحينئذ سيشعر بالامتلاء دون أن يسعى إلى ذلك. وليت كل أحد يكون له هدف كبير يسعى إليه، ويبذل كل طاقاته لتحقيقه. فإن العمل في ذلك ينقذه من الشعور بالفراغ.. وعلى ذلك فإن الطموح يكون علاجاً للشعور بالفراغ إن سلك عملياً للوصول إليه.

****

الفراغ العاطفي:

وهذا الفراغ على نوعين:

+ أحدهما حالة إنسان يشعر أن له قلباً كبيراً، ولا يجد من يملأ قلبه.. فهو يريد أن يوزع محبته، ولا يعرف إلى من؟ فيشعر بفراغ في قلبه من جهة الإعطاء.

وهذا النوع يمكن أن ينحرف، إذ ركّز محبته في شخصية معينة وأحبها بطريقة خاطئة. على أنه يريحه توزيع عاطفته في المجال الاجتماعي، مثل إدخال السعادة إلى قلوب اليتامى، والأطفال، والمعوزين والفقراء، والمرضى والمعوقين، والعمل الجاد في حل مشاكل الناس.

+ والنوع الثاني من الشاعرين بالفراغ العاطفي، هم الذين يشعرون أنهم في حاجة إلى من يحبهم ويحنو عليهم، ولا يجدونه..

ومثال ذلك: ابنه تعيش في بيت بعيد عن الحب: مع أب حازم جداً، وشديد في معاملته، كثير التوبيخ، كثير العقاب.. ومعه أم قاسية، لا تجد الابنة منها حناناً على الإطلاق... فربما هذه الابنة - وهي في هذا الفراغ العاطفي... تجد من يقدم لها الحب، ولو بطريقة خاطئة، فتقبل ذلك، بل وتُقبل عليه، لأنها في حاجة إلى قلب، أي قلب!!

نعم، ما أكثر ما تنحرف البنات اللائي لا يجدن حناناً وحباً من الوالدين والأسرة.

****

ونحن إذ ننصح الآباء والأمهات بمحبة أبنائهم وبناتهم، حماية لهم من الانحراف، إنما في نفس الوقت نحث الأبناء والبنات بالبحث عن الحب والحنان بطريقة سليمة طاهرة. ولابد سيجدون ذلك بطريقة الإعطاء أو الأخذ.. والذي يعطي حناناً وحباً مقدساً لغيره، سيأخذ في نفس الوقت من الحب والحنان أكثر مما يعطي... المهم أن القلب يمتلئ بالعاطفة، سواء كان معطياً أو آخذاً... وحالة الإعطاء هى في نفس الوقت حالة أخذ...

٢٥ / ١١ / ٢٠٠٦

قساوة القلب

قساوة القلب لها اتجاهان: قساوة في التعامل مع الناس، وقساوة في التعامل مع اللّـه.
أما القساوة في التعامل مع اللّه، فهي الرفض المستمر للحياة مع اللّه ولطاعة وصاياه، وإغلاق القلب تجاه محبته، وعدم الانجذاب نحو إحسانات اللّه التي يظهرها للإنسان في عديد من المناسبات...

أما القسوة في التعامل مع الناس، فمظهرها قسوة المعاملة، والكلمة القاسية، والنظرة القاسية، والعقوبة القاسية، والتوبيخ القاسي. وقد تكون القسوة على الجسد في تعذيبه، أو قد تكون القسوة على النفس في إذلالها وسحقها، والتشهير بها، والعنف في معاملتها.

والإنسان الخاطئ يقع في هذين النوعين من القساوة.

وعكس القوة الرحمة والحنو والعطف والإشفاق...

***

إن القسوة كثيراً ما تكون مظهراً أو نتيجة لكبرياء القلب.

وعلى القساة أن يحترسوا، وليخافوا على أنفسهم من قساوة قلوبهم. لئلا يلاقوا نفس المعاملة. وبالكيل الذي به يكيلون، يُكال لهم ويزاد! فإن القسوة مكروهة من الكل. كما كانت قسوة فرعون الذي ما كان يلين مطلقاً ولا يتوب..

أما القلب الطيب، فإنه قريب جداً من اللّه، فهو كعجينة لينة في يد اللّه يشكّلها مثلما يشاء. وعكس ذلك القساة لأن قلوبهم صخرية صلبة، لا تستجيب لعمل النعمة فيها!

القلب القاسي - من جهة الحياة الروحية - يعيش في جو من اللامبالاة! كلمة اللّه لا تترك تأثيرها فيه. فهو لا يتأثر بكلام الروح. بل قد يسخر منه ويتهكم، ويرفض السماع! تصبح وصايا اللّه ثقيلة عليه، بينما الثقل كله هو في القلب!

إنه لا يتأثر إطلاقاً بأي دافع روحي. لا يتأثر بحنان اللّه، ولا حتى بإنذاراته وعقوباته! ولا يتأثر أيضاً بالأحداث مهما كانت خطيرة! لا يؤثر فيه مرض، ولا موت

أحد أحبائه! ولا تؤثر فيه صلاة ولا عظة، ولا كلمة روحية. وكل إحسانات اللّه إليه، يقابلها بنكران الجميل، أو ينسبها إلى أسباب بشرية!

***

وقساوة القلب تؤدي إلى العناد والمكابرة. والشخص القاسي القلب، قد تشرح له خطأه لمدة ساعات، وكأنك لم تقل شيئاً! إنه لا يعترف بالخطأ، بل يصرّ على موقفه. قلبه صخري، لا يلين ولا يستجيب!

وبسبب إصراره وعناده وعدم استجابته، تتخلى عنه النعمة، وينحرف إلى الضياع! مثل هذا الإنسان، توبته ليست سهلة.

الإنسان الرقيق الحساس، دموعه قريبة. أما القاسي فيندر أن تبتل عيناه مهما كانت الأسباب! لأن الدموع دليل على رقة الشعور. أما القاسي فلا رقة في مشاعره، سواء في تعامله مع اللّه أو مع الناس.

***

قساوة القلب تقود أيضاً إلى الحدة والغضب...

فالشخص القاسي القلب تشتعل مشاعره ضد الآخرين بسرعة، ويحتدّ ويثور، ويهدّد وينذر. ولا يحتمل أن يمسّه أحد بكلمة. وفي نفس الوقت لا يراعي شعور الآخرين. فيجرح مشاعر غيره بسهولة وفي لا مبالاة! ولا مانع عنده من أن يهين غيره ويشتمه ولا يبالي بوقع الألفاظ عليه...

وهنا يجمع بين أمرين متناقضين: فيكون حسّاساً جداً من جهة المعاملة التي يعامله بها الناس، بينما لا إحساس له إطلاقاً من جهة تعامله هو مع الآخرين!

فهو، إذا وبّخ غيره - بحق أو بغير حق - يكون كثير التوبيخ وعميقه. وإذا غضب على أحد، يكون طويل الغضب وعنيفه..

في قسوته لا يحتمل أحداً. ويريد أن يحتمله الكل! وعليهم ألاّ يثوروا بسبب ثورته عليهم، بل يتقبلوها كما لو كانوا يستحقون ما ينالهم منه!

وعموماً، فالقسوة منفرة. ومن يتصف بها يخسر من يتعامل معهم من الناس، ويفشل في حياته الاجتماعية...

أسباب قسوة القلب:

+ ربما من أسباب هذه القسوة، طباع موروثة عن الآباء أو الأمهات..

وهنا قد يسأل البعض: ما ذنب إنسان ورث طبعاً قاسياً؟ بينما غيره قد وُلِد وديعاً، وليس في حاجة إلى بذل مجهود لمقاومة قسوة كالتي وُلد بها غيره..

وهنا نقول إن الطبع يمكن تغييره مهما كان موروثاً.. والذي يبذل جهداً لتغيير طبعه، تكون مكافأته عند الله أكثر...

+ من أسباب قسوة القلب أيضاً، الكبرياء التي تدفع الإنسان إلى أن يبالغ في كرامته وعزة نفسه، ووجوب احترام الناس له، بأسلوب يجعله يقسو على كل شخص يظن أنه يمس كرامته بشيء!

والكبرياء تجعل القسوة تظهر في ملامحه وفي نظراته، وفي حدة صوته، وفي نوعية ألفاظه، وطريقة معاملاته...

***

+ ومما يقسّي القلب أيضاً، تأثير الآخرين: إما بأصدقاء يوحون إليه بمعانٍ جديدة عن القوة والبطولة، أو عن الحرية وما يلزم له من حقوق.. وهكذا يثور على كل سلطة أو رئاسة، سواء في البيت أو في الدراسة. بل قد يثور أيضاً على النظام وعلى القانون! ويرى الرجولة في أن يفرض رأيه!

وفي بعض بلاد الغرب: كثير من الشباب - حينما يشعرون بنضوجهم - يرفضون الخضوع لآبائهم بحجة الحرية الشخصية! ويعتبر الشاب أن نصيحة والده له، هى مجرد رأي يمكن أن يأخذ به، أو لا يأخذ! وهكذا يتقسى قلبه من جهة والده. ويصر على أنه هو صاحب القرار، مهما كان قليل الخبرة في الحياة!

***

يلزم إذن أن نربي أولادنا منذ طفولتهم المبكرة، حتى لا تتلفهم أفكار جديدة عليهم، تتلفهم وتقسّي قلوبهم، وتدفعهم إلى الجدل في البديهيات، والى رفض كل شيء لمجرد الرفض!

تلك الأفكار التي تصوّر لهم الطاعة ضعفاً، والخضوع خنوعاً، والهدوء خوفاً وجبناً..!! وفي تقسية قلوبهم، تقلب لهم كل الموازين، فيفرحون بذلك إحساساً منهم

بالوجود وبالشخصية...! وكما تصل إليهم تلك الأفكار من أشخاص، يمكن أن تصل إليهم من بعض الكتب والمطبوعات...

***

وما نقوله عن تأثر الصغار بأفكار غيرهم، يمكن أن نقوله عن الكبار أيضاً!

مثال ذلك في محيط الأسرة: زوجة الأب التي تقسّي قلب زوجها على أولاده من زوجة سابقة. وتظل تحدثه عن أخطائهم وخطورتها، حتى يثور عليهم ويقسو في معاملتهم..! أو مثل أم تظل تصب في أُذن ابنها المتزوج أحاديث عن أخطاء زوجته، أو إهانات هذه الزوجة لها، حتى تتغير معاملته لزوجته ويقسو عليها...

فعلى كل إنسان أن يكون حريصاً، ولا يسمح للقسوة أن تزحف إليه من الآخرين، ولا يصدّق كل ما يسمعه...



٢ / ١٢ / ٢٠٠٦

الأفكار الخاطئة
وحروب الفكر

إن اللَّه – تبارك اسمه – يريدنا أن نكون أنقياء وأطهاراً في أفكارنا وقلوبنا ومشاعرنا، لذلك علينا أن نبعد عن كل فكر خاطئ، ونطرده من أذهاننا ومن ذاكرتنا... فما هي الأفكار الخاطئة؟ الأفكار الخاطئة التي تمر على العقل، قد تكون أفكار انتقام، أو أفكار عظمة وكبرياء ومجد باطل وأحلام يقظة، أو أفكار تجول حول أخطاء الناس وإدانتهم، أو أفكار حسد وغيرة، أو شهوات عالمية، أو قد تكون أفكار زنا ونجاسة، وما إلى ذلك...

***

مصادر الفكر الخاطئ:

١- **قد يأتي الفكر الخاطئ من فكر سابق.** فالأفكار ليست عقيمة إنها تلد أفكاراً من نوعها، كجنسها. ربما كان لك فكر بدأت به منذ أيام، ويريد أن يكمل. أو قصة بدأتها ولم تصل إلى نهايتها، وهى تريد مزيداً من التفاصيل، ولو من باب حب الاستطلاع. فاهرب من هذا كله...

٢- **وقد يأتي الفكر الخاطئ من خبرتك الخاصة**

***

٣- **وقد يكون مصدر الفكر الخاطئ هو العقل الباطن:**

فربما تكون قد تركّزت في عقلك الباطن قصص أو مشاعر أو رغبات، تحب أن تطفو على عقلك الواعي، لتتفاوض معك..

فكن حريصاً على حفظ عقلك الباطن نقياً. ولا تختزن فيه أشياء تعكر نقاوة فكرك. وإن كنت قد اختزنت فيه خطايا أو معثرات قديمة، فلا تستعملها. وإنما بالوقت والإهمال يتنقى عقلك منها، وكذلك تصل إلى نقاوة عقلك بإحلال أفكار نقية جديدة تحل محل تلك الأفكار داخلك... ولمّا كان العقل الباطن يختزن ما يختزنه، من مصادر متعددة، منها القراءات والسماعات والمناظر والشهوات... لذلك عليك أن تكون حريصاً على نقاوة

قلبك وفكرك، من كل ما يدخل إليهما عن طريق القراءة والسماع، وأيضاً كل ما تـــراه وما تفكر فيه. ولتكن كل رغباتك نقية، كما تحرص أيضاً على نقاوة حواسك.

***

٤- ما دامت الحواس هى أبواب الفكر، إذن احترس من جهة الحواس التي عملهـــا هـــو: الجولان في الأرض والتمشي فيها. فهى تجول هنا وهناك تجلب للعقل أفكاراً من النظر الطائش غير النقي، ومن السماعات البطالة، ومن كل ما تشمّ وما تلمس..

إن الحواس النقية تجلب للعقل أفكاراً نقية، بينما الحواس الدنسة تجلب أفكاراً دنســـة. والحواس الطائشة تجلب أفكاراً طائشة..

وضبط الحواس يساعد بلا شك على ضبط الفكر أيضاً. والذي جاهد حتى حصل على نقاوة الفكر، عليه أن يراقب حواسه، ويدرّبها على الحرص الروحي.

***

٥- والفكر الخاطئ قد يأتي أيضاً من كلام الناس ورواياتهم:

فكم من زوج فشل في حياته الزوجية، بسبب ما تصبّه أمه أو أخته في أذنيه من جهـــة زوجته، فتأثر بذلك، ودخلت إلى ذهنه أفكار لم تكن عنده من قبل في فتـــرة الخطوبـــة أو في الشهور الأولى للزواج. وكذلك كم من زوجة فشلت بسبب نصائح أهلها...

إن أفكاراً غريبة قد تأتي لأي شخص، ليست هى منه، ولكنها مع ذلـــك تســـتطيع أن تغير طبعه وأسلوبه! لذلك راجع أفكارك باستمرار. ولا تكن تحت تأثير أو سيطرة شخص ما، تجد أنك تعتنق ما يقوله من أفكار بغير فحص!!

***

٦- كذلك قد تأتي الأفكار الخاطئة من الشيطان:

يلقيها في ذهن الإنسان، ولو كمجرد اقتراح! وعلى الإنسان أن يميز ليـــدرك أن هـــذا الفكر الشرير أو الخاطئ هو من الشيطان.. وإن لم تكن له موهبة الإفراز أو التمييـــز، عليه أن يستشير من له الموهبة... ونحب أن نقول هنا إن الشيطان لا يزغم أحداً على قبول أفكاره. إنما هو يقدّم عروضاً، ويقدمها في إغراء. والإنسان حرّ تماماً في أن يقبل منه أو لا يقبل...

حرب الفكر، والسقوط بالفكر.

ليس كل فكر خاطئ يأتي إلى عقل الإنسان يعتبر خطية، ما دام هو رافضاً لهذا الفكر، وليس هو السبب فيه. فقد يكون الفكر الخاطئ حرباً من عدو الخير. وهناك فارق بين حرب الفكر والسقوط فيه...

ففي الحرب الروحية قد تلح الأفكار الخاطئة على عقل الإنسان إلحاحاً وبشدة، وربما لفترة قد تطول، وهو رافض لها، ويقاومها بكل ما يستطيع من قدرة. ومع ذلك فالأفكار مستمرة وضاغطة..!

أما السقوط بالفكر، فهو قبول الفكر وعدم مقاومته، أو مقاومته بطريقة شكلية ضعيفة، وهى في الحقيقة مستسلمة وراضية!

***

وقبول الفكر الخاطئ يعتبر خيانة للّه. لأنه بهذا القبول، يفتح الشخص أبواب قلبه للخطية، ولا يكون قلبه وقتذاك مع اللّه بل ضده.

وفي السقوط بالفكر، يكون الشخص ملتذاً بفكر الخطيئة، أو متعاوناً معه، ينميه ويقويه ويستبقيه، ويكمل عليه...

ويكون هو والفكر كياناً واحداً، بحيث يصعب التمييز في مجرى التفكير الخاطئ بين الفكر الذي أتى من الخارج كحرب روحية، والفكر الصادر من هذا الإنسان الخاطئ، من قلبه وعقله هو!!

وفكر السقوط قد يكون مصدره شهوة أو رغبة...

والشهوة والفكر يتبادلون الوضع كسبب ونتيجة. فالفكر الخاطئ تنتج عنه الشهوة. والشهوة ينتج عنها الفكر الخاطئ.

وكل منهما يكون سبباً للآخَر أو نتيجة له، بحيث يقوّيان بعضهما البعض في خط واحد. وفي هذه الحالة يتعاون الفكر الذي من الخارج، مع الفكر الذي من الداخل...

***

بقى أن أحدّثك عن الأمور التي تساعد على السقوط بالفكر، وأيضاً عن بداية الفكر الخاطئ، وكيف يأتي...

فإلى اللقاء في العدد المقبل إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

٩ / ١٢ / ٢٠٠٦

السقوط بالفكر

هناك أفكار خاطئة قد تحارب العقل. فينجح أحياناً في الانتصار عليها. وقد يسقط في الفكر الخاطئ في أحيان أخرى ...

فما هى أسباب السقوط في الفكر؟

توجد أسباب عديدة تساعد على السقوط بالفكر، نذكر من بينها: الفراغ، والاسترخاء، والضعف الروحي، والاستسلام، ومحبة الحكايات، والشهوة أو الرغبة...

١- حالة الفراغ:

فإن حورب أي شخص بفكر خاطئ، وبقى في حالة فراغ واسترخاء، فلابد أن يشتد الفكر عليه، وقد يقوى على إسقاطه.

لأنه في حالة الفراغ ينفرد الفكر بالإنسان، وهو بلا مقاومة ولا دفاع... وقد قيل في بعض الأمثال: "عقل الكسلان معمل للشيطان". وهكذا يأخذ الفكر معه ويعطي...

لذلك احترس في وقت فراغك من الأفكار التي تأتي إليك. والأفضل أنك لا تترك فكرك في حالة فراغ.

فالعقل - من طبيعته - إنه دائماً يعمل. وهو في انشغال مستمر، إما بأمور هامة، أو بأمور تافهة. ولكنه لا يتوقف..

***

٢- الاسترخاء:

في حالة الاسترخاء، قد يفكر العقل في أي موضوع، وربما يعبر على عديد من القصص والأخبار والأفكار. وهنا قد يستغل عدو الخير استرخاءه، فيلقى إليه بفكر خطية أو بفكر يؤول إلى خطية، دون أن يشعر...

فينبغي أن يكون الإنسان في يقظة روحية، ويطرد هذا الفكر الخاطئ بسرعة، قبل أن يستقر ويستمر.

ويحس في حالة الاسترخاء، أن يشغل الإنسان نفسه بفكر هادئ بسيط لا يقود إلى خطية...

والاسترخاء هدفه إراحة الأعصاب، وليس إلقاء النفس إلى الأفكار.

***

٣- **حالة الضعف الروحي:**

في حالة الضعف الروحي، لا يقدر العقل على مقاومة الفكر الخاطئ، فيستسلم له! لذلك إن وجد الإنسان نفسه في هذا الضعف الروحي، عليه أن يهتم بنفسه بالأكثر، ويكون في حالة حرص شديد، ويراقب أفكاره بكل دقة. وفي نفس الوقت يحاول أن يقوي ذاته من ضعفها، بأن يقدم لها كافة الأغذية الروحية التي تساعدها على طرد الأفكار الخاطئة...

لهذا كله، احترس جداً من حالات الضعف الروحي، وأهرب أثناءها من كل مسببات العثرات والأفكار..

***

٤- **الاستسلام للفكر:**

مهما كنت ضعيفاً، لا تستسلم إلى الفكر الخاطئ. بل اثبت في قتالك مع عدو الخير، إلى أن تأتيك قوة من فوق لكي تنتشلك مما أنت فيه... بعمل النعمة من أجلك...

والضعف الروحي ليس هو حجة للسقوط، إنما هو حجة لطلب المعونة التي بها تقاوم الشيطان وأفكاره..

٥- **محبة الحكايات الخاطئة:**

لا تكن محباً لتأليف قصص خاطئة في ذهنك، تحاول بها أن تشبع رغبات خاطئة داخل نفسك!

وهنا تكون الخطية في داخلك، نابعة منك!

وكثيرون من هواة إشباع أنفسهم بلذة الحكايات الآثمة: إما أنهم يبدأون بها، أو أن الشيطان يلقي إليهم بفكر، فيؤلفون حوله حكايات طويلة لا تنتهي!

وتكون أمثال هذه الأفكار هى عمل إرادي لإشباع ما في نفس من رغبات أو شهوات، تتمثل أحياناً في أفكار انتقام، أو عظمة، أو زنا أو أحلام يقظة، وما إلى ذلك..

***

بداية الفكر الخاطئ:

١- إن فكر الخطية قد لا يبدأ بخطية!

لأنه لو بدأ هكذا، يكون قد كشف عن نفسه. وعندئذ يهرب منه القلب النقي، أو يطرده، أو يقاومه بكل السبل حتى لا يثبت..

إنه قد يبدأ بصورة خداعية. مثال ذلك بالعطف على الساقطين ومحاولة إنقاذهم. وهنا يستعرض نوعية السقوط ودرجته وأسبابه وقصصه. وربما ينفعل بكل ذلك انفعالاً إلهياً، فيسقط فكرياً في نفس الأمر! لذلك ليس كل إنسان يصلح في العمل على إنقاذ الآخرين، ولا في ميدان الإصلاح...

***

٢- والفكر الخاطئ قد يبدأ ضعيفاً!

بحيث يخيل إليك أنك تستطيع بسهولة أن تنتصر عليه... ولكنك كلما تستبقيه داخلك، وكلما تأخذ وتعطي معه... يثبت هو أقدامه ويقوى عليك، لأنك مكّنته من وضع اليد على أرض مقدسة في داخل نفسك. كما أنك - باستبقائك للفكر - قد أشعرته بأنك تريده، إذن فأنت عاجز عن طرده!

كذلك في استبقائه، يكثر إلحاحه عليك، وضغطه على مشاعرك وحينئذ قد تضعف أمامه، لأنك لم تعد في قوتك الأولى التي كانت لك في بداية الفكر، ولم يعد هو في ضعفه الذي بدأ به! فتصبح الحرب غير متوازنة، وتحتاج إلى مجهود أكبر للسيطرة عليها!

***

نقطة أخرى في سيطرة الفكر عليك بعد أن كان ضعيفاً، وهى أنك تخون الرب باستبقائك فكر الخطية. وبسبب هذه الخيانة، تتخلى عنك النعمة التي كانت مصدر قوتك، فيسهل بهذا سقوطك...

وهناك سبب آخر في تخلي النعمة عنك، هو أنه ربما كان في داخلك لون من الكبرياء والشعور بالذات يقنعك إنك أقوى من الفكر، وأنك تستطيع طرده في أية لحظة أردت! لذلك تتركك النعمة، لتشعر بضعفك، فتهرب في المستقبل بسرعة من أي فكر خاطئ يحاربك، وتصلي طالباً من الرب معونة.

١٦ / ١٢ / ٢٠٠٦

ما هى الفضيلة؟
وما مصادرها؟

ما هى الفضيلة؟ وما معنى عبارة "إنسان فاضل؟"

الفضيلة قد تعني البر والنقاوة. والإنسان الفاضل هو الإنسان الخيّر، البار، الذي يحب الخير ويفعله... وقد تعني الفضيلة أيضاً قوة في النفس، تمكّنها من الانتصار على كل نوازع الشر وإغراءاته، وتسير في طُرق اللَّه...

وربما تعني الفضيلة: الارتفاع فوق مستوى الذات.

بحيث يخرج الإنسان من التركيز على نفسه فقط، إلى الاهتمام بالآخرين. والى محبة اللَّه والناس. نقول هذا لأن الخطيئة كثيراً ما تكون انحصاراً حول الذات. حيث يريد الإنسان أن يرفع ذاته، ويُشبع رغبات ذاته ويمتعها..

***

والفضيلة هى أيضاً ارتفاع فوق مستوى اللذة.

لأن غالبية الخطايا قد تكون مصحوبة بلذة حسية، أو لذة نفسية. فتدور حول ملاذ الجسد أو الفكر أو النفس، وتصبح لوناً من إشباع الذات، وبطريقة خاطئة. فالذي يحب المال أو المقتنيات، إنما يجد لذة في المال وفي المقتنيات. وكذلك من يحب الزينة أو الطعام، ومن يحب المناصب والشهرة، إنما يجد لذة في كل هذا... ومن يحب الجسد يجد لذته في الجسد. ومن ينتقم لنفسه يجد لذة في الانتقام...

الخطيئة إذن هى سعي وراء اللذة، أما الفضيلة فهى ارتفاع فوق مستوى اللذة حتى تجد إشباعاً لها في السعادة الروحية.

والسعادة غير اللذة، وكذلك الفرح غير اللذة.

اللذة غالباً ترتبط بالحسّ، بالجسد والمادة. أما السعادة والفرح فيرتبطان بالروح. ولذلك فالفضيلة إذن تكون ارتفاعاً فوق الخضوع للمادة.

مصادر الفضيلة:

١- المصدر الأول للفضيلة هو الحفاظ على المبادئ والقيم.

فالإنسان الروحي المتمسك بالمبادئ والقيم، يمكنه أن يحيا حياة الفضيلة، لأن القيم التي يؤمن بها تحصنه فلا يستطيع أن يخطئ مهما حورب بالخطية، مثال ذلك يوسف الصديق .أما الإنسان الخاطئ فلا قيم عنده. والفضائل ليست لها قيمة حقيقية في نظره.إنه يكذب مثلاً، لأن الصدق لا قيمة له في نظره.

وبسبب ضياع القيم، يقع في الاستهتار واللامبالاه. فلا الواجبات لها قيمة، ولا النظام العام، ولا القانون ولا التقاليد. فهو لا يعبأ بشيء منها.

***

٢- من مصادر الفضيلة أيضاً: قوة الإرادة والعزيمة.

فقد لا يستطيع أن يسلك في الفضيلة، لأنه مغلوب من نفسه. فمهما أحب الخير، لا يفعله لأنه ضعيف الإرادة. وبسبب الضعف يقع في الخطية لأنه لا يستطيع أن يقاومها. والوقوع في الخطية يؤدي إلى مزيد من الضعف. ولهذا فإن كثيرين - لكي يحيوا في الفضيلة - يسلكون في تداريب روحية لتقوية إرادتهم.

لذلك نقول عن الإنسان الفاضل إنه إنسان قوي... قوي في الروح، وفي الفكر، وفي العزيمة والتنفيذ. إنه قوي في الانتصار على النزعات الداخلية، وقوي في الانتصار على الحروب الخارجية.

أما الذي تستعبده عادة رديئة، فهو ضعيف. والذي لا يستطيع أن يتحكم في لسانه، ولا في أعصابه، ولا في فكره، هو إنسان ضعيف. وبسبب هذا الضعف يبعد عن الفضيلة. وحتى إن تاب عن الخطية يرجع إليها مرة أخرى..

***

٣- ومن مصادر الفضيلة، الحكمة والمعرفة.

وهى المعرفة التي تميز بدقة بين الخير والشر، وبين اللائق وغير اللائق... والحكيم يسلك بالضرورة في حياة الفضيلة، بينما نَصف الخاطئ بأنه جاهل مهما كان من العلماء! إنه جاهل بطبيعة الخير والشر وجاهل بمصيره الأبدي، وجاهل بما تجلبه الخطية من

نتائج سيئة. جاهل لا يعرف خيره من شره، ولا نفعه من ضرره. وبالمثل نقول عن الملحد إنه إنسان جاهل حتى لو كان من الفلاسفة!

ولا نقصد بكلمة (جاهل) المعنى السطحي للكلمة التي تعني إنه لم يتعلم في مدارس أو على أيدي أساتذة. إنما هو جاهل من جهة الحكمة الإلهية، وجاهل من جهة المعرفة الحقيقية. وهو يحتاج إلى توعية وإرشاد.

وكلما يتعمّق الإنسان في الحكمة، فعلى هذا القدر يتعمق في فهم الأمور، ويعرف ما ينبغي أن يفعل...

* * *

٤- ولعل من أهم مصادر الفضيلة: مخافة اللَّه.

فالإنسان الذي توجد مخافة اللَّه في قلبه، لا يمكن أن يخطئ. وكما قيل في المزمور: "رأس الحكمة مخافة اللَّه".

إن الإنسان الروحي يخاف أن يكسر وصايا اللَّه، ويخاف من اليوم الذي يقف فيه أمام الديان العادل. إنه يخاف من العقوبة، ويخاف أن يفقد نقاوته وطهره. ويخاف أيضاً على سمعته، ويخاف من أن يكون عثرة لغيره. وهو أيضاً يبعد عن الخطية حتى بالفكر وبالنية، لأنه يخاف اللَّه الفاحص القلوب والعارف بالنيات. وبالمخافة يسلك في طريق الفضيلة، وبممارسة الفضيلة يحبها. وهكذا يسلك فيها عن حب وليس لمجرد الخوف...

* * *

٥- من مصادر الفضيلة أيضاً: الجهاد الروحي.

فالحياة الفضلى على نوعين: نوع يولد الإنسان بها، كما يقول المثل العامي: "مالك متربي؟ قال من عند ربي". وقد يرث الفضيلة والطبع الهادئ الطيب عن والديه، أو بالتربية السليمة والقدوة الحسنة.

أما النوع الآخر من الفضيلة، فهو ما يجاهد الإنسان لكي يصل إليه..

وحتى الذي يولد بالفضيلة، يحتاج إلى جهاد لكي يحافظ عليها...

ذلك لأن الشيطان عدو الخير لا يشاء أن يتركه في راحة، بل يحاربه محاولاً أن يفقده في فضائله. لهذا يلزم للإنسان أن يجاهد لكي يصمد أمام حروب العدو، ولكي يثبت في الخير ولا يتزعزع...

أيضاً يجاهد لكي يصل إلى أكمل مستوى في حياة الفضيلة. هنا الجهاد للنمو في عمل الخير، وليس لمجرد مقاومة الخطيئة..

***

٦- من مصادر الفضيلة أيضاً: النعمة الإلهية..

فمهما جاهد الإنسان، قد يفشل إن لم تساعده نعمة اللّه وتقوّيه. على أنه يجب عليه أن يتجاوب من عمل النعمة. وبهذا يثبت نيته الطيبة في محبة الخير. والاعتماد على نعمة اللّه لا يعني تكاسلنا وتراخينا...

***

٧- من مصادر الفضيلة أيضاً الضمير الحي:

وكما قال أحد الحكماء: إن الفضيلة بطبيعتها مغروسة فينا. وبهذا تكون الخطية هي مقاومة هذا الغرس الإلهي، أي الضمير الذي يدعو إلى الخير، ويبكّت على الشر. إنه يمثل الشريعة الطبيعية، غير المكتوبة التي تبكتنا إن بعدنا عن الفضيلة.

لذلك نجد أن الذي يخطئ، يشعر بالخجل والخوف والارتباك، طالما كان ضميره حياً: هذا إذا ارتكب إثماً لا توافق عليه القيم المغروسة فينا بالفطرة.

٢٣ / ١٢ / ٢٠٠٦

الفضيلة
تعريفات ومستويات

تعريفات:

ما أكثر الأسماء أو الصفات التي نطلقها على الفضيلة. وهى في مجموعها تعطينا فكرة عن كنه الفضيلة وتفاصيلها وطريقة السلوك فيها..

وسنحاول أن نذكر هنا بعضاً من هذه التعريفات:

١- الفضيلة هى محبة الخير:

إنها ليست في مجرد عمل الخير، إنما بالأكثر في محبة الخير. ذلك لأن الفضيلة التي تمارس من الخارج فقط، وليست صادرة من القلب، قد تكون رياءً. أو أن البعض يعملون الخير خوفاً من انتقاد الناس، أو خوفاً من عقوبة المجتمع أو عقوبة القانون، أو يفعلون ذلك خجلاً، أو من أجل المنفعة، أو لمجرد كسب مديح الآخر وليست حباً في الخير ولا حباً في الغير، أو رغبة في نوال مكافأة، أو مجاراة لتيار معين، أو تقليداً لغيرهم. كل ذلك بغير اقتناع من الداخل، وبغير رغبة! وربما يفعل الشخص ذلك وهو مُحرَج، لا يستطيع أن يمتنع أو يقول لا!! وعمل الخير لشيء من هذه الأسباب لا يمكن أن يُحسب فضيلة...

الفضيلة هى إذن حب الخير، حتى لو كان الإنسان لا يستطيع أن يفعله لسبب خارج عن إرادته، لوجود موانع تمنع التنفيذ عملياً...ولكن إن وُجدت إمكانية لعمل الخير، فلابد أن يعمله. لأنه حينذاك تجتمع نية القلب مع العمل والإرادة، لأن النية وحدها لا تفيد الآخرين..

فالفضيلة تبدأ في داخل القلب، وتنبع منه، في المشاعر والنيات والأحاسيس. ويكون عمل الخير هو التعبير عما في القلب من مشاعر طيبة..

٢- الفضيلة هى السلوك الفاضل

إنها تبدأ في الداخل، في القلب والفكر والروح. ولكنها تظهر في الخارج عن طريق الممارسة العملية. فالحب مثلاً هو فضيلة في القلب، ولكن لابد أن يتحول إلى عمل محبة في الخارج. فلا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق. هنا تظهر المحبة عن طريق العطاء والبذل والتضحية...

فضيلتك التي في فكرك لا يشعر بها أحد. ولكنك تعبر عنها بعملك. وكذلك محبتك لابنك التي في داخل قلبك، تعبر عنها بالعطايا والاهتمام وبالحنو. وأيضاً لا يكفي أن تقول إن محبتك للّه هى في قلبك، بل تعبر عنها بطاعتك لوصاياه.

وبالمثل: خشوع العابد في داخل قلبه، يعبر عنه بخشوع الجسد من الخارج. بالسجود والركوع في الصلاة. وحفظ الجسد أثناءها من طياشة الفكر والحواس. وبهذا يشترك الجسد مع الروح. وتكون الفضيلة من الداخل والخارج معاً..

إن حياة الشجرة في داخلها. ولكنها تعبر عن وجود الحياة فيها بالخضرة وبالزهر والثمر. ونحن نريد الفضيلة المثمرة، بالعمل الصالح، بالكلمة الطيبة، بالسلوك الحسن، بالمحبة العملية، بالقدوة المؤثرة في الغير...

***

٣- الفضيلة هى في الشخصية المتكاملة:

بحيث لا يوجد في من يمارسها أي نقص في سلوكه. وهذا واضح عملياً: فإن سلك في فضيلة ما، لابد ستقوده إلى فضائل أخرى كثيرة. كما أنه إذا فقد إحدى الفضائل، ما أسهل أن يجره السقوط إلى فضائل أخرى عديدة.. إنها سلسلة مترابطة إن انفك عقد أحدها، انفرط الباقي أيضاً...

فطالب العلم الذي يهمه مستقبله، يقوده هذا إلى الاجتهاد والعمل على التفوق. وهذا الاجتهاد يحثه على البعد عن اللهو. والبعد عن اللهو يبعده أيضاً عن أصدقاء السوء. والبعد عنهم ينجيه من القدوة السيئة. وهذا أيضاً يساعده على حياة الفضيلة... وهكذا تتعاون الفضائل معاً، ويؤدي بعضها إلى البعض الآخر. وبالمثل فإن الخطية تجر إلى خطايا أخرى.

***

٤- الفضيلة وضع متوسط بين رذيلتين:

أو هى وضع متكامل بين نقصين. ومن أمثلة ذلك:

الشجاعة هى الوضع المتوسط بين الخوف والتهور..

والتربية السليمة هى الوضع المتوسط بين التدليل والقسوة..

والتدبير الحسن لما تملكه هو الوضع المتوسط بين البخل والتبذير..

ويمكننا أن نذكر أمثلة عديدة لهذا الوضع المتوسط..

***

مستويات:

فيوجد نوعان من الفضيلة: وذلك من الناحية السلبية، والناحية الإيجابية. فالناحية السلبية هى مقاومة الخطيئة ورفضها. أما من جهة الناحية الإيجابية فهى عمل الخير.

وليست الفضيلة هى فقط البعد عن الخطيئة، إنما يجب الارتفاع عن المستوى السلبي، وذلك إيجابياً بالسلوك في حياة البر:

لا يكفي فقط إنك لا تكره إنساناً، إنما يجب أن تحب الكل...

لا يكفي أن تمتنع عن اللفظ بأية كلمة خاطئة، إنما يجب أيضاً أن تقول كلاماً للبنيان ينفع الآخرين.

ولذلك فإن الفضيلة ليست فقط أنك لا تضر الناس، إنما هى بالأكثر أن تعينهم بقدر إمكانك، وتعمل على راحتهم أو إسعادهم..

***

ومستويات الفضيلة تشمل الحسّ، والفكر، والقلب، والعمل.

فهناك المستوى الجسدي للفضيلة، والمستوى النفسي، والمستوى الروحي...

وعلى الإنسان أن يحفظ نفسه في كل مستوى، ويحترس من السقوط في غيره فمثلاً الحواس هى أبواب الفكر، وما تراه أو تسمعه أو تلمسه، قد يجلب لك أفكاراً. فلكي تحفظ فكرك، أحفظ حواسك. وإن أخطأت بالحواس، لا تجعل الخطأ يتطور إلى فكرك. وإن وصل الخطأ إلى الفكر، اطرده بسرعة، وحذار أن تجعله يتحول إلى مشاعر في قلبك. وإن تحوّل إلى مشاعر، لا تجعله يتطور إلى العمل بالضغط على إرادتك...

واعلم أن جميع المستويات تتجاوب مع بعضها البعض.

وقد يصير الواحد منها سبباً ونتيجة... فخطأ القلب يسبب خطأ الفكر. كما أن خطأ الفكر يسبب مشاعر للقلب. وربما الاثنان يدفعان إلى العمل. وكذلك المشاعر والعمل يقودان إلى خطأ الحواس.

إنها دائرة متصلة. أية نقطة فيها توصل إلى باقي النقاط.

وكما في الشر، كذلك في الخير: تتعاون كل المستويات معاً...

***

على أن أعلى مستوى في الفضيلة هو السعي إلى الكمال.

إن الذي يسلك في الفضيلة، يود أن ينمو فيها. ويستمر في النمو حتى يصل إلى الكمال الممكن له كإنسان. وأعني الكمال النسبي، نسبة إلى ما عنده من إمكانيات، وما يُوهب له من عمل النعمة فيه...

والسعي إلى الكمال يحتاج إلى التدرُّج.

والآباء الروحيون كثيراً ما كانوا يدربون أولادهم في نطاق هذا التدرُّج. لأن الطفرات السريعة في الفضيلة قد تؤدي إلى ارتفاع القلب والكبرياء، وأحياناً تكون لها نتائج عكسية. لكن القادة الروحيين كانوا يعملون على تثبيت أبنائهم في كل خطوة يخطونها. حتى إذا ما صارت شبه طبيعة عندهم، يتدرّجون منها إلى خطوة أعلى، ولا يصبحون في خطر من أية نكسة ترجعهم إلى الوراء...

أما إذا أرادت نعمة اللّه أن ترفع الإنسان إلى فوق مرة واحدة، فهذه هبة إلهية غير عادية.

***

والسعي إلى الكمال يحتاج إلى جهاد:

لأنه كما أن نعمة اللّه تساعد الإنسان على الارتفاع إلى فوق، فإن قوى الشر لا تريد أن تتركه في راحة، إنما تحاول أن تجذبه إلى أسفل. ومن هنا كانت محاولة الوصول إلى الكمال الروحي، هى صراع ضد الخطية وضد العقبات الروحية.

٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٦

العيد والفقراء

أحب أولاً أن أهنئ إخوتي المسلمين بعيد الأضحى المبارك، الذي يتذكّرون فيه كيف كان أبونا إبراهيم - أبو الآباء والأنبياء - مُستعداً أن يقدم ابنه ضحية للرب طاعةً لأمره، إذ كانت محبته للّه أقوى عنده من محبته لابنه فلذة كبده. ومُعطياً لكل الأجيال أمثولة عجيبة وقدوة لا مثيل لها في التضحية وفي طاعة اللّه. إنه درس عميق لنا ليتنا نتمثل به في العطاء والتضحية والبذل...

***

وإن كنا لسنا في مجال الظروف التي نتمثل فيها بأبينا إبراهيم، فعلى الأقل علينا أن نفعل ما نستطيعه في مجال التضحية ونبذل أفضل ما لدينا في ذكرى ما فعله أبونا إبراهيم...

وكمثال لذلك نضحي بجزء من متعتنا ومن مالنا، لأجل أخوتنا الفقراء، الذين من حقهم أن يفرحوا هم أيضاً بالعيد كما يفرح به باقي الناس..ولو بنسبة أقل...

نشركهم في بهجة العيد وفي متعته، وفي طعامه أيضاً، فيشعرون عملياً أنهم في يوم عيد. ولا نتركهم يقارنون بين بؤسهم وثراء غيرهم، حتى لا يطغي عليهم إحساس بالإحباط وبالحزن في مناسبة سعيدة!

وإشفاقنا عليهم في يوم العيد، سيجعلنا نتابع هذا الإشفاق باستمرار، وبطريقة عملية تخفف من ضيقاتهم...

***

وحينما أذكر الفقراء، إنما اذكر معهم المحتاجين والمعوزين. وأكثر من الكل: المعدَمين.. وكل هذه الأسماء الأربعة تحتاج إلى رعاية وعناية، وإلى قلب عطوف ويدٍ سخية.

فالفقراء هم الذين يعيشون في مستوى مالي واجتماعي أقل من العادي، ومع ذلك هم يكفون أنفسهم بالقليل الذي عندهم، في فاقة ولكن في اكتفاء، ويدبرون أنفسهم في ضيق وفي ضغط على مصروفاتهم...

أما المحتاجون فهم فقراء ولا يجدون الكفاية مطلقاً، وهم في عوز إلى ضروريات الحياة. إما بصفة عامة في كل أيامهم، أو في ظروف خاصة.

فمهما اكتفى الواحد منهم بإيراده الضعيف، فإنه يصبح محتاجاً في حالة زواج ابنته، أو في حالة مرضه أو مرض أحد من أسرته، أو في دفع المصروفات الدراسية لواحد من أبنائه... وما أشبه من الحالات التي يصبح فيها محتاجاً أياً كان راتبه الشهري. وهنا يضطر إلى الاستدانة. ولا يستطيع أن يسدد ما عليه. ويأتي الوقت الذي يرفض فيه أي إنسان أن يقرضه. وقد يضطر إلى كتابة شيكات عليه بدون أي رصيد، أو يكتب إيصالات أمانة. وما ينتظره في ذلك من مشكلات...

***

ما حال مثل هؤلاء في يوم العيد. وحاجيات العيد تزيدهم فقراً على فقر، وعوزاً على عوز! فإما لا يحتفلون بالعيد، أو يستدينون في خزي. وإما أن يشفق عليهم الأغنياء بطريقة ما...!

أما المعدمون فهم الذين لا إيراد لهم على الإطلاق. وقد يدخل في نطاق هؤلاء: من شردتهم البطالة بلا عمل، وصاروا عالة على غيرهم وثقلاً على أسراتهم الفقيرة...

فماذا يفعل هؤلاء أيضاً في أيام العيد؟! أتصير أيام بؤس لهم أكثر من غيرها؟! هل ينتهي بهم الأمر إلى موائد الرحمن؟! ثم أليسوا هم في حاجة إلى هذه الموائد كل أيام حياتهم ؟!

***

هناك نوعان آخران من عائلات المحتاجين: إحداهما الأُسر المستورة، التي تحيا في فقر، ولكنها تخجل من أن تعلن عن فقرها، ولا تحب أن يعرف شيئاً عن عوزها... مفضلة أن تحتمل العوز في صمت... هذه يمرّ عليها العيد دون أن تعلن حاجتها فيه، والله يعلم كيف تقضيه!

والنوع الثاني من الأسرات المحتاجة، هى الأسر التي لا تستطيع الإنفاق على أبنائها الصغار، فتطلقهم مشردين في الطرقات، وهم الذين تُطلق عليهم عبارة (أولاد الشوارع). وقد اهتمت الصحافة بالنشر عنهم في هذه الأيام، وقالت إن عددهم قد يصل أحياناً إلى مليونين!

ما مصير هؤلاء أيضاً في يوم العيد، كما في باقي الأيام؟ هل يضطرون إلى التسول، أم إلى الجريمة؟ أم تستخدمهم بعض العصابات؟!

* * *

هناك طائفة أخرى من الفقراء هى (أبناء وبنات الملاجئ). وهؤلاء هم أسعد حالاً عن غيرهم، إذ توجد جمعيات خيرية تهتم بهم، كما تشرف على رعايتهم وزارة الخدمة الاجتماعية أيضاً...

ولكنهم في يوم العيد يحتاجون إلى عناية من نوع آخر. فهم يحتاجون إلى الحنان والحب، وإلى الجو العائلي، وشعورهم باحترامهم لأنفسهم واحترام الآخرين لهم. ويحتاجون إلى أن تتنوع ملابسهم. فلا يكون لهم جميعاً زي واحد يميزهم، حتى يقول البعض عنهم: "هؤلاء هم أولاد الملجأ"! مما يؤثر على نفسيتهم وبخاصة الكبار منهم..

ويحتاجون أيضاً إلى هدايا في يوم العيد، حتى يتميز عندهم على باقي الأيام...

* * *

طائفة من نوع آخَر تحتاج إلى عناية في الأعياد، وهى طائفة المعوقين وأصحاب العاهات، وبخاصة من هم من المعوقين عقلياً...

وتوجد حالياً هيئات خيّرة تهتم بأمثال هؤلاء وأولئك. هذا من جهة حياتهم بصفة عامة. غير أنهم في الأعياد يحتاجون في إلى عناية ذات خاص، ممن تشاء أريحيتهم أن يتفرغوا لهؤلاء في يوم العيد، ولا ينسوهم باهتمامات عائلية...

يعوزهم في يوم العيد إنهم موضع اهتمام الغير، وأن ما يقاسونه من إعاقة، لم تتسبب في إعاقة المشرفين عليهم والمحبين لهم عن العناية بهم أيضاً. هم في حاجة إلى إشباع نفسي...

إن يوم العيد ينبغي أن يكون يوم فرح للجميع، لا يُغفل فيه عن أحد، فيستوي في الفرح: الفقير والمحتاج والمعوز والمُعدم.وأيضاً أبناء الملاجئ، وأطفال الشوارع، وكل المعاقين.

كذلك الاهتمام بالذين في السجون في زيارتهم وتقديم لهم بعض ما يحتاجون إليه. وبالأكثر الاهتمام أيضاً بأسراتهم.

ربما كان السجين - قبل سجنه - هو العائل الوحيد لأسرته. فلما دخل السجن أصبحت الأسرة بلا عائل، ويلزم لها من يتكفّل بإعالتها وبرعايتها وحمايتها في الظروف القاسية التي صارت تعيشها بعد سجن عائلها...

***

ففي يوم العيد لا يليق أن كل إنسان يهتم بذاته فقط، كيف يتمتع بهذا اليوم، دون الالتفات إلى غيره ممن يحتاجون.

فإن كان لا يستطيع أن يعتني بأولئك مباشرة، فليهتم بهم بطريق غير مباشر بتوسط غيره في القيام بهذه المهمة...

وليجعله اللَّه عيداً سعيداً على الكل. فإن اللَّه ذاته يهتم بالجميع، ويأمرنا أن نقوم بهذا الواجب.

وكل عام وجميعكم بخير، ومصر جميعها بخير.



٦ / ١ / ٢٠٠٧

ميلاد السيد المسيح
فاصل بين زمنين مُتمايزيْن

أبنائي وإخوتي الأحباء...

أهنئكم ببدء عام جديد، وبعيد الميلاد الجديد، راجياً لكم جميعاً، ولكل شعب مصر الذي باركه الرب، أياماً سعيدة هانئة، مملوءة من عمل نعمته.

إن العالم بميلاد السيد المسيح، قد بدأ عصراً جديداً، يختلف كلية عما سبقته من عصور. وأصبح هذا الميلاد المجيد، فاصلاً بين زمنين متمايزين: ما قبل الميلاد، وما بعد الميلاد.

فما هى هذه الجدة التي أعطت العالم صورة جديدة ما كانت له من قبل؟ أو ما هو ذلك التجديد الذي قدمته المسيحية، حتى قيل في الإنجيل: "الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديداً؟

لقد قدّم السيد المسيح مفهوماً جديداً للحياة، وتعبيرات جديدة لم تكن مستعملة من قبل، ومعاني روحية عميقة لجميع المدركات، حتى بهت سامعوه من كلامه، وصاحوا قائلين: "ما سمعنا كلاماً قط مثل هذا"...

جاء السيد المسيح ينشر الحب بين الناس، وبين الناس واللّه. يقدم اللّه للناس أباً، يعاملهم لا كعبيد وإنما كأبناء، ويصلون إليه قائلين: "أبانا الذي في السموات".

وفي الحرص على محبته، يفعل الناس وصاياه، لا خوفاً من عقوبته، وإنما حباً للخير. وفي هذا قالت المسيحية:

" اللّه محبة. مَن يثبت في المحبة، يثبت في اللّه واللّه فيه".

" لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج".

وهكذا قال السيد المسيح إن جميع الوصايا تتركز في واحدة. وهى المحبة: "تحب الرب إلهك من كل قلبك... ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. وتحب قريبك كنفسك. بهذا يتعلّق الناموس كله والأنبياء.

وأدخل المسيح تعليماً جديداً في المحبة، وهو محبة الأعداء والمسيئين. فقال: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مُبغضِيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم". وترى المسيحية في هذا، أن ردّ الإساءة بالإساءة، والاعتداء بالاعتداء، معناه أن الشر قد انتصر، بينما تعليم الكتاب هو: "لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير"، "إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقِه".

ويجب أن تنتصر المحبة، لأن "المحبة لا تسقط أبداً"، "مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة"...

+ + +

إن عبارة "اللَّه محبة"، عبارة جديدة على العالم، الذي ما كان يعرف سوى اللَّه الجبار المُخيف الذي يخشى الناس سطوته ويترضونه بالذبائح وألوان العبادات...

وعبارة "محبة الأعداء"، هى عبارة جديدة في المعاملات الإنسانية، بهت العالم لسماعها من فم المسيح...

+ + +

وفي المحبة، جاء المسيح أيضاً ببشارة السلام...

سلام بين الناس، وسلام بين الإنسان واللَّه، وسلام في أعماق النفس من الداخل.

سلام من اللَّه يفوق كل عقل. ولمّا وُلِد المسيح غنّت الملائكة: "وعلى الأرض سلام". لأنه جاء ليقيم صلحاً بين السماء والأرض، بين اللَّه والناس، بعد أن كانت الخطيئة تقيم حاجزاً بين الإنسان واللَّه...

وهذا الصلح أراده على الدوام أن يستمر في العلاقات الإنسانية. فقال: "إن قدّمت قربانك فوق المذبح، وهناك تذكّرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك قربانك قُدّام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك".

ذلك لأن الصلح أفضل من تقديم القرابين.

ويقول الكتاب: "أريد رحمة لا ذبيحة". وهكذا قال المسيح أيضاً: "كن مراضياً لخصمك سريعاً مادمت معه في الطريق". وقال أيضاً "من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً"...

وأراد السيد المسيح أن ينتشر السلام بين الناس، فقال لتلاميذه "وأي بلد دخلتموه، فقولوا سلام لأهل هذا البيت"، "وصية جديدة أنا أعطيكم، أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم"، "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي، إن كان لكم حب بعضكم نحو بعض"...

وفي سبيل السلام، دعت المسيحية الناس، أن يكونوا "مقدّمين بعضهم بعضاً في الكرامة"...

لأن المحبة يمكن أن تثبت عن طريق التواضع وإنكار الذات واحتمال الآخرين.

ولهذا قال السيد المسيح: "مَن أراد أن يتبعني، فلينكر ذاته، ويحمل صليبه ويتبعني".

وعبارة (إنكار الذات) عبارة جديدة قدّمتها المسيحية إلى العالم. وقبل ذلك كانت (الذات) صنماً يتعبّد له صاحبه، ويحب أن يكبر ويتمجّد...

+ + +

المسيحية دعت إلى أن ينسى الإنسان نفسه، في محبته لأخيه.

إنها المحبة الباذلة التي تعطى باستمرار، وتبذل حتى نفسها. وباستمرار تأخذ "المتكأ الأخير"، وتحتمل الكل لكي تربح الكل...

إنها المحبة التي تختفي لكي يظهر غيرها...

المحبة التي تقول: "ينبغي أن ذاك يزيد، وإني أنا أنقص". المحبة التي تقول للّه: "ليس لنا يارب، ليس لنا، لكن لاسمك القدوس أعط مجداً"...

+ + +

إنه التواضع في التعامل مع الناس ومع اللّه.

الذات التي تختفي، ولا تعلن عن نفسها، بل تفعل الفضيلة في الخفاء، والآب السماوي الذي يرى في الخفاء، هو يجازيها علانية. ومن هنا كان تعليم المسيحية "من سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة، سعت وراءه"...

وهكذا يقول السيد المسيح تعليماً جديداً على أسماع الناس: "من وجد نفسه يضيعها. ومن أضاع نفسه من أجلي يجدها".

ووضع المسيح مقاييس جديدة للقوة.

فالقوة ليست مظهراً خارجياً للقهر والانتصار على الغير، إنما القوة هى شيء داخلي، في أعماق النفس، للانتصار على الذات. فالذي يغلب نفسه خير ممن يغلب مدينة.

وفي المسيحية، ليست القوة هى أن نقهر الآخرين، إنما أن نربحهم ونحتملهم. فالذي يحتمل غيره هو القوى. أما المعتدي فهو الضعيف. ولهذا يقول الكتاب: "أطلب إليكم أيها الأقوياء أن تحتملوا ضعف الضعفاء".

إن المعتدي ضعيف لأنه مغلوب من خطيئته، مغلوب من العنف، ومن عدم محبته للآخرين، مهما بدا قوياً من الخارج. أما الذي يحتمل فهو قوي، قوي في ضبطه لنفسه، قوي في عدم انتقامه لنفسه...

+ + +

يعوزني الوقت يا إخوتي إن حدثتكم عن كل المبادئ الروحية الجديدة التي عرفها العالم بميلاد المسيح.

إنما يكفي أن نقول أن عصر ما بعد الميلاد كان جديداً تماماً في مفاهيمه. حتى شرائع اللّه السامية التي قدمها اللّه في العهد القديم، ما كان الناس يفهمونها إذ كان البرقع على عيونهم وقلوبهم وعقولهم، حتى كشف المسيح لهم ما في الشريعة من جمال وسمو... له المجد من الآن وإلى الأبد. آمين.

١٣ / ١ / ٢٠٠٧

أمثال شائعة
مع شرح وتعليق

ما أكثر الأمثال الشائعة، بعضها بالعامية وبعضها بالشعر.

وهى تجري عند الناس مجرى الحكمة. ولكن ليست كلها سليمة تماماً، وقد تحتاج إلى تعليق. ونذكر من بينها:

١- امشي على مهلك، علشان توصل بسرعة...

ويضرب هذا المثل بوجه خاص لسائقي السيارات الذين بسبب السرعة المتهورة تحدث لهم حوادث غالباً ما تعطلهم. فلو أنهم تجنبوا تلك السرعة، لأمكنهم تجنب الحوادث ووصلوا بسرعة.

ويمكن أن يستخدم هذا المثل للتحذير من كل سرعة ضارة.

وينضم إلى هذا المثل مثلان آخران هما

٢- في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة. وأيضاً.

٣- العجلة من الشيطان.

ويضرب هذا المثل بقصد التروي، والتفكير وعدم التسرُّع. ذلك لأن بعض الأمور التي تعمل بسرعة، لا تأخذ ما يلزمها من الدراسة.. ولكن يجب ملاحظة الفرق بين السرعة والتسرُّع.

التسرُّع مذموم. ولكن السرعة قد تكون واجبة أحياناً، كالسرعة في إنقاذ شخص في خطر، وفي إغاثة المحتاج، مثل السرعة في إطفاء حريق أو إنقاذ غريق. كذلك السرعة في أداء الواجب، والسرعة في التوبة قبل أن تمدّ الخطيئة جذورها في أعماق النفس. وأيضاً السرعة في دفع أجرة الأجير لأنه محتاج.

وبهذه المناسبة، نذكر أن أحد الشعراء في التأني:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

فردّ عليه شاعر آخر بقوله:

وكم أضرّ ببعض الناس بُطءٌ وكان خيراً لهم لو أنهم عجلوا

***

وفي هذا المجال لا ننسى المثل الشائع القائل:

٤- كل تأخيرة وفيها خِيرة (أي خير):

ولعل المقصود به التأخير الذي سببه التفكير والتروي أو الانتظار للاستشارة الحكيمة، أو الانتظار لتدبير الوقت المناسب...

ولا نستطيع أن نقول إن هذا المثل سليم في كافة الأحوال، فهناك أمور لا يكون التأخير فيها للخير. كالذي يتأخر في علاج مرض، فتزداد خطورته ويصبح غير قادر للعلاج.

وأمور كثيرة جداً يكون التأخير فيها مضراً، حتى في بعض الأمور المادية. مثل تأخير مشروع، حتى ترتفع الأسعار والأجور فتكون تكاليفه أكثر، ولا يكون التأخير فيه خيراً. وأيضاً التأخير الذي تضيع به بعض الفرص المتاحة.

نذكر بهذه المناسبة المثل القائل:

٥- اضرب الحديد وهو سخن.

ذلك لأنه في تلك الحالة يمكن طرقه وتشكيله. أما لو تأخرت حتى يبرد، يصعب ذلك العمل. ويضرب هذا المثل في انتهاز الفرصة المناسبة.

***

وهناك مَثل آخر يحتاج إلى تعليق وهو:

٦- امشي سنة، ولا تخطي قنة (أي قناة):

ويضرب هذا المثل في الحث على البعد عن الأخطار، ولو أدّى الأمر أن يتكلف الإنسان مزيداً من الوقت والجهد. أي اسلك في الطريق الأكثر أمناً، ولو كان طويلاً. فلا تختصر المشوار بأن تعبر قناة ربما تسبب غرقك. حتى لو اضطررت أن تمشي سنة.

وطبعاً عيب هذا المثل أنه ضد الجرأة والمخاطرة، بزيادة الحرص! وما أسهل أن يعبر الإنسان بدون خوف أو خطر.

هناك مَثل في الابتعاد عن التحدث في عيوب الناس، وهو:

٧- من كان بيته من زجاج، لا يقذف الناس بالحجارة.

لأنهم لو بادلوه حجراً بحجر، لا نهدم بيته كله. ويضرب هذا المثل للذي يتكلّم عن عيوب الناس وكله عيوب.

ولعل المثل مأخوذ من قصة المرأة الخاطئة التي أراد بعض معلمي اليهود أن يرجموها، وهم أيضاً خطاة. فقال لهم السيد المسيح: "مَن كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر".

ويشبه هذا المثل قول أحد الشعراء:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعِرضك ميّنُ

لسانك لا تذكر به عورة امرئٍ ... فكلّك عورات وللناس ألسنُ

وعينك أن أبدت إليك مُعايباً ... فصنها وقُل يا عينُ للناس أعينُ

***

ويشبه هذا الأمر المثل القائل:

٨- لا تعايرني ولا أعايرك، دا الهم طايلني وطايلك.

أي لا داعي لأن تعيب أحداً على خطأ أنت واقع فيه. أو لا تشمت في مصيبة إنسان، وأنت في نفس الحال.

***

مثل آخر عن إيذاء الآخرين، هو:

٩- اللي يشدّ ديل قط، يخربشه:

يضرب هذا المثل عن رد الفعل للإيذاء، فإنه يُقابل بإيذاء مثله.

لذلك ينبغي البعد عن التحرش بالغير.

وقيل عن المعاملات السيئة التي تطول وتستمر:

١٠- مِثل ليالي الشتاء طويلة وباردة:

ويقال ذلك عن العداوات والعلاقات التي تُتعب ولا تنتهي بسهولة. أو عن التجارب والضيقات التي تستمر زمناً.

(وللمقال بقية)

٢٠ / ١ / ٢٠٠٧

أمثال شائعة أخرى
مع شرح وتعليق

١١- كثرة العتاب تفرّق الأحباب:

لا مانع من العقاب في بعض الأمور بأسلوب فيه محبة. ولكن اذا كان الإنسان يعاتب على كل صغيرة وكبيرة، مظهراً في عتابه أخطاء أصدقائه، فربما يتعبون من كثرة نقده لهم ويبتعدون عنه، كما قال الشاعر:

إذا كنت في الأمور معاتباً   صديقك لم تلق الذي تعاتبه
فعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه   مقارف ذنب مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربه

ويقول مِثل آخَر:

١٢- من غربّلَ الناس نخلوه.

***

١٣- كل عقدة ولها حلاّل.

يُضرب هذا المثل، لكي لا ييأس أحد مهما كانت المشاكل. فلا توجد مشكلة بدون حلّ، بل يوجد من يحلّها. وكذلك كل باب مغلق له مفتاح يمكن أن يفتحه. والإنسان المؤمن يلجأ إلى اللّه، باعتباره حلال المشاكل..

أو قد يُضرب المثل في مدح ذكاء من يقدر على حلّ العقدة، أو في النصح باللجوء إلى المتخصصين في حل العقد.

ويشبه هذا التغير، مَثل آخر يقول:

١٤- وكل فولة لها كيّال.

أي كل نوع من الفول، له متخصص في كيله. فليس الكل سواء...

ويقرب من نفس المعنى، مثل يقول:

١٥- ما كل من لبس العمامة يزينها، ولا كل من ركب الحصان خيّال:

أي أن المظهر الخارجي لا يدل إطلاقاً على حقيقة الشخص، ولا كل من يشغل وظيفة هامة يمكنه أن يشرّف هذا المنصب.

وكلمة خيّال معناها من يتقن ركوب الخيل. فليس كل من ركب حصاناً يعتبر فارساً.

ويشبهه مَثل آخر يقول:

١٦- ما يجيبها إلاّ رجالها:

أي لا يقوم بالمسؤولية، ولا يحل المشكلة، إلاّ من اتصف بالرجولة.

***

١٧- إن فاتتك فرصة، فالتمس غيرها:

يُضرَب هذ المثل تشجيعاً لمن فشل في مرحلة ما، لكي يحاول مرة أخرى ولا ييأس مهما كانت الخسارة. وهو مثل يدعو إلى تجديد القوة، ورفع الروح المعنوية. ويكمّله مثل آخر يقول:

١٨- الجايات أكثر من الرايحات:

أي أنه سوف تجيء فرص ومناسبات أكثر من الفرص التي مضت. فلا تندم على ضياعها. وليكن لك رجاء في المستقبل.

***

١٩- يقتل القتيل ويمشي في جنازته.

يقال عن الذي يتسبب في مشكلة، ثم يأتي ليعزي من أصابته المشكلة، ويواسيه بكلمات طيبة!

***

٢٠- طلع من حفره، وقع في بير (بئر)

أي نجا من مشكلة بسيطة، فوقع في مشكلة أصعب.

***

٢١- خبطتين في الرأس توجع.

أي أن الإنسان قد يحتمل ضربة واحدة. أما إذا كثرت عليه الضربات والمشاكل وفي مناطق موجعة، فإن نفسيته تتعب.

* وهذا هو ما شكا منه أحد الشعراء فقال:

لو كان هماً واحداً لاحتملته   لكنه همٌ وثانٍ وثالثُ

* وقال آخَر عن توالي المتاعب:

كم أداوي الجرحَ قلّت حيلتي   كلما داويت جرحاً سال جرحُ

***

وفي توالي المتاعب، ضُرب المثل الآتي:

٢٢- خلّلي الميّه (١٠٠) ميّه وأردب:

أي أنه إذا وصلت الخسارة إلى مائة أردباً، فلا يفرق كثيراً إن كانت ١٠١

ويضرب المثل للمشاكل أو الأخطاء العديدة، إن زادت واحدة...

***

وعن الاغتياب والدسّ في الخفاء، قيل:

٢٣- قُل في وِشّه، ولا تغشّه.

أي تكلم معه مواجهةً وبكل صراحة، خير من أن تخدعه بكلام معسول، غير ما تبطن.

وقيل أيضاً عن مثل هذا المرائي الخدّاع:

٢٤- في الوِش مراية، وفي القفا سلاّية (أي شوكة).

وهذه العبارة تعطي نفس معنى المَثل السابق. أي لا تظهر أمام غيرك كأنك مرآة، لك نفس فكره ورأيه، بينما تكون شوكة في ظهره!

وقيل عن التأثير الذي يظل باقياً، مهما ابتعد صاحبه أو صمت:

٢٥- يموت الزمّار وصباعه بيلعب:

ويضرب هذا المثل للآثار التي تظل باقية، حتى بعد انتهاء خدمة أو مسؤولية صاحبها، سواء عن طريق إتباعه وحاشيته أو مؤلفاته. أو عن طريق تدخله الخفي في العمل، بعد تركه مسؤوليته فيه.

أو يُضرب المثل عن الشخص الذي تتخلص من زمالته، ولكن مؤامراته مازالت تلاحقك. أو يُضرب عن الشرّ الذي انتهى فعله، ولكن نتائجه مستمرة ولم تنتهِ.

***

٢٦- الديك الفصيح من البيضة يصيح:

أي تظهر شخصيته بمجرد أن يفقس (أي يخرج من البيضة). ويُضرب هذا المثل لمن يظهر نبوغه من صغره، أو من تظهر مقدرته بمجرد توليه المسؤولية.

***

٢٧- إيه رماك على المرّ، قال: اللي أمرّ منه.

أي أن ما دفعه إلى الشدائد، ما هو أشد منها. فاختار أخف الضررين.

***

٢٨- اللقمة الهنيّة تكفي ميّه (١٠٠).

أي أن القليل، إذا تقاسمه بالمحبة كثيرون، فإنه يكفيهم جميعاً.

***

٢٩- يعمل من الحبّة قبّة.

يُضرَب هذا المثل لمن يبالغ في الوصف، أو من يبالغ في المشاكل.

***

٣٠- طول البال يهدّ الجبال:

أي أن الصبر وطول الأناة، يمكّنك من الانتصار على أصعب العوائق، حتى لو كانت في ثقل الجبال.

٣ / ٢ / ٢٠٠٧

قصص تدل على ذكاء

الإنسان المثالي:

الأديب الأيرلندي الساخر "برناردشو"، كثيراً ما كان يتحدث عن الإنسان المثالي (Super Man) . فأتته مغنية أيرلندية جميلة جداً، وقالت له: "ما رأيك في أن نتزوج وننجب ابناً يرث ذكاءك وجمالي، ويكون هو الإنسان المثالي الذي نبحث عنه؟".

فاعتذر برناردشو عن قبول هذا الزواج. وبسخريته المعهودة قال لتلك المغنية الجميلة: أسف يا سيدتي، لأن نتيجة هذا الزواج غير مضمونة. فربما الابن المولود يرث جماله مني، ويرث ذكاءه منك!! فيصبح لا شيء...

***

عن أي شيء يبحث؟

وقيل عن "برناردشو" أيضاً: إنه كان بخيلاً ويحب المال. وكان لا يكتب أحد عبارة تذكارية إلاّ بمقدار ما يدفعه له من مال، بمعدل جنيه عن كل كلمة. وحدث أن أحدهم، ما كان معه سوى جنيه واحد، فأرسله إلى "برناردشو" ليكتب له عبارة تذكارية، فردّ عليه بكلمة واحده هى "شكراً" Thanks. فاغتاظ الرجل وقال له: "أنت إنسان تبحث عن المال. أما نحن فنبحث عن الكرامة والشرف. فأجابه "برناردشو" في هدوء: لك حق. فكل منا يبحث عما ينقصه...

***

المكان الرئيسي؟

قيل عن "بسمارك" أكبر السياسيين في أوروبا في زمنه، إنه دُعي إلى حفل، فلم يضعه المنظمون في المكان اللائق به. ولاحظ رئيس البروتوكول ذلك، فأسرع إليه معتذراً وقال له: "أنا آسف يا سيد "بسمارك"، لأنه كان يجب أن تجلس في المكان الرئيسي"، فأجابه "بسمارك" في هدوء: "لا داعي مطلقاً لأن تأسف. فحيثما جلس بسمارك، يكون هذا هو المكان الرئيسي"...

أبي أم الأمير؟

أحد الأمراء العظام، زار بيت رجل من كبار موظفيه. وكان لهذا الموظف الكبير ابن طفل مشهور بالذكاء، وقد أعجب به الأمير. فأراد أن يختبر ذكاءه، فقال له:

"بيت أبيك أعظم أم بيت الأمير؟"

وتحير الطفل بين إكرامه لأبيه وإجلاله للأمير. وأجاب بذكاء: "ما دام الأمير في بيتنا، يكون بيت أبي أعظم من بيت الأمير...".

***

من الأكبر؟

شيخ كبير في السن، زاره أحد الحكام وكان متوسط العمر. فسال أحدهم هذا الشيخ ليختبر أجابته:

من هو الأكبر: أنت أم الحاكم؟

فأجابه الشيخ في حكمة: الأمير هو الأكبر مني. ولكنني قد وُلدت قبلاً منه.

***

كبرياء من؟

قيل عن "أفلاطون الفيلسوف" إنه أقام حفلة للفلاسفة، وزين بيته بفاخر الرياش، وبالسجّاد الثمين جداً.

وكان بين المدعوين "ديوجين" الفيلسوف، وكان مشهوراً بالزهد، وتعجب كيف أن فيلسوفاً كبيراً كأفلاطون يفرش قصره بمثل هذا الفاخر! وداس بقدمه على السجاد مشمئذاً...

فسأله أفلاطون: لماذا تدوس على السجاد هكذا يا ديوجين؟!

فأجابه ديوجين: أنا لا أدوس على السجاد، إنما على كبرياء أفلاطون.

فقال أفلاطون: ولكنك تدوس على كبرياء أفلاطون بكبرياء!

***

بأي وجه تلقاني؟

دخل إلى السلطان رجلٌ كان قد أذنب إليه قبلاً. فقال له السلطان: بأي وجه قد جئت تلقاني؟!

فأجابه ذلك الرجل: بالوجه الذي سوف ألقى به اللّه - عز وجلّ - وذنوبي إليه أعظم، وعقابه أكبر...

فأعجب السلطان بإجابته. وعفا عنه.

***

الأسد، والثعلب

يُقال إن أسداً كبر في السن، وعجز عن أن يجري في الغابة معجباً بسلطته وقوته.. لذلك تمارض واعتكف في عرينه. وكانت الحيوانات تأتي إليه، لتطمئن على صحته وتواسيه في مرضه. أما هو فكان يهجم على الضعيف منها ويفترسه.

وحدث أن جاءه ثعلب في أحد الأيام ليؤدي واجب الاحترام له. ولكنه وقف عند باب العرين، وقال: سلام لك يا سيدي الأسد لقد جئت لأطمئن على سلامتك، وأدعو لك بالشفاء فقال له الأسد: ادخل إذن وسلّم عليّ... فاعتذر الثعلب عن الدخول. وقال له: لا أستطيع يا مولاي، لأنني أرى آثار أقدام كثيرة قد دخلت، ولا أرى أثر هذه الأقدام في خروجها...

***

القرد وعجل البحر.

جلس قرد على شجرة جوز الهند إلى جوار ترعة. والتقط ثمرة من ثمارها وألقاها في الترعة فأحدث ذلك صوتاً أعجبه، فألقى ثمره ثانية ثم ثالثة. وحدث أنه كان في الترعة عجل بحر، التقط هذه الثمار وظن أنها دليل محبة له من القرد الذي ألقاها له ليأخذها. فخرج وتحدث إلى القرد وأعجب بذكاء القرد وحكمته. وظل يتردد عليه كل يوم، ويسهر معه إلى ساعة متأخرة من الليل يتحدثان كصديقين. وهكذا كثر غيابه عن مسكنه وأسرته.

فتضايقت زوجة عجل البحر من كثرة غيابه وتأخره في الرجوع مساءً. وما كان منها إلاّ أنها شكت حالتها إلى جارة لها عجوز وحكيمة. فنصحتها هذه الجارة أن تتمارض. ومتى أتى زوجها ولاحظ مرضها وعجز عن معرفة سبب المرض وعلاجه، تقول له: الأفضل أن نستشير جارتنا العجوز...

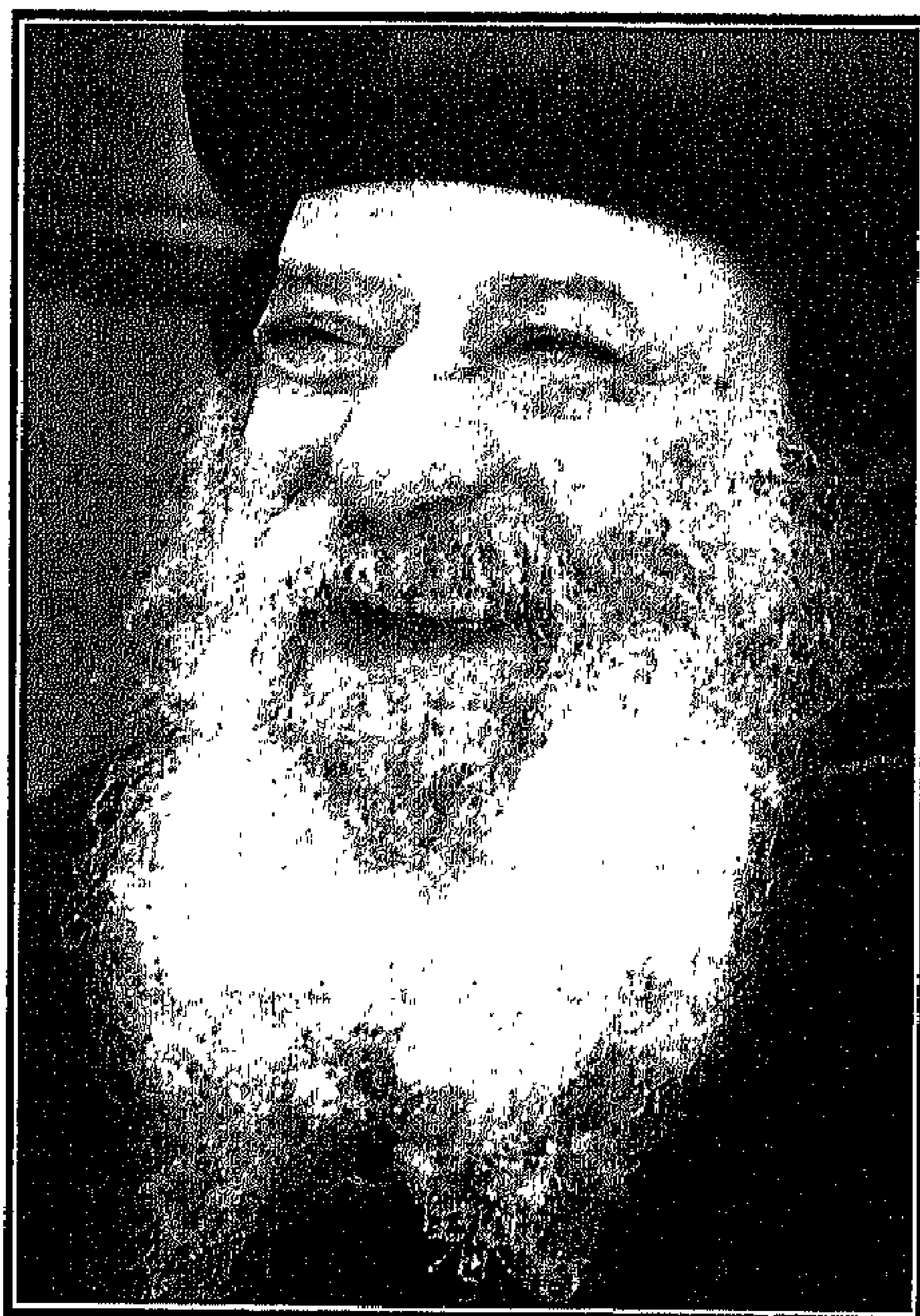
ونجحت الخطة. وحضر الزوج ولم يعرف كيف يتصرف في علاج زوجته، وكان يحبها. فأحضرا الجارة العجوز التي كشفت على الزوجة وقالت إن علاجها الوحيد هو

قلب قرد، إذ كانت قد عرفت أن سبب تأخره عن بيته هو بسبب صداقته مع القرد، وانشغاله في السهر معه...

ورجع الزوج كئيباً إلى شجرة جوز الهند حيث تقابل مع صديقه القرد. وفي حديثه معه، قال إن له بيتاً في جزيرة عبر النهر جميلة جداً وطلب من القرد أن يزوره هناك، فقبل منه ذلك. وقفز القرد على ظهر عجل البحر الذي سبح به إلى الجزيرة التي يوجد فيها بيته.

وكان عجل البحر كئيباً ومتحيراً في أمره ومفكراً: هل يترك زوجته لتموت في مرضها، وعلاجها الوحيد هو قلب قرد؟ أم يخون صديقه الذي يحبه، ويغطس في الماء، ويموت القرد الذي لا يعرف السباحة؟ ولاحظ القرد كآبة عجل البحر وحيرته فكلّمه بصراحة وأن علاج زوجته هو قلب قرد!

فأجابه القرد، وقال له: لماذا لم تخبرني بذلك عند الشجرة؟ ذلك لأن لنا عادة نحن القرود إننا إذا زرنا صديقاً لا نأخذ قلبنا معنا، لئلا نفتن بزوجته. فهلمّ بنا نرجع إلى الشجرة، وصدّقه العجل ورجعا. ولما وصلا قفز القرد إلى أعلى الشجرة وقال له: علاجك يا صديقي أن ترجع إلى زوجتك ولا تعود تسهر معي فتتأخر عنها..



١٠ / ٢ / ٢٠٠٧

قالوا عن المرأة

ما أكثر ما قيل عن المرأة، من حيث طباعها، ومن جهة علاقتها بالرجل، ومن جهة وضعها كزوجة، وكأم.

ولكنني في هذا المقال، سأختار بعضاً من تلك الأقوال، وأظن أن غالبية واضعيها من الرجال، وربما في بعض أقوالهم شيء من التحيز. وكنت أود أن أتناول هذه العبارات بالشرح أو التعليق. ولكني آثرت أن أذكرها كما هي، تاركاً للقارئ العزيز مجالاً للتأمل في تلك الكلمات، التي وإن كانت قصيرة، إلاّ أنها تحمل في طياتها عمقاً معيناً. لأنها صادرة عن خبرة مع الكثيرات.

وسوف ترون الموضوع مقسماً إلى بعض التفاصيل:

وصف المرأة وطباعها:

- قيل: المرأة كالقيثارة: من لا يحسن العزف عليها، تسمعه أنغاماً لا ترضيه.
- وقيل: إن المرأة كالنحلة: تصنع الشهد إذا أحبت. وتلسع إذا كرهت.. (ويقيناً هكذا الرجل أيضاً).
- وقيل: أعجب ما في المرأة أنها تستطيع أن تقنعك، دون أن تفتح فمها بكلمة..!
- وقيل: إن تكلمت المرأة، فاسمع ما تقوله عيناها.
- وقيل: ما دام عقل المرأة صافياً، فلا خوف على قلبها.
- وقيل: إن رقة المرأة هى وسيلتها المفضّلة لتثبت أنها على حق.
- وقيل: إذا كانت المرأة ذاهبة إلى المشنقة، فقد تطلب مهلة لكي تزيّن نفسها.
- وقيل: إن المرأة قد تبالغ في أي شيء، إلاّ في الحديث عن عمرها.
- وقيل: كثيراً ما يرهق المرأة أن ترى جيرانها يشترون شيئاً، قد تقدر هى على شرائه.
- وقيل: إن السرّ هو ما تقوله المرأة لكل الناس، وتطلب منهم كتمانه... (واعتقد أن كثيراً من الرجال يفعلون ذلك).

المرأة والرجل:

- قيل: قوة المرأة في جاذبيتها. وجاذبية الرجل في قوته.
- وقيل: لا خوف على المرأة من الرجل الذي يتكلم دائماً، إنما الخوف عليها من الرجل الذي يسكت.
- قيل: إن كان خلف كل رجل عظيم امرأة، فغالباً ما يكون خلف كل رجل فاشل أكثر من امرأة... (على أن للفشل أسباباً أخرى بلا شك)
- وقيل: إن الرجل الذي لا يؤمن بحقوق المرأة، هو إنسان ينسى أن أمه وأخته وزوجته من النساء.
- وقال جيته الشاعر: المرأة الصالحة تلهم الرجل العظيم،

والمرأة الجميلة تخلب قلب الرجل التافه

- وقيل: المرأة هي أقرب إلى السماء من الرجل، لأنها قد تغفر للرجل أكثر الزلات، بينما هو لا يغفر لها أبسط الأخطاء...
- وقيل: إن البكاء للمرأة مثل القمار للرجل:

إما أن تكسب به كل شيء، وإما أن تخسر به كل شيء

***

الخطوبة والزواج:

- قيل: إن أصعب اختيار في الزواج، هو أن تقف الفتاة بين رجل يحبها، ورجل هي تحبه.
- وقيل: إن الفتاة العاقلة هي التي تفضل أن تتزوج رجلاً لا رصيد له في البنك، بدلاً من أن تتزوج رصيداً بلا رجل.
- وقيل: في فترة الخطوبة يتكلم الشاب وتصغي الفتاة،

وبعد الزواج، يتكلّم الزوج والزوجة ويصغي الجيران.

- وعن الزواج، قيل: إن الزواج هو نصف يبحث عن النصف الآخر.
- وقيل: إن تزوج الأبناء بالإكراه، ليس هو فقط جريمة في حد ذاته، إنما هو مقدمة لجرائم كثيرة في مستقبل حياتهم.

العلاقة بين الزوجين:

- قيل: الرجل هو رأس امرأته، والمرأة هى مفتاح زوجها.
- وقيل: إذا تنازلت عن رأيك وأنت مخطئ، فأنت رجل عاقل، أما إن تنازلت عن رأيك وأنت مؤمن بصوابه، فأنت إذن رجل متزوج.
- وقيل: إن الدبلوماسي هو الذي يتذكر عيد ميلاد زوجته، وينسى سنّها.
- وقيل: إن المرأة الخفيفة على القلب، غالباً ما تكون ثقيلة على الجيب.
- وقيل: ما أكثر النساء اللواتي يستمعون قلب الرجل، وما أقل اللواتي يمتلكنه.
- وقيل: قد تغفر المرأة الخيانة، ولكنها لا تنساها.
- وقيل: المرأة دائماً ترى زوجها على حق، إذا اعترف أنه مخطئ.
- وقيل: المرأة أكثر احتمالاً من الرجل. يكفي أنها تحتمل سطوة الرجل وسيطرته وأوامره التي لا تنتهي.

***

المرأة كأم:

- قيل: لا تكون المرأة أماً بولادتها للبنين، إنما هى تصبح أماً حقيقية بتربيتها للبنين.
- وقيل: أعمق عاطفة في المرأة هى الأمومة.
- وقيل: محبة الأم أعمق، ومحبة الأب أصدق.
- قالت أم: ابني هو ابني إلى أن يتزوج. وبنتي هى ابنتي مدى الحياة.

١٧ / ٢ / ٢٠٠٧

الضعف
أنواعه وأسبابه وعلاجه

على الرغم من محبه الناس للقوة وتمجيدهم لها، إلاّ أنه لا تزال هناك ضعفات يتصف بها البعض، وتكون سبباً للشكوى، أو سبباً للألم. وقد يوجد شخص قوي بصفة عامة، إلاّ أن له ضعفاً في زاوية معينة من حياته، أو في جانب معين من تصرفاته...

فما هي إذن أنواع الضعف؟ وكيف يمكن معالجة كل نوع منها؟ وما هو موقف الأقوياء من الضعفاء؟ هذا ما نود أن نتحدث اليوم عنه...

أنواع الضعف:

١- قد يوجد عند إنسان ضعف، لا ذنب له فيه:

مثال ذلك ضعف وصل إليه عن طريق الوراثة، أو ظروف ولادته. سواء كان ذلك الضعف في جسده، أو في قواه العقلية، أو في مستوى اجتماعي ضعيف، أو في أسرة لا تساعده على الحياة السويّة، أو أنه نشأ بأسلوب تربوي خاطئ ترك في نفسيته ضعفات تتعبه في مستقبل حياته...

ونلاحظ أن ضعف الجسد قد يقاسي منه الإنسان الروحي أيضاً. إذ لا يقدر على ممارسات روحية معينة بسبب ضعف جسده وعدم قدرته. فعلى الإنسان الروحي ألاّ يصيبه هذا بالإحباط، بل يعمل على قدر ما يحتمله جسده...

***

٢- وقد يوجد شخص، أعصابه ضعيفة:

وهو لهذا السبب ضعيف الاحتمال، يثور ويغضب بسرعة، ويغضب بسرعة، ويخطئ في غضبه. ويحتاج إلى إنسان قوي وطويل البال ورحب الصدر، يمكن أن يحتمله. إذ يجب على الأقوياء أن يحتملوا ضعفات الضعفاء. ومعروف أن الإنسان القوي هو الذي يستطيع أن يحتمل. أما الغضوب الذي يثور ويخطئ إلى غيره، فهو الإنسان الضعيف...

على أن الغضوب يلزمه أن يعالج الضعف الذي فيه، أعني الغضب:

وذلك بأن يبعد عن أسباب الغضب، وعن المجالات التي تثير أعصابه. فيمارس تداريب روحية في البعد عن الغضب. ويقوّي أعصابه من الناحية الجسدية. ويتأنى في انفعاله وفي ثورته. ويفكر في النتائج السيئة لغضبه ونرفزته قبل أن يغضب. ويتدرب على ضبط النفس. كما يقرأ كثيراً عن الودعاء والهادئين محاولاً أن يتأثر بسيرتهم ويتمثل بهم. ويحترس من أن يقول: "**هكذا طبعي**"! فالمفروض أن ينتصر على طبعه...

* * *

٣- هناك نوع آخَر من الناس ضعيف في إرادته:

فالخير الذي يقتنع به، يعجز عن تنفيذه. إذ تنتصر شهواته أو طباعه على اقتناعه، فيضعف. أو قد يكون مثل هذا الشخص، من طبعه التردد. فإرادته لا تستطيع أن تقرر ما ينبغي أن يفعله. وإن قرّر شيئاً، لا يمكنه أن يثبت فيه، بل تراوده أفكار أخرى...

وتوجد تداريب كثيرة لتقوية الإرادة. وقد يستطيع أن يقوّي إرادته، عن طريق التغصب، وقهر الذات في أخطائها، أو عن طريق الصوم. كما يصلح له أن يستشير مرشداً روحياً يثق تماماً بحكمته، ويخضع لإرشاده...

وإن كانت هناك عادة تسيطر عليه، ينبغي أن يقاومها، ولا يستسلم لها، لأن هذا الاستسلام يزيده ضعفاً على ضعف...

٤- يوجد إنسان آخر يتعبه ضعف إيمانه:

له إيمان نظري، ولكن هذا الإيمان من الناحية العملية يمكن أن يضعف. وإن تعرّض لمشكلة، ينهار أمامها ويخاف. ويدل انهياره على ضعف إيمانه بحفظ اللّه له ورعايته وحمايته. وإن صلى صلاة، ولم يشعر باستجابة سريعة، يبدأ أن يشك في جدوى الصلاة وفي معونة اللّه! بينما يكون الحلّ قادماً من عند اللّه، ولكن هذا الضعيف لم يستطيع أن ينتظر! بل هو يحتاج أن يثق بأن اللّه يعمل لإنقاذه، مهما بدا له أن المعونة قد تأخرت!

* * *

٥- نوع آخر من الضعف هو ضعف النفسية:

وهذا النوع من الناس الضعاف النفسية يسمونهم أحياناً "صغار النفوس". وهم يقلقون بسرعة ويخافون ويضطربون، بل قد ينهارون ويبكون. وربما يقعون في اليأس. وهم

قليلو الاحتمال، وسريعو الانفعال، ويحتاجون باستمرار إلى من يسندهم. وقد يكون البعض منهم كبيراً في سنّه، ولكن له نفسية الصغار..!

***

٦- نوعيات أخرى من الضعف:

* منها ضعف العقلية. ويتمثّل في من يتّصفون بمستوى ضعيف في درجة الذكاء، ويشمل ذلك ضعفاً في الذاكرة...
* وهناك أيضاً ضعف الشخصية. ومن صفاتها العجز عن التصرُّف السليم، وسهولة الانقياد، وسرعة التحوّل، وعدم الثقة بالذات..
* أما ضعف الروح فهو الذي يستسلم للخطيئة بدون مقاومة تُذكر، ولا يصمد أمام حروب الشياطين وإغراءات المادة وشهوات الجسد..
* من بين أنواع الضعف أيضاً: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة..

***

موقفنا من الضعفاء:

إن كنت أنت ضعيفاً، فلا تيأس من ضعفك، بل حاول أن تعالجه. وإن رأيت شخصاً ضعيفاً، فلا تحتقر ضعفه، بل تذكر الحكمة التي تقول: "**شجعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء، تأنّوا على الجميع**"..

لذلك افتحوا طاقة من الرجاء، لتضيء على الذين يسيرون في الظلمة خائفين ومضطربين. امنحوهم ثقة، وحدثوهم عن تدخُّل اللَّه في حياتهم ولو في آخر لحظة. واحكوا لهم قصصاً عن الذين سقطوا وقاموا وصاروا من الغالبين، ومن الذين فشلوا أولاً ثم نجحوا أخيراً، ومن كفاح الضعفاء..

الإنسان القوي، لا يجوز له أن يفتخر على الضعيف، ولا أن يستصغروه، ولا يشهر به. بل على العكس يشجعه، ويمنحه من القوة التي فيه التي منحه الرب إياها. واللَّه نفسه - تبارك اسمه - يعتني بالضعفاء، كما يعتني بالأطفال، ويسندهم، ويشفق عليهم.

وكل إنسان معرّض للضعف أحياناً. والذي تدفعه الكبرياء إلى احتقار الضعيف، ما أسهل أن يضربه الشيطان فيضعف أو يسقط..!

معالجة الضعف:

١- مهما كنت ضعيفاً، لا تيأس:

لا تفقد الأمل مطلقاً. لأن اليأس يحطم النفس، ويجعلك خائر القوى، تستسلم للضياع، وتستمر في الضعف وفي الخطأ، وكأنه لا فائدة من الجهاد!! ضع أمامك أمثلة لمن كانوا في حالة أسوأ من حالتك، وقد خلّصهم اللّه من نقائصهم.

٢- جاهد بكل ما عندك من قدرة مهما كانت ضئيلة.

وجهادك يدل على رغبتك في القيام، متذكراً أن أطول مشوار كانت أوله خطوة، وأن أكبر مشروع ناجح كانت بدايته فكرة. وأن حفنة من القمح ترميها في الحقل تنتج لك جوالات من الحنطة.

٣- ابحث عن سبب ضعفك، وحاول أن تعالجه:

سواء كان في داخل نفسك من صفة فيك، أو من تأثير خارجي عليك أن تقاومه وتبعد عنه. واعرف أن كل مشكلة لها حلّ أو حلول، وأن كل باب مغلق له مفتاح أو عدة مفاتيح. وكل مرض له وسائل للعلاج..

٤- اطلب معونة من اللّه، واجعل ضعفاتك مجالاً لصلواتك:

وكن واثقاً أن اللّه يسمع وأنه يستجيب، لأنه يحب الخير لك، ويعمل لأجل منفعتك. وعليك أنت أيضاً أن تعمل. فالمعونة التي تأتي من فوق يمكن أن تسند الضعف الذي يجاهد ولا يكل وكن باستمرار متفائلاً، متوقعاً خيراً. وليكن اللّه معك.

٢٤ / ٢ / ٢٠٠٧

أهمية حُسن العلاقات

كثير من الأمور تُحلّ بحسن العلاقات أكثر مما تُحل بالقانون أو بالقضاء. بل أن القانون لا يتدخل إلاّ إذا ساءت العلاقات ولم يستطع الناس فيما بينهم أن يحلّوا مشاكلهم... وهنا يعجبنا المثل القائل: "إذا اصطلح الخصمان استراح القاضي". فكم بالأكثر إن لم تكن هناك خصومة على الإطلاق...

فما هي إذن هذه العلاقات؟ وما أنواعها؟

الناس في علاقاتهم على ثلاثة أنواع: إما إنسان يصنع صداقاتٍ وسلاماً peace maker. وإما إنسان مشاكس يصنع عداوات ومشاكل trouble maker. وإما إنسان لا علاقات له، لا عداوات ولا صداقات! هو إنسان منعزل، أو بالتعبير العامي "في حاله" أو محايد neutral

ولكنك يا أخي تعيش في مجتمع، ولست في عزلة من الناس. وبالضرورة لابد أن تكون لك علاقات.

لك علاقات في محيط أسرتك، وفي محيط جيرانك، وفي مجال عملك مع الزملاء أو الإدارة. بل وفي أماكن العبادة أيضاً، كما في نطاق التسلية والترفيه كذلك. فما هو دورك في هذا كله؟

ما هو موقفك من مبادئ التعاون، وحسن الجوار، ولوازم المجاملة، والمشاركة الاجتماعية والعاطفية، ومواقف التهنئة أو التعزية؟

***

هل تتجاهل مشاعر الناس؟ أم الواجب أن تشاركهم في مشاعرهم؟

هل يحدث كل ما يحدث، وكأنك أنت لست هنا، لا تحس ولا تدري!! هل تقول إنني لم أعرف الأخبار حتى أشارك؟! أو لا يعني هذا عدم اهتمامك! لأن الاهتمام بالغير يعني السؤال عن أخباره والاطمئنان عليه... أما عدم الاهتمام فيدل على نقص المحبة أو انعدامها...

وأنت - إن تجاهلت الناس - فتجاهلوك بالمثل... ماذا يكون شعورك وقتذاك؟ ألاَ تستاء، بل تحزن، وتشعر بإهمال الناس لك؟ إذن ما تريد أن يفعله الناس معك، افعله أنت أيضاً معهم.

***

إن الإحساس بالناس، ومجاملتهم، أمران هامان في الحياة الاجتماعية..

نحسّ بالآم الناس ونشاركهم مشاعرهم، ونشعرهم بحبنا لهم، وعدم التخلي عنهم في ضيقتهم. وهكذا يكون مما يؤثر النفس بزيارة شخص في مرضه، والتخفيف عنه بكل دعاء أو كلمة رجاء، أو تقديم باقة من الورد له، أو الاطمئنان عليه من أطبائه. هذا يترك أثراً كبيراً في نفسه، والعكس أيضاً صحيح. فالذي لم تزره في مرضه ولم تطمئن عليه ولو بمكالمة تليفونية، لابد سيشعر بتقصيرك في حقه ويؤلمه ذلك منك.

نفس الوضع في تعزية الحزانى. سواء كان ذلك في وفاة أحد المحبين، أو في ورطة وقع فيها، أو في تحقيق رسمي معه، أو في أية مشكلة حلّت به. كل ذلك يشعره أنه محاط بقلوب تحبه وتخلص له، وترجو له الخير...

وتكون هذه المشاركة الوجدانية مع الكبير ومع الصغير: مع زميلك أو رئيسك في العمل، ومع القريب والغريب. بل مع خادمك أيضاً وتلميذك وابنك، ومع جارك أو صديق. فيشعر الكل أنك مُحب ومُخلّص، ولك قلب شفاف، ومشاعر طيبة.

***

لا ننسى أيضاً مشاركة الناس في احتياجاتهم المادية.

ولو في السرّ، وبطريقة غير ملحوظة وغير جارحة. هناك محتاجون ويطلبون في صراحة أن تساعدهم وتسندهم في احتياجاتهم. وعليك أن تساعدهم بنفسك أو توصي عليهم من يعينهم مالياً.

وهناك نوع آخر يحتاج ويستحي أن يطلب أو أن يعلن عن احتياجه. وواجبك أن تساعد مثل هذا في السرّ. ونحن نسمي هذه النوعية بالأسر المستورة. وتحتاج مساعدتهم إلى لباقة وستر. ومن أمثلتهم من تضطره ظروفه الصحية إلى عملية جراحية تكلفه ما هو فوق طاقته، أو قد يحتاج إلى مجرد ثمن الدواء ولا يجد.. أو يضطر إلى الاستدانة في تزويج ابنته، أو في تهيئة سكن لابنه أو في دفع مصروفاته الدراسية.

أما أن نشعر باحتياجات الناس ولا نهتم، فليس هذا نبلاً، ولا يتفق مع المبادئ الإنسانية، ولا مع العلاقات الاجتماعية!!

***

نقول نفس الكلام بالنسبة إلى المسئولين الذين يدفعون للعاملين تحت إدارتهم أجوراً زهيدة أو مرتبات لا تغطي احتياجاتهم.

وهنا تأتي علاقة صاحب العمل بالعاملين الذين يأخذون أجرهم منه، وهل هو يكفيهم في حياتهم أم لا؟ وكلما كان صاحب العمل سخياً في العطاء، وفي الحوافز والعلاوات، وفي مراعاة موظفيه صحياً واجتماعياً ومالياً... على هذا القدر تكون محبتهم له، وعرفانهم بجميلة، ودعاؤهم له بأن يكافئه اللّه حسب هذا الحنو الذي يمتلئ به قلبه من ناحيتهم...

***

إن المجتمع لا يحتاج إلى علماء يكتبون في علم الاجتماع أو علم النفس، بقدر ما يحتاج إلى قلوب نبيلة تحسّ احتياجات الناس وتساهم في إراحتهم..

ما أجمل عبارة: "فرحاً مع الفرحين، وبكاءً مع الباكين". وما أنبل القلب الشفوق الذي لا يستطيع أن ينام، بينما جاره أو صديقه في ضيقة وما أعظم قدر الذين يتعبسون لأجل غيرهم.

وكل مسئول في منصب معين، سوف لا ينسى له الناس مساهمته في إراحتهم. تنقضي فترة مسؤوليته في وقت ما، ولكن سيرته الطيبة لا تزول مطلقاً من ذاكرة الناس، بل يذكرونه بالخير في كل علاقاته الطيبة معهم.

إن المسألة ليست مجرد إدارة، إنما بالأكثر هى رعاية.

***

وهنا نتذكر أن في غالبية المصالح والشركات والمؤسسات، بل وفي الوزارات أيضاً إدارة هى (العلاقات العامة Relations Public) فهل هى مجرد إدارة عبارة عن موظفين وكتابات ومراسلات وباقي الأعمال الإدارية، أم هى علاقة عملية دعامتها المودة والصلة الهادفة للخير عملياً وحسن العلاقات؟... إن كان الأمر كذلك، فسوف تؤول الأمور إلى الخير بمشيئة اللّه. أما إن اقتصرت على الرسميات وكفى، فإنها تكون قد فقدت هدفها النبيل.

٣ / ٣ / ٢٠٠٧

اكسب قلوب الناس ومحبتهم

الإنسان الحكيم هو الذي يعمل باستمرار على زيادة عدد محبيه، وتقليل عدد من يعاديه. يبذل جهده - على قدر طاقته - في أن تحيط باستمرار قلوب تحبه. ولا يفسح مجالاً لتكوين عداوة مع أحد، واضعاً أمامه قول سليمان الحكيم: "رابح النفوس حكيم"...

وفي علاقاته مع الآخرين، يتذكر تلك النصيحة الغالية: " **من لا توافقك صداقته، لا تتخذه لك عدوّاً** ".

ذلك لأن العداوة نار ربما تحرق الطرفين، أو على الأقل طرفاً واحداً منهما. فهى إذن خسارة ينبغي أن يتفاداها كل حريص...

***

والذي يعمل على ربح النفوس، فليس يعمل ذلك لمجرد صالحه، وإنما لصالحهم أيضاً. ولأجل تنفيذ وصية اللّه في أن يسود السلام بين الجميع، وأن تتنقى القلوب من كل ضغينة وحقد، ويتفرغ الناس للعمل الإيجابي البنّاء، بدلاً من إضاعة الوقت وتبديد الطاقات في السلبيات وفي الصراع. وكذلك لفائدة المجتمع كله حتى يكون بناءً راسخاً يشد بعضه بعضاً... ويتعاون فيه الكل على عمل الخير، وإعطاء صورة جميلة للقيم، وإعطاء صورة جميلة للقيم وللأخلاقيات المعاشة.

***

إن ربح النفوس هو مبدأ رعوي واجتماعي. وهو مبدأ روحي وإداري في نفس الوقت...

فهو لازم جداً لحفظ كيان الجماعة، سواء على مستوى الأسرة أو الدراسة، أو الإدارة والنظام، أو العلاقة مع اللّه ومع سلام الإنسان داخل نفسه...

ففي الأسرة، على الزوجين أن يربح كل منهما الآخر، فيعيشان في سلام، لا يختلفان ولا ينفصلان، بل يراعى كل منهما نفسية الآخر، ويعمل على حفظ المودة مهما اختلفت وجهات النظر إلى الأمور أحياناً. ويجتهد الاثنان في كسب محبة أبنائهما باستمرار،

لا عن طريق التدليل الخاطئ، ولا بأسلوب الحزم القاسي، وإنما بالرعاية والعناية. وهكذا تكون الأسرة مترابطة.

ولذلك فالأم التي تشكو من متاعب أبنائها، ومن عصيانهم لها أو تمردهم عليها، إنما تعترف ضمناً أنها لم تكسب محبتهم منذ طفولتهم، ولم تكوّن صداقة معهم تحفظهم تحت إرشادها...

* * *

كذلك ربح النفوس لازم في محيط المدارس والمعاهد العلمية.

والمدرس الناجح يتميز بمحبة تلاميذه له، والتفافهم حوله ناظرين إليه كأب ومرشد وصديق، يحترمونه ويثقون برأيه ونصائحه كما يثقون بعلمه وثقافته. وهذا المدرس الناجح - في ربحه لقلوب تلاميذه - لا يقتصر عمله على التدريس، وإنما يشمل أيضاً التربية والتهذيب، وإعداد جيل نافع لخدمة الوطن ومنتج في محيط المجتمع.

* * *

ربح النفوس يلزم أيضاً في مجال العمل والإدارة:

فكل مَن يريد عملاً، عليه أن يجمع العاملين معه، في رابطة قوية من الإخلاص له والأمانة في العمل. وذلك بما يظهره لهم في كل مناسبة من الاهتمام بهم، وحُسن معاملتهم، ورعايتهم مادياً وصحياً. فلا يكون مجرد رئيس يأمر وينهي، ويحاسب ويعاقب، وفي حزم يحرص على سلامة العمل، إنما يكون أيضاً قلباً شفوقاً على العمال، تربطهم به محبة وولاء إلى جوار الطاعة والاحترام..

إن ربح نفوس العاملين والموظفين، هو الضمان الأساسي لسير العمل ونجاحه، وهو ضمان لاستمرار العمل وحفظه من التظاهر والاعتصام والاحتجاج والمطالبة بحقوق يرون أنها غير متوفرة !!

* * *

ورابح النفوس، يتصف بأنه يهتم بالكل ويكسب الكل:

يفهم نفسية الآخرين، ويعاملهم بما يناسبهم. يهتم بالتعابى ويعمل على إراحتهم. ويربح الضعفاء وصغار النفوس ويشجعهم ويتأنى عليهم ولا يطالبهم بما هو أكثر من

قدراتهم. يحاول أن يكسب المقاومين، فلا يكون سريع الغضب أو ميــالاً إلــى المجــازاة والانتقام. بل يتصف بالتسامح والصبر والاحتمال.

أيضاً يحاول أن يحتفظ بكسب الأصدقاء. ولا يخسرهم بكثرة العتاب وشدته. إنما يذكر باستمرار مودتهم، ويغمض العين عن ضعفاتهم أحياناً، ولا يركّز عليها.

وبالنسبة إلى عموم الناس، يربحهم بالقدوة الحسنة وبالمعاملة الطيبة وبــالجواب اللــين الذي يصرف الغضب.

***

ورابح النفوس يحترم الكل، ولا يستهزئ بأحد أو يتهكم عليه.

ولا يكون نقّاداً ينظر باستمرار إلى النقط السوداء متجاهلاً فضائل الآخَرين.

ورابح النفوس لا يداهم الناس في طريق الحياة، إنما يحب الكل، ويرجو الخير للكــل، ويفرح بنجاح غيره، دون أن يعتبر أحداً منافساً له أو معطلاً.

ويكون مجاملاً في شتى المناسبات. يشارك الناس في مشاعرهم ويكون خدوماً، يساعد من يحتاج إلى مساعدة، ويأخذ بيد الساقط حتى يقوم، ويتعاون في كل عمل خيّر...

ورابح النفوس ينبغي أن يكون دمث الخلق، عفّ اللسان، وبشوشاً، ورقيقاً في معاملته. ويكون سمح الملامح.

بهذا يكسب الناس. يكسب محبتهم وثقتهم، ويعيش مع الكل في سلام بقدر إمكانه.

١٠ / ٣ / ٢٠٠٧

الغش والخداع

ما أكثر أنواع الغش والخداع. وعلى الإنسان الحكيم أن يحترس منها جميعاً. وقد يُخدع بها البسطاء. وللأسف حتى العقلاء أحياناً ينخدعون إن بالغوا في ثقتهم بالآخَرين، ولم يفحصوا، ولم يدققوا كما ينبغي. وبخاصة لأن كثيراً من الذين يخدعون الغير أذكياء، غير أنهم يستخدمون ذكاءهم في الخطيئة أو الشر.

وسنحاول هنا أن نتحدث عن بعض أنواع الغش والخداع:

***

١- الغش في تقديم المعلومات:

وذلك بأن يقدّم الشخص مفهوماً مخالفاً للحقيقة: بأن يعرض أنصاف الحقائق، أو أجزاء من الحقائق، لأن ما يخفيه سيُظهر عكس ما يقول. أو يقدم أسباباً ثانوية أو تمرُضية بدلاً من الأسباب الأساسية. أو يذكر بيانات كاذبة لتصديقها اعتماداً على الجهل بحقيقة الموقف. أو يستخدم وسائل تكنولوجية حديثة في فبركة الأخبار أو فبركة الصور، وما أكثرها في هذه الأيام. أو أنه يخدع غير الدارسين بذكر معلومات يدعى نسبتها إلى مصادر لا يكون في مقدورهم الإطلاع عليها والتأكد منها. أو ينشر أخباراً بعناوين مثيرة، بينما من يدقق في قراءة المحتوى لا يجده يثبت ذلك.

وما أكثر الطرق في الخداع بالمعلومات الخاطئة أو المبالغ فيها إلى حد بعيد، ولكنها تترك تأثيرها في من لا يتقن الفحص والعمل على تقصّي الحقائق، أو من لا يجد وقتاً لذلك

***

٢- الجاسوسية هى لون آخر من الخداع:

وذلك على مستوى الدول وليس مجرد الأفكار. ويعمل في هذا المجال أشخاص مدرّبون تدريباً دقيقاً، ولهم قدرة على التخفّي، والظهور بغير حقيقتهم، والادعاء بأنهم مواطنون مخلصون. ويعرفون كيف يندسّون في الأوساط التي يريدون كشفها للعدو،

بحيث لا يلاحظهم أحد... وغالباً تمضي عليهم مدة طويلة دون أن تظهر حقيقتهم. وبالنسبة إلى البعض ربما لا تظهر حقيقتهم على الإطلاق إلاّ بعد رحيلهم أو فوات الفرصة. وهم أيضاً مزودون بأجهزة تساعد على آداء مهمتهم، سواء في التصنُّت أو التصوير أو طريقة إرسال المعلومات...

***

٣- الغش عن طريق التزوير:

هناك أشخاص لهم دراية عجيبة في تزوير الإمضاءات، أو تزوير الأختام، أو تزوير الوثائق الهامة بوجه عام... وربما يستخدمون التزوير في حسابات البنوك، أو في الشهادات والبطاقات. أو قد يسرقون بطاقة شخص ويستخدمونها لشخص آخر. أو يقومون بتزوير شهادات يقدمونها إلى المحاكم لكسب قضية معينة. أو قد يكون التزوير لكسب المال، أو للانتقام من شخص معين، أو الإيقاع به، وما إلى ذلك..

***

٤- التزوير في العملية المالية، وفي المعاملات المالية:

كأن يقوموا بتزوير ورقة مالية من فئة الجنيه، أو من فئة الدولار. ولا يستطيع كشف ذلك إلاّ الخبراء المُتخصِّصون أو من تعاملوا مع ذلك. ولكن عامة الشعب قد لا يستطيعون أن يفرقوا بين العملتين المزيفة والسليمة.

ومن جهة التزوير في المعاملات المالية: من يحاول أن يقدم تقريراً مزوراً عن ذمته المالية، أو عن موقفه من الضرائب المطلوبة منه، أو موقفه من الجمارك... لكي يفلت من مطالبة الدولة له...

***

٥- الغش في التجارة، وفي البيع والشراء:

مثل الغش في المكاييل والموازين والمقاييس، أو الغش في نوع البضاعة، أو عرض بضاعة فاسدة كأنها بضاعة سليمة، أو الغش في الثمن، أو تقديم بضاعة يقولون إنها (مضروبة). أو شيء على أنه جديد بينما يكون قد سبق استعماله. أو الغش في بيع عقار يكون ملكاً لآخر، والشاري لا يدري، أو يكون مرهوناً أو عليه ديون لم تدُفع.

ولعل من أخطر أنواع الغش، الغش في الأدوية وبخاصة التي تتوقف عليها حياة المريض، أو يتوقف عليها علاجه...

٦- الغش في الزواج:

كأن يتزوج شخص امرأة على أنها بكر، وهي ليست كذلك، أو قد فُضّ غشاء بكارتها وعولج ذلك شكلياً بطريقة الخداع. وهذا النوع من الغش يمكن أن يُحكم فيه قضائياً ببطلان الزواج.

أو قد يقدم طالب الزواج شهادة (عدم موانع) تكون مزورة، أو يكون مرتبطاً بزيجات أخرى ويخفيها... أو مريض بمرض خطير ومعدي ويخفيه، أو مصاب بعجز جنسي كامل ويخفيه...

وهناك أنواع خداع أخرى قد لا تنكشف إلاّ بعد الزواج.

هذا كله غير خداع آخر يحدث داخل نطاق الزيجة، ربما تكون من نتائجه ما يُسمى بالخيانة الزوجية...

***

٧- الغش في المودة وفي الإخلاص:

ليست كل مودة يظهرها الإنسان لغيره تكون مودة خالصة نقية. فقد تكون أحياناً مظهرية وتكشفها الأحداث فيما بعد، أو لا تنكشف مختفية وراء ألوان من الرياء أو النفاق أو الخداع. وفي كل ذلك لا يكون الشخص مخلصاً لمن يتظاهر بمحبته أو بالولاء له. ويظهر هذا أيضاً في تملق بعض الموظفين لرؤسائهم وللمسئولين عنهم في العمل أو في الهيئات التي ينضمون إليها.

ومن أمثلة المودة الزائفة، ما يظهره شاب نحو فتاة من الحب، أو من رغبته في الزواج بها، حتى تطمئن إليه وتصدمه ثم يتخلى عنها أخيراً بعد فترة من الخداع والكلام المعسول. ويكون ما أظهره من مودّة أو حُب، إلاّ لوناً من اللهو أو الشهرة وليس غير..!

ولعل أخطر نوع من المودة الزائفة، الذي يكون في حقيقته عدواً، وفي خداعٍ يبدو كأنه صديق. وعنه قال الشاعر:

ويا لـرُبّ خـدّاع ... من النـاس تلاقيـهِ
يعيبُ السمّ في الأفعى ... وكل السمّ في فيـهِ

٨- هناك أيضاً الغش في الامتحانات:

وهذا أمر معروف ويحدث كثيراً بين تلاميذ المدارس. أمـا بالنسـبة إلـى الكليـات الجامعية، فمن الصعب أن يكون هناك غش في الامتحان الشفهي أو العملي. ولكن يمكـن أن يحدث الغش في الامتحان التحريري...

هناك أنواع أخرى من الغش والخداع، ربما تظهر مثلاً في من يخدع النـاس بـالبر والتقوى وهو غير ذلك تماماً، أو من ينسب إلى نفسه معلومات تكون لغيره، كما يحـدث في السرقات الفكرية أو الشعرية..

* * *

لكنني أكتفي بما قلته الآن بإيجاز، فموضوع الغش والخداع واسع ومتفرّع ومتنـوع، مما لا يسمح به المجال.



١٧ / ٣ / ٢٠٠٧

غلطة العمر

كل إنسان معرض للخطأ، وقد يخطئ. وجلّ من لا يخطئ... ولكن غلطة معينة قد يرتكبها شخص، وتظل محفورة في ذهنه، لا ينساها، وقد لا ينساها له الآخرون... هي غلطة لا علاج لها، وتستمر نتائجها إلى مدى طويل. إنها غلطة العمر...

***

** خيانة يهوذا مثلاً: لا شك أن ذلك الشخص كانت له أخطاء كثيرة في حياته. ولكن خيانته كانت هى الحدث الأكبر في كل حياته. ولم ينسَ له التاريخ تلك الخيانة، بل صارت مثلاً يُضرب، وقد هلك بسببها... كانت هى غلطة العمر بالنسبة إليه...

***

** مثل آخر: فتاة لها العديد من الأخطاء ومن العلاقات. ولكنها في إحدى المرات استسلمت للشهوة، وفقدت بكوريتها وحملت سفاحاً، سواء احتفظت بالجنين أو أجهضته... تظل هذه الغلطة تلاحقها طول حياتها، لا تنمحي من ذاكرتها مهما حاولت أن تخفي معالم الخطأ بطرق ملتوية. وإذا عُرفت عنها سقطتها، لا تغفرها لها أسرتها، ولا يغفرها لها المجتمع. إنها غلطة العمر.

***

** أو تلميذ في الجامعة، غشّ في الامتحان النهائي، وضُبط وتم فصله عاماً. وتخرّج أخيراً. ولكن واقعة فصله بسبب الغش، تظل تلاحقه وتطارده في مستقبل حياته، وتصبح سبّة في تاريخه يتذكرونها له في كل وظيفة يتولاها ويعايرونه بها إن حدث منه خطأ آخر.. لقد كانت غلطة العمر.

***

** رئيس دولة كبيرة هو كلينتون. كانت له مواهبه، ونجح في الانتخابات، وصار رئيساً لأمريكا. وكان له محبون ومعجبون كثيرون به، وبدأ بنجاح في سياسته. ثم وقع

في خطيئة مع مونيكا، وأمكن التشهير به، وأنكر واعتبرت المحكمة إنكاره كذباً على القضاء. وانتهى الأمر بأن ترك رئاسة أمريكا، ولكن السمعة الرديئة لم تتركه، بل مُنع من ممارسة المحاماة. وكانت خطيئته مع مونيكا وإنكاره لذلك، هى غلطة العمر. وصارت درساً للأجيال...

***

** مثل آخَر في عالم الرياضة، هو مارادونا لاعب الكرة الشهير الذي كاد أن يصبح أسطورة في تاريخ كرة القدم بسبب فنه وتوالي انتصاراته... وقع في غلطة واحدة وهى أنه صار يتعاطي منشطات ثم مخدرات... وكانت النتيجة أنه أوقف مسيرة تاريخه، وفقد بطولته على الرغم من ملايين المعجبين به... وكانت غلطة العمر.

***

** أو شاب في منتهى القوة، وفي قمة نجاحه وتفوقه في كل مجال يعمل فيه، حتى صار موضع إعجاب كثيرين وكثيرات... حدث في مرة أنه سقط مع إحدى المعجبات في خطية جنسية. ولم يكن يدري أنها مصابة بالإيدز، وانتقل المرض منها إليه. وأخذت صحته تتدهور ولم ينفع معه علاج. وفقد شبابه وقوته وعمله ومستقبله، بسبب هذه الغلطة الواحدة. ولكنها كانت غلطة العمر...

***

** رجل أعمال ناجح جداً، واستطاع أن يكوّن ثروة كبيرة، وصارت له سمعة ممتازة واسم مرموق، بفضل مواهبه العديدة وإخلاصه في عمله، وحزمه في الإدارة. ثم حدث أنه جرّب القمار وكسب، وأعاد الكرّة ولكنه على مائدة الميسر خسر كل شيء... خسر ماله وسمعته ورهن أملاكه ثم باعها. وهكذا فقد كل ما كانت له من ثروة. وذلك بسبب غلطة واحده هى لعب القمار، ولكنها كانت غلطة العمر.

***

** وأب كان يبذل كل جهده من أجل راحة أسرته ورفاهية كل أعضائه، ويسهر الليل والنهار في سبيل ذلك. ولكنه للأسف الشديد لم يكن له وقت يقضيه مع أولاده، ليشرف على تربيتهم بنفسه. وشرد الأبناء بعيداً. الابن انضم إلى أصدقاء السوء، وابنته وقعت في حب شاب وتزوجته زيجة غير شرعية، إذ لم تجد الحنان الكافي من أبيها.

وخسر الأب أسرته التي تعب كثيراً من أجلها. وكان ذلك كله بسبب غلطة واحدة هى عدم تفرُّغه لتربية الأولاد. وكانت هذه بالنسبة إليه هى غلطة العمر.

** وفي مجال السياسة والحرب، ما أكثر الملوك والقادة والزعماء الذين أضاعوا تاريخهم كله من أجل غلطة رئيسية في سياستهم، لم يحسبوا حساباً لنتائجها الخطيرة، ولكنها كانت غلطة العمر، مع إنهم كانوا في مجد وعظمة، ولكنهم فقدوا كل شيء... فنابليون العظيم غلطة حرب سببت له الهزيمة بل أيضاً انتهت بالقبض عليه وإذلاله. و"هتلر" الذي كاد في وقت من الأوقات أن يصبح أسطورة... و"شاوشسكي" في حكمه وقلة حكمته... كل هؤلاء أضاعتهم غلطة العمر...

***

إن فشل الإنسان عموماً لا يرجع إلى أن حياته كلها كانت أخطاء. وإنما غلطة واحدة خطيرة يمكن أن تضيعه...!

إن كوباً مملوءاً بالماء، تكفي لتعكيره نقطة واحدة من الحبر تسقط فيه. وكذلك صحة قوية يكفي ميكروب واحد خطير أن يقضي عليها... لذلك يجب على كل إنسان أن يكون حريصاً جداً في حياته ويبتعد عن مثل هذه الأخطاء. لأن ثقباً واحداً في سفينة الحياة قد يؤدي إلى غرقها... ومن اللَّه الرحمة.

٢٤ / ٣ / ٢٠٠٧

نساء خسرن أزواجهن!

الزوجة الحكيمة تكون مصدر سعادة لزوجها، كواحة يانعة مملوءة بـالزهر والثمـر يرجع إليها من صحراء العمل ومشقته...

غير أن بعض النساء للأسف الشديد لم يعرفن الهدف السليم مـن الحيـاة الزوجيـة، وكيف تكون مجالاً للسعادة المشتركة..! وأخطأن الوسائل فكانت النتيجة أنهـن خسـرن أزواجهن!!

ومن بين هؤلاء ثلاثة أو أربعة أنواع سوف نذكرها:

***

١- المرأة الشديدة الغيرة:

ما أشد هول تلك المرأة العنيفة في غيرتها، التي تعتمد في ذلك على حساسية شـاذة غير طبيعية. فتغار على زوجها إن كان وسيماً جداً وناجحاً بدرجـة يحيطـه المعجبـون والمعجبات. أو إن كان لطيفاً ومرحاً، ينظر إليه الجميع في حب وبشاشـة. فتغـار هـذه الزوجة إن رأته يكلّم امرأة في لطف، أو يبتسم في وجهها، أو أن ابتسمت تلك المـرأة أو ضحكت في مرح أثناء الحديث معه.

* حينئذ تحارب الظنون والأفكار هذه الزوجة، فتحطمها من الداخل. وهـى تتـولى بدورها تحطيم الزوج. فتفرض عليه رقابة وحظراً، وتوبخه على بشاشـته مـع امـرأة أخرى، وتسيء فيه الظنون.

هى تريده عصفوراً جميلاً تحبسه في قفص، لا يراه أحد. يكفي أن تراه هى! ولا يكلّم أحداً غيرها، ولا يبتسم لغيرها، ولا يكون بشوشاً مع أحد!!

***

* وهكذا يفقد الزوج كل علاقاته الاجتماعية، لترضى هى عن تصرفاته.. وإلاّ صار البيت جحيماً تسوده الشكوك والظنون، والمناقشات كل يوم، والتحقيقات ومحاولة الانتقـام أو الشكوى. وقد يكون الرجل بريئاً جداً. وقد تكون طبيعة عمله من النوع الذي يسـتلزم

لقاءات مع كثيرين وكثيرات ولا ينجح فيه إلاّ باللياقة والبشاشة. ولكن زوجته تتعبها الغيرة فتتعبه!

* وقد تأخذ الغيرة عند الزوجة مظهر آخر، فقد تغار من جهة حبه لأمه أو أخته أو بعض أفراد أسرته. أو من إنفاقه على أخ أو قريب. وتظن أنه يحب أهله أكثر منها، أو أنه يخضع لمشورتهم أكثر منها. وتلهبها الغيرة حتى تريد أن تحرمه من كل أحبائه. فلا يحب أحد سواها!!

وفي وقت الغيرة لا تفكر فيه ولا راحته. إنما تفكر في ذاتها فقط. وما على الرجل إلاّ أن يخضع لمشاعرها، ولا تهمها النتائج ولا الإحراجات التي يقع فيها... وإلاّ فإنها تتهمه بعدم محبّته لها وبالخيانة وعدم الإخلاص..!

***

* ويحاول الرجل أن يجد حلاً ولا يستطيع. ويشرح الأمور ولا تقبل منه. ويتحرج الجو، ويتهدد البيت بالانهيار. إذ يشعر الزوج أن ثمن إرضائها هو أن يخسر الكل بسبب ظنون لا وجود لها في عالم الحقيقة. ولكنها موجودة في أتون الغيرة!!

***

٢- المرأة المسرفة في التحقيق:

وهي الزوجة الدائمة التحقيق مع زوجها، حتى في صميم خصوصياته! فقد تحقق معه في الأمور المالية: ماذا يدخل إلى جيبه وكيف يصرفه؟ ولمن يعطي؟ ولماذا؟ وهل من اللائق أن يصرف هكذا؟ وأين الحكمة؟

* وتحقق معه في تفاصيل مواعيده: لماذا يخرج الآن؟ ولمَ لا يتغير الميعاد؟ وأين يقضي الوقت كله؟ ولماذا يرجع متأخراً؟ وما أهمية هذا الموعد؟ ولماذا لا يلغيه؟ ولماذا ولماذا إلى غير حد..!

* وتحقق معه في علاقاته: كل علاقاته، مع كل أحد. ما نوعها؟ وما محصولها؟ وماذا حدث؟ وماذا قالوا لك؟ وماذا فعلوا؟ وماذا فعلت؟ ولماذا؟

* بل قد تحقق معه في أكله وشربه، وفي ملبسه، وفي كلامه، وفي عمله!

* ويشعر الزوج أنه قد تزوّج "وكيل نيابة" أو "أمن دولة"! ويشعر بأنه مضغوط عليه في حريته. وأنه محتاج أن يهرب من الأسئلة ومن الإجابة. وإن ضيّقت عليه الخناق،

يرى أنه محتاج أن يهرب من البيت كله، ومن هـذه المـرأة البوليسـية التـي تطـارده بتحقيقاتها...

***

* أما المرأة التي تحب زوجها، فإنها تتركه ليخبرها بنفسه دون أن تضـغط عليـه بالسؤال. وما يقوله، تقابله بقلب محب مفتوح. وما لا يريد أن يقوله، تتركه إلـى حريتـه بدون إحراج، وبدون تطفُّل، وبدون ضغط أو تحقيق.

***

٣- المرأة النكدية:

إن الرجل ينتظر من زوجته أن تستقبله في البيت بوجه بشـوش يفرّحـه، ويـدخل السعادة إلى قلبه وينسيه ما يقاسيه في العمل من تعب وصدامات... أما إن قابلته زوجتـه بوجه عابس أو بالدموع والبكاء، وملأت البيت حزناً ونكداً، فإنها بدلاً من أن تحمل عـن زوجها متاعبه، فإنها تضيف إليه تعباً جديداً!

* وللأسف يوجد نوع من النساء يمكن أن يُسمّى بالمرأة النكدية، التي يمكنها بسهولة أن تحوّل البيت إلى نكد. والتي تغضب لأتفه الأسباب، أو بلا سبب. ويشعر الزوج أن من الصعب إرضاءها! وأنها تخلق مشاكل، وتعقد الأمور، أو تثير نقاشاً حاداً حـول أبسـط المسائل. وأنها دائماً غاضبة، دائماً حزينة وكئيبة، دائماً ساخطة!!

* هذه الزوجة لا تبدو في الصورة التي خلق بها اللّه المرأة، فـي لطفهـا ورقتهـا، وإشاعتها السرور، وفي رسالتها كمُعين للرجل...

* وكثير من الرجال يتبرمون بالمرأة النكدية ولا يحتملونها. أو يحتملونها إلى حـين ثم لا يستمرون. وكثيرون منهم يخرجون من البيت، ويبحثون عن السعادة خارجـه، فـي المقهى، أو في النادي، أو بين الأصدقاء والمحبين والمعارف، أو في أي نشـاط آخَـر... بعيداً عن النكد.

* وهكذا شيئاً فشيئاً تخسر المرأة زوجها، إذ لا يجد سعادته إلى جوارها!! نقول كـل هذا، لكي تتعظ أولئك الزوجات اللائي يتصفن بالغيرة الزائدة، وبالرغبة فـي التحقيـق، ودوام النكد، ويبدأن في تغيير ذلك الأسلوب الذي نتيجته أن يخسرن الزوج..

٣١ /٣/ ٢٠٠٧

قالوا في العلم والحكمة
وفي الحب والصداقة

في العلم:

* سئل عالم: "ما أفضل العلم؟" فأجاب: هو معرفة الإنسان لنفسه.
* وقيل: اليوم الذي يمرّ من عمرك دون أن تتعلم فيه شيئاً جديداً، هو يوم ضائع. سواء كان هذا التعلم بالقراءة أو الملاحظة أو السماع أو التأمل، أو الخبرة أو المعاناة.
* قال الشيطان ذات يوم: كنت من قبل أعلّم الناس الشر، فصرت الآن أتعلّم منهم.
* قيل: أكثر الناس علماً في العالم كله، يكون على جهل تام بعدد كبير من الأمور.
* وقيل: العاقل يتعلّم من أخطاء الآخرين.
* وقيل: الفنان العظيم كان يوماً فناناً مبتدئاً.
* وقيل: تعرف الإنسان من أسئلته أكثر مما تعرفه من إجاباته.
* وقيل: أتريد أن تعرف حقيقة إنسان؟ استمع إليه في مشاجرة.

***

في العقل والقلب:

* قيل: كن أعقل من غيرك، ولكن لا تصرّح له بذلك.
* وقيل: فقر العاقل خير من ثراء الأحمق.
* وقيل: العقل له أحكام، والقلب له أحلام.
* وقيل: من شاور الحكماء، شاركهم في عقولهم.
* وقيل: رجل واحد يحمل رأساً فوق كتفيه، خير من مائة رجل بلا رؤوس.
* وقيل: المشروعات الواسعة لا يمكن تنفيذها بأفكار ضيقة.
* وقال فرانس بيكون: إن قليلاً من الفلسفة قد يقرّب الإنسان من الإلحاد. أما التعمق في الفلسفة فيردّه إلى الله.
* وقيل: القراءة هى أن تفكر بعقل غير عقلك.

* وقيل: عندما تفكر، فإنك تجري حواراً مع نفسك.

* وقيل: للقلب منطق هيهات للعقل أن يفهمه.

***

في العمل:

* قيل: إن الأماني هى بضاعة الضعفاء. أما العمل هو بضاعة الأقوياء.

* وقيل: من لا عمل له، يُوجد الشيطان له عملاً.

* وقيل: فكّر ببطء، ولكن اعمل بسرعة.

* وقيل: لا تطلب، ولكن اعمل.

* وقيل: إذا أجّلت عملاً ثقيلاً إلى الغد، ضاعفت ثقله.

* وقيل: إن التجربة هى أعظم أستاذ في العمل، ولكن نفقاتها باهظة.

* وقيل عن شخص: عنده مواهب كثيرة، ولكن تنقصه موهبة واحدة، وهى استخدام مواهبه!

* وقيل: إذا أردت أن تتحاشى النقد، لا تعمل شيئاً، ولا تقل شيئاً، ولا تكن شيئاً!

***

في الحكمة:

* قيل: الملوك حكّام على الناس. والحكماء هم حكّام على الملوك.

* وقال أحدهم: نحن ألف رجل، وفينا حكيم واحد، ونحن نستشيره ونطيعه. فكأننا ألف حكيم.

* وقال الآباء: الذين بلا مرشد يسقطون مثل أوراق الشجر.

* وقال حكيم: الرؤوس تكون أكثر حكمة إن كانت هادئة. والقلوب تكون أكثر قوة، إن نبضت تعاطفاً مع القضايا النبيلة.

* وقيل: يلجأ الإنسان إلى الخبث، حين لا يسعفه الذكاء.

* وقيل: لا تشرب السّم، اعتماداً على ما عندك من الترياق.

* وقيل: الجاهل يكون دائماً أكثر إصراراً على رأيه من العالم.

* ومن الأمثال الصينية: إذا أعطيت إنساناً سمكة، فسوف يأكل وجبة واحدة. ولكن إن علمته الصيد، فسوف يأكل طول حياته.

في الحب والصداقة:

* قال حكيم: اهتم بالرفيق قبل الطريق.

* وقال آخَر: من شروط المرافقة، الموافقة.

* وقال ثالث: حياة بلا أصدقاء، هي جنازة بلا مشيعين.

* وقيل: من عاش بغير حب، مات في يوم مولده.

* وقال أحدهم: ليس صديقاً من يبلع لك الظلط. إنما صديقك هو من يحذرك من الغلط.

* وقيل: الصديقان الحميمان إذا اتفقا على موعد، ذهب كلّ منهما إليه قبل الآخر.

* وقيل: الحب هو أن تفضّل شخصاً آخَر على نفسك.

* وقال حكيم: إن قلت لي من هم أصدقاؤك، أقول لك من أنت.

* وقيل في الصداقة: زهرة واحدة لا تصنع حديقة.

***

في الحب والعداوة:

* قال القديس ذهبي الفم: من لا توافقك صداقته، لا تتخذه لك عدواً.

* وقال أيضاً: هناك طريقة مثلي تستطيع بها أن تقضي على عدوك، وهى أن تحوّل العدو إلى صديق.

* وقيل: الناس أعداء ما جهلوا.

* قيل: المحبة تبني، والعدواة تهدم.

والذي يبني يصعد دائماً إلى فوق.

والذي يهدم، يهبط إلى أسفل.

* وقيل: كل عداوة تُرجى إزالتها، إلاّ عداوة من عاداك عن حسد.

* وقال: ميخائيل نعيمة: هناك مبالغة في قولهم "الحب أعمى". والحقيقة أن الحب بعين واحدة.

٧ / ٤ / ٢٠٠٧

متعة الروح في القيامة وهى في السماء

أهنئكم يا إخوتي وأبنائي بعيد القيامة المجيد، كما أهنئ الرئيس مبارك على نتائج أسفاره الموفّقة إلى كثير من البلاد لأجل مصالح مصر والوطن العربي وكل المنطقة وبلاد أفريقيا أيضاً، متمنّياً لوطننا العزيز مصر كل خير وبركة، وبعد:

فيما نحن نحتفل بعيد القيامة، يسرني أن أحدثكم عن متعة الروح بعد القيامة وهى في السماء.

متعة الانطلاق:

الروح الآن حبيسة في الجسد، في هذا القفص المادي. وبينما الروح كيان خفيف يتميز بالشفافية، فإن الجسد مادي يتصف بالثقل. والجسد يحاول أن يسيطر على الروح ليجذبها إلى ماديته، والروح تقاوم. فبينهما صراع. إن انتصرت الروح، ترتفع بالجسد إلى فوق. وإن انتصر الجسد، يهبط بالروح إلى لذة المادة وانفعالاتها.

حتى في المعرفة، الجسد يمثل ضباباً يمنع الرؤية الحقيقية عن الروح. فالروح حالياً لا ترى إلاّ بعين الجسد، ولا تسمع إلاّ بأذن الجسد. وكل أنواع معرفتها تكون عن طريق حواس الجسد.

***

* أمّا في انطلاق الروح، فتكون لها معرفة أوسع لا تستمدها من الحواس الجسدية، بل يكون لها الحس الروحي. ولا تتحرك بأرجل الجسد، بل تتحرك وهى خفيفة: تصعد وتهبط وتجتاز مسافات دون أن تعبر وَسَطاً، مثل الملائكة أو كالفكر الذي يتحرك إلى قارة أخرى دون أن يعبر الوسط الذي بينها.

* وتتلاقى الأرواح وتتعارف وتتحدث بدون ترجمة من لغة إلى أخرى. بل تتفاهم بحسّ روحي ليس حبيساً في نطاق اللغات. حقاً بأية لغة قد تفاهم أبونا آدم، وأبونا نوح،

وموسى النبي، وأيوب البار، حينما التقوا معاً في العالم الآخر؟ أم أن هؤلاء وكل الأبرار كانوا يتفاهمون بغير لسان من ألسنتنا؟ أو بغير أصوات! وبأية لغة كانوا يتحدثون مع الملائكة؟ أم أنهم يتخاطبون معهم بغير لغة بشرية! أي بلغة الروح!

* وفي غير الحواس البشرية، ماذا ستكون الرؤية الروحية؟

ننتقل إلى نقطة أخرى من متعة الروح في السماء وهى متعة التحرر.

***

متعة التحرر:

الأرواح حالياً وهى متحدة بالأجساد - ليست حرة فيما تريد ... هناك ضغوط كثيرة عليها من الخارج، ومن الجسد بالذات ... ولكنها عندما تنطلق من الجسد، سوف تحرر من كل قيوده.

* سوف تحرر من غرائز الجسد ومن كل انفعالاته. وسوف تتحرر من أمراض النفس مثل القلق والاضطراب والشك. وسوف تتحرر من الضّعف والعجز، ومن التعب والإعياء ومن عديد من الأمراض التي يتعرض لها الجسد ويلقي بنتائجها على الروح.
* وسوف تتحرر من مؤامرات الناس الأشرار، وما يلقونه على الروح من خوف ورعب. وما تحاول من وسائل للبعد وللوقاية من الضرر.
* وسوف تتحرر من خوف الموت، لأن الموت يكون قد تم ووقع على الجسد ولم يعد هناك مجال لتكراره.

***

مُتعة البِرّ:

في العالم الآخر سوف تتحرر الروح من الخطية. فلا مجال للخطايا التي تنتج عن شهوات الجسد وغرائزه، إذ قد خلعت الجسد وانفصلت عنه. كذلك لا مجال للخطايا التي تأتي نتيجة لإغراءات خارجية. ففي العالم الآخر لا إغراءات ولا حروب شياطين. فالشيطان لن يدخل مواضع الأبرار في السماء. ولا توجد خطايا تقع فيها الروح من احتكاك البشر. فالأرواح البارة سوف تسكن في العالم الآخر مع أرواح بارة من نفس النوع، وأحياناً من نفس الدرجة. ولا مجال للصراعات والانقسامات.

* وسوف ينزع اللّه من أرواح ساكني السماء معرفة الخطية وتذكاراتها وقصصها وصورها التي كانت على الأرض. ويمنح هذه الأرواح إكليل البر، فلا تعود هناك إمكانية للخطية ولا رغبة فيها.

* حقاً ما أعظمها متعة وما أعمقها، أن تعيش الروح هناك في عالمٍ جديد كله برّ، لا عثرة فيه ولا شر ولا شبه شر. عالم أجمل بكثير من الجنة التي عاش فيها أبوانا آدم وحواء قبل الخطية، حيث كانا يعيشان في براءة وبساطة، ولكن في طبيعة قابلة للسقوط، وقد سقطا، أما في العالم الآخر، فلا توجد إمكانية للسقوط.

* * *

متعة الشفافية:

في العالم الآخر سوف تتمتع الروح بالشفافية التي لم يعد يحجبها ضباب الجسد. شفافية في المعرفة والإدراك تكاد تدرك شفافية الملائكة. فيها يُنزع القناع عنها، فترى غير المرئيات، وتعرف أسراراً عن العالم الآخر ما كان يمكنها معرفتها على الأرض. وتظل تنمو في المعرفة ويوّسع اللّه مداركها لتعرف أكثر، بلون جديد من الإدراك فوق مستوى الحواس. وتكون معرفتها عن طريقين: أحدهما تجلي الروح في طبيعتها. وثانيهما هو الكشف الإلهي، إذ يكشف اللّه لها ما لا يمكن أن تدركه طبيعتها الحالية.

* * *

متعة الفرح:

إنه فرح لا ينطق به يختلف عما في عالمنا من مباهج. هو فرح روحي. ثم هو فرح بأمور جديدة على الإنسان يختبرها لأول مرة. كذلك هو فرح دائم لا يتوقف ولا ينقطع، بل يكون دائم النمو والتجدد. وأيضاً هو فرح بالغلبة والانتصار، والتمتع بوعود الرب للغالبين ...

ثم تفرح الروح بالعشرة المثالية التي في السماء، عشرة الأبرار والقديسين، بل وعشرة الملائكة، ورؤساء الملائكة، وعشرة مَنْ كنّا نقرأ عنهم في التاريخ ونشتهي مجرد معرفتهم.

وأكثر من كل هذا عشرة اللّه نفسه - تبارك اسمه - لأن كل أفراح السماء بدون اللّه لا تكون أفراحاً حقيقية.

إن كان الأمر كذلك، فلنستعد من الآن - في حياتنا الأرضية الحالية - حتـى نكـون مستعدين لكل تلك المتع السمائية التي أعدها اللّه لمن يحيون فـي طاعتـه. لـيس لكـل الأرواح، بل للأرواح الطاهرة الغالبة التي جاهدت وانتصرت واستحقت أن يكافئها اللّـه بملكوته الأبدي.

ختاماً أهنئكم يا إخوتي بنعمة القيامة التي وهبها لنا اللّه في الحياة الأخرى. ونصـلي جميعاً من أجل سلام العالم كله الذي انتشرت فيه الحروب والنزاعات، مع صلاة خاصـة لأجل بلادنا مصر، ولأجل الرئيس مبارك وكل العاملين لأجل هذا الوطن العزيـز، كمـا نصلي أيضاً لأجل فلسطين ولبنان والعراق، وكل البلاد العربية. ومن أجل كل إخوتنا في أفريقيا ... وكل عام وجميعكم بخير.



١٤ / ٤ / ٢٠٠٧

الأعذار والتبريرات

إن كنت يا أخي تريد أن تحيا في حياة التوبة الحقيقية، فلا تحاول أن تقدم أعذاراً وتبريرات عن كل خطية تقع فيها. فالتبريرات تعني أن الإنسان يخطئ، ولا يريد أن يتحمل مسؤولية أخطائه. ويعتبر كأنما كان الخطأ شيئاً طبيعياً هناك أسباب دعت إليه، أو كأن لا خطأ في الأمر! فإن كان يجد لخطيئته ما يُبرِّرها، فكيف يتوب إذن عنها؟!

التبريرات هى محاولة لتغطية الأخطاء، بإيجاد مبرر لها! وهكذا ما أسهل أن يستمر المخطئ فيها، وعذره معه...

ويظن بهذا أنه يخرج بلا لوم ولا عيب أمام الناس، وربما أمام نفسه أيضاً، لكي يريح ضميره إذا احتج عليه... ولكن حتى لو قبل الناس منه ما يقدمه من أعذار، وحتى لو استطاع هذا المخطئ أن يخدع نفسه ويخدّر ضميره ليقبل منه تلك التبريرات، فإن اللّه لا يقبلها، لأنه عالم بكل شيء وفاحص القلوب والنيات.

حقاً ما أصدق الذي قال إن طريق جهنم مفروش بالأعذار والحجج والتبريرات...

***

إن الإنسان المتواضع - إذا أخطأ - يعترف بما ارتكبه من خطأ. أما غير المتواضع وغير التائب، فإنه يحاول أن يجد تبريراً عند ارتكاب الخطيئة، وبعد ارتكابها أيضاً، وكلما دام الحديث عنها بصفة عامة...

ويؤسفني أن أقول إن توالي الأعذار والتبريرات عند مثل هذا الشخص تجعل القيم والمبادئ عنده تهتز... وما دام كل خطأ يمكن له تغطيته. فلا توجد إذن مُثُل يسير على مناهجها أو روحيات يتمسك بها...

***

وسنحاول هنا أن نذكر بعض الأعذار التي يعتذر بها البعض ممن لا يسلكون حسناً في حياتهم.

١- يقولون كل الناس هكذا (الكل كده)، فهل نشذ عن المجتمع؟

وكأنهم بهذا يعتبرون أن الخطأ إذا صار عاماً، لا يلام عليه الفرد! أي صار الخطأ العام مبرراً لخطأ الفرد. وكأن نقائص المجتمع كله لم تعد تناقص! كلا، فالخطأ هو خطأ، عاماً كان أو خاصاً. ومن أجل هذا، يقوم المصلحون الاجتماعيون بإصلاح أخطاء مجتمعاتهم. وكذلك يهاجم تلك الأخطاء: أصحاب المبادئ من رجال القلم ومن الوعاظ.

إن أبانا نوح البار لم يندمج مطلقاً في أخطاء وفساد المجتمع في أيامه، وهكذا نجا في الفلك مع أسرته. ويوسف الصديق كان يعبد اللَّه، بينما كانت كل العبادات التي حوله فرعونية. والأبرار باستمرار يحتفظون بمبادئهم السامية مهما كان الخطأ عاماً. وعلى العكس- يمكن أن يقال - إن الخطأ إذا كان منتشراً، فهذا يحتاج إلى حرص أكبر لتفاديه.

وهكذا أنت، عش بروحياتك السليمة، حتى لو عشت بها وحدك..

وإن لم تستطع أن تؤثر على المجتمع وترفعه إلى مستوى أعلى فعلى الأقل لا تندمج في الأخطاء المنتشرة، ولا تجعلها تؤثر عليك.

والمفروض في الإنسان البار أن يطيع ضميره ولا ينجرف مع التيار الخاطئ.

* * *

٢- البعض يعتذر بالعوائق، بينما يليق بالأقوياء أن ينتصروا على العوائق.

إن القلب القوي يمكنه أن يجد وسائل عديدة لتنفيذ الغرض النبيل الذي يهدف إليه، مهما صادفته عقبات وعوائق.. يقول الآباء الروحيون: "إن الفضيلة تريدك أن تريدها لا غير". نعم، يكفي أن تريد، وحينئذ تجد النعمة تفتح أمامك أبواباً كانت مغلقة...

إذن لا تعتذر بالعوائق، إنما ضع أمامك أن تنتصر عليها.. ولا تكن دوافعك الداخلية إلى عمل الخير ضعيفة بحيث تمنعها العوائق.

* * *

٣- يعتذر البعض بشدة الضغوط الخارجية، أو بعنف الأغراء الخارجي.

ولكن القلب الثابت من الداخل، لا يقبل أن يخضع لأي ضغوط خارجية، ولا يسقط بسببها، ولا يتخذها تبريراً لسقوطه. إنما يبرر سقطته بسبب الضغوط الخارجية، ذلك الشخص الذي ليست محبته للفضيلة قوية.

وخذوا يوسف الصديق كمثال رائع للانتصار على الضغط الخارجي الذي وقع عليه من امرأة سيده. فهى التي كانت تطلب منه الخطيئة، وتلح عليه، وهو تحت سلطانها تسيء إلى سمعته في حالة رفضه لها. ولكنه كان أقوى من الأغراء، وانتصر ولم يُبالِ بما يحدث له...

***

٤- قد يعتذر البعض بأنه ضعيف، والوصية صعبة!

ربما تقول بأنك ضعيف، أم لم تضع معونة اللّه في اعتبارك. فأنت لست وحدك، إنما معك النعمة الإلهية التي تسند الضعفاء. ثم لا تقل عن وصية اللّه إنها صعبة لأنها لو كانت صعبة، ما كان اللّه أمر بها. كيف يأمر بما لا يمكن تنفيذه؟! إنه لا يأمرنا بالمستحيل. بل عندما يعطي اللّه وصية، إنما يمنح في نفس الوقت القدرة على تنفيذها...

طوباهم أولئك الجبابرة الذين انتصروا على قلوبهم من الداخل، ولم يعتذروا بصعوبة الوصية كما نفعل نحن في تبرير أنفسنا..!

***

٥- هناك من يقصّر في أمور العبادة من صلاة وتسبيح وصوم وقراءات مقدسة، معتذراً بأن نقاوة القلب تكفي، واللّه هو إله قلوب!

فمن الذي قال إن نقاوة القلب تغني عن هذه الممارسات الروحية؟!

إن الإنسان البار يجمع بين الأمرين معاً: نقاوة القلب وكل الممارسات الروحية التي هى ثمرة طبيعية لنقاوة القلب.

وما أعمق عبارة: "افعلوا هذه، ولا تتركوا تلك".

٢١ / ٤ / ٢٠٠٧

العولمة
فوائدها وتأثيرها وأضرارها

العولمة هى انفتاحنا على باقي بلاد العالم، وانفتاحها هى علينا، وكسر الحواجز الفاصلة... مع احتفاظنا على قدر الإمكان بما للشرق من مبادئ وقيم..

وطبيعي إننا لا نستطيع أن نفصل أنفسنا عن العالم ونصبح كجزيرة منفردة بذاتها في المحيط. فالعالم الآن قد صار مختلطاً وممتزجاً، بحيث أنه في تفصيلات حياته يأخذ ويعطي.

وليس العولمة جديدة عليه، بحيث يمكن قبولها أو رفضها. فقد بدأت فعلاً. والمهم الآن هو ما مدى الانتشار الذي يُسمح به لها؟ وما مدى الفائدة العائدة منه أو الضرر.

***

*** أول انتشار هو عالمية الأخبار:**

فقد أصبحت أخبار كل جهات العالم متداولة، وفي معرفة كل ما يريد. وذلك عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون وكثرة الفضائيات التي انتشرت وباقي وسائل الإعلام. بحيث يمكن لأي شخص أن يستخدم الانترنت مثلاً، ويستخرج ما يشاء من المعلومات والأخبار، عن أي بلد، أو أي شخص، أو أي علم. ويعرف بذلك تفاصيل التفاصيل، بلا مانع...

ومع ما في هذا الأمر من فائدة، إلاّ أن له أضراراً. فالانترنت ينشر كل شيء، ما ينفع وما يضر، ينشر الصدق وكذلك الكذب والأخبار المبالغ فيها. وكل من يريد أن يسجل فيه منهجه وفكره. فتجد فيه الهجوم والدفاع، والهجوم المضاد. ومن يأخذ كل تسجيلات الانترنت كقضية ثابتة، إنما يشوش أفكاره. فيحتاج الأمر إلى فحص وإلى تحقيق، ومقارنة الأخبار. وليس هذا بإمكان الكل.

*** الأمر الثاني في العولمة هو انتشار العلم بكل فروعه:**

لم يعد العلم حكراً على بلد معين، أو عالم محدد بالاسم، إنما هو للكل. فعلوم الطب والصيدلة والدواء وطرق العلاج أصبحت متداولة بين باقي الشعوب، سواء عن طريق البعثات العلمية، أو ما ينشر عنها في الكتب أو المجلات العلمية. وينطبق هذا أيضاً على ما ينشر عنها في الكتب أو المجلات العلمية. وينطبق هذا أيضاً على كافة العلوم من هندسة وزراعة واقتصاد وغير ذلك.

وكل هذا مفيد ونافع. وعلى كل دولة أن تنتفع بما وصلت إليه باقي الدول من حضارة ورقي وتقدم. ولا تتخلف عن الركب.

***

*** من الأمور النافعة في العولمة أيضاً كافة المخترعات المفيدة:**

فبعد أن تخطينا زمن اختراع الطائرات ووسائل الميديا Media، بدأ انتشار الريكوردر، والكمبيوتر، وتليفون السيارة، والتليفون المحمول، وأدوات التصوير الحديثة، والفاكس، وغير ذلك من المخترعات في مجال الهندسة، والنقل، والريّ بالرّش، وأنواع من الماكينات، ووسائل البناء الحديثة. وكل ذلك لم يكن معروفاً من قبل. ونشرته العولمة، حتى إننا نجد في أمريكا نفسها سيارات يابانية، وصناعات دقيقة من الصين ومن وكوريا.

وعن طريق العولمة بدأ أيضاً استخدام الذرة، وتخصيب اليورانيوم. وهنا تبدو الخطورة في تنافس كثير من الدول على إنتاج القنبلة الذرية، والصواريخ الموجهة البعيدة المدى، وباقي أصناف الأسلحة الفتاكة، المهلكة للشعوب والحضارات...

وإن كانت العولمة باختراعاتها، كان من نتائج ذلك تسهيل كل أنواع الاتصالات. فلعل من أضرار ذلك سوء الاستخدام سواء من جهة الأسرار أو الأخبار أو بعض أمور الأمن. وحتى الأطفال حالياً ينشغلون بالكمبيوتر والانترنت كلون من التسلية وحب الاستطلاع. ويكون لذلك تأثيره على تحصيلهم الدراسي، بل وعلى أخلاقهم أيضاً، إذ يفتح أذهانهم على أمور تضرهم، أو ينشغلون بروايات وأفلام جنسية تثيرهم وتتعبهم. أو عن طريق هذه الاتصالات السهلة يقعون في علاقات معينة وتتفتح أمامهم أبواب للانحراف..

ويرى جيل الإنترنت والكمبيوتر أن آبائهم على درجة من الأمية إذ ليست لهم نفس معرفتهم ومقدار معلوماتهم. وهكذا لا يوجد تواصل بين الأجيال المتتابعة.

وإن كان العلم حالياً في تطور للوصول إلى التليفون الذي ينقل الصورة أيضاً بين المتخاطبين، فما أسهل أن يكون لهذا الأمر ضرره أيضاً من حيث الخوض في خصوصيات من الخطر أن تُعرف...

***

*** ومن تأثير العولمة أيضاً تطور الآلات:**

وعلى الرغم من فوائد النمو في صناعة الآلات، إلاّ أن القاعدة المعروفة هى أنه كلما ازداد استخدام الآلة، كلما ازدادت البطالة، إذ أن الآلة توفر عدداً كبيراً من العمالة. وهذا له ضرره من الناحية الاجتماعية، وإن كان يفيد من جهة سرعة ووفرة الإنتاج. ولكنه يفيد الرأسمالية بوجه خاص..!

وكمثال لذلك: بعد أن كان ريّ فدان من الأرض الزراعية يحتاج إلى ستة من الفلاحين، أصبح استخدام الري بالرش يلزمه حوالي ثلاثة عمال فقط لري عشرين فداناً. ونفس الأمر في وسائل البناء والنقل...

كان استخدام الآلة هو بدء الانقلاب الصناعي في أوروبا. وبكثرة استخدام الآلات انتشرت البطالة في أجزاء كثيرة من العالم. وبدأت تقوم الاصطدامات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال...

***

بقى أن نتكلم عن تأثير العولمة على الحضارة، وتفاعل الحضارات أو اصطدامها. وتأثيرها على الثقافة واللغة، وعلى المبادئ والأخلاقيات والقيم. وتأثيرها على الحرية والديمقراطية، وعلى الأسرة والمجتمع ووضع المرأة سياسياً واجتماعياً. وتأثيرها من جهة الإنجاب وبنوك الأعضاء، وموضوع الاستنساخ وتطوره، وموضوع الاستثمار، وكل ما يتعلّق بالهجرة..

فإلى اللقاء في المقال المقبل، لنكمل حديثنا هذا، إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

٢٨ / ٤ / ٢٠٠٧

العولمة مرة أخرى
ومناقشة تأثيراتها

نتابع ما ذكرناه في المقال السابق فنقول:

من أهم عناصر العولمة: الحضارة وانتقالها من بلد إلى بلد:

وكلمة الحضارة واسعة جداً في معناها، فهي تشمل الثقافة والرقي وسائر القيم والعادات السائدة.

أما عن الثقافة، فلا ننسى مطلقاً فضل العولمة في نشر العلم والمعرفة، مع الوضع في الاعتبار بعض أنواع المعرفة المبنية على الشك كالفلسفات الملحدة وكالأفكار الاقتصادية التي تميل إلى الشيوعية أو إلى التطرف بوجه عام.

أما من جهة العادات والطباع والقيم، وأمثال ذلك مما يسمونه في الغرب Culture، فإن فيه اختلافاً كثيراً بيننا وبينهم. ونحن نلاحظ أن الذين يقيمون فترة طويلة في بلاد الغرب متغربين عن أوطانهم، يعودون بشخصيات وعادات مختلفة عما كان لهم من قبل، بل حتى لكنة ولهجة صوتهم تتغير، وكذلك طريقة تفكيرهم أيضاً...

* * *

كذلك للعولمة تأثيرها من جهة المجتمع والأسرة والمرأة:

* وهنا نسأل ماذا يكون وضع المرأة الشرقية في ظل العولمة، حيث وصلت المرأة في بعض بلاد الغرب إلى منصب رئيس الوزراء، وتنافس على منصب رئيس الدولة أيضاً. ونحن نشكر الله أن بلادنا مصر قد أفسحت المجال السياسي والإداري والاجتماعي أمام المرأة. فيوجد لدينا أكثر من وزيرة، وكذلك وكيلة مجلس الشعب امرأة. وعدد كبير من النساء في رتبة وكيل وزارة، ورتبة مدير عام. كما تم تعيين ثلاثين امرأة في القضاء... ولكن هل ستقبل بلاد الشرق العربي أن تصل المرأة إلى هذا المستوى أو أكثر؟ بينما في بعض البلدان العربية تجاهد النساء لكي يكون لهن مجرد حق الانتخاب في بعض المجالس!

* ثم في ظل انتشار العولمة ستعود مناقشة موضوع الحجاب والنقاب بالنسبة إلى المرأة. وكذلك ربما تظهر مشكلة الزواج المشترك ما بين طرفين مختلفين في المذهب.

* تدخل مشكلة أخرى في محيط الأسرة وهي مدى احترام وطاعة الوالدين والكبار عموماً. فنحن في الشرق نوقّر الكبار غاية التوقير، ونطلب رضى وبركة الوالدين، بينما في الغرب توجد الاستقلالية في الشخصية كلما وصل السن إلى مرحلة الشباب، ولا يجد الأبوان الفرصة الكافية لتأديب أبنائهم. ويمكن للابن أن يطلب تدخُّل الشرطة رسمياً للحد من سلطان أبيه أو تدخُّله في شئونه الخاصة...!

***

وعلى الرغم من اعترافنا بفضل العولمة في انتشار العلوم ورقيها، إلاّ إننا نجد بعض نواحي العلم - وبخاصة في موضوع الإنجاب - قد سارت في تيار لا يتفق كثيراً مع قيمنا ومع بعض مبادئنا الدينية:

* من ذلك وجود بنوك البويضات المُخصبّة...حيث يمكن للمرأة أن تختار النوع الذي تريد أن يُولد به ابن لها: من جهة طوله أو لون بشرته أو لون شعره أو درجة ذكائه. وتختار البويضة المخصبة التي تناسب طلبها، بغض النظر عن كيف أخصبت، وما شرعية ذلك، وما مدى تحكُّم علماء تلك البنوك في الجينات البشرية وتوفيقها بأسلوب خاص لتأتي بالنتيجة المطلوبة...

* يضاف إلى هذا التطور الواسع في موضوع الاستنساخ، الذي بدأ بتطبيقه على الحيوانات، ثم تطور إلى مجال البشر أيضاً. نحن لا نقف ضد العلم، ولكن من المفروض أيضاً أن تكون للعلم حدود لا يتعداها إلى الدخول في المشيئة الإلهية!

نحن لا ندّعي إطلاقاً بتدخل العلماء في القدرة على الخلق، وهم لا يدّعون ذلك، لأن الخلق هو الإيجاد من العدم، وهذا خارج نطاق العلم، ولكن تصرفهم في الخليقة حسب هواهم أو فكرهم الخاص هو موضوع من المفروض أن تكون له ضوابط وحدود.

* نقطة أخرى وهي استئجار الأرحام، حيث يمكن نقل بويضة لأم معينة إلى رحم امرأة أخرى. ثم يُولد طفل له أم طبيعية وأم استأجروها ليولد منها!! وإلى أيهما ينتسب؟!

***

العولمة أيضاً لها تأثيرها في محيط التجارة والصناعة: إذ توجد بلاد يمكن أن تقدم صناعات بسعر أقل، وتسوّقها في بلاد أخرى، فتؤثر على ميزانها الاقتصادي، وعلى صناعتها المحلية، وبالتالي على وضع العمالة فيها. وربما هذا الأمر يوجد جواً من التنافس في مجال الإنتاج ووفرته وجودته وسعره. ولكن ليست كل الدول تقدر على مثل هذا التنافس..

وكمثال واضح اختبرناه في مصر، انتشار الصناعة الصينية في نواح متعددة، وبأسعار أقل من السوق. بل عن طريق العولمة انتشرت صناعاتها أيضاً في بلاد أخرى غرباً وشرقاً.

***

لا ننسى أيضاً تأثير العولمة على اللغة:

ويظهر هذا واضحاً في كثير من العلوم. فنحن نستعمل العديد من الألفاظ اليونانية، مثل كلمات: فلسفة، جغرافيا، جيولوجيا، استراتيجية، تليفون، تلغراف تكنولوجيا. ونستخدم أيضاً عبارات في الطب والدواء ليست عربية مثل الكوليسترول، والفيتامينات. وعموماً فإن تعريب الطب غير ممكن من جهة، وضار من جهة أخرى، إذ يوقف الصلة بالبحوث العلمية، والمؤتمرات العلمية، والمجلات والكتب التي عن الطب والصيدلة. وغالبيتها بلغات أجنبية.

إننا تعودنا أن نستخدم عبارات ليست عربية، مثل درجة الماجستير وهى كلمة لاتينية، ومثل كلمة (مايسترو)عن معلم الموسيقى، وهى كلمة إيطالية، ومثل كلمة كيمياء وهى هيروغليفية الأصل أو قبطية. بل أن كلمة (لغة) نفسها ليست عربية، وإنما أصلها يوناني.

أما في العربية فنستخدم عبارة (لساناً عربياً فصيحاً). ومن أقدم وأشهر القواميس في العربية كتاب لسان العرب لابن منظور وليس لغة العرب.

***

ختاماً، لا خوف من العولمة على ثوابتنا العقيدية، فهى أعمق من العولمة، أما الحضارة والثقافة فهى ملك الجميع.

٥ / ٥ / ٢٠٠٧

الشيطان
صفاته وحيله

* **أول وأهم صفة للشيطان أنه شرير،** يحب الشر ويعمل على نشره بكافة أنواع الطرق. ويكره الخير والخيرين ويقاتلهم. وهوايته هى إسقاط الآخرين. وهو في قتاله للبشر، لا يهدأ مطلقاً ولا يملّ ولا يستريح. هو مشغول بالجولان في الأرض والتمشّي فيها، يبحث عن فريسة لكي ينقض عليها.

والعجيب أنه قوي في عمله. استطاع في الأجيال القديمة أن يلقي غالبية العالم في الوثنية، وفي تعدُّد الآلهة، وفي إغرائهم بألوان من الخطية والدنس. بل إنه صرع أشخاصاً كثيرين وسيطر عليهم. ولكن ليس معنى هذا أن نخافه، بل نحترس منه، طالبين معونة اللّه للتغلب عليه والنجاة من حيله...

***

والشيطان خبير بالحروب، وخبير بالنفس البشرية.

إنه يحارب الإنسان منذ أكثر من سبعة آلاف سنة، منذ أبوينا الأولين آدم وحواء. فأصبحت له خبرة طويلة في حربه مع البشرية. وقد صادف في قتاله أنواعاً شتى من نفوس البشر. فصار أقدر مخلوق على فهم النفس البشرية وطريقة محاربتها، إذ قد درسها جيداً واختبرها، وعرف نواحي القوة والضعف فيها، ومتى تقاومه ومتى تستسلم له. وتمرّس في أسلوب محاربتها...

فهو إذن عالم نفساني، وعلم النفس عنده ليس مجرد نظريات، إنما هو خبرات على المستوى العملي، وبنطاق واسع جداً، شمل البشرية كلها. لذلك فهو يعرف متى يحارب وكيف يحارب؟ ومتى ينتظر؟ ومن أي الأبواب يدخل إلى الفكر أو إلى القلب؟

* وهو في كل ذلك ذكي وصاحب حيله، ويتميز بالخُبث والمكر والدهاء.

ومن مظاهر ذكائه أنه قد يغيّر خططه وأساليبه لتوافق الظروف المتاحة له...

***

*** ومن صفاته الكذب والخداع والأضاليل، ليصل بذلك إلى غرضه.**

لذلك لا يصح أن نصدق الشيطان في كل ما يقوله وما يقدمه من إغراءات...

* يمكن للشيطان أن يستخدم الكذب والخداع فيما يقدمه من رؤى وأحلام كاذبة. وما أكثر الأحلام الكاذبة التي يضل بها الناس، أو يظهر لهم في هيئة ملاك أو أحد القديسين، ويرشدهم بطريقة مضللة!

* وكذب الشيطان يظهر أيضاً في ما يضعه على أفواه السحرة والعرّافين وأمثالهم. وما يقوله على أفواه المنجمين ومدعي معرفة الغيب مثل المشتغلين بقراءة الكف، أو ضرب الرمل، أو قراءة فنجان القهوة أو معرفة البخت والطالع بأنواع وطرق شتى. ولمّا كان من الثابت دينياً أنه لا يعرف الغيب سوى اللّه وحده، لذلك كل من يضع الوصول إلى معرفة الغيب لا يكون صادقاً في ادعائه.

* ويظهر كذب الشيطان كذلك في استشارة الموتى أو تحضير الأرواح.

فقد ينطق في أمثال تلك الجلسات، مدعياً أنه روح فلان من الناس. ويقول للحاضرين بعض معلومات تخدعهم مما يعرفه عن أخبار ذلك الشخص أو أسرته. فإذا صدقوه يبدأ بالتدريج بقول ما يضللهم...

* وإغراءات الشيطان كلها ألوان من الكذب. حيث يصور للإنسان سعادة تأتيه من وراء الخطية، سواء في لذة أو سلطة أو مكسب أو جاه أو مجد... ثم يجد الإنسان أن كل ذلك سراب زائل وأشياء فانية. وهذا أسلوب الشيطان باستمرار: أنه يزخرف طريق الخطيئة، ويضفي عليه أوصافاً من الجمال تغري من يقع في حبائله.

* وأيضاً أحلام اليقظة التي يقدمها لضحاياها، كلها أكاذيب: ولكنه يقدمها لهم كنوع من المتعة بالخيال، تخدرهم عن العمل الإيجابي النافع، فيعيشون فترة في وهم هذه الأحلام، يبنون قصوراً من رمال، ومتعة وأفراحاً من الخيال. ثم يستيقظون لأنفسهم فلا يجدون شيئاً. ويكون الشيطان قد أضاع وقتهم، وعطّلهم عن العمل المجدي، وأراحهم راحة كاذبة!

* ومن أكاذيب الشيطان أن يوهم المنتحر بأن الموت سيريحه من متاعبه! ويظل يركز على هذه النقطة: إنه لا فائدة له من هذه الحياة، ولا حلّ لمشاكله إلاّ بالموت، حيث يتخلص من كل تعبه ويستريح. وإذ ينخدع المنتحر بهذا الفكر ويقتل نفسه، لا يجد تلك

الراحة الموهومة. بل يجد نفسه في الجحيم، في تعب لا نجاة منه، ولا تقاس به كل متاعب الدنيا. ويكتشف أن الموت ليس هو نهاية لحياته المتعبة، بل بداية لحياة أخرى أكثر تعباً وألماً...

* وتقريباً غالبية الخطايا، يضع الشيطان وراءها أكذوبة من أكاذيبه: فهو يوحي للسارق بأن سرقته سوف لا تُكتشف. ويوحي ذلك أيضاً لكلٍّ من المُرتشي والمهرّب والغشاش. وهو في ذلك يكذب، لأنه حتى إن كان أحد لا يرى هؤلاء، فاللّه يرى وكل شيء مكشوف أمامه. وكذلك فإن الشيطان يوحي للقاتل أن من ينوي قتله يستحق القتل، أو أنه بقتله يغسل العار الذي يلوث شرفه، أو أن قتله يريح نفس قريب له.

* ولعل أخطر أكذوبة قدمها الشيطان لبعض البشر، هي الإلحاد. كما أنه كذب على الوجوديين حين صوّر لهم أن وجود اللّه يعطّل وجودهم. وكذب على بعض الشيوعيين زاعماً أن اللّه يعيش في برج عال لا يهتم بالمجتمع الإنساني، تاركاً الظالم يظلم، والغني يستعبد الفقير!

***

*** من صفات الشيطان أيضاً أنه لحوح لا يملّ من الإلحاح...**

وربما يعرض الفكر الواحد مراتٍ ومراتٍ. ومهما قوبل بالرفض، يستمر في عرضه. فربما بكثرة الضغط والإلحاح، يستسلم الإنسان له ويخضع.. وهو لا يخجل أبداً من الفشل، بل يعود ويستمر...

والشيطان في إلحاحه على الناس، لا يعترف بالعقبات، ولا تهمه درجة الإنسان الروحي الذي يهاجمه، ولا مركزه. إنما يضرب ضربته، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. إنه يلقي سمومه في كل حين على كل أحد. وربما الذي لا يهلك بها اليوم، يهلك غداً، أو بعد سنة أو أكثر...

فالشيطان مثابر نشيط لحوح، دائب على العمل، لا يثنيه الفشل عن الاستمرار، ولا ييأس من علو قدر الناس. هو ماضٍ في خطته. والذي لا يستطيع أن يدنّس جسده، فعلى الأقل يدنّس فكره!

* ولما كانت باقي صفات الشيطان وكل حيله، أوسع من هذا المقال، فإلى اللقاء في مقال آخر إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

١٢ / ٥ / ٢٠٠٧

من حيل الشياطين

للشياطين حيل كثيرة، صارت بعضها معروفة، ومنها:

تقديم خطيئة بِاسم فضيلة:

الشيطان خبيث. ويرى أن بعض الناس يرفض ضميرهم الخطيئة إن كانت مكشوفة. فلا مانع عنده من أن يعرض خطايا معينة بغير أسمائها، بأسلوب يسهل قبوله، بحيث تلبس الخطايا ثياب فضائل..

فالتهكّم على الناس والاستهزاء بهم، يقدّمه على اعتبار أنه لطف وظرف، ومحبة ودالة، وخفة روح ومحاولة للترفيه.

والدهاء أو الخبث يسميه باسم الذكاء! أما الكذب فيمكن للشيطان أن يقدمه باسم الحكمة، كنوع من حسن التصرف أو إنقاذ للموقف. والطبيب قد يكذب على المريض مرات، ويسمى ذلك: "حفظ معنويات المريض" وحمايته من الانهيار. والبعض قد يسمي أنواعاً من الكذب بِاسم الكذب الأبيض. وربما يعتبره في أول أبريل دعابة وفكاهة..

والقسوة على الأبناء يقدمها الشيطان للآباء بِاسم الحزم والحرص على تأديبهم وتربيتهم ومنعهم من الانحراف، وربما تقودهم هذه القسوة إلى الانحراف للهروب من قسوة الآباء. وهذا ما يريده الشيطان.

والتزين الذي يصل إلى التبرج، يُقدّم بِاسم الأناقة والنظافة..

وقد يقدم للبعض جريمة القتل بِاسم آخر. فقتل الأخت الخاطئة يسميها غسل عار الأسرة. وقتل آخَر يطلق عليه اسم الدفاع عن الوطن أو الدفاع عن الدين أو تطهير الأرض من المخطئين أو من الطغاة...

لا مانع عند الشيطان من الدخول في خداع المسميات. إذ يرى أنه ليس من (الحكمة) أن يسمي الخطية بأسمائها المنفرة، ففي ذلك كشف لأوراقه. وعدم الوصول إلى هدفه. البخل مثلاً لا يسميه بخلاً لأن هذا الاسم غير مقبول. إنما يسميه: "حسن تدبير المال"

أو عدم الإسراف وعدم التبذير. أو حفظ المال لحاجة المستقبل... وهكذا العلاقات الشبابية غير الطاهرة يسميها بِاسم الحب، بينما هى شهوة وليست حباً.

وإعطاء الخطية اسم الفضيلة، يساعد الخطاة على الاستمرار فيها. كما يوقف تبكيت الضمير فلا يزعج الإنسان أو يقوده إلى ترك الخطية.

فليحترس إذن كل أحد من هذه المسميات الزائفة، ولا يسمح للشيطان أن يخدعه. فالخطية هى الخطية مهما اختفت وراء اسم آخَر.

***

ومن حيل الشيطان أيضاً التدرُّج الطويل:

إن وسائل الشيطان تتعدد، وقد يبدو بينها أحياناً شيء من التناقض بين أسلوب وآخر، ولكن يجمعها هدف واحد وهو إسقاط الفريسة.

فالشيطان في بعض الأحيان قد يضربه ضربة سريعة فجائية، بحيث لا يكون الشخص مستعداً لها. وأحياناً يعمل في تدرُّج طويل لا يشعر به صاحبه. والتدرُّج يلزمه وقت قد يطول. ولكن الشيطان لا يهمه الوقت، بل يهمه السقوط. والتدرُّج يصلح غالباً للأشخاص الذين لا يقبلون خطية معينة بسهولة. ولكن الشيطان يوصلهم إليها تدريجياً في هدوء، بجرعات قليلة أو قليلة جداً، تزداد بالوقت حتى تقضي عليهم. وقد يقسِّم الخطية إلى مراحل، كل مرحلة تثبت أقدامها بالوقت.

إنه يحب - حينما يضرب الضربة - أن تصيب مقتلاً. وهذا يتطلب منه أحياناً تمهيدات طويلة المدى. بحيث حينما يدخل القلب يجده مزيناً مفروشاً مهيئاً لعمله، ويجد الضحية جاهزة بلا مقاومة. وحتى إن قاومت تكون بلا قدرة على الإطلاق، فتسقط أمامه بسهولة...

وفي خطة التدرُّج، كل خطوة يقترب فيها الشخص إلى جو الخطية تجعله يعتادها، وتضعف إرادته أمامها. وبمرور الوقت يألفها ولا تصبح غريبة عليه. وبالتدريج تدخل إلى فكره ثم إلى مشاعره...

ومن أمثلة التدرُّج الطويل، تأتي العادات. وكل عادة مسيطرة على الإنسان، أتبدأ هكذا؟ مطلقاً. ربما كان هو المسيطر عليها أولاً ويستطيع تركها. ولكنه بالتدرج الطويل فقد سيطرته، ثم سيطرت العادة عليه. وربما قال له الشيطان في أول خطوة: "جرّب أو

اختبر.. الحياة كلها خبرات، والأمر بيدك تستطيع أن تمتنع وقتما تشاء". وظل بــه هكــذا إلى أن أتى الوقت الذي فيه سلّم إرادته بالتمام، ولم يعد يقاوم، بل لا يشاء أن يقاوم...

ونصيحتنا لمقاومة سياسة التدرج هذه التي ينتهجها الشيطان، أن يبعد الشخص عــن الخطوة الأولى بكل حزم، مهما بدت بريئة أو حاول الشيطان أن يقنعه بأنها بريئة.

احترس من كذب الشيطان إن قال لك إنها خطوة واحدة ولن تتكرر أو لن تتطــور. فالشيطان لا يقبل على خطته أن يتركها عند حدود الخطوة الواحدة، دون أن يتقــدم بهــا باستمرار نحو هدفه البعيد. إذن احترس حتى من الخطوة الأولى، وليس فقط من تطورها، مهما بدت هذه الخطوة في نظرك من الأمور الصغيرة...

***

من حيل الشيطان أيضاً، (الأمور الصغيرة)!

إنه يحارب بها، لأن الشخص قد لا يهتم بها، ولا يحترس منها... بل يقــول لنفســه: "وهل مثلي يخاف من هذه الأمور الصغيرة. إنها قد تتعب المبتدئين. أما نحن فقد كبرنــا عن أمثال هذه الأمور..!".

حقاً إن شيطان الأمور الصغيرة يمكن أن يهلك الإنسان. فيمكن أن تغرق سفينة مــن ثقب صغير في قاعها. والإنسان لا يشترط أن يكون موته بواسطة وحش خطير يفترســه، إنما يكفي لموته ميكروب لا يُرى بالعين المجردة أو مجرد ڤيروس...

والأمور الصغيرة قد لا تكون صغيرة فعلاً، ولكن الشيطان يسميها هكــذا. واللّــه - تبارك اسمه قد يختبر إرادتنا بأي اختبار مهما كان بسيطاً، ولكن تتكشف به نفسيتنا مــن الداخل.

هذه الأمور الصغيرة قد تكون مثل قليل من التساهل مع الحــواس أو القــراءات أو السماعات، أو عدم التدقيق في الكلام، أو تمسك الإنسان برأيه، وعدم استشارية لأحد، أو عدم لوم النفس على أخطائها، أو التقصير في الصلوات..

وطريقة الخلاص من شيطان الأمور الصغيرة هى في حياة التدقيق.

٢٦ / ٥ / ٢٠٠٧

الشك واليأس
من حروب الشياطين

الشك:

يعمل الشيطان على زرع الشكوك في كل مجالات الحياة. لأن الإنسان في حالة الشك يكون ضعيفاً، فيتمكّن الشيطان من الانتصار عليه..

وما أسهل عليه أن يغرس الشك في كل العلاقات الاجتماعية: كالشك في إخلاص الزوج أو الزوجة، أو في علاقة الصديق بصديقه، أو الشريك بشريكه في العمل. الشك في صدق الناس وفي أمانتهم وفي حسن نواياهم. وفي نيّاتهم ومقاصدهم. كل ذلك لكي يزعزع صلة الناس ببعضهم البعض، ويحوّلها إلى انقسامات ونزاع، ويضيّع الحب الذي هو عماد الحياة الروحية والاجتماعية كلها..

حتى الأمور التي يمكن أن تمرّ ببساطة، يعقدها الشيطان بشكوك عديدة، وقد يخلق منها مشاكل عويصة..

إنه يشكك التلاميذ في موسم الامتحانات... الشك في صعوبة الأسئلة، وفي القدرة على النجاح. وإن أمكن النجاح يثير الشك في إمكانية التفوق والالتحاق بكلية مرموقة. وإن نجح الطالب وتخرّج، يقدّم له الشك في إمكانية الحصول على وظيفة.

كذلك الشك في الأخبار سواء التي تنشر في الصحف، أو التي ترد في كل وسائل الإعلام: هل هي فعلاً حقيقية أم أن وراءها غرضاً معيناً يقصده الكاتب أو المذيع. ويزداد الشك كلما تضاربت الأخبار أو تنوّعت أساليب عرضها..

وقد يتطور الأمر فيشك الإنسان في ذاته، وفي مدى قدرته. وربما يشك في حالته الصحية، وهل هو مريض بالمرض الفلاني، أم أن الأطباء والأقرباء يخفون الأمر عنه أو يهوّنون عليه وقع الخبر..! وربما فتاة يأتي شاب ليخطبها فتشك في قبوله لها. وهل سيمضي ثم لا يعود.؟!

بل أن الشك قد يصل إلى الإيمان أيضاً والعقيدة. مثلما حدث في نشر الشيوعية، وبعض الكتابات الإلحادية، أو في قيام بعض البدع والملل والنحل. ويتساءل العقل في حيرة وفي شك: أين الحقيقة؟

وقد يكون الشك في إمكانية الحياة مع اللَّه، وهل هى سهلة أم صعبة؟ وإلى أي مدى يمكن السلوك بالمبادئ السامية في مجتمعات أنتشر فيها الفساد، وأصبحت الفضيلة فيها محاطة بعقبات وأشواك!

والشك عموماً يحتاج إلى علاج، والى بحث ورويّة واقتناع. وفي العلاقات الاجتماعية ربما يلزمه أحياناً شيء من المواجهة أو من الصراحة، أو العقاب. وهنا ينبع شك آخَر: هل المواجهة أو العتاب تأتي بنتيجة سليمة أم تؤول لها حالة أكثر سوءاً؟! وهل الذي ستواجهه أو تعاتب سيقبل ذلك. أم يغضب ويثور ويهدد؟!

اليأس:

أخطر ما في الشك أنه قد يزداد حتى يتحول إلى يأس. على أن اليأس إذا زاد، وإذا سيطر على مشاعر إنسان، فقد يجعله ينحرف أحياناً ويلجأ إلى حلول غير سليمة...

فإنسان قد يقع في مشكلة ويحاول أن يصل إلى حلها فلا يعرف. وأخيراً إن طال الوقت ولم يجد للمشكلة حلاً، قد يلجأ إلى وسائل لا يرضى عنها الضمير مثل الكذب أو الغش أو التحايل مركّزاً على الرغبة في الوصول أياً كانت الوسيلة خاطئة! وإن وبّخه ضميره، يرد قائلاً: ماذا افعل! ليس أمامي طريق آخَر، لقد يئست...

هذا الإنسان ينقصه الصبر أو الحكمة، أو على الأقل المشورة...

أو إنسان آخَر تواجهه مشكلة، فيصلي إلى اللَّه كثيراً أن ينقذه منها. وإذ يمرّ الوقت وتبقى المشكلة قائمة، ربما يدركه اليأس من حلها. ثم يوسوس له الشيطان أنه لا فائدة من الصلاة ولا منفعة، وأن اللَّه لا يسمع أو لا يرحم... ويبدأ إيمانه أن يهتز ولا يعود يصلي من أجل هذه المشكلة ولا من أجل أي سبب آخَر...

شخص آخَر تقابله في متاعب في حياته الزوجية، أو خلافات بينه وبين زوجته، ويحاول أن يقنعها بفكره فلا تقتنع، فتبدأ محبته لها أن تفتر، ويعمل على استعادة الحب

القديم فلا يستطيع... وأخيراً ييأس من استمرار حياته معها، ويبدأ في التفكير في تطليقها. ويتم الطلاق نتيجة لليأس، ويكون مأساة للأسرة وللأولاد...

شخص آخر يزداد الخلاف بينه وبين بعض أصدقائه، ويصطدم بحقيقة تزعجه وهى خيانة من البعض، وعدم أمانة من البعض الآخَر، فيشك في الصداقة والأصدقاء، وتنحرف نفسيته، فييأس من كل هذه العلاقات، وينعزل بعيداً عن أي صديق خوفاً من أن تتكرر المأساة. ولا يعود يأتمن أحداً أو يتحدث بأسراره لأحد!!

أو إنسان كان طيب القلب متسامحاً مع الكل، فوجد أنهم يستغلون طيبته ويمتهنون كرامته. ويجد أن الوداعة والتواضع يعتبرهما البعض دليلاً على الضعف. ويتكرر هذا الأمر، فيدركه اليأس من حياة السمو والفضيلة والهدوء، وينقلب إلى صورة عكسية تماماً في معاملته مع الآخرين.. فلا يعود يغفر أية إساءة لأحد، بل يقابل السيئة بما هو أسوأ منها...

وإنسان آخَر تكثر عليه المشاكل والضيقات، ويحتمل على قدر طاقته، ثم يضيق صدره أخيراً بكثرة الاحتمال. وإذ تزداد آلامه يوماً بعد يوم، ولا يجد معونة من أحد، ولا حلاً لكل ما يكابده، حينئذ يدركه اليأس ويعصره، ويفكر في التخلُّص من هذه الحياة كلها بالانتحار، نتيجة ليأسه...

أو شخص آخر يقع في الخطيئة ثم يتوب أو يحاول التوبة، ولكنه يعود للخطيئة مرة أخرى وثانية وثالثة، فيدركه اليأس من حياة التوبة وينغمس في الخطيئة.

على أنى أرى هذه النقطة بالذات من الوقوع في اليأس، تحتاج منا إلى شرح وتفصيل أكثر، بل إلى مقال خاص. فإلى اللقاء في المقال المقبل إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

٢ / ٦ / ٢٠٠٧

اليــأس
من إمكانيـة التوبـة

حدثتكم في مقالنا السابق عن بعض أنواع من أفكار اليأس التي يغرسـها الشـيطان في نفوس الناس. وكان موعدنا اليوم أن نطرق موضوع اليأس من إمكانية التوبة، وهـذه محاربة شيطانية شائعة وأفكارها معروفة طالما أتعبت الكثيرين...

وفي هذه المناسبة، أتذكر أنني منذ حوالي أربعين عاماً وصلني خطـاب مـن أحـد الشبان، قرأته فتأثرت كثيراً جداً... ثم أرسلت له رداً قلت له في مقدمته: "وصلني خطابك يا أخي المحبوب، ويُخيّل إليَّ أنني قرأته مراراً قبل أن أراه... إنه قصة قلوب كثيرة..".

***

إن اليأس من التوبة هو أكثر خطورة من السقوط في الخطيئة، لأن أي شخص يمكن أن يخطئ ثم يتوب. أما في حالة اليأس فإنه قد يندمج في الخطيئة بالأكثر، ويتدرّج مـن السيء إلى الأسوأ. وربما تكون مقدمة اليأس بعض سقطات متتالية يوقع فيهـا الشـيطان ضحيته بلا هوادة، حتى يصرخ الخاطئ قائلاً: "لا فائدة فيّ. فمن المستحيل أن أنجو ممـا أنا فيه"، وربما تكون مقدمة اليأس سقطة كبيرة أو خطيرة، يُشعره الشيطان بعـدها بأنـه لا مغفرة..! أو قد لا تكون السقطة بهذه الدرجة، ولكن الشيطان من عادته أنـه يضـخّم في الأخطاء ليوقع صاحبها في اليأس...

إن الشيطان ماكر جداً في هذه الناحية: فهو قبل السقوط يسهّل موضوع الخطية جـداً حتى لتبدو شيئاً عادياً، ويضع لها مبررات... أما بعد السقوط، فإما أن يستمر في سياسـة التهوين حتى تتكرر. أو أنه يدخل في أسلوب التهويل ليقع صاحبها في اليأس قـائلاً لـه: "هل من المعقول أن يغفر اللّه كل هذا الجُرم؟!".

***

وقد يجرّه إلى اليأس بإشعاره أنه لن يتوب... فيقول له: "هل من المعقول أنك ستترك الخطية؟! مستحيل. لقد صارت تجري في دمك. عزيمتك انتهت، وإرادتك انحلّـت. بـل

حتى مجرد الرغبة في التوبة لم تعد موجودة عندك... كم مرة حاولت من قبل أن تتــوب وفشلت؟ كم مرة ندمت على خطاياك، ثم رجعت إليها وربما في حالة أسوأ مما كنــت؟!". وهكذا يحطّم معنوياته، حتى يستسلم له، ويتوقف عن المقاومة!!

يقول له: "قد صرت كلك في يديّ، فكراً وقلباً وعملاً. بحيث أنى أنقلك من هذه اليــد إلى الأخرى، بكل سهولة كما أشاء. فلا داعي إذن لصراع فاشل لا تكتسب منه شيئاً...".

وطبعاً كل هذه تخاويف لا أساس لها، وتهديدات زائفة.. فإن اللّــه قــادر أن يمــنح الإنسان التوبة، مهما كانت حالته سيئة. والتاريخ يحكي لنا عن قصــص كثيــرة لتوبــة أشخاص كانت سقطاتهم كثيرة ومريرة...

يا أخي، لا تركز تفكيرك في عجزك عن القيام من سقطاتك. بل تذكّر أن نعمة اللّــه قادرة على إقامتك. وحيث تعمل النعمة فلا مجال لليأس. فاطلب إذن معونة من اللّه، وقل له في صلاتك: "توّبني يارب فأتوب. أنت يارب تريدني أن أعيش حياة نقية بلا خطيــة. فامنحني هذه الحياة. واعطني الإرادة والعزيمة، وابعد عنى كل مجالات السقوط. وامنحني قوة لكي أسلك كما ينبغي، وأصمد أمام كل الإغراءات"..

***

ولعل الشيطان يحاربك قائلاً: "من غير الممكن أن تتوب وقد تعودت علــى الخطيــة وأصبح قلبك يحبها! وكيف ستعيش طول عمرك بعيداً عن هذه الخطية التي تشتاق إليها؟! فلو أنك تبت عنها إلى حين، لابد سترجع إليها".. ولا شك أن هذه مغالطة مــن الشــيطان لكي يلقيك في اليأس، زاعماً أنك ستعيش في التوبة بنفس القلب الذي يحب الخطية!! كلا، فإن اللّه سوف يعطيك قلباً جديداً، وينزع منك محبة الخطية. وحينئذ لن تفكــر أن ترجــع إليها... بل على العكس سوف يجعلك اللّه في توبتك تكره الخطية وتشمئز منها...

ويستمر الشيطان في حربه، فيقول لك: "حتى أن تبت، ستبقى أفكارك ملوثة بصــور قديمة!" لا تخف، ففي التوبة سوف ينقّي اللّه فكرك ويمحو منه صور الماضي. وثــق أن الخطاة الذين تابوا كانوا في حالة أقوى بكثير وأنقى.

وربما من حيل الشيطان أن يحاول إقناعك بأنك لن تفلت مطلقاً من العــدل الإلهــي، وإن اللّه لن يغفر لك كل ما فعلته...! كلا، فإن اللّه كثير المغفرة، ورحمته تشمل الكــل. وكل جند السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب...

لذلك لا تيأس مطلقاً. وتأكد أن اليأس هو من حروب الشيطان. وإن كنت ماشياً في الطريق الروحي ووقعت، لا تظن أنك لا تحسن السير، بل قم في رجاء المؤمن وأكمل مسيرتك.

إن الشيطان يحسد رغبتك في التوبة، ويريد أن يعرقلها. ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف التوبة ولا يؤمن بها. واعلم أنه لولا صفاء نيتك، ما كان يحاربك. لأنه دائماً يحارب الراغبين في حياة البر، ويخاف جهادهم ضده.

لذلك كن قوي القلب، مهما كانت حروب الشيطان شديدة ومهما استمرت. كن راسخاً ولا تتزعزع ولا تقلق. ولا تيأس مهما سقطت، ومهما فشلت في تنفيذ وصية اللَّه.

بل شجّع نفسك، وقل: لابد أن اثبت وارجع إلى اللَّه مهما حاول الشيطان تعطيلي. سأسير نحو اللَّه، حتى إن كنت أجرّ رجليَّ جراً إليه. ومهما سقطت في الطريق، سأقوم مرة أخرى وأكمل طريقي، وسوف تسندني نعمة اللَّه وقوّته...



٩ / ٦ / ٢٠٠٧

الذين يجرفهم التيار

يقول أحد الأمثال: "من عاشَرَ قوماً أربعين يوماً، صار منهم". وسواء صحّ هذا المثل أو لم يصح، فإنه يدل على مدى تأثير التيار الخارجي على شخصية الإنسان. وفي نفس المعنى قال أحد الأدباء الكبار: "قل لي من هم أصدقاؤك؟ أقول لك: من أنت؟"... وهذا أيضاً يدل على تأثير الصداقة والعِشرة في تشكيل طبيعة الشخص. وهذا ما نلاحظه في من يعيشون سنوات طويلة خارج بلادهم - في الغرب مثلاً - فإذا بهم قد تغيروا كثيراً عما كانوا قبلاً، واستطاع التيار أن يجرفهم... سواء في طباعهم أو عاداتهم أو طريقة تفكيرهم...

وكثير من السيدات يتأثرون بما يسمونه (الموضة) المنتشرة، من جهة ملابسهن أو زينتهن، أو حتى في أسلوب الحفلات، أو في لكنة الألفاظ... كما أن بعض الشباب تصبح طباعهم بنفس نوعية أصدقائهم. وربما يتعلمون منهم التدرُّب على التدخين أو ما هو أكثر، وعلى ألوان من اللهو أو الطياشة، أو السهر خارج المنزل. وترى المجموعة كلها بنفس الأخلاق... كل أولئك قد جرفهم التيار ولم يقاوموه...

التيار المحيط له تأثيره. وقد يكون خاطئاً. وفي نفس الوقت يكون ضاغطاً ويدعو إلى الخضوع له، هامساً في الأذن: "الكل هكذا. فلماذا تشذ أنت، ويكون لك أسلوب خاص، كنشاز في لحن؟!

ولا شك أن الشخص القوي يمكنه أن يرد على ذلك قائلاً: "يجب عليَّ أن أتبع الحق أياً كان موقعه. حتى إن كانت أغلبية المحيطين بي على خطأ، فإنني لا أسير في تيارهم. فإنه في أيام أبينا نوح، كانت غالبية الناس أشرار وبقى هو باراً مع أسرته. وكأن شعاره قول الشاعر:

سأطيع اللَّه حتى لو أطعتُ اللَّه وحدي

على أن الشيطان قد يدفع البعض دفعاً وراء التيار الخاطئ بطرق شتى: أحياناً يجعل الناس يجارون الخطأ من باب المجاملة، أو من باب الخجل، أو عن طريق التقليد،

أو خوفاً من تهكُّم الناس ومن تعييرهم، أو نتيجة لضغط الظروف الخارجية وإلحاح الآخرين. أو يقول الفكر: "هذه المرة فقط ولن تتكرر"، ثم تتكرر طبعاً... وربما شخص يجاري التيار خضوعاً لسلطة أقوى منه. وقد يندفع مع التيار جهلاً...

أو قد يقول له الشيطان: "هل من المعقول أن يكون كل الناس مخطئين، وأنت الوحيد على صواب؟!" هل من المعقول أن كل هؤلاء لا يعرفون أين يوجد الخير والحق، وأنت الوحيد الذي تعرف؟! لذلك اتضع يا أخي.. (ويتضع الأخ) وينجرف في التيار..

وقد يسير في التيار نتيجة لصداقة أو صحبة خاطئة استطاعت أن تؤثر عليه وتجذبه إلى طريقها..

وقد يخضع الإنسان للتيار نتيجة لضعف شخصيته، أو بسبب أن إرادته شبه معدومة أو لا إرادة له. وهكذا لا يقدر على المقاومة، أو يقاوم قليلاً ولا يثبت. بعكس الإنسان القوي الإرادة.. ألسنا نرى أن كتلة ضخمة من الخشب - إذا ألقيت في البحر - يجذبها تيار الماء في أي اتجاه له. بينما سمكة صغيرة جداً تستطيع أن تقاوم التيار وتسبح حيثما شاءت، لأن لها إرادة وحياة...

والعجيب إننا نشاهد خطاة عديدين يكونون أقوياء في دفاعهم عن طريقهم الخاطئ، وفي سخريتهم من الأبرار الذين يرفضون أسلوبهم. ويظلون ينعتون الأبرار بشتى النعوت حتى يضعف أولئك أمامهم ويخضعون! فالفتاة التي ترفض أن تلبس نفس الملابس الخليعة، يهزأون بها، ويصفونها بأنها (فلاحة)! والشاب الذي لا يسير في نفس التيار، يقولون عنه أنه (دقّة قديمة) أي إنسان غير متمدن! بينما يجب أن يكون الأبرار أقوياء في شخصياتهم، لا يشتركون في الأعمال الخاطئة بل بالحري يوبخونها... فإن لم يستطيعوا توبيخ أولئك، فعلى الأقل لا ينجرفون في تيارهم.

إن موسى النبي عاش في مصر زمناً وسط العبادات الفرعونية الكثيرة، ومع ذلك احتفظ بنقاوة إيمانه. ويوسف الصديق عاش فترة في بيت وضغطت عليه الخطيئة من الخارج، ولكنه قاوم ولم يستجب، لأن قوة العفة التي كانت في قلبه، كانت أقوى من الإغراءات التي من الخارج... وبنفس الروح عاش مؤمنون في أجواء وثنية أو ملحدة - وكانت ضاغطة - ولكنهم احتفظوا بإيمانهم سليماً...

لهذا كن شجاعاً وصاحب مبادئ قوية، ولك قيم تتمسك بها. وقاوم التيار المحيط بك إذا أخطأ. ولا تخضع للشيطان وكل نصائحه، بل وكل مخاوفه التي يلقيها فـي قلبـك إن رفضته. وابعد عن الخطأ حتى إن رأيت كباراً يقعون فيه، أو إن رأيت الشر يهـددك... وإذا ما وجدت الذين يسيرون في طريق الحق قليلين، فلا يضعف قلبك بهذا السبب. بـل اعرف أن هذه هى القلة المختارة أو هى الصفوة.

ولو وقع غالبية المحيطين بك في خطأ، فإن هذا لا يجعل الخطأ صواباً. فإن الخطـأ هو الخطأ، ووقوع الكثيرين فيه لا يبرره. والمعروف أن الصواب طريقه صـعب، وقـد لا يستطيعه كل الناس. بل تسير فيه القلة المتميزة بمبادئها وقيمها.

إن وجدت الذين يعيشون في الفساد قد نموا وارتقوا وارتفع شأنهم، فاحذر أن تقتـدي بهم. وإن جذبوك إليهم فابتعد. وإن رأيت غيرك قد استخدموا أسلوب التملُّـق والريـاء، واستطاعوا أن يصلوا به إلى ما يريدون، فـلا تسـايرهم أنـت، ولا يقنعـك أسـلوبهم ولا نجاحهم الذي وصلوا إليه بطريق خاطئ. وإن بدا أن الناس قد تغيروا عن ذي قبـل، وقيل لك إن هذه هى لغة العصر، فقل: أما أنا فلغتي التي أتمسّك بها هى لغـة الضـمير الصالح، وهى لغة الحق.

وإن ضعفت مقاومتك للتيار، فاطلب معونة من اللَّـه. وثـق أنـه سـوف يقويـك، ولا يتركك تجاهد وحدك.

١٦ / ٦ / ٢٠٠٧

لا تكتسب فضيلة بتحطيم فضيلة أخرى

إن الشيطان يتضايق من فضائلك الثابتة التي صارت وكأنها من طبيعتك، لذلك يحاول أن يحطّمها بكافة الحيل. ومن بين هذه الحيل أن يقدّم لك فضيلة أخرى جديدة عليك ليست لك بها خبرة، لكي تحلّ محل الفضيلة الأولى الثابتة. ومن أمثلة ذلك:

١- إن كنت تحيا في وداعة وهدوء ودماثة خلق وسلام قلبي. ويريد الشيطان أن يفقدك كل هذا. فماذا يفعل؟ أنه لا يستطيع أن يذم الرقة والوداعة، أو أن يقول لك: "أترك طبعك هذا المحبوب من الكل"... ولكنه يصل إلى غرضه عن طريق الإحلال، ويقدم لك فضيلة بديله، دون أن يشعرك أنها بديلة.. وكيف ذلك؟

يدعوك بِاسم الحماس في نشر البرّ، أن تساهم في إصلاح المجتمع، وأن توبّخ وتنتهر، وتكشف أخطاء الآخرين لكي يخجلوا منها ويتركوها! وتظل تفعل هذا بغير حكمة. وأنت لا تعرف قدر من تتناوله بالنقد، ولا الأسلوب المناسب، ولا ما هي ردود الفعل، ولا بأي سلطان تفعل ذلك. وهكذا تسلك في طريق القسوة والتشهير بالآخرين، وفي أسلوب السب والقذف. وتسوّد صورة الغير في نظرك، وتتحول إلى قنبلة متفجرة تقذف شظاياها في كل اتجاه...

وهكذا تفقد وداعتك ورقتك. وتكره الناس ويكرهونك. ثم ما تلبث أن تتعب من هذا الأسلوب الذي لا يتفق مع طباعك، وتحاول أن تعود إلى حالتك الأولى، ولكنك لا تجد قلبك نفس القلب، ولا فكرك نفس الفكر. بل ترى أنك قد فقدت بساطتك ونقاوة فكرك، كما فقدت حُسن علاقتك بالآخرين وفقدت أمثولتك الصالحة التي كان ينتفع بها غيرك.. وإذا بالشيطان قد أطمعك في فضيلة لا تعرف كيفية السلوك فيها، وأفقدك فضيلتك الأولى! فما احتفظت بالأولى، ولا ربحت الثانية. وصرت في بلبلة...

ينبغي أن تدرك تماماً أن أعمال الخير لا يهدم بعضها بعضاً، وأن كل إنسان له شخصيته التي قد تختلف عن غيره، وقد لا يناسبه ما يناسب غيره. وليس كل أحد له سلطان أن يوبّخ وينتقد. كما أنه ليس للكل معرفة كيف يستخدم حسناً فضيلة جديدة عليه.

٢- مثال آخر للفضيلة التي يحاول بها الشيطان أن يضيع فضيلة أخرى: إنسان يعيش في نقاوة القلب، بعيداً عن العثرات الجسدية. فهو محترس تماماً، لا يقرأ قراءات ولا ينظر إلى أية مناظر تعثره. ولا يختلط بأية خلطة خاطئة، ولا يستمع إلى أية أحاديث طائشة. بل يحتفظ بأفكاره نقية لا تُدخل إلى قلبه شيئاً غير طاهر.. هذا الإنسان يريد الشيطان أن يحاربه، ولا يستطيع أن يقدم له شهوة مكشوفة، لأنه لابد أن يرفضها. فماذا يفعل؟

يفتح أمامه الباب ليكون مرشداً روحياً يقود الشباب إلى الطهارة. إذ كيف يعيش في حياة الطهارة وحده، ويترك أولئك المساكين يسقطون كل يوم دون أن يقدم لهم مشورة صالحة تنقذهم مما هم فيه! ويقنعه بأن مَن يرد خاطئاً عن ضلال طريقه، إنما يخلِّص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا. ويظل يثير الحماس في نفسه لكي يقبل هذه الخدمة الروحية الحيوية، وأن يرشد الذين يأتون إليه...

ثم تأتي الخطوة التالية وهي أنه لكي يكون إرشاده عملياً، لابد أن يستمع إلى مشاكلهم وأخطائهم. ويظل أولئك يصبّون في أذنيه أخبارهم وقصص سقوطهم. وقد يقولون كل شيء بالتفاصيل. وربما يكون في ما يحكونه ما يعثر.. ويستمع (المرشد) الطاهر إلى كل ما كان يبعد قبلاً عن سماعه، ويعرف ما كان يجب مطلقاً أن يعرفه. وكل واحد من أولئك يقدم صورة جديدة أو صوراً عديدة من الخطأ...

وعن طريق الإرشاد يجد صاحبنا عقله وقد امتلأ بصور دنسة. وأصبح يعرف أشياء صارت تشوّه طهارة تفكيره، وتدنسه بأخبار وقصص مجرد ذكرها قبيح. وإن لم تعثره وتغرس فيه انفعالات خاطئة، فعلى الأقل تنجّس فكره، وكأنه قد قطف أثماراً غريبة من شجرة معرفة الخير والشر..!

فإن حاول أن يبتعد، يقال له: وما ذنب هؤلاء الشبان؟!

وقد يكونون قد تعلقوا به واستراحوا إلى إرشاده. وربما يتعبون ضميره بأنهم - إن تخلى عنهم - قد يرجعون إلى خطاياهم! ويلحّون عليه أن يظل يسندهم حتى يقفوا على أرجلهم.. ربما هو يكون قد رسبت في ذهنه - ولو بالسمع - صور لم ينظرها من قبل، وربما يسقط بالفكر، ويكون الشيطان قد نجح في إسقاطه وافقده نقاوته الأولى.

٣- وقد تأتي حيلة الشيطان في عرض الإرشاد بصورة أخرى، يقدّم فيها - لا أخباراً تدنس القلب - بل شكوكاً تتعب العقل...

إذ يكون القلب في بساطة الإيمان، وتكون قراءاته كلها روحية تعمّق صلته باللّه. ثم يأتي من يطلبون معونته وإرشاده في شكوك عقيدية أو إيمانية تتعبهم. وتتوالى الشكوك من هنا وهناك لكي تجد لها حلاً، ويبدأ إيمان هذا (المرشد) أن يتحوّل شيئاً فشيئاً من القلب إلى الفكر والبحث العلمي. وقليلون من يتقنون الأمرين معاً...

ويجد أن الشكوك تتكاثر عليه، وليست له موهبة الرد عليها.. وينبغي أن نعرف أنه ليس كل أحد له القدرة على الإرشاد. فالذين لهم هذه الموهبة، لا يصيبهم ضرر سواء من المشاكل الروحية وسماع الخطايا الجسدية، أو من المشاكل العقائدية وسماع الشكوك.

ولكن حيلة الشيطان الماكرة هى أنه يقدّم الإرشاد للذين ليست لهم الموهبة، فيصيبهم منه ضرر. كما إنه يقدم لهم ذلك بأسلوب ضاغط، يشعرهم به أنه ضرورة ملحة وأنه واجب مقدس..

وما أسهل على القلب المتضع أن يرد قائلاً: "ولكنني لا أعرف. أنا الذي لم أستطع أن أرشد نفسي، كيف يمكنني إرشاد آخرين؟!.



٢٣ / ٦ / ٢٠٠٧

إنه عالَم مشغول

إن اللَّه - تبارك اسمه - يطل من سمائه على عالمنا، فيجده عالماً مشغولاً. إنه عالم يجري بسرعة، ولا يجد وقتاً يتوقف فيه ليفكر إلى أين هو ذاهب! وهو أيضاً عالم صاخب كله أحاديث وضوضاء ومناقشات وانفعالات، وقد فقد هدوءه...

إنه عالم مشغول على كافة المستويات: على مستوى الدول والأمم والجماعات والأفراد. فالدول مشغولة بالحروب والسياسات والانقسامات، وبالفتن والدسائس والتدابير. والجماعات مشغولة بالصراعات والتشاحن، وبالثقافات التي تتصادم وتتزاحم ولا تتلاحم. والأفراد أيضاً مشغولون بالمشاكل الأسرية والمشاكل الاقتصادية، وبالصراع في ميادين الدراسة والوظائف والعلاقات الاجتماعية.

ووسط كل ذلك يقل العمل الروحي أو يضعف ويفتر، وتختفي العلاقة مع اللَّه، ولا يفكّر أحد تفكيراً جدياً في مصيره الأبدي ولا في الاستعداد له. وإن قام للصلاة يكون ذلك بأسلوب شكلي روتيني لا روح فيه، حتى أن اللَّه يقول كما قال عن اليهود في وقت ما: "هذا الشعب يعبدني بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عني بعيداً".

ويقف الشيطان مبتهجاً بمشغولية الناس، ما دامت هذه المشغولية تنسيهم أنفسهم، وتنسيهم إلههم، ولا تعطيهم فرصة للتأمل فيما هو لازم لحياتهم الأخرى، ولا تعطيهم فرصة للتأمل ولمحاسبة أنفسهم. وإن وجدوا وقتاً للهدوء يشغلهم بعمل إضافي، أو بدراسة معينة، أو بألوان من اللهو والتسلية والمتعة، أو يبحث عن مزيد من الرزق المادي. والمهم في كل ذلك أنهم لا يجدون وقتاً يتفرغون فيه للَّه خالقهم. مقنعاً أن تلك المشغوليات لازمة لهم اجتماعياً أو ثقافياً أو مادياً لصلاح حالهم!!.

وإن اهتم شخص بالنواحي الدينية، يدخل معه الشيطان أيضاً في هذا المجال. فإما أن يحوّل له الدين إلى صراعات فكرية وإلى مجالات وفلسفة، أو يحوّل مسيرة تدينه إلى نزاع مع الذين يختلفون معه في المذاهب. أو يكتفي بأن يجعله يهتم بإلقاء دراسات أو محاضرات عن السلوك البار دون السير فيه. وهكذا يشبه لافتات الطريق التي توضح

الطريق دون أن تسلك فيه، أو هو يشبه أجراس المعابد التي تدعو الناس إلى دخول المعبد دون أن تدخل هي فيه!! ويصبح التدين كلاماً، ولا يصير ممارسة أو حياة!!.

لا تظنوا أن الشيطان يغري كل الناس بالخطيئة لكي يبعدهم عن اللّه... كلا، فإنه يفتن في طرق عديدة لإبعادهم. المهم عنده أن فكرهم لا يكون مع اللّه، ولا قلبهم أيضاً فهو يشغل البعض بالمال وكأنه الوسيلة الوحيدة لسعادته، ويشغل البعض الآخر بالمناصب والألقاب، فيسعى إليها بكل جهده ليشبع بها رغباته. كما أنه قد يشغل آخرين بالعلم أو بالسياسة، فيركزون في ذلك كل آمالهم. وهو يضخّم قيمة المشغولية التي يحارب بها كل أحد لكي لا يتبقى له وقت يهدأ فيه إلى نفسه، ويفكّر في اللّه وفي الحياة الأخرى والاستعداد لها...

وتصبح المشغولية لوناً من التخدير، يتوه به الإنسان عن نفسه، فلا يرى شيئاً مهماً وذا قيمة سوى هذه المشغولية! أما حياته الروحية وصفاء قلبه ونقاوته، فلا يحسب لشيء من هذه حساباً!!.

والشيطان - في كل ذلك - لا يكتفي بمشغولياتك الحالية، بل يحاول أن يضيف إليها مشغوليات أخرى، لكي ترتّبك ويليهك عن نفسك. وهو مستعد أن يقدّم لك في كل يوم عروضاً ربما تكون سخية تغريك لكي تقدم لها أنت المزيد من وقتك واهتمامك وعاطفتك. وهكذا تعيش في جحيم الرغبات والمشغوليات التي تشعل مشاعرك وتشغلك...

والعجيب في كل ذلك والمؤلم أيضاً، أنك لا تشعر بأنك قد أخطأت في شيء. وتقول لنفسك: أنا لم أكسر أية وصية من وصايا اللّه. لا وقعت في الزنا أو النجاسة أو السرقة أو القتل وما شابه ذلك. أنا إنسان أعمل عملي بكل إخلاص وأتفرّغ له... حقاً إنك كذلك، ولكنك لم تعط من حياتك وقتاً للّه.

ليكن اللّه يا أخي في مقدمة مشغولياتك، إن لم يكن هو شاغلك الوحيد. فعملك الروحي وصلتك باللّه ينبغي أن تكون باستمرار في مقدمة مشغولياتك وفي توزيع وقتك. واجعل خلاص نفسك في المقام الأول، ثم رتّب باقي مسئولياتك حسبما تكون أهميتها. وضع نصب عينيك باستمرار تلك العبارة الخالدة: "ماذا ينتفع الإنسان، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!"...

إن خسرت نفسك، ماذا يكون لك عوضاً عنها؟ وكل الذين ماتوا وتركوا هذا العالم، ماذا نفعتهم مشغولياتهم؟! ولما تركوا تلك المشغوليات بموتهم، هل ارتبك العالم، أم بقى كما هو بدونهم؟!.

نصيحتي لك: ابدأ يومك بالله في كل صباح، قبل أية مشغولية أخرى. ونظّم وقتك بحيث لا تطغي أية مشغولية على الوقت الذي تقضيه مع الله. ولا تخرج من منزلك قبل أن تقوم بكل واجباتك الروحية. ولا تسمح لشيء أن يتفوق على روحياتك مهما كانت الأسباب أو الإغراءات، ومهما حوربت بقيمة وأهمية تلك المعطلات... ولا يصح أن تضحي بعلاقتك مع الله من أجل أي شيء أو أي شخص أياً كان. وضع حياتك الروحية قبل كل المشغوليات، سواء من جهة الوقت أو جهة الأهمية..

واعلم أنك دائماً تصرّف حياتك، حسب قيمة كل شيء في نظرك. وليس هناك شيء أكثر أهمية من مصيرك الأبدي، لأن كل شيء زائل، إلاّ البر والخير والعلاقة الطيبة مع الله...

وثِق أن الله سيُبارك كل وقت، إن أعطيت الباكورة.



٣٠ / ٧ / ٢٠٠٧

شيطان التخدير
وشيطان التأجيل

حينما يكون الإنسان متيقظاً ومتنبهاً لنقاوة قلبه، صاحياً عقلاً وروحاً، فإنه من الصعب أن يسقط... ولذلك قال أحد الحكماء: "إن الخطيئة تسبقها إمّا الشهوة أو الغفلة أو النسيان" فحالة الغفلة والنسيان هى تخدير من الشيطان للإنسان... فينساق إلى الخطيئة وكأنه ليس في وعيه!! ولذلك في حالة التوبة يقال عنه إنه رجع إلى نفسه. أي أنه لم يكن في وعيه، أو على الأقل لم يكن في كامل وعيه طوال فترة سقوطه.

إن الشيطان يخدّر الإنسان، بحيث ينسى كل شيء، ماعدا محبته للخطية. فتكون كل حواسه وأفكاره ومشاعره مركّزة في الخطية وحدها. أما ما عداها فلا يخطر له على بال، وكأنه قد نسيه تماماً تماماً...

ينسى وصايا اللّه، وينسى مركزه الروحي والاجتماعي، وينسى عبادته واحتراسه، وينسى وعوده للّه وتعهداته ونذوره، وينسى ما يمكن أن تسببه الخطيئة من نتائج وأضرار وعار، وينسى عقوبات اللّه وانذارته. ويكون كأنه مخدر تماماً، لا يعي شيئاً سوى شهوته...

ولا يصحو لنفسه إلاّ بعد السقوط، حينما يكون كل شيء قد انتهى! وقد يفيق الشخص بعد الخطية مباشرة. وربما بعدها بمدة طويلة.. وهناك من يفيق من تخديره فيتوب، والبعض قد ييأس إن كان قد أفاق بعد فوات الفرصة!

وأنصحك يا أخي إن خدّرك الشيطان، أن تفيق بسرعة. واحذر أن تستمر مخدراً بالخطيئة إلى أن تصبح عادة، أو يصير من الصعب عليك أن تتخلص منها، أو تكون قد وصلت إلى نتائج سيئة جداً...

والنصيحة الثانية أن تستفيد درساً مما مرّ بك، فلا تتساهل مع الخطيئة، بل عليك أن تتوب توبة حقيقية وسريعة، وتغلق أمامك كل الأبواب التي أوصلتك إلى السقوط.

على أن شيطان التخدير إذا وجد أن فريسته قد أفاق من تخديره، وعزم على التوبة، يسلّمه بدوره إلى شيطان التأجيل، الذي يقول له: ولماذا هذا الإسراع؟! وأمامك فرص كثيرة للتمتع بالحياة، ليس من الحكمة أن ترفضها فتندم عليها! والأمر في يدك، يمكنك أن تتوب في أي وقت، ولو قبل الموت. ولاشك أن اللّه الكلي الرحمة يقبل التوبة في أي وقت كانت مهما تقدم بك العمر..! إذن لا داعي إلى الإسراع. ربما التريث يعطينا فرصة لفحص الأمر أكثر، أو لاختيار أسهل السبل للتخلّص مما نحن فيه...

والشيطان يلجأ إلى حيلة التأجيل، ليس فقط في مواجهة نية التوبة عند الإنسان، إنما في كل عمل خير ينوي أن يعمله.

والمقصود بالتأجيل هو إضاعة الحماس للعمل، أو إضاعة الفرصة، أو ترك الموضوع فترة فربما يُنسى أو يحدث ما يغطي عليه، أو تأتي مشغولية كبيرة تستحوذ على كل الاهتمامات والوقت، أو يحدث حادث يتسبب في التعطيل، أو يتعرض الإنسان لخطية تفتر بها حرارته الروحية فلا ينفذ ما قد أجّله...

لذلك لا تؤجل التوبة. فكثيرون من الذين أجّلوها، لم يتوبوا على الإطلاق، وزال تأثرهم الروحي وضاعت الفرصة منهم...

واعلم أن توالي تأجيل التوبة، قد يعني رفض التوبة. وقد يعني قساوة القلب، وإسكات الضمير المتحرّك داخلك، وأيضاً الهروب من اللّه الذي يدعوك إليه.

إن الفرصة حالياً في يدك، والحماس في قلبك. فلا تؤجل التوبة، ولا تؤجل الصلاة، ولا تؤجل أي عمل خير يتاح لك أن تقوم به من نحو غيرك. فهوذا سليمان الحكيم يقول "لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون في طاقة يدك أن تفعله" لا تقل لصاحبك "اذهب الآن وتعال غداً لأعطيك، وموجود عندك"...

واعلم أن "خير البِر عاجله" كما يقول المثل... والإسراع في عمل البر فضيلة، والتباطؤ فيه قد يسبب الندم.

كثير من الطلبة الذين أجّلوا مذاكرة دروسهم يوماً بعد يوم، تكاثرت عليهم، ووقعوا في اليأس، وبكوا في ساعة الامتحان... كذلك فإن المزارعين الذين أدركتهم الحسرة في موسم الحصاد، كانوا قد أجّلوا إلقاء البذار في وقت الغرس والزرع. وأيضاً الذين أجّلوا علاج مرض معين، قاسوا كثيراً حينما استفحل المرض وانتشر. وبعض الذين أجّلوا

المصالحة مع الأصدقاء أو الأزواج، كان من نتائج ذلك أن تعقدت الأمور وصار الصلح مستحيلاً..

قد يكون التأني في اتخاذ بعض القرارات حكمة، ولكنه في أحيان أخرى يكون خطأً وأحياناً يكون خطراً، ويكون مجرد حيلة في يد شيطان التأجيل ليفسد كل شيء... قال شاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

فأجابهم شاعر آخر بقوله:

وكم أخذ ببعض الناس بطؤهم   وكان خيراً لهم لو أنهم عجلوا

لذلك احترس من شيطان التأجيل، لئلاً يقودك شيئاً فشيئاً إلى الإهمال، ومنه إلى الضياع...

فإن ناداك الضمير، اسرع إلى الاستجابة. وإن حثك على عمل الخير، فلا تتوان ساعة ولا لحظة. وإن زحفت إلى طبعك عادة خاطئة، فلا تتباطأ في التخلُّص منها. وإن شاهدت شعلة تحرق، فلا تؤجل إطفاءها، لئلا تتحول إلى حريق مدمّر. وباستمرار احذر واحترس من شيطان التأجيل...



٢١ / ٧ / ٢٠٠٧

المال الحرام والسرقة

المال الحرام هو كل مال تحصل عليه، وهو ليس من حقك: كأن يكون ثمناً للخطية، أو قد وصل إليك بطريقة غير شرعية. والسرقة هى أحد بنود المال الحرام، ولكن معناه أوسع من السرقة. بكثير، ويشمل عناصر متعددة سنذكرها فيما بعد...

والسرقة هى خسة في نفس السارق وعدم أمانة... إنها تحطم شخصيته في نظر الناس، وتدعوهم إلى الاحتراس منه وإلى احتقاره وعدم الخلطة به... بل قد تجعل السارق ذاته حقيراً في عيني نفسه.

والسرقة قد تكون في الخفاء أو في العلن بإرادة المسروق أو بغير إرادته. ومن أمثلة حدوثها في الخفاء بدون علم المسروق ما يفعله المختلسون أو كسرقة مال شخصي في غيبته أو أثناء نومه. أما في العلن فمن أمثلتها ما تتم عن طريق الاحتيال أو الخداع أو التزوير. وفي هذه الحالة تكون برضى المسروق ولكن بغير علمه بحيلة السارق. وقد تحدث السرقة أيضاً علناً أمام بصر المسروق وتحت سمعه، ولكن بغير رضاه، كالاستيلاء على ماله بالقوة، بالقهر أو بالاغتصاب أو بالتهديد. وهذا ما يسمونه (السرقة بالإكراه) مثلما يفعل الخاطفون وقاطعو الطريق وقراصنة البحار. وهؤلاء تمتزج سرقتهم بالإيذاء.

والسرقة قد تكون أحياناً نوعاً من المرض النفسي، يحتاج إلى علاج لا إلى عقاب. وفي حالة هذا المرض، يلاحظ أن السارق قد يأخذ أشياء لا يحتاج إليها مطلقاً، أو لا يعرف كيف ينتفع بها. إنما يجد لذة في الاحتفاظ بها وفي أخذها من غيره. وربما يكون مدفوعاً إلى هذه السرقة المرضية بعوامل داخلية فوق إرادته، وهو يفعل هذا ولا يستطيع أن يقاوم نفسه..

عموماً فالمال الحرام الذي يحصل عليه السارق كفيل بأن يضيّع المال الحلال الذي كان موجوداً معه من قبل. وعلى رأى المثل: "المال الحرام يأخذ الحلال معه ويضيّعه". فالسرقة هى نار للسارق نفسه، تتلف ما معه. مثل إنسان تناول طعاماً تالفاً أو غير مقبول

الطعم أو عفناً. فما أن ينزل هذا الطعام إلى جوفه، حتى يتقيأ كل ما في داخله من جيد ورديء...

فما أجمل أن يعيش الناس معاً في جو من الأمانة من الثقة المتبادلة والاطمئنان، حيث يترك الإنسان أي شيء له في أي مكان، فيجده حيث هو. ويترك بيته مفتوحاً، فلا يأخذ أحد منه شيئاً... وإن نسى خطاباته أو أسراره في موضع، يكون مطمئناً أنه لن يسمح أحد لنفسه أن يطّلع على شيء منها...!

إن السرقة خطيئة تخجل من ذاتها، لذلك فإن تُقترف في الظلام، وصاحبها يشمئز منها ويتبرأ ويحاول أن ينفيها عن نفسه. ولهذا نقول: "إن سار شيطان السرقة في طريق، يقول له شيطان الكذب: خذني معك". فمن الصعب أن تجد سارقاً لا يكذب. فهو يكذب لكي يغطي سرقته وينكرها. وهو يكذب قبل السرقة وأثناءها. يكذب قبلها لكي يتمكّن من إتمامها، كما يفعل الخادعون، ويكذب أثناءها لكي تستمر أو لكي يخدع من يراقبه ومن يشك فيه. ويكذب بعدها لينجو من الخجل أو من العقوبة...

***

وتزداد خطية السرقة ثقلاً بعاملين: أحدهما مقدار الضرر الذي يحيق بالمسروق، وثانيهما شخصية المسروق ذاتها. فهناك من يسرق من الأفراد، ومن يسرق من الهيئات أو البنوك، ومن يسرق مال الدولة، ومن يسرق من بيت اللّه أو من حقوق اللّه المالية عليه.

والسرقة من الفقير والمحتاج لها بشاعتها، كمن ينهب مال اليتيم أو الأرملة، أو ما قاله شاعر عن بعض من جمعوا المال حراماً، أنهم:

خطفوه من فم الجوعان بل   من رضيع لم يوفّوه فطاما

وهنا لا تقاس ثقل السرقة بمقدار قيمة الشيء المسروق، وإنما بمقدار أهميته للشخص الذي سُرق منه... وقد لا تكون للشيء المسروق قيمة في ذاته، لكنه يمثل لصاحبه ذكرى عزيزة أو أهمية خاصة، بحيث أن فقده يحدث في قلبه ألماً عميقاً لأن من الصعب تعويضه!

والسرقة من إنسان محتاج تدل على انعدام الشفقة في قلب السارق. مثال ذلك من يأخذ ربا أو رهناً من شخص لا يجد قوته الضروري. فكأنه يسلبه طعامه وطعام أولاده. وهذا الفقير لولا عوزه، ما كان يلجأ إلى القرض أو الرهن. فهل يليق بدلاً من مساعدته، أن يقرضه الدائن بالربا؟! وهذا المال الزائد الذي يأخذه المرابي من الفقير غير الربا الذي تدفعه البنوك والمصارف التي تتاجر بمال المودعين عن طريق مشروعات اقتصادية تربح منها، ثم تشركهم في ربحها باعتبارهم شركاء في رأس المال.

على أن العكس قد يحدث بأن يسرق بعض المودعين من البنوك، بأن يأخذ قرضاً بالملايين ثم يهرب. وهناك أيضاً نوع آخر يسمي (بالقروض المعدومة)، له اسم القرض مع العجز التام عن الوفاء به، وهو كذلك سلب لمال الغير. وأصعب منه (إعلان الإفلاس) حيث يضيّع حقوق كثيرين، سواء كان إفلاساً حقيقياً أو حيلة مدبّرة...

أما السرقة من مال الدولة فتأتي بوسائل متعددة منها ما يقوم به البعض من حيل للإفلات من الضرائب أو من الجمارك، أو المطالبة بالإعفاء من رسوم معينة بدون وجه حق، أو استخدام عربات الدولة في تنقلات خاصة لا علاقة لها بالعمل، أو استخدام النفوذ في شراء أراضٍ أو أملاك للدولة بأبخس الأثمان، أو الحصول على رشوة للمساعدة في سلب بعض حقوق الدولة المالية. وتكون الرشوة هي من بنود المال الحرام...

هناك أنواع أخرى من السرقات ثم سرقة الأفكار والسرقات الأدبية، والتسخير، والسرقة في مجالات التجارة، وفي الفن، وفي القمار، مما سوف نعرض له في المقال المقبل، إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

٢٨ / ٧ / ٢٠٠٧

المال الحرام
في التجارة والمعاملات

تكلّمنا في المقال السابق عن المال الحرام في السرقة، واليوم نتكلّم عنه في مجال التجارة، حيث يرى البعض أنه لون من المهارة والفن للوصول إلى أكبر ربح ممكن... ومن أمثلته:

المال الحرام عن طريق الغش:

كأن يبيع أحدهم شيئاً به تلف على أنه شيء سليم، مستغلاً عدم اكتشاف الشاري للعيب الموجود في تلك البضاعة! ما أنبل البائع الذي بكل أمانة يكشف العيب الموجود في بضاعته وينبّه له المشتري. حينئذ سوف تسمو منزلته في أعين من يريد أن يشتري، ويثق به. ولكن قد يقول البعض عن هذا البائع إنه سوف لا يبيع. كلا، إنه سيبيع ولكن بثمن أقل يتناسب مع العيب الموجود في البضاعة. ولكنه مال حلال فيه بركة...

ومن الغشّ أيضاً أن يبيع التاجر شيئاً بغير اسمه. كأن يبيع حلى زائفة على أنها حقيقية، أو قطع آثار مغشوشة كما لو كانت أثرية.. وأمثال هذا الغش هو سرقة ممزوجة بالكذب، يزيدها بشاعة ما يحيطها به من فنون الدعاية.

ومن الغش الواضح الصريح غش المكاييل والمقاييس، وهو غش - لا في نوع البضاعة وجودتها - إنما في مقدارها وكميتها. ويكون الثمن الذي يتقاضاه من فارق الكمية هو مال حرام...

وأخطر ما في الغش عموماً هو الغش في الأدوية وبخاصة ما تتوقف عليه حياة الإنسان أو سلامته. وهذا النوع من الغش، يجب أن تشتد فيه عقوبة القوانين لكي تكون رادعة. لأن جريمته ليست مجرد المال الحرام، إنما الاستهانة بأعمار الناس أو سلامتهم.

***

هناك أيضاً مال حرام عن طريق الجشع ورفع الأسعار:

فرفع الأسعار بطريقة غير معقولة ولا مقبولة، يدخل في نطاق السرقة، لأنه ابتزاز لمال المشتري... إن اللّه يسمح للتاجر أن يربح في حدود المعقول. أما الربح الفاحش الذي يتضح فيه الجشع، فإنه خالٍ من الرحمة، وكله أنانية ولا يوجد دين أو عرف يقرّه...

وقد يحدث الابتزاز عن طريق **الاحتكار:** بأن يكون أحد التجار هو الصانع الوحيد، أو المستورد الوحيد لذلك الصنف، أو يكون المتعهد الوحيد لبيعه. وعندئذ يفرض أسعاراً باهظة، مُستغلاً حاجة المشترين. فينهب أموالهم، إذ يشترون منه وهم كارهون ومضطرون...

ومن أمثلة ذلك ما يسمونه **بالسوق السوداء.** وذلك بأن يخزن البائع عنده البضاعة حتى تنفذ من السوق، وقد يشتري هو ما تبقى منها، ويظل يخزّن إلى أن تخلو منها باقي الأماكن. عندئذ يكشف عن وجودها عنده، ويفرض سعراً خيالياً لبيعها. ويستغل احتياج المشترين لكي يبتز أموالهم. هذا التلاعب بالسوق مصدر للمال الحرام. وتكون الزيادة الفاحشة في السعر مالاً حراماً يدخل بيته فيتلفه...

ومما يدخل في التلاعب بالأسواق، ما يفعله التجار في المضاربات إذ يرفعون الأسعار تارة ويخفضونها تارة أخرى. وفي أثناء ذلك، يضيع كثير من التجار الصغار، وتبتز أموالهم لصالح المضاربين الكبار...

ومما يندمج تحت عنوان المال الحرام: **المشروعات الاقتصادية الوهمية** وكذلك الرحلات الوهمية إلى بلاد الغرب أو إلى بلاد الخليج العربي، حيث تجمع أموال الناس بألوان من الدعاية والإغراء والوعود المعسولة... ثم يكتشفون بعد كل ذلك إنها أنواع من النصب لسلب الأموال...

هناك مال حرام آخر يحصل عليه المشتري وليس البائع.

وذلك عن طريق التشدد الزائد في السعر، وبخاصة مع الباعة الفقراء. ففي بعض الأحيان يكون البائع الفقير محتاجاً إلى بيع بضاعته بأي ثمن كان: من أجل أن يحصل على قوته الضروري، أو من أجل علاج مرض أحد أقربائه، أو بسبب أية ضرورة ملزمة، فيضطر أن يبيع ما عنده سواء ربح أو خسر. وهنا يستغل المشتري حاجة البائع، فيفرض عليه ثمناً لا يتفق مطلقاً مع قيمة ما يشتريه منه. فيرضى ذلك بأن يبيع مضطراً.

ويكون ما ظلمه فيه المشتري هو مال حرام... أليس حقاً أن كثيراً من المساومات مع الباعة الفقراء تدل على قساوة قلب المشتري وجشعه؟! لذلك قيل أن: "الحسنة المُخفاة تكون في البيع والشراء"...

إن البائع الفقير يستحق صدقة منك، حتى دون أن تأخذ منه شيئاً. فلا أقل من أن تمنحه هذه الصدقة عن طريق الشراء بدون أن تجرح شعوره. وثق أن دعاء البائع الفقير لك هو اثمن من فارق السعر...

***

هناك أنواع أخرى من مصادر المال الحرام، منها **التسخير**، والأجر البخس. كأن يسخّر شخصاً إنساناً آخَر، لكي يعمل لأجله عملاً من غير أن يدفع له أجراً. أو أن يستأجره بأجر بخس دون الكفاف. ويكون بهذا قد سلبه أجرته، وسرق تعبه وعرقه. وينطبق هذا على كل الشركات والمصانع التي لا تعطي عمالها وموظفيها ما يكفيهم من الأجر لسداد تكاليف سكنهم وطعامهم وباقي مصروفاتهم ومصروفات أولادهم. ويكون جزء من الأرباح الكبيرة التي يحصل عليها أصحاب تلك الشركات والمصانع عبارة عن مال حرام مأخوذ من حقوق عمالها الفقراء...

كذلك يشمل هذا الأمر، **تعطيل الحقوق أو إضاعتها**، مثل تأخير علاوة موظف، أو تأخير ترقيته، أو حرمانه من أجر إضافي يستحقه... أو خصم جزء من مرتب الموظف كعقوبة بدون وجه حق.

ومن أمثلة المال الحرام، ما يفعله مأمور **ضرائب** غير عادل... فإنه إن قدّر ضرائب على إنسان أكثر مما يجب، ويكون قد سلب منه ماله مجاملة للدولة. وإن قدّر عليه ضرائب أقل مما يجب، يكون قد سلب الدولة مالها. مع أنه في الحالتين لا يكون قد أخذ شيئاً لنفسه...!

كذلك فإن **القمار** هو مصدر آخَر من المال الحرام. فإن ما يربحه شخص من آخَر عن طريق القمار، هو مال حرام قد أخذه بطريقة غير مشروعة. وكذلك من مصادر المال الحرام: الألعاب التي يخدعون بها الصبية والبسطاء، وتعتمد في السرقة على خفة اليد.

١ / ٩ / ٢٠٠٧

الشهوة
أنواعها وخطورتها

الشهوة هى أصل وبداية خطايا كثيرة. فالزنى يبدأ أولاً بشهوة الجسد. والسرقة تبدأ بشهوة الاقتناء أو شهوة المال. والكذب يبدأ بشهوة في تبرير الذات أو في تدبير شيء ما. والقتل يبدأ بشهوة الانتقام أو بشهوة أخرى تدفع إليه.. فإن حارب إنسان شهواته الخاطئة وانتصر عليها، يكون قد انتصر على خطايا عديدة.

هنا وتحضرني عبارة عميقة في معناها، قالها مرة الأستاذ مكرم عبيد، وهي: افرحوا لا لشهوة نلتموها، بل لشهوة أذللتموها.

من أكثر العيوب أن يُقال عن شخص ما إنه "شهواني" أي أنه يُقاد بواسطة شهواته، وليس بضميره أو عقله...

والشهوة إن بدأت، لا تستريح حتى تكمُل. ومادام الأمر هكذا، فالهروب منها أفضل. فلماذا تدخل معها في صراع أو في نقاش؟! إنك كلّما أعطيتها مكاناً في ذهنك، أو تهاونت معها واتصلت بها، حينئذ تقوى عليك، وتتحوّل من مرحلة الاتصال، إلى الانفعال، إلى الاشتعال، إلى الاكتمال. وتجد نفسك قد سقطت...

فتتدرج من التفكير فيها إلى التعلُّق بها، إلى الانقياد لها، إلى التنفيذ، إلى التكرار، إلى الاستعباد لها. وقد يلجأ الشخص إلى طرق خاطئة لتحقيق شهواته: إلى الكذب أو الخداع أو الاحتيال. وربما إلى أكثر من هذا...

وقد يظن البعض - إذا ما أرهقته أفكار شهوة ما - إنه إذا ما أكملها بالفعل، سيستريح من أفكارها الضاغطة!! كلا، فهذا خداع للنفس. فإن الشهوة لا يمكن أن تشبع... وكلما يمارس الإنسان الشهوة، يجد فيها لذة. واللذة تدعوه إلى إعادة الممارسة. والقصة لا تنتهي...

إن إشباع الشهوة لا ينقذ الإنسان منها، بل يزيدها...

إنسان مثلاً يشتهي المال. وكلّما يجمع مالاً يشتاق إلى مال أكثر. وموظف طموح يشتهي الترقي. فكلما يصل إلى درجة يشتهي درجة أعلى. ويعيش طول عمره في جحيم الشهوات التي لا تنتهي، ولا يشبعه شيء...

وصدق سليمان الحكيم حينما قال: "العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع. كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن"...

فلا تظن إذن أن الإشباع ينقذك من الشهوة. لأنه لا ينقذك منها سوى ضبط النفس، والهروب. سواء الشهوة التي تأتيك من الحواس أو من الفكر والقلب، أو التي تأتيك من الغير...

وقد يعالج الإنسان شهوة رديئة، بأن يجعل شهوة مقدسة تحل محلها. فالجسد يشتهي ضد الروح، والروح تشتهي ضد الجسد. الجسد قد يشتهي الخطية، والروح تشتهي حياة البر والفضيلة. فإن أشبعت الروح فيما تشتهيه، حينئذ تنجو من شهوات الجسد...

ما أجمل ما قاله أحد الروحيين عن التوبة: "إنها استبدال شهوة بشهوة". فبدلاً من شهوة الخطيئة، تحل محلها شهوة الفضيلة والقرب إلى اللّه. وأيضاً شهوة الكرامة والعظمة والعلو، يمكن أن تعالجها شهوة الاتضاع. وشهوة الضجيج تحل محلها محبة الهدوء. وهكذا دواليك.

من الأساطير التي تقال عن "بوذا" مؤسس الديانة البوذية: "إنه جلس في يوم ما تحت شجرة المعرفة. فعرف أن كل الناس يبحثون عن السعادة، وأن الذي يريد السعادة عليه أن يتخلّص من الشقاء. ووجد أن للشقاء سبب واحد، وهو وجود رغبة أو شهوة لم تتحقق. وهكذا علّم الناس أن يبتعدوا عن الشهوات والرغبات لكي يعيشوا سعداء...

على أن تعليم "بوذا" هذا، غير ممكن عملياً. لأنه من المستحيل أن يعيش إنسان بدون أية رغبة أو شهوة. إنما الحل المعقول أن تكون له رغبات وشهوات غير ضارة، أو هي تتفق مع وصايا اللّه...

ذلك لأن هناك شهوات مؤذية ومدمّرة. ولعل في أولها شهوة الشيطان في أن يدمّر حياة البر مع جميع الأبرار... وأعوانه يفعلون مثله...

إن الذي يدمن المخدرات، إنما بشهوة الإدمان يدمّر نفسه، وقد يؤذي غيره أيضاً. والذي يقع في شهوة الخمر والمسكر، بلا شك يدمّر معنوياته وكرامته. والذي تسيطر عليه

شهوة الزنى، يدمّر عفته وأخلاقياته، ويدمّر أيضاً من يُشاركه في الخطيئة أو من يكـون فريسة له...

وشهوة الحقد أيضاً شهوة مدمّرة، وكذلك شهوة الانتقام. وجميع الشهوات التـي يقـع فيها البشر، تدمّرهم خلقياً واجتماعياً. وإن لم يحسوا هـذا التـدمير علـى الأرض، فـإن شهواتهم ستدمّر مصيرهم الأبدي.

إن الشيطان حينما يقدم للإنسان شهوة تشبعه، فإنه لا يفعل ذلـك مجانـاً أو بـدون مقابل!! إنما في مقابل تلك الشهوة، يسلب روحياته منه، ويسلب إرادته، ويضيّع مسـتقبله في الأرض والسماء. لذلك علينا أن نهرب من شهواته ومن إغراءاته، واضعين في أذهاننا نتائجها وأضرارها.

والشهوات التي بها يضر الإنسان غيره، عليه أن يضع أمامه احترام حقوق الغيـر، وسمعته، وعفته. ويقول لنفسه: واجبي هو أن أنفع غيري. فإن لم أقدر على منفعته، فعلى الأقل لا أضره...

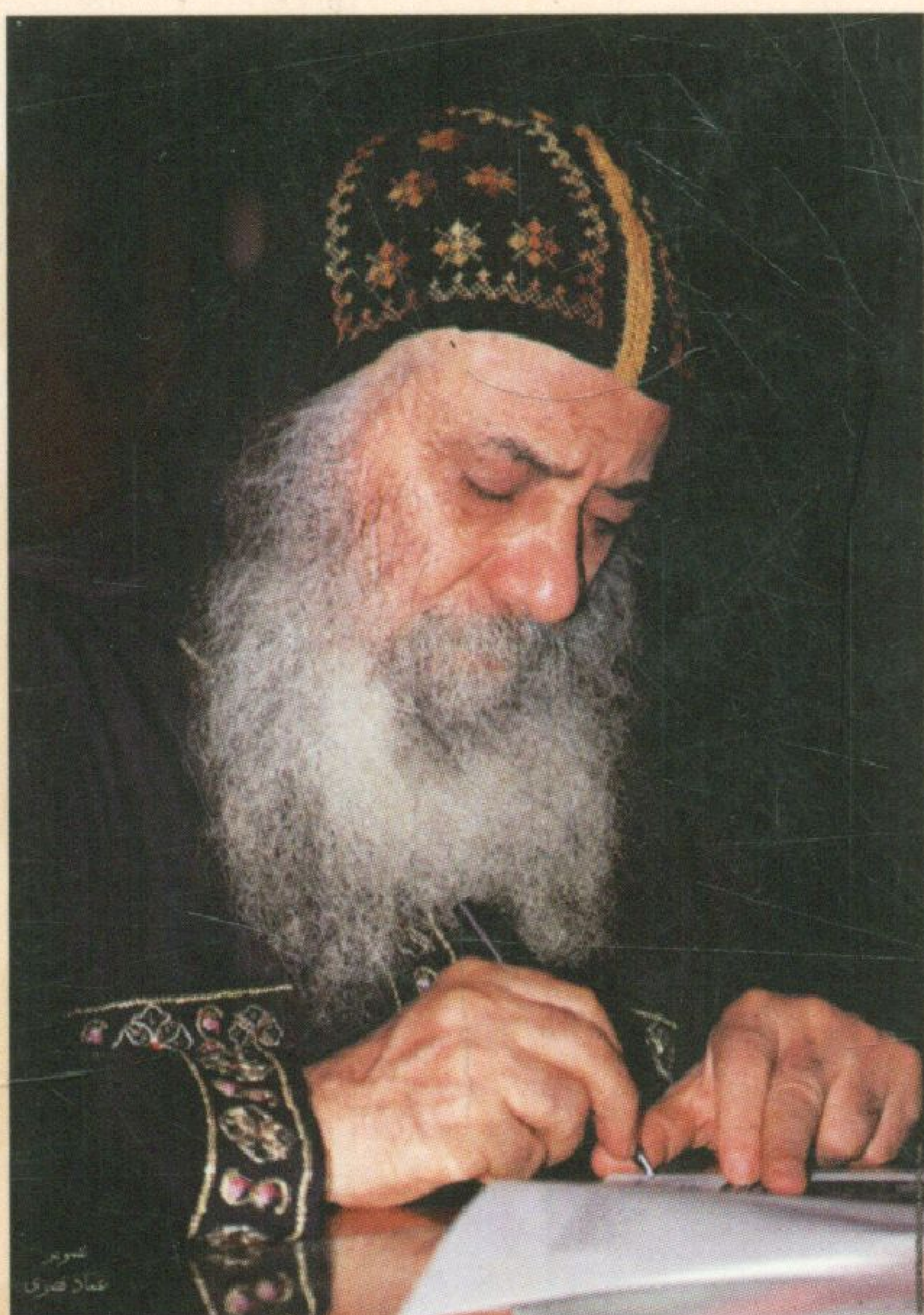
أما الشهوات التي يضر بها نفسه، فعليه أن يتمسّك بكل القيم والمثاليات، شـاعراً أن الخضوع لأية شهوة إنما هو ضعف لا يليق بمن يحترم شخصيته، ويرتفع بها عن مستوى الدنايا.

والشهوات الخاطئة ليس من نتائجها فقط أن يضر الإنسان نفسه، أو أن يضره غيره، إنما هى أيضاً تفصل الشخص عن الحياة مع اللّه، وتدفعه إلى كسر وصاياه. وهـذا أمـر خطير...

لذلك نصيحتي لك: اسلك ايجابياً في حياة النزاهة والعفّة. عالماً أن الإيجابيات تنجيك من السلبيات. وأيضاً اعرف ما هى المصادر التي تجلب لك الشـهوة بكافـة أنواعهـا، وتجنبها... فهذا أصلح بكثير من ترك الباب مفتوحاً فتدخل منه الشهوة، ثم تقاومها.

Ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ ⲛ̀ⲟⲣⲑⲟⲇⲟⲝⲟⲥ
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
Coptic Orthodox Patriarchate

The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى



إن عظماء الرجال الذين
سجل التاريخ أسماءهم، هم الذين
استغلوا وقتهم في بناء أنفسهم،
وفي بناء المجتمع الذي عاشوا فيه.

شنوده

جريدة "أخبار اليوم" فازت بـ ٩١ مقالة لقداسة البابا شنوده الثالث مُعلِّم الأجيال. كانت تُنشَر في كل سبتٍ، وبدأها في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥م، وكان آخِرها في ١ سبتمبر ٢٠٠٧م. وقد حرص قداسته على تقديم مقالات إلى الأخبار تُناسب نوعية قارئها الجريء.

وكانت "أخبار اليوم" تتفاخر بوجود مقالة قداسة البابا بين صفحاتها بكل ما تح... وحِكَمٍ ودروسٍ، استفاد منها قُرّاء "أخبار اليوم" في حينها.

ونحن نُعيد نشرها ليستفيد منها الجميع جيلاً بعد جيلٍ، فقداسته بحقٍ "ذهبي ... العشرين والحادي والعشرين.



Coptic Orthodox Cultural Center
Coptic Orthodox Patriarchate-Anba Rueiss.
222 Ramsis St, Abbassiya, Cairo, Egypt.
Phone: + (202) 2488 2530 - 2482 6163
Fax : + (202) 2685 5541
E-mail: info@copticocc.org

www.copticocc.org

المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي
الكاتدرائية المرقسية بالأنبا رويس
٢٢٢ ش رمسيس بالعباسية - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٥٣٠ ٢٤٨٨ - ٦١٦٣ ٢٤٨٢ (٠٢)
فاكس: ٥٥٤١ ٢٦٨٥ (٠٢)
البريد الإلكتروني: info@copticocc.org